لطفي عبد الوهاب يحيى
دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لندن
أستاذ تاريخ الحضارة في جامعة الإسكندرية
وجامعة بيروت العربية

العرب في العصور القديمة

مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر

العرب في العصور القديمة

العرب في العصور القديمة

مدخل حضاري في تاريخ العرب قبل الإسلام

لطفي عبد الوهاب يحيى
دكتوراه الفلسفة في التاريخ من جامعة لندن
أستاذ تاريخ الحضارة في جامعة الإسكندرية
وجامعة بيروت العربية

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص . ب ٧٤٩

الطبعـــة الاولى
١٩٧٨

الاهداء

إلى ذكرى استاذنا الدكتور عبد المنعم ابو بكر
تحية اجلال وعرفان لعالم كبير ورجل كبير

تقـــديم

لا أهدف من هذه الدراسة الى تقديم عرض شامل او مفصل لتاريـخ العرب في العصر السـابق للاسلام . وانما اردت ان تكون مدخلا حضاريا لهذا التاريخ يمكننا من فهمه في اطاره السليم ، لا كحشد من الاحداث والاسماء والاوضاع تسرد كمقدمة مطولة لعصر لاحق ، وانما ككيان تاريخي يمتد عبر ستة عشر قرنا في الحدود المعروفة لنا حتى الآن والتي تتسع من يوم الـى يوم كلما عثر المنقبون على اثر جديد او على مجموعة من النقوش ، وينتمي الى عصر له ابعاده المميزة ومقوماته وعلاقاتـه وتياراته التي تتفق وهـذه الابعاد .

وفي حدود هذا الاطار الحضاري سارت الدراسة في خطين متوازيين ومتلازمين . وفيـما يخص الخط الاول حاولـت ان اجيب على عدد مـن التساؤلات التـي لم تطرح حتى الآن ، او التي طرحـت كنـوع من الترف الفكري او الاستكمال الشكلي للموضوع ، الذي يكتفي بالتعريف بالمسائل او بمناقشتها دون ان يوضح موقعها من تاريخ المنطقة ووقعها عليه . وفي هذا الصدد كانت التساؤلات الرئيسية التي طرقتها هي : اين تقف شبهالجزيرة العربية من المسار الحضاري الذي عرفه العالم في العصور القديمة ، ما هو الاثر الذي تركته الظروف الطبيعية للمنطقة على مواردها الاقتصادية وعلى تكويناتها السياسية واوضاعها الاجتماعية والدينية ، ثم متى ظهرت هويـة العرب في المجال الدولي وما هو الشكل الذي اتخذته هذه الهوية وسط قوى الشرق والغرب المتصارعة في العالم القديم .

أما الخط الآخر فهو يخص مصادر الدراسة . وقد هدفت هنـا الى نقل تاريخ العرب قبل الاسلام الى دائرة الاعتماد على المصادر الجادة الوحيدة

التي يمكن ان نعتمد عليها بشكل علمي ، وهي المصادر المعاصرة لهذا التاريخ. وهكذا بدات بترك ما خلفه لنا كتاب العصر الاسلامي فيما عدا استثناءات قليلة ذكرتها في موضعها . فهؤلاء الكتاب كانوا بكل بساطة يكتبون عن عصر بدأ قبل وقتهم بألف وسبعمائة سنة على الاقل ، كما انهم نحوا فيما كتبوه منحى « القصاص وجروا على اساليبهم ولم يلتزموا فيها الصحة ولا ضمنوا لنا الوثوق بها » على حد تعبير واحد من هؤلاء الكتاب انفسهم وهو ابن خلدون ، ومن ثم « فلا ينبغي التعوّل عليها وتترك وشأنها » حسب حكم الكاتب نفسه . وفي هذا المجال فقد اعتمدت على ما وصل الى ايدينا ، وهو كثير ، من الآثار والنقوش والكتابات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) التي عاصر كتابها ما كانوا يكتبون عنه . كما حاولت ان احسم مسألة الانتفاع العلمي الكامل بمصدرين معاصرين اساسيين ، فطرحت للمناقشة قيمة الاعتماد على الشعر الجاهلي كمصدر تاريخي والى اي حد يجوز لنا اعتماد ذلك ، كما حاولت ان ابين كيفية الاعتماد على آيات القرآن الكريم بشكل علمي لا يزال الانتفاع به حتى الآن اقل من القليل .

وتبقى في نهاية الحديث كلمة شكر اوجهها الى عدد من الذين اسهموا في ظهور هذه الدراسة في شكلها الحالي ، فقد شارك تلميذي وزميلي الدكتور ابراهيم بيضون في صياغة عنوان الدراسة بما يتطابق مع مضمونها ، كما قام الاستاذ امين منيمنة برسم الخرائط اللازمة لها وإن كان ما جاء بها من تحديد تقريبي للمواضع قد لا يتفق مع الدقة الجغرافية هو من تسجيل الباحث وعليه تقع مسؤوليته . اما عن دار النهضة العربية التي نشرت هذه الدراسة فلها كل التقدير على ما ابداه كل افرادها من سعة صدر في الالتزام بمتطلباتي التي كثيرا ما وصلت الى درجة الارهاق . واخيرا ، وليس آخرا فهناك دائما زوجتي التي ساندت وساعدت وعانت في سبيل اخراج هذه الدراسة ربما اكثر مما بذلت في كتابتها .

ل. ع. ي

بيروت في

٢٢ مايو ـ ايار ١٩٧٨

المحتوى

الباب الثالث :

القسم الثاني

المصادر

الباب الرابع :

الباب الخامس :

الباب السادس :

الباب السابع :

القسم الثالث

المجتمع

الباب الثامن :

الباب التاسع :

الباب العاشر :

القسم الأول

الباب الاول : المنطقة والشعب والارض

الباب الثاني : الساميون والعرب وشبه الجزيرة

الباب الثالث : الملامح الطبيعية

الباب الأول

منطقة نشوء الحضارات وشبه جزيرة العرب

١ ـ ابعاد منطقة نشوء الحضارات :

أ ـ تحديد المنطقة

الحديث عن الحضارات القديمة لا يزال يشكل مجالاً خصباً لكثير من المناقشات وكثير من التكهنات . سواء من حيث المناطق التي ظهرت فيها هذه الحضارات أو من حيث توقيت ظهورها ومن ثم السبق الزمني لكلّ منها ، فالكتابات التاريخية القديمة التي حاول أصحابها أن يقوموا بالتعريف بهذه الحضارات بشكل جدّي لم تظهر إلاّ في فترة متأخرة من العصور القديمة ، ومن ثمّ فإن القدر الأكبر من تاريخ هذه الحضارات لم يعاصره المؤرخون القدماء . وكانت سبيلهم الوحيدة إلى التعرف إليه هي ما استطاعوا أن يحصلوا عليه من أخبار المجتمعات القديمة عن طريق الرواية أو عن طريق المعلومات المتناثرة التي كانت تتأرجح بشكل غير محدّد بين الحقيقة والمبالغة والأسطورة . كذلك لم تكن كتابة التاريخ تمارس آنذاك على أساس علمي كما هو الحال في الوقت الحاضر ، ومن ثم فإن المؤرخ القديم لم يكن في مقدوره دائماً أن يقوم بتحقيق المعلومات التي يجمعها ، بل إنّه في أغلب الأحوال لم يكن يرى من الضروري أساساً أن يقوم بمثل هذا التحقيق ليميّز بين ما هو حقيقي وما هو

غير حقيقي . هذا إلى أنّ هؤلاء المؤرخين القدماء لم يتناولوا في كتاباتهم إلاّ أماكن أو مناطق محدودة ، هي التي أثارت انتباههم لسبب أو لآخر ، أو هي التي استطاعوا أن يصلوا إليها أو يسمعوا عنها – ومن هنا فإنّ هذه الكتابات ، حتى إذا تغاضينا عمّا جاء فيها من عيوب في جمع المعلومات أو تدوينها . لا يمكن أن ننظر إليها على أنها حصر لكافّة الحضارات التي ظهرت في العصور القديمة أو لترتيبها الزمني .

فإذا انتقلنا إلى علم الآثار الذي يعنى بالتنقيب عن المخلفات القديمة وكشفها وتفسير مدلولاتها ، نجد أنّ هذا العلم لم يبدأ إلاّ منذ فترة وجيزة نسبياً لا تزيد في عمومها عن قرن ونصف القرن . وفي هذا المجال فإننا إذا تغاضينا عن مجهودات الهواة أو المجهودات الاستطلاعية الفردية أو شبه الفردية . فإننا نجد أنّ التنقيبات الأثرية التي قامت على أساس منظم ومنتظم تدعمه الإمكانات العلمية والماديّة لم يبدأ في مصر . على سبيل المثال . إلاّ في أواسط القرن الماضي . ولم يبدأ في العراق إلاّ في أواخره . ولم يبدأ في شبه الجزيرة العربية إلاّ في أواسط القرن الحالي . وهكذا نجد أنفسنا ، مرة أخرى . بعيدين عن ادعاء المعرفة اليقينية بكل الحضارات السالفة أو بالتوقيت الدقيق لظهور ما نعرفه من بينها . وما أكثر ما يؤدّي كشف أثري في منطقة أو في أخرى إلى تعديل في تواريخ ظهور الحضارات القديمة قد يصل إلى عدّة قرون . أو إلى تسبيق ظهور حضارة على حضارة يؤدي إلى تعديل جذري في ترتيب كان معترفاً به . بكلّ ما يستتبعه هذا من تغيير في الأبعاد الحضارية من حيث التأثر والتأثير والتأصيل والتفصيل في الجوانب المتعدّدة التي تتشكّل من مجموعها ومن تداخلاتها وتفاعلاتها هذه الحضارات .

ومن هنا فمن المرجّح . أو على الأقل من المحتمل . أن هناك حضارات أخرى وجدت في فترة أو أخرى من العصور القديمة . غير تلك الحضارات التي وصل إلينا العلم بها . ولكنها لم تكتشف إلاّ في حدود ضيقة أو لم تكشف

إطلاقاً حتى الآن . وربما كانت هذه الحضارات التي نجهلها أو نجهل أغلب مراحل تطوّرها ، محلية في طبيعتها ، وربما أثرت في الحضارات التي نعرف عنها ما يمكّننا من تتبع تطوّرها وتسجيل صورة عامة أو متكاملة لها. ومن بين المناطق التي تدخل ضمن هذا الإطار ، على سبيل المثال ، المنطقة الممتدة في أواسط القارة الآسيوية التي شهدت منذ فترة موغلة في القدم قبل بداية التاريخ المعروف حتى الآن إنجازات حضارية في مجال زراعة الحبوب وتدجين الحيوانات واستخدام المعادن وزخرفة الأواني الفخارية. وهي منطقة آناو Anau في جنوبي تركستان ، التي كشف العالم الأثري بمبللي Pumpelli في ١٩٠٧ عن مخلفات أثرية تثبت وجود هذه الإنجازات بها منذ بدايات الألف الخامسة ق . م . على أقلّ تقدير . وهي إنجازات تشير إلى أنّ بدايات التطوّر الحضاري الذي وصل بها إلى هذه المرحلة الحضارية يرجع إلى تاريخ أقدم من هذا بكثير [١] ولكن هذه المنطقة شهدت تغيّراً مناخياً بدأ فيه الجفاف يزحف عليها بعد أن كانت منطقة أمطار غزيرة تكفي للزراعة والرّعي والاستقرار . وعلى أثر هذا الجفاف بدأت الهجرة منها إلى كلّ الجهات تقريباً ،ومن ثمّ بدأ اختفاء المظاهر الحضارية فيها . ومن بين ما يذكر ضمن هذا الإطار كذلك شذرات عن حضارة قارة أطلانطيس Atlantis التي يتلمس الباحثون شيئاً عن وجودها في حقبة من حقب الماضي السحيق قبل أن تهبط ، في حدود الافتراض العلميّ السائد الآن ، لتستقرّ في قاع المحيط الأطلسي من شماليّ هذا المحيط إلى جنوبيه [٢] ، نتيجة لتحركات جيولوجية ، وغير هذه الأحاديث أحاديث

(١) Cambridge Ancient History (C A H)، ط ٣، ج ١ ، القسم الاول(١٩٧٠) صفحات ١٦٩ ، ٢٥٣ ، ٢٩٨ – ٣٠٣ ، ٤٦٠–٤٦١ . وقد وجدت مخلفات اثرية في بعض مناطق ايران قريبة في أوصافها من تلك التي وجدت في آناو لدرجة توحى بصلات حضارية بين المنطقتين في فجر الحضارة (حوالي ٤٠٠٠ ق.م.) . قارن المرجع ذاته : صفحات ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) أول اشارة وردت في هذا الصدد نجدها عند افلاطون (حوالي٤٢٩ – ٣٤٧ ق.م.) في محاورات : Kritias, 113 و Timaeos 25 وتدور حول=

أخرى يرد بعضها ، نتيجة لروايات متواترة أو لبقايا أثرية لا تزال قائمة ، عن دول وحضارات قديمة سادت في مجموعة جزر بولينيزية بالمحيط الهادي ، ثم بادت في وقت من الأوقات [٣] .

وفي ضوء هذه الاعتبارات السابقة فإنّ أيّ تحديد للمنطقة التي نشأت فيها أولى الحضارات القديمة لا يمكن ، بالضرورة . إلا أن يكون تحديداً نسبيّاً . ومن منطلق هذا التحديد النسبي لنا أن نفترض أن منطقة نشوء الحضارات هي تلك المنطقة التي ظهرت فيها حتى الآن أقدم الحضارات التي عرفنا عنها شيئاً متكاملاً أو قريباً من التكامل من جهة . والتي كان لها . من جهة أخرى . حتى بعد أن اضمحلّت وسقطت ، تأثير مستمرّ على الحضارات التالية لها لتترك بذلك طابعها . بشكل مباشر أو غير مبـــاشر . على المسيرة الحضارية التي نعيش الآن أحدث مراحلها .

وفي حدود هذا الإطار فإنّ مجموعة الحضارات القديمة المتكاملة والمؤثرة بالشكل الذي ذكرته تقع ضمن منطقة حدودها الجغرافية هي خطوط الطول من ١٠ إلى ٧٠ شرقاً . وخطوط العرض من ١٠ إلى ٤٥ شمالاً . وتشمل من

= حضارة قديمة ظهرت في جزيرة تخيلها افلاطون(او بالاحرى سمع بهامن الاساطير المتواترة في عصره) قرب الشواطىء الغربية لاوروبة وافريقيـة ثم هبطت في قاع المحيط .

(٣) الظواهر الموجودة في بعض هذه الجزر . مثل التماثيل البالغـة الضخامة في « جزيرة الفصح » Easter Island ، وعدد من القصص الشعبية التي تواترت عن طريق الرواية لتصف عهدا كان فيه محاربون من الابطال وامم قوية في جزيرتي « ساموا » Samoa و «تاهيتي» Tahiti والمقدرة الفنية والحساسية الشعرية عند السكان الحاليين لهذه الجزر ، كلها توحي بأننا لسنا بصدد حضارة جديدة في طريق الصعود بقدر ما نحن بصدد حضارة قديمة كانت موجودة ثم اندثرت : راجع :

Will Durant : The Story of Civilization ج ١ ، ط ٢٢) ١٩٥٤ (NewY ork ، ص ١٨٧.

الشرق إلى الغرب (بغضّ النظر عن الترتيب الزمني لظهور هذه الحضارات) : إيران ووادي الرافدين وآسيه الصغرى وسورية (بالمعنى الجغرافي الذي يشمل المنطقة الممتدة من حدود آسيه الصغرى شمالاً إلى حدود مصر عند الحدّ الشرقي لشبه جزيرة سيناء جنوباً) وبعض مناطق شبه جزيرة العرب — هذا في القارة الآسيوية ، ثم مصر في آسية وإفريقيه ، ثم قرطاجه في إفريقية ، ثم بلاد اليونان وشبه جزيرة إيطاليه وسواحل شبه جزيرة أيبريه (اسبانيه والبرتغال في الوقت الحالي) في القارة الأوربية ، ثم عدد من الجزر الواقعة في البحر المتوسط أهمّها جزيرة كريت (٤)

ب ـ المنجزات الحضارية الاولى وهذه المنطقة

في هذه المنطقة (والحديث هنا هو عن العصور القديمة) ظهرت المنجزات الحضارية الأولى للإنسان، ففي مجال تنظيم المجتمع ظهرت أول مجموعة قانونية متكاملة تنظّم القيم الجماعية والعرف والتقاليد والسوابق وتغطّي ثغراتها . في وادي الرافدين على زمن حمورابي (ثم بشكل متطوّر في فترة متأخرة عند الرومان) . وفي مجال العقائد الدينية ظهرت فكرة التوحيد لأول مرّة على يد اخناتون في مصر . كذلك ظهرت أولى الرسالات السماوية في سورية (ليعقبها ظهور الرسالتين السماويتين الأخريين مرة في سورية ومرة في شبه الجزيرة العربية) . وفي مجال العلوم شهدت المنطقة أولى المحاولات لتحويل المعرفة القائمة على التجربة أو الخبرة إلى نسق علمي في ميادين الفلك والرياضة ، لتتطور بعد ذلك إلى نظريات علمية متكاملة عند اليونان . وفي مجال الهندسة المعمارية ظهرت أولى السدود المستخدمة في التحكم في المياه وتخزينها في وادي الرافدين واليمن . كما ظهرت أولى معجزات البناء الذي ترتكز فيه عشرات الآلاف من أطنان الحجر على سقف غرفة صغيرة في أهرام مصر . والشيء

---

(٤) راجع ملحق الخرائط ، خريطة رقم ١ .

ذاته ينطبق على تحويل الصور المستخدمة للتعبير كتابياً عن الأسماء والأشياء إلى قيم صوتية ، ومن ثم إلى أول حروف هجائية يعرفها العالم—توصّل إليها المصريون في البداية وإن كانوا لم يضمّنوها حروف الحركة (حروف العلّة) كما استبقوا في آخر كل كلمة مكتوبة بالحروف الهجائية علامة تخصيص أو تمييز بالطريقة التصويرية القديمة ، ثم نقلها الفينيقيون بوضعها الذي لا تظهر فيه حروف الحركة ولكنهم طوروها بتنقيتها من علاقات التخصيص التصويرية فأصبحت حروفاً هجائية صرفة ، ثم نقلوها إلى اليونان الذين استكملوها بزيادة حروف الحركة إليها . وأخيراً ، وليس آخراً ، فقد كانت منطقة نشوء الحضارات التي نتحدث عنها هي المنطقة التي عرفت تطوّر النظم والنظريات السياسية في شكلها الناضج من بداياتها الفردية التي تقوم على المساندة الإلهية أو الحقّ الإلهي للحاكم حتى وصلت عند اليونان إلى أوسع مراحل هذه النظم والنظريات شعبية ، وهي مرحلة الديمقراطية (٥) .

---

(٥) راجع النص الكامل لتشريعات حمورابي في :
J. B. Pritchard (ed.) : Ancient Near Eastern Texts, Reluting to the Old Testament (ANET), (ط ٢ ١٩٦٦ Princeton
صفحات ١٦٣ــ١٧٩ ، ترجم النص الاكدي الى الانكليزية Theophile Meek
هذا وقد سبقت هذه المجموعة مجموعات تشريعية اخرى في وادي الرافدين كذلك ولكنها لم تكن متكاملة ، مثل مجموعة ليبيت عشتار Lippit - Ishtar ومجموعة ايشنونه Eshnuna ، المرجع ذاته : صفحات ١٥٩-١٦٢ . فيما يخص المجموعات التشريعية في القانـــون الروماني ، راجع ، على سبيل المثال ، مجموعة جستنيان ، ويجد القارىء ترجمة انجليزية لهذه المجموعة هي :
I. B. Moyle : The Institutes of Justinian ، ط ٥ (Oxford ١٩١٣)
ويجد القارىء العربي ترجمة لها (عــن الفرنسية) قام بها عبد العزيز فهمي : « مدونة جوستنيان » ، دار الكاتب المصري ، القاهرة ١٩٤٦ . ثم « ملاحق مدونة جوستنيان ». مطبعة جامعة فؤاد الاول (القاهرة حاليــا) ١٩٥١ . فيما يخص فكرة التوحيد عنـد اخناتون راجع ، Cyril Aldred : Akhenaten ، طبعة ABASCUS (London ١٩٧٢) ، صفحات ١٢٣ ــ ١٤١ . عن ظهور الحروف الهجائية في مصر وانتقالها =

ولم تكن هذه المنجزات مجرّد نشاط حضاري ظهر وانقرض في الحدود المحلية للمنطقة . وإنما كانت منجزات أثرت في غيرها من المناطق واستمر تأثيرها كأساس للتطوّر الحضاري فيما بعد ، فعن منطقة الشرق الأدنى أخذ اليونان دروسهم الأولى وطوروها ، ثم أعادوها للشرق الأدنى في أعقاب فتوح الاسكندر كما صدروها للرومان ، وعمّمها هؤلاء في الإمبراطورية الرومانية التي شملت كل حوض البحر المتوسط وجزءاً من منطقة الشرق الأدنى . وعن هذا التراث كلّه أخذ العرب بعد ظهور الدعوة الإسلامية والفتوح العربية التي أعقبتها وطوّرها وأضافوا إليها . وعنهم وعمّا تبقّى من التراث اليوناني الروماني أخذت أوروبه في عصر النهضة أو عصر الإحياء (القرن السادس عشر الميلادي) . وفي بدايات العصر الحديث . لتطوّرها بدورها وتنشرها في العالم الحديث بما فيه الوطن العربي ، ليستردّ بذلك جزءاً من تراثه القديم في صورته المتطوّرة الحديثة .

ج ــ المقارنة الحضارية بين هذه المنطقة والمناطق الاخرى

هذه المنطقة التي اصطلحنا على تسميتها منطقة نشوء الحضارات . مرة أخرى في حدود ما تمّ اكتشافه حتّى الآن من الحضارات القديمة ، كانت . كما رأينا . منطقة الحضارات القديمة المؤثرة التي أسهمت في التطور الحضاري المستمر . ونحن نستطيع أن ندرك هذا بشكل واضح إذا ألقينا نظرة مقارنة

= الى الفينيقيين الذين طوروها راجع :
S.R.K. Glanville (ed.) : The Legacy of Egypt (Oxford, ١٩٦٣)
صفحات ٥٣ ــ٦٤ ، مقال بقلم Alan A. Gardiner تحت عنوان : Writing and Literature عن النظريات السياسية اليونانية راجع ، على سبيل المثال ، افلاطون في محاورات «الدولة» Politeia و « رجل الدولة » Politikos ، وارسطو في « السياسة » Politika عن النظام السياسي الشعبي عند اليونان راجع ، على سبيل المثال : Paul Cloché : La Democratie Athéniènne Paris . ١٩٥٢)

سريعة على بقية المناطق الموجودة في العالم القديم . ففي المنطقة الواقعة إلى شمالي هذه المنطقة ، نجد بقية القارة الأوروبية والجزر البريطانية ، وهي منطقة لم تدخل على مسرح التاريخ الحضاري إلاّ بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية ابتداء من القرن الخامس الميلادي . وحتّى بعد ذلك فقد ظلّت حتّى عصر النهضة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي في شبه انغلاق مظلم على نفسها ، بينما ظلّت الجزر البريطانية في انعزالها الحضاري حتّى أوائل العصر الحديث . والسبب في ذلك هو سلسلة الحواجز الجلية التي تمتد إلى جنوبي هذه المنطقة وتكاد تفصل بينها وبين حوض البحر المتوسط في حاجز يكاد يكون مستمراً من غربي أوروبه إلى شرقيها والتي تشكل سياجاً طبيعياً مانعاً أو شبه مانع . إذا استثنينا بعض الفجوات أو الممرات التي لا تسمح بأكثر من تسرّب حضاري ضئيل وبطيء ، ومن ثم غير مؤثّر في الأحوال العادية . وإذا كان الرومان قد انطلقوا من خلاله في أواخر العصور القديمة إلى غاله (فرنسه الحالية) وإلى بريطانيه ، فإنّ انطلاقهم كان في حالة غاله لا يشكّل إلاّ حركة تأمين لحدود الإمبراطورية الرومانية ضدّ القبائل الكلتية المتبربرة الموجودة في هذه المنطقة . ولا يشكّل في حالة بريطانيه أكثر من فضول استعماري — وفي كلتا الحالين لم يترك أكثر من بعض الآثار اللغوية في المنطقتين . وباستثناء ذلك فقد بقيت المنطقة الأوروبية الواقعة إلى شمالي منطقة نشوء الحضارات طوال العصر القديم مغلقة على نفسها . ومن ثم منعدمة التأثير من الناحية الحضارية .

والشيء ذاته نجده في المنطقة الواقعة إلى جنوبي منطقة نشوء الحضارات والتي يسكنها العنصر الأسود أو الزنجي إلى الجنوب من الصحراء الكبرى التي تمتد عبر القارة الإفريقية من غربها إلى شرقيها . إذ لم تكن هناك طريق لاتصال هذا العنصر بمنطقة نشوء الحضارات إلاّ نهر النيل والوادي الضيّق الذي يحدّه من الشرق والغرب . ولكن هذه الطريق لم تكن تساعد على أكثر من التسرّب البسيط المتقطّع لسببين : أولهما أن النيل . كوسيلة للمواصلات . تعترضه

من شمالي السودان وحتّى الطرف الجنوبي لمصر مجموعة من الجنادل والشلالات التي تقف حاجزاً في سبيل الملاحة النهرية . والثاني هو انحسار الوادي في أقصى جنوب مصر بحيث تكاد الصحراء تلتصق بمجرى النهر ممّا يحول دون أي نزوح أو اتصال بشريّ وحضاريّ على نطاق واسع . وهكذا فإنّ هذا الجنوب الزنجي ، إذا كانت له منجزات حضارية قديمة ، فإنها بقيت مغلقة في أرجائه دون أن تجد سبيلها للانتشار وللتأثير في استمرار التطوّر الحضاري [٦].

ونأتي أخيراً إلى المنطقة المترامية الواقعة إلى الشرق من منطقة نشوء الحضارات والتي يقطن أغلبها الجنس الأصفر أو العنصر المغولي . إن هذه المنطقة لم تظهر فيها الحضارة إلاّ في وقت متأخر كانت فيه حضارات الشرق الأدنى (وهو جزء من منطقة نشوء الحضارات) قد وصلت إلى درجة كبيرة من التقدّم . ففي الصين مثلاً ، التي كان يعتقد خطأً أنها ذات حضارة بالغة في القدم ، نجد أن أوّل قطعة معدنية تشير إلى استخدام الصينيين للمعادن ترجع إلى القرن الثاني عشر (١٢٠٠) ق . م . أي بعد استخدام المعادن في مصر بنحو ثلاثة آلاف سنة على الأقل ، وبعد استخدامها في غربي آسيه بأكثر من ذلك . أما عن الكتابة ، فإن أقدم وثيقة مكتوبة باللغة الصينية عثر عليها حتى الآن ترجع إلى القرن الحادي عشر ق . م . أو إلى القرن الذي يسبقه على أكثر تقدير . أي بعد ١٠٠٠ سنة من ظهور الكتابة في منطقة الشرق الأدنى . وفوق هذا فإنّ قبائل الجنس الأصفر ، التي حملتها هجراتها في اتجاهات متعدّدة بسبب الجفاف والقحط الذي كان دائم الزحف على امتدادات وسط آسيه ، حين وصلت عن طريق هذه الهجرات إلى منطقة نشوء الحضارات ، كانت الإنجازات الحضارية قد وصلت في هذه المنطقة إلى ذروة نضجها [٧] .

---

(٦) J.B. Breasted : Ancient Times, Ahistory of the Early World
ص ١٣٣ . ط ٢ (Boston , ١٩٤٤)

(٧) المؤلف ذاته : المرجع ذاته : صفحات ١٣٢ ــ ١٣٣ .

٢ ـ اسباب نشاة الحضارات الاولى في هذه المنطقة :

المنطقة التي نحن بصدد الحديث عنها ، إذن ، والتي أطلقنا عليها ، اصطلاحاً ، اسم منطقة نشوء الحضارات كانت ، كما رأينا ، أسبق من غيرها في ظهور الإنجازات الحضارية الأولى – مرة أخرى في حدود ما نعرفه من الحضارات القديمة حتى الآن . ولكن ما هي الظروف التي اختصت هذه المنطقة دون غيرها بالسبق الحضاري ؟ هل هي الصدفة التاريخية ؟ إن الصدفة التاريخية قد تلعب في أحيان غير قليلة دوراً كبيراً في تحويل مسار الحضارة البشرية ، وهو أمر من الطبيعي أن يسوقنا إلى التساؤل عمّا إذا كانت كذلك قد لعبت دوراً في ظهور الحضارة البشرية . ولكن مع ذلك فالحديث عن عامل الصدفة حديث لا يمكن ضبطه أو تقنينه – ومن ثمّ ، فرغم كونه وارداً من حيث الاحتمال ، إلاّ أن الخوض فيه يصبح من قبيل الحديث عن الغيبيات التي يمكن أن تؤدّي بنا إلى آفاق مجهولة .

كذلك هل نستطيع أن نعزو السبق الحضاري لمنطقة نشوء الحضارات إلى أسباب تتعلق بالتفوّق العنصري للسكان الذين قطنوا هذه المنطقة منذ أقدم العصور البشرية ؟ إن أحدث البحوث الانثروبولوجيه (المتعلقة بعلم الإنسان) قد أثبتت أن التفوّق العنصري ، فضلاً عن النقاء العنصري أصلاً ، خرافة لا تقوم على أسس علمية (٨) . هذا ، فضلاً عن أن استقراء الواقع التاريخي منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، يثبت بشكل قاطع أن الإنجاز الحضاري لم يكن حكراً على عنصر بشري دون غيره من العناصر – ومن ثم يصبح الخوض في الحديث عن التفوّق العنصري ، هو الآخر ، أمراً لا يرتكز على أسس علمية يمكن أن نثق بنتائجها .

هل هناك أسباب أخرى لهذا السبق الحضاري الذي تميزت به المنطقة ؟

---

(٨) خوان كوماس (ترجمة محمد رياض) : القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٦٣ .

ربما كانت هناك أسباب متعدّدة . ولكن يوجد على الأقل سبب واحد لا يمكن أن نتجاهل أثره على المجموعات البشرية ، وهذا السبب يكمن في ظروف البيئة الجغرافية في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها . وظروف البيئة أمر أثبت البحث العلمي أثره الفعال على المجموعات البشرية في كل العصور ، وبخاصّة في العصور القديمة التي لم يكن فيها الإنسان قد سيطر بعد على الطبيعة بالشكل الذي عرفه في العصور التالية والذي نعرفه الآن . ومن ثمّ كان أكثر تأثراً وانطباعاً بهذه الظروف ، فإمّا أن تكون ظروف البيئة مواتية للنشاط البشري فيكون هناك انطلاق وإنجاز . وإمّا ألاّ تكون مواتية فيكون هناك تقييد وجمود. وقد كان هناك أكثر من ظرف جغرافي ترك أثره بشكل واضح على منطقة نشوء الحضارات .

أ ـ ظرف المنـاخ

وقد كان المناخ أحد الظروف الجغرافية الرئيسية التي أثرت على المنطقة ـ وكان المناخ الذي سادها مواتياً للنشاط البشري بشكل ملحوظ . ونحن نستطيع أن ندرك ذلك بصورة واضحة إذا عرفنا أنّ الخطوات الأولى التي خطاها الإنسان على طريق الحضارة في العصر الحجري القديم . وهو أول العصور الحضارية للمجموعات البشرية . قد عاصرت الدهر البليستوسيني ، وهو أحدث الدهور الجيولوجية في تاريخ الأرض . وكان ابتداوه منذ نحو نصف مليون سنة ونهايته في أوائل الألف العاشرة ق . م . تقريباً . لقد شهدت الأرض في هذا الدهر أربع فترات طويلة من الزحف الجليدي على المناطق الشمالية من الكرة الأرضية امتدت كل منها عبر عشرات الآلاف من السنين ، كانت تناظرها في المناطق الاستوائية أربع فترات من الأمطار السيليّة الغزيرة ـ وهذه ظروف تجعل الهمّ الأول والأخير للإنسان أن يتفادى قسوتها ومن ثمّ لا يمكن أن تكون مواتية لأيّ نشاط بشري إيجابي سواء في المنطقة الشمالية أو في المنطقة الاستوائية .

ولكن على عكس ذلك كانت الظروف الجغرافية في منطقة نشوء الحضارات. لقد كانت هذه المنطقة تقع في مكان وسط بين الظروف الجغرافية القاسية. سواء بسبب الزحف الجليدي في المنطقة الشمالية، أو بسبب الهطول المستمر للأمطار السيلية الغزيرة في المنطقة الاستوائية. وهكذا تمتعت بمناخ معتدل نسبياً لا يعوق النشاط الإيجابي للمجموعات البشرية التي تقطنها، ومن ثم كان تحرك هذه المجموعات لا ينصرف كله إلى مجرد الاحتماء من الظروف الجغرافية القاسية، وإنما أصبح المجال مفتوحاً لما يمكن أن نسميه الحوار بين هذه المجموعات البشرية وظروف البيئة التي تحيط بها، تتغلب على صعوباتها تارة وتنتفع بميزاتها تارة أخرى — ومن ثم كانت الإنجازات الحضارية الأولى.

ب ـ ظرف المواصلات السهلة

على أن المناخ الملائم للنشاط الإنساني لم يكن هو الظرف الجغرافي الوحيد الذي يسر لسكان المنطقة سبل التحرك الحضاري المبكر، وإنما كانت هناك ظروف أخرى، من بينها سهولة المواصلات بين أرجاء المنطقة. وسهولة طرق المواصلات معناها تيسير الالتقاء والتعامل بين المجموعات السكانية في أرجاء المنطقة المختلفة، ومن ثم الانتفاع المتبادل بتجارب كل مجموعة، الأمر الذي يؤدي إلى تطوير الإنجازات البشرية على طريق التقدم.

ونحن إذا نظرنا إلى خريطة المنطقة التي أسميناها منطقة نشوء الحضارات نجد طرق الاتصال بين أقسامها المختلفة ميسرة إلى حد كبير، سواء في ذلك طرق الاتصال البري أو طرق الاتصال عن طريق البحر. فمن إيران في الطرف الشرقي للمنطقة نجد طريقين بريتين يوصلان إلى منطقة وادي الرافدين، إحداهما في محاذاة الساحل الجنوبي، والثانية عبر الممرات الموجودة في جبال زاجروس. ومن وادي الرافدين نجد طريقين بريتين توصلان إلى

آسيه الصغرى وإلى المنطقة السوريّة ومن المنطقة السورية تمتدّ طريق برية ساحلية إلى مصر. بينما تخترق شبه الجزيرة العربية عدة طرق ، إحداها من اليمن إلى سورية عن طريق مكة، وأخرى من اليمن إلى وادي الرافدين عن طريق نجد والمنطقة الشمالية الشرقية لشبه الجزيرة وثالثة بين اليمن والمنطقة الشرقية وهكذا . وقد ظهرت آثار هذا الاتصال السهل بشكل واضح في العصور التاريخية في هذه المنطقة سواء من حيث التأثيرات الفنية والأدبية والفكرية والدينية بين أنحاء المنطقة أو من حيث النزاعات العسكرية والعلاقات والاحتكاكات السياسية ، ولكن ما يهمّنا الآن فيما يخصّ الخطوات الحضارية الأولى لسكان هذه المنطقة ، هو أن التجارب والإنجازات الأولى سواء من ناحية استخدام المعادن وأنواع الأحجار التي قد تتوفر في قسم من المنطقة دون قسم آخر أو تنظيم المجموعات البشرية الأولى على هيئة مجتمعات قروية أو طرز الأدوات التي كانوا يستخدمونها أو الأساطير التي كانت تمثّل محاولة تغلّب الإنسان البدائي على أسرار الكون المحيطة به — كلّ هذه التجارب كان تبادلها ، تأثراً وتأثيراً ، أمراً واضحاً في علاقات المجتمعات التي قامت في المنطقة ، نتيجة لسهولة هذه المواصلات البرّية بين أرجائها .

وكما أسلفت ، لم تكن هذه المواصلات البرية هي التي تفرّدت بهذه السهولة ، وإنما كانت البحار كذلك عاملاً أسهم إلى حد كبير في هذه السهولة. فالبحر المتوسط ، في حقيقة أمره يشكّل استمراراً نحو الغرب لهذه المواصلات السهلة . والبحر المتوسط له ميزات تجعله من أنسب طرق الاتصال المائية التي تشجّع الإنسان الأول وتساعده على الحركة والانتقال . وأول هذه الميزات أنّه بحر هادىء إلى حدّ كبير ، بل هو في الواقع يكاد يكون بحيرة مغلقة إذا استثنينا المضيق الموجود عند طرفه الغربي والذي أصبح يعرف منذ الفتح العربي باسم مضيق جبل طارق ، ومضايق البسفور والدردنيل الواقعة عند طرفه الشرقي ، وحتى هذه توصّل إلى بحر مغلق هو البحر الأسود — ومثل هذا الهدوء يعتبر

أكبر عون للإنسان الأول في انتقالاته المائية . كذلك فإنّ عاملاً آخر ييسّر إلى حدّ كبير اتصال المجموعات البشرية الأولى ، وهو تقارب شواطئه المطلة على القارات الثلاثة : آسية وإفريقيه وأوروبه لدرجة تكاد تصل إلى التلاصق في بعض الأحيان . فنحن نجد مثلاً هذا التقارب الشديد بين الشاطىء الآسيوي والأوروبي عبر مداخل البحر الأسود. ونلحظه مرة أخرى بين الطرف الجنوبي الغربي لشبه جزيرة إيطالية والطرف الشمالي الشرقي لقرطاجه (تونس الحالية) عبر جزيرة صقلية . في المنطقة الوسطى للبحر المتوسط . ثم نشاهده مرة ثالثة في أقصى الغرب بين الطرف الجنوبي لشبهجزيرة إيبرية الأوروبية وبين الطرف الشمالي الغربي للقارة الإفريقية . وليس هذا كلّ شيء فبين شبه جزيرة آسيه الصغرى وبين الشواطىء الأوروبية في شبه جزيرة البلقان عدد عن الجزر الصغيرة والكبيرة يبلغ عدة مئات تكاد تشكل جسر متصلاً بين القسم الآسيوي والقسم الأوروبي من منطقة نشوء الحضارات . وهو جسر كان له أكبر الأثر في تيسير التحركات البشرية في العصور الأولى للنشاط الحضاري الإنساني . هذا إلى وجود عدد من الجزر الكبيرة التي تمتد من شرقي البحر المتوسط إلى غربيه لتشكل ما يمكن أن نعتبره محطات تساعد الملاح الأول على الانتقال في هذا البحر . من بينها . ابتداء من الشرق إلى الغرب . جزيرة قبرص وجزيرة كريت وجزيرة صقلية وجزيرتا قورصقه وسردينية .

ج ـ الحدود شبه المانعـة للمنطقة

وإذا كانت طرق المواصلات السهلة في منطقة نشوء الحضارات قد ساعدت على تيسير الاتصال ومن ثم التعامل والانتفاع المتبادل بتجارب المجموعات البشرية التي تقطنها . فإن ظرفاً جغرافياً آخر قد ساعد على تكثيف هذا الاتصال عن طريق حصره إلى حدّ كبير في المنطقة . هذا الظرف يتعلق بالحدود شبه المانعة لهذه المنطقة بالشكل الذي يوجه اتصال سكان المنطقة إلى داخلها وليس

إلى خارجها بشكل يكاد يكون تاماً في العصور القديمة إذا استثنينا بعض اتصالات بسيطة ومتباعدة وغير منتظمة .

ونحن نستطيع أن نلمس ذلك إذا تتبعنا حدود المنطقة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . فعند الطرف الشرقي للهضبة الإيرانية تمتد الجبال المحاذية للشواطىء الغربية لنهر السند من الجنوب لكي تلتحم في أقصى الشمال بجبال الهملاية ، وتشكل بذلك ، هي والكثافة السكانية الكبيرة إلى شرقيها في الهند ، حاجزاً يتوقف عنده التوجيه الحضاري والتاريخي لهضبة إيران . وعلى طول الحدود الشمالية لهذه الهضبة نجد امتدادات آسية الوسطى بسهولة ومناطقها المقفرة ، فإذا اتجهنا غرباً نجد مرتفعات أرمينية ثم جبال يونتوس في شمالي شبه جزيرة آسية الصغرى ، حتى إذا تخطينا مداخل البحر الأسود إلى القارة الأوروبية وجدنا سلاسل جبال الكريات والألب الدينارية التي تحدّ شبه جزيرة البلقان من الشمال ، ثم جبال الألب التي تقع إلى شمالي شبه الجزيرة الإيطالية وإلى جنوبي فرنسه ، ثم سلسلة جبال البرانس التي تحدّ شبه جزيرة إيبريه (اسبانيه والبرتغال الحاليين) في أقصى الغرب . فإذا انتقلنا إلى جنوبي البحر المتوسط ونظرنا إلى السهل الساحلي الذي يمتد بطول هذا البحر وجدنا جبال أطلس ثم النطاق الصحراوي الذي تشكله الصحراء الإفريقية الكبرى من غربي القارة حتى تعبر وادي النيل في مصر وتستكمل امتدادها شرقاً تحت اسم صحراء العرب التي تنتهي عند سلسلة الجبال المحاذية للساحل الغربي للبحر الأحمر . أمّا وادي النيل الذي يخترق هذه الصحراء من الشمال إلى الجنوب فنجد أنه ، حين يصل إلى حدود مصر الجنوبية يعترضه حاجزان رئيسيان سبق أن أسلفت الإشارة إليهما وهما : الجنادل والشلالات التي تعترض مجرى النيل ، ومن ثم تعترض الملاحة النهرية فيه ، ثم انحسار الوادي على جانبي النهر ممّا لا يسهّل أية اتصالات سكانية وحضارية واسعة النطاق مع المنطقة التي تلي ذلك جنوباً . فإذا عبرنا البحر الأحمر إلى شبه الجزيرة العربية وانحدرنا جنوباً إلى الساحل

الجنوبي لها . وجدنا المحيط الهندي ، تلك المساحة المائية التي لا تليها أرض إلى الجنوب (٩) وحقيقة إنّ هذا المحيط قد أصبح في فترة متأخرة نسبياً طريق مواصلات سهلة تصل بين منطقة نشوء الحضارات وغيرها . ولكن هذا حدث بعد أن كانت المنطقة قد استقرت على شكلها الحضاري بعد فترة التكوين الحضارية الأولى .

في داخل هذه المنطقة بحدودها الجغرافية التي تكاد تعزلها عن المناطق الأخرى المحيطة بها . تركزت التحركات الحضارية الأولى . ومن ثمّ تطوّرت وتعمقت التجربة الحضارية بدلاً من أن تتبعثر وتتسطح أو ربما تندثر . وقد ظلّ هذا الطابع ملازماً للمنطقة حتى بعد أن تخطّت مرحلة الظهور الحضاري إلى المرحلة التاريخية . وهكذا وجدنا التحركات الحضارية ، سواء اتخذت شكلاً سلمياً أو سارت في طريق العنف . تتمّ داخل المنطقة وفي حدودها . فالهجرات البشرية التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية استقرت على الساحل السوري وفي وادي الرافدين . والهجرات الفينيقية استقرت في قرطاجه والمناطق المحيطة بها على الساحل الإفريقي وامتدت إلى شواطىء شبه جريزة إيبرية (في أوروبة) والهجرات اليونانية استقرت في جزر البحر المتوسط وعلى كافة شواطئه . والامبراطوريات المصرية والآشورية والفارسية . وامبراطورية الاسكندر الأكبر والإمبراطورية الرومانية . كلّها تمت داخل حدود المنطقة باستثناءات لا تكاد تذكر (كان هدفها الأساسي تأمين الحدود) . والتراث الفكري والعلمي والأدبي والديني دار داخل المنطقة. منها وإليها . طوال العصور القديمة .

وهكذا ينضمّ هذا الظرف الجغرافي المتصل بحدود المنطقة إلى الظرفين الآخرين المتعلقين بالمناخ وسهولة طرق المواصلات البرية والبحرية ليجعل من

---

(٩) راجع ملحق الخرائط ، خريطة رقم ١ .

هذه المنطقة أنسب المناطق لنشوء الحضارات : مناخ معتدل أو شبه معتدل يساعد على النشاط الحضاري في وقت لم يكن الإنسان فيه قد تمكن بعد من تذليل مصاعب البيئة وعقباتها . وطرق اتصال سهلة تمكن المجموعات البشرية في داخل المنطقة من تبادل تجاربها الحضارية ومن ثم تطويرها وتنميتها . وحدود شبه مانعة تؤدي إلى تركيز تلك التجارب وتعميقها بدلاً من بعثرتها وتسطيحها .

٣ ـ شبه جزيرة العرب ضمن منطقة نشوء الحضارات :

أ ـ حول الدور الحضاري لشبه جزيرة العرب

وفي وسط منطقة نشوء الحضارات التي رأينا أنها تمتد من حدود الإمبراطورية الفارسية عند مشارف الهند شرقاً إلى حدود الإمبراطورية الرومانية عند شواطىء المحيط الأطلسي غرباً تقع شبه الجزيرة العربية في النصف الجنوبي من القسم الأوسط . وقد بدأ أقدم دور حضاري كبير في منطقة نشوء الحضارات فعلاً في القسم الأوسط من المنطقة . ولكنّه ابتدأ في النصف الشمالي منها . في مصر ووادي الرافدين وسورية . حيث أخذ هذا الدور يظهر بشكل واضح . بعد فترة تمهيدية طويلة . ابتداء من الألف الرابعة ق . م . أما النصف الجنوبي الذي تشغله شبه جزيرة العرب فقد تأخر دوره الحضاري عن ذلك كثيراً . وفي الواقع فإن أقدم أقسام شبه الجزيرة من حيث الظهور الحضاري الملموس في العصور التاريخية القديمة . وهو القسم الجنوبي الغربي . لا نعرف عنه في مجال الإنجاز الحضاري إلاّ في فترة تعود إلى القرن الثامن ق . م . أو إلى القرن السابق له على أبكر تقدير (١١) . وحقيقة إن المخلفات الأثرية في هذه

---

(١١) عثر في القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية (منطقة الاحساء والقطيف حاليا) على مخلفات حضارية في شكل بقايا فخارية ترجع الى حضارة عصر العبيد (٤٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ ق.م.) . وتشير هذه الى اتصالات حضارية مع وادي الرافدين حيث اكتشفت بقايا هذه الفترة الحضارية =

المنطقة تشير إلى تقدم في فنّ المعمار وإلى تنظيم واضح في مجال الأمور الداخلية للبلاد وإلى معرفة بالكتابة والخطّ المتطوّر كما تسير إلى نشاط خارجي تجاري وعسكري وسياسي — وكلها أمور تركت بعض التأثيرات الحضارية في الأماكن التي اتصلت بها هذه المنطقة أو امتدّ إليها نفوذها ، إلاّ أن الأثر الحضاري الكبير ،وهو ما يمكن أنْ نسمّيه بالدور الحضاري،لم يظهر سواء في القسم الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب أو في بقية أنحاء شبه الجزيرة إلاّ بعد ذلك بما يقرب من خمسة عشر قرناً .

لقد بدأ هذا الدور الحضاري المؤثر لشبه جزيرة العرب في القرن السابع الميلادي على أثر ظهور الدعوة الإسلامية وانطلاق الفتوح العربية من شبه الجزيرة وعبّر عن نفسه في ثلاثة تيارات متواكبة ، تركت أثرها واضحاً على المسار التاريخي والحضاري آنذاك ولا زال هذا الأثر مستمراً حتى الآن . وتمثل أحد هذه التيارات في نشر الدين الإسلامي وانتشاره بين مجموعات بشرية تمثل كلّ العناصر تقريباً وتنتشر في مناطق تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى جزر أندونيسية شرقاً . وهو دين لا يقتصر على الجانب الروحي وإنما يشمل إلى جانبه طرقاً للتعامل تشكل أسلوباً للحياة يمارسه في الوقت الحاضر أكثر من ٤٥٠ مليون شخصاً . والتيار الثاني كان حركة التعريب التي انتهت بأن أصبحت اللغة العربية هي لغة الحياة اليومية والرسمية في المناطق التي تمتد عبرها مناطق تضمّ ما يقرب من مائة مليون شخصاً . أما التيار الثالث فهو الحركة العلمية والثقافية النشطة التي قام بها العرب أو شجعوا عليها وهيأوا لها الأجواء

= (راجع الباب الرابع الخاص بالآثار والنقوش في هذه الدراسة ، وراجع ملحق الخرائط ، خريطة رقم ٥) ولكن هذه المخلفات الفخارية ، حتى أن دلت على خطوات حضارية ذاتية مبكرة (وليست مجرد تأثر بحضارة وادي الرافدين في عصر العبيد ، وهو امر مرجح حتى الآن) فهي على اي الاحوال لم تستمر لتشكل كيانا حضاريا واضحا ، ولم تمثل دورا حضاريا مؤثرا في العصور القديمة .

المناسبة (١٢) . لقد استوعبت هذه الحركة الحضارات القديمة التي كانت موجودة بالمنطقة المحيطة بشبه الجزيرة في مصر وسوريه ووادي الرافدين وبلاد فارس ، كما استوعبت الملامح الرئيسية للحضارة اليونانية الرومانية وطوّرتها في فترة الركود العلمي والثقافي التي عرفتها أوروبه في العصور الوسطى ، وأسهمت بذلك في إيقاظ أوروبه في عصر النهضة أو عصر الإحياء الذي أسلمها إلى عصر الحضارة الحديثة . وبذلك تفادت المسيرة العلمية والثقافية خطر الانقطاع الذي كان يمكن أن يحدث . ومن ثمّ يؤثّر على الاستمرار الحضاري. إذا أدخلنا في اعتبارنا أنّ عصر الظلام والركود الأوروبي في العصور الوسطى أعقبه مباشرة عصر ظلام وركود شرقي استمرّ عدّة قرون على عهد الحكم العثماني .

ب ـ مقدمات هذا الدور قبل ظهور الاسلام

وهنا يجدر بنا أن نتوقف لحظة . فهذا الدور الحضاري الكبير الذي انطلقت بوادره ومقوماته الأولى من شبه الجزيرة العربية ابتدأ في العصر الإسلامي . ومن ثم فهو ليس دوراً قامت به شبه الجزيرة قبل ظهور الدعوة الإسلامية التي تشكل بداية هذا العصر . وهذا صحيح . ولكن أيّ دور حضاري لا يبدأ من فراغ . وإنما لا بدّ له من مقدمات تمهّد له الطريق وتهيء له أسباب النجاح . وقد كانت هذه المقدمات متوفّرة في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام نتيجة لعدد من الأوضاع التي كانت تسود المنطقة والتي أدت إليها ظروف الرقعة المكانية التي تشغلها شبه الجزيرة — وهي ظروف تتمثل من جهة في الموقع الذي يتوسط خطوط المواصلات بين الشرق والغرب . والذي يتمثل من جهة أخرى في الموضع الذي تفرض طبيعته على سكان المنطقة الحركة

(١٢) عن التراث العربي في جوانبه المتعددة راجع : (Oxford ١٩٦٣) The Legacy of Islam وهو مجموعة دراسات اشرف على تحريرها توماس آرنولد Thomas Arnold والفرد جيوم Alfred Guillaume

المستمرة رعياً أو تجارة ، ثم يتمثل من جهة ثالثة في الطبيعة الصحراوية الغالبة على شبه الجزيرة والتي جعلتها أو جعلت القسم الأكبر منها بمنأى عن أية أطماع جادة من جانب القوى الدولية ، ومن ثم أتاحت الفرصة لانتشار العقيدة الجديدة وقيام دولة موحدة في شبه الجزيرة . الأمر الذي يشكّل مقدّمة مطلوبة تاريخيّاً لبداية الدور الحضاري العربي .

وفي هذا المجال فإنّ شبه الجزيرة العربية كانت تخترقها الخطوط التجارية البرية اتجاهاً نحو الخليج ووادي الرافدين والمنطقة السورية . ومعنى هذا أن الاتصال كان دائماً بين السكان الذين يقطنون كلّ أقسام شبه الجزيرة تقريباً . فإذا أضفنا إلى هذا حياة الرعي التي كانت تفرض على أعداد كبيرة من السكان أن يتنقلوا بشكل دائم أو موسميّ سعياً وراء الكلأ وعدداً من الهجرات الداخلية التي قد تترتب على هذا (أو على غيره من الأسباب) لأمكن أن نتصوّر أقسام شبه جزيرة العرب في حالة اتصال مستمر فيما بينها . وهو أمر يؤدّي بمرور الوقت إلى قدر غير قليل من التقارب بل التجانس فيما بين سكان هذه الأقسام في أكثر من جانب من جوانب حياتهم .

وقد أدّى هذا التجانس فعلاً إلى ظهور بوادر ملموسة للشخصية أو الهويّة الجماعية للعرب رغم التفتت السياسي لشبه الجزيرة في صورة قبائل أو تجمعات قبائل أو إمارات أو دول . ونحن نلمس بوادر هذه الشخصية العربية ابتداء من أواسط القرن التاسع ق . م . في عدّة نصوص من سجلات الملوك الآشوريين تصف عدداً من الشخصيات التي احتكّ بها ملوك دولة آشور بأنهم « عرب » أو أنهم ملوك أو ملكات على « بلاد العرب » (بغضّ النظر عن الامتداد المكاني أو الشمول الذي تعنيه صفة « بلاد العرب » في هذه السجلاّت) . وهو وصف يشير إلى أنّ الهويّة العربية بدأت تحلّ ، على الأقل في المعاملات الخارجية ، محلّ الهوية العشائرية أو القبليّة . كذلك نجد هذه الصفة « العربية » سواء

بالنسبة للسكان أو بالنسبة للبلاد تظهر بشكل محدّد ومتواتر في كتابات المؤرخ اليوناني هيرودوتس Herodotos في أواسط القرن الخامس ق . م . وتستمرّ من بعده سواء عند الكتّاب اليونان أو الرومان أو البيزنطيين حتّى ظهور الإسلام .

كذلك يشير إلى هذا التقارب أو التجانس ، ومن ثمّ إلى الهوية العربية التّي مهدت لنجاح الدور العربي التاريخي بعد ظهور الإسلام ، بعض ظواهر أخرى : من بينها عدد من المناسبات التّي أخذ العرب يعتزون بها كمناسبات عربية بغضّ النظر عن المنطقة التّي حدثت فيها . وأعني بهذه المناسبات ما اصطلح المؤرخون على تسميته بأيام العرب ، مثل يوم « ذي قار » وهي الموقعة التّي انتصر فيها عرب الحيرة على القوات الفارسية ، أو يوم « الفيل » الذي سجّل ارتداد أبرهة وجنوده عن هدم الكعبة قبيل ظهور الإسلام . ومن بين هذه الظواهر التّي نلمس فيها الشخصية الجماعية العربية كذلك ، الأماكن التّي كان العرب يتجمّعون فيها لإلقاء الشعر بغضّ النظر عن انتماءاتهم القبلية ، مثل « سوق عكاظ » (شمالي الطائف ؟) ، والاتفاق الجماعي على اعتبار المنطقة المحيطة بالكعبة مكاناً مقدساً لا تنبغي ملاحقة من يلوذ به . وعلى اعتبار عدد من شهور السنة « أشهراً حرماً » لا يجوز الاقتتال أثناءها بين القبائل العربية حتّى يتوفّر الأمن الجماعي اللازم لممارسة العرب أسباب حياتهم في شيء من الطمأنينة والاستقرار .

كذلك فإن هذا التجانس أو التقارب لا بدّ أنّه ظهر في تقارب اللهجات في المنطقة المختلفة من شبه الجزيرة العربية ، وهو تجانس يصل ما يقرب إلى من التأكيد إذا تذكّرنا أن القرآن نزل بلهجة قبيلة قريش ، ومع ذلك فما لبث في خلال عقدين من الزمان أن انتشر بلهجته هذه في كلّ أرجاء شبه الجزيرة . وفي الواقع فإنّه ليس لدينا ما يدعو لافتراض أن بقية قبائل شبه الجزيرة قد

اضطرت إلى تعلم لهجة قريش حتى تفهم آيات القرآن ، وإنما تشير كل الملابسات إلى أن معرفتهم بهذه اللهجة كانت شيئاً مفروغاً منه — الأمر الذي يعزز افتراض التقارب الوثيق بين اللهجات العربية قبل ظهور الإسلام ، أو وجود لهجة عامة يعرفها جميع العرب ، بغض النظر عن لهجاتهم المحلية .

وهكذا يتضح لنا أثر الظروف المكانية في التجانس الكبير بين عرب شبه الجزيرة لتصبح لديهم مقوّمات الهوية أو الشخصية الجماعية التي تساعد على سرعة انتشار أية حركة تتوفّر لها البداية المقنعة لسبب أو لآخر ، كما حدث في حال الدعوة الإسلامية . على أنّ هذا التجانس لم يكن كلّ ما أسهمت به الطبيعة المكانية لشبه الجزيرة العربية في سرعة انتشار الدعوة الإسلامية بها كبداية للدور الحضاري العربي خارجها . فقد ساعد هذا العامل المكاني في هذه السرعة بطريقة أخرى . لقد بدأ الرسول (ص) دعوته في مكّة . وحين ضيقت قريش الخناق على نشاطه وعلى أتباعه بما قد يؤدي إلى بطء انتشار الدعوة ، هاجر هو وصحبه إلى يثرب (المدينة المنوّرة فيما بعد) . وحقيقة إنّ الرسول كانت له صلة قربى في يثرب ، ولكن الحقيقة الأخرى التي تواكبها هي أن يثرب كانت تقع على طريق القوافل التجارية إلى الأسواق السورية في الشمال ، ومن يتحكم في موقعها يصبح في يده أن يخنق تجارة قريش إلى الشمال . وفي الواقع إن المتأمّل للخط التجاري الذي يصل بين مكة والشمال لا يسعه إلاّ أن يلاحظ أن أهمّ غزوات الرسول ، إلى جانب ملابساتها الأخرى بطبيعة الحال ، كانت تقع على هذا الخط التجاري كما يبدو واضحاً في غزوة بدر (جنوبي غربي المدينة في الطريق إلى مكة) ثم في غزوات أحد (على مشارف المدينة) وخيبر وتبوك اتجاهاً نحو الشمال على خط القوافل التجارية إلى سورية . وحين تمت غزوة الفتح وأذعنت مكّة لإرادة الرسول (ص) كان معنى هذا في الحقيقة الاستيلاء على الموقع الذي كانت تسيطر

عليه قبيلة قريش ، وهو الموقع الذي كان يتحكم في خطوط القوافل شمالاً إلى سورية وجنوباً إلى اليمن واتجاهاً نحو الشمال الشرقي إلى وادي الرافدين — الأمر الذي مكّن الرسول (ص) وأتباعه من التصدّي لكلّ من يتعرّض للدعوة الإسلامية التي كانت بداية للدور الحضاري التاريخي الذي انطلق من شبه جزيرة العرب .

الباب الثاني

الساميون وشبه الجزيرة والعرب

١ ـ قضية الساميين او الشعوب السامية :

في وسط المنطقة التي اصطلحنا على تسميتها باسم « منطقة نشوء الحضارات » تقع إذن شبه جزيرة العرب . ولكن هذا الموقف الجغرافي الأوسط بكلّ ما يفترضه من طرق مواصلات تترتب عليها معاملات اقتصادية وتأثيرات حضارية وتداخلات سياسية لم يكن كل ما يربط شبه الجزيرة بهذه المنطقة . فقد تردّد الحديث بين الباحثين على مدى القرنين الأخيرين حول شبه جزيرة العرب والمناطق المتاخمة لها فيما يخصّ صلة أو رابطة أخرى تربط بين المجموعات البشرية التي اتخذت هذه المناطق موطناً لها في فترة أو أخرى من فترات التاريخ ، وعن كنه هذه الصلة ومقوماتها وأسبابها . وكان الحديث الذي دار ولا يزال يدور حول هذه الصلة هو الحديث عن الشعوب التي أطلق عليها هؤلاء الباحثون اسم « الساميين » [١] .

---

(١) يجد القارىء معلومات مركزه عن الساميين بوجه عام في :
S. Moscati : The Semites in Ancient History (Cardiff, ١٩٥٩)

أ ــ افتراض لوجود عنصر سامي

وقد تشعب الحديث حول هذا الموضوع وترددت الآراء وتعدّدت وتعارضت أحياناً وتقاربت أحياناً أخرى وتوافقت أحياناً ثالثة في نتائجها رغم اختلافهـا في منطلقاتها . ولكن تركز الحوار حـول محورين رئيسيين . وأول هذين المحورين هو كنه هؤلاء « الساميين » أو هويتهم : هل هم جنس أو عنصر بالمعنى الاثنولوجي للكلمة ، أي أنهم ينحدرون من أصل واحد له مقوماته الجسمانية التي يعرفها علماء الاثنولوجية (علم الأجناس) بمقارنة الملامح ومقاييس أجزاء الجسم ونسبتها إلى بعضها ومقاييس الرأس ، طولاً من مقدمة الرأس إلى مؤخرته وعرضاً من أحد جانبي الرأس إلى الجانب الآخر . ونسبة هذا القياس إلى ذاك فيكون الجنس من ذوي الرأس العريض Brachycephalic إذا بلغت نسبة العرض إلى الطول ثمانين بالمائة أو زادت على ذلك أو يكون من ذوي الرأس الطويل Dolichocephalic إذا انخفضت النسبة إلى ٧٥ بالمائة أو قلّت عن ذلك ــ هل الساميون جنس أو عنصر واحد يشترك المنحدرون منه في هذه المقومات الجسمانية أم أنهم مجموعة من الشعوب أو الأقوام تتحدث لغات متشابهة أو متقاربة دون أن يفترض هذا التشابه أو التقارب اللغوي بالضرورة أصلاً عنصرياً واحداً لهذه الشعوب أو الأقوام .

أما المحور الثاني لهذا الحديث الذي تردّد بين الباحثين ولا يزال يتردّد تعارضاً وتقارباً وتوافقاً في نتائج تختلف رغم ذلك في منطلقاتها فهو عن الموطن الأصلي لهؤلاء « الساميين » . سواء أكانت هذه التسمية تفترض أصلاً واحداً أو تشير إلى مجرّد تشابه أو تقارب لغوي بين مجموعة من الشعوب أو الأقوام . هل كان هذا الموطن الأصلي إفريقياً أم آسيوياً . وإذا كان آسيوياً فهل هو في خارج شبه الجزيرة العربية أم في شبه الجزيرة نفسها . وإذا كانت الأخيرة فمن أي قسم من أقسامها كانت بداية تفرّعه وانتشاره . ثم ماذا كانت الأسباب التي دفعت إلى هذا الانتشار : هل هي أسباب تتعلّق بتغيّر في المناخ ترك أثره

على الموطن الأصلي المفترض للشعوب السامية جفافاً وإجداباً فتركته بعض المجموعات بحثاً عن آفاق جديدة تجد في خيراتها ما بدأت تفتقده من أسباب الحياة ، أم أنّ له أسباباً أخرى تتصل بتدهور في الحكم ومن ثم تخلخل في الأمن والأمان وإهمال لموارد البلاد ، أو بتغيّر في إيقاع الحركة التاريخية والحضارية بين دول العالم القديم أثر بالضرورة في الأوضاع السائدة أو في أهمية الطرق التجارية المعروفة ومن ثم دفع الجماعات البشرية في المنطقة ـ أو بعض هذه المجموعات ، إلى أن توائم بين نفسها وبين الأوضاع الجديدة الناجمة عن كلّ ذلك ، حركة هنا ودفعاً هناك واندماجاً في منطقة ثالثة وتقوقعاً في منطقة رابعة وهكذا . أسئلة كثيرة ومتداخلة ، وكلّها تدفعنا إلى الاهتمام بهذه القضية حتى نتعرف على وضع العرب وشبه جزيرة العرب وسط الأقوام والمناطق التي أحاطت بها ، ومن ثم إلى تفهّم سليم للدور الذي قام به العرب حين جاء الوقت الذي ظهروا فيه على المسرح التاريخي بشكل له أثر واضح .

أما عن سبب هذه التساولات حول قضية الساميّين فهو أن عدداً من الباحثين في لغات الشرق الأدنى لاحظوا تقارباً واضحاً بين عدد من هذه اللغات من بينها الأكّديه (البابلية والآشورية) والكنعانية والعبرية والفينيقية والآرامية والنبطية والحبشية والعربية . وقد وجد هؤلاء الباحثون أن هذه اللغات تتقارب في عدد من المواضع له أهميته ومغزاه . من بين هذه المواضع أن جذور الأفعال فيها جميعاً جذور ثلاثية تعطى الانطباع العام للمعنى ، فإذا تخلّلت حروف هذا الجذر الثلاثي حروف (أو أشكال) تفيد الحركة الطويلة أو القصيرة ، فإن المعنى يتحدّد حسب نوع هذه الحروف المضافة . وعلى سبيل المثال ، فإنّ حروف ك ت ب في العربية تفيد معنى الكتابة بوجه عام فإذا بدأنا في تشكيلها (والشكل يؤدي دور الحركات القصيرة) أو إضافة حروف الحركة الطويلة إليها أو المزج بين الاثنين ، فإنّ هذا المعنى العام يتحدّد

باختلاف الشكل وحروف الحركة بحيث تصبح فعلاً في زمن معين أو اسماً في تصريف معين مثل « كَتَبَ » التي تؤدي بمعنى فعل الكتابة في الزمن الماضي بالنسبة للغائب . و « كاتِب » التي تؤدي معنى اسم الفاعل . و « كتاب » التي تؤدي معنى اسم المفعول في إحدى صيغه وهكذا. وقد وجد الباحثون أن هذه الصفة التي تتعلق بطريقة تركيب الكلمات ، تشترك فيها مجموعة اللغات المشار إليها وتميزها عن غيرها من مجموعات اللغات الأخرى التي تظهر في كل منها طرق لتركيب الكلمات خاصة بها .

كذلك وجد الباحثون أن هذه اللغات التي نحن بصدد الحديث عنها تتشابه فيها (وتتطابق في بعض الأحيان) مجموعات من الألفاظ ذات مدلولات لا يمكن إغفالها أو تجاهل مغزاها . فمن بين هذه الألفاظ تلك التي تدل على الأعداد . والأعداد هي الأدوات الأولية والضرورية في تنظيم المعاملات بين الأفراد أو الجماعات . وتطابق أو تقارب الألفاظ الدالة عليها يشير إلى مجتمع واحد أو إلى مجتمعات شديدة التقارب والشيء ذاته نجده في الألفاظ التي تؤدي معنى القرابة أو صلة الدم . وهذه تشير إلى تكوين الأسرة وهي خلية المجتمع الأولى التي تبدأ قبل أيّ تكوين اجتماعي آخر ، كما نجده في الألفاظ الدالة على تنظيمات الدولة والعلاقات الاجتماعية والقصائد الدينية ، وهذه كلها تتصل بالمجتمع في حدوده الواسعة [٢] .

وقد أدت هذه الملاحظات اللغوية بأحد هؤلاء الباحثين ، وهو العالم النمسوي أوجست لودفيج شلويتسر August Ludwig Schloester إلى أن يعلن في الشطر الأخير من القرن الثامن عشر (١٧٨١ م) أن الشعوب التي تتحدث بهذه اللغات إنما تنحدر من أصل واحد ، واعتماداً منه على ما جاء في الإصحاح

---

(٢) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ــ بغداد، ط ٢ ، ج ١ (١٩٧٦) ، ص ٢٢٢ وحواشي ١ ــ ٣

العاشر من سفر التكوين ، أول أسفار التوراة [٣] ، قال إن سام بن نوح هو الجدّ الأول لهذه الشعوب جميعاً ، ومن ثم سماها بالشعوب السامية . وحقيقة إن هناك قدراً من التضارب أو على الأقل عدم التطابق بين التأصيل العنصري الذي قدمه شلويستر وبين ما جاء في سفر التكوين ، بحيث تصبح التسمية التي نادى بها تسمية تقريبية على أحسن الافتراضات ، إلاّ أن هذه التسمية لم تلبث رغم ذلك أن وجدت رواجاً في الدوائر العلمية ، فأخذ بها بعد سنوات قليلة (١٨٠٧ م) عالم ألماني هو آيخهورن Eichhorn وبدأ ينشرها لتستقر صفة « السامية » بعد ذلك علماً على هذه الشعوب [٤] .

ب ـ رد على هذا الافتراض

ولكن مع ذلك فإن الحديث عن الشعوب السامية كمجموعة بشرية تنتمي إلى جنس أو عنصر واحد له ملامحه وخصائصه الجسمية الخاصة به والمميزة له هو حديث لا يستند إلى أساس علمي لسببين : أحدهما يتصل بقضية النقاء العنصري والآخر يتصل بالعلاقة بين العنصر واللغة . وفيما يخص السبب الأول فإنّ تطابق الملامح والخصائص الجسمانية بين الشعوب السامية أمر غير قائم ، فنحن نجد تبايناً واضحاً في هذا المجال بين هذه الشعوب من جهة ثم في داخل كلّ شعب منها من جهة أخرى . وعلى سبيل المثال فهناك اختلاف في مقاييس الجماجم بين عرب عُمان من جهة وبين مقاييس الجماجم لدى سكان العربية الجنوبية الغربية وتهامة من جهة أخرى ، ومع ذلك فكلهم من شبه جزيرة العرب . بينما نجد من الجانب الآخر تشابهاً بين جماجم أهل عمان وجماجم

---

(٣) الاصحاح العاشر : ١ و٢١ ـ ٣١ .

(٤) Eichhorn : Geschichte der Neuern Sprachenkunde القسم الاول تحت عنوان : Sprahen derSemiten inWestasien (١٨٠٧ Goettingen) صفحات ٤٠٣ وما بعدها. مقتبس في جواد علي: المرجع ذاته ص ٢٢٣ .

سكان السواحل الهندية المقابلة لهذه المنطقة العربية (وهو أمر جاء ، على ما يبدو ، نتيجة لتعامل تجاري أدّى إلى قدر من الاختلاط العنصري بين المنطقتين ،كما نجد تشابهاً في بعض الملامح بين سكان تهامة والقسم الجنوبي الغربي من شبه جزيرة العرب وبين سكان القرن الإفريقي . كذلك أثبتت بقايا العظام التي عثر عليها المنقبون الأثريون في المقابر البابلية والآشورية تبايناً في الخصائص الجسمانية في داخل كلّ منطقة من المناطق التي عثر فيها على هذه العظام . وما يقال عن هذه الشعوب يصدق على العبرانيين (أو اليهود إذا أخذنا بالتسمية الدينية لهم) فهناك اختلاف في الملامح فيما بينهم رغم ما عرف وما يزال يعرف عنهم من الحرص على التزاوج فيما بينهم [٥] .

وفي الواقع فإنّ علماء الأجناس قد انتهوا منذ أواسط القرن الحالي إلى أن الحديث عن نقاء الأجناس البشرية قد أصبح في حقيقة الأمر «خرافة علمية» حسب تعبير أحد علماء الانثروبولوجية المعاصرين [٦] . وفي هذا المجال فلعل أقرب ما يمكن أن يقال في موضوع الجنس أو العنصر إلى الصواب هو أنه قد وجدت أجناس نقية فعلاً في يوم من الأيام ، ولكن هذه الأجناس بدأت في الاختلاط منذ بدء الحياة البشرية وبشكل أكثر بكثير مما نتصوّر .

---

(٥) عن التشابهات والاختلافات التي تجمع او تفرق بين العمانيين وسكان السواحل الهندية المقابلة لهم ، وبين سكان القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية وسكان شرق افريقية : فصل بقلم : W. M. Krogman في : Bertram Thomas : Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia (London ١٩٣٢) صفحات ٣٠٢ – ٣١٦ . عن اختلاف الملامح الجسمانية للعبرانيين فيما بينهم واختلاف بعض ملامح الوجه بين العبرانيين وبقية الساميين راجع : George A. Barton: Semitic and Hamitie Origins (Philadelphia ١٩٣٤) صفحات ٨٥ – ٨٧ . عن اختلاف الخصائص الجسمانية لعرب شبه الجزيرة فيما بينهم في العصر الجاهلي راجع ، جواد علي : ذاته ص ٢٢٥ وحاشية ١ .

(٦) خوان كوماس (ترجمة محمد رياض) : المرجع ذاته، صفحات ٦٢–٦٣.

وفي هذا الصدد توصل هذا العالم إلى أن أوروبه ، مثلاً ، قد عرفت ، بين السلالات العديدة التي اختلطت على أرضها ، سلالات مغولية وزنجية نزحت إليها في عصور ما قبل التاريخ [7] . وحتى لو حاولنا أن نقسم العالم إلى عناصر في أعم حدودها على أساس صفة جسمانية واحدة وهي لون البشرة مثلاً ، فإن هناك مناطق بأكملها مثل العالم العربي والهند لا يمكن أن تنطبق عليها التحديدات اللونية بشكل واضح .

والسبب في ذلك هو أن الزمان والمكان قد بددا فكرة العنصر النقي عن طريق الهجرات المستمرة التي بدأت مع ظهور الإنسان . تحت وطأة قانون الطرد والجذب الطبيعي الذي يدفع الفئات البشرية من مناطق القحط والشدة إلى مناطق الرخاء ، ومن أماكن الخطر أمام الفئات الغازية إلى أماكن الدعة والأمن . ويروي لنا التاريخ ، سواء في عصوره القديمة أو الوسيطة فصولاً كاملة من هذه الهجرات ، مثل تلك التي اندفعت من سهوب أوروبه الشرقية قبل الميلاد بنحو عشرة قرون لتستقر فيما أصبح يعرف ببلاد اليونان . ومثل هجرة جانب من سكان هذه البلاد أمام هؤلاء المهاجرين إلى الشواطىء المختلفة للبحر المتوسط وبخاصة الشريط الساحلي الغربي لآسيه الصغرى . ومثل هجرة القبائل

(٧) الكاتب ذاته : المرجع ذاته ، ص ١٦ . هذا وقد حاول باحث آخر ان يقرب بين نظرية الاختلاط العنصري والنقاء العنصري النسبي رغم ذلك ، فقدم نظرية مؤداها ان اختلاط عدد من الاجناس (أي العناصر)داخل حدود منطقة معينة يؤدي في النهاية الى صهر هذه الاجناس على أساسها جنس جديد له مواصفاته ومقاييسه الجسمانية الخاصة به ، راجع : Mc Dougall:Introduction to Social Psychology طبعة ١٩٦٣(London) University Paperbacks ص ٢٨٣ وما بعدها . ولكني اتردد في قبول هذا الراي ، اذ ان الواقع (حتى الان على الاقل) يدحض ذلك ، واكتفي في هذا الصدد بما أوردته فيما يخص سكان شبه الجزيرة العربية ، رغم أن هذه المنطقة تعتبر ، بشكل نسبي ، منعزلة اكثر من غيرها ، ومن ثم فلديها فرصة أكثر من غيرها في تكوين هذا الجنس او العنصر الجديد المفترض .

التي كانت تقطن أواسط آسيه إلى الغرب لتشكل هي والقبائل الجرمانية النازحة من شمال أوروبه بعد اختلاطهما بالسكان الأصليين في وسط هذه القارة قاعدة للشعوب والقوميات الأوروبية في هذه المنطقة [٨] .

ونتيجة كل هذه التحركات البشرية هي أنه لم تتبقّ إلاّ جيوب قليلة في مناطق هامشية (مثل الأطراف الشرقية لآسيه) أو مناطق ظلت مقفلة نسبياً إلى عهد قريب جداً (مثل أواسط إفريقية) هي التي احتفظت بنقاء عنصري نسبي عام (رغم تسربات واختلاطات داخلية تبعدها عن النقاء العنصري الخالص). ووسط كلّ هذا نجد المنطقة التي تسكنها الشعوب التي أطلق عليها اسم الشعوب السامية تنتشر في منطقة تبتعد ، بسبب موقعها المتوسط في الجزيرة العربية والمناطق المتاخمة لها في منطقة الهلال الخصيب (وادي الرافدين وبادية الشام وسورية وفلسطين) بين شطري العالم الشرقي والغربي ، عن أي انغلاق أو تقوقع عنصري يعطيها نقاء عنصرياً واضحاً يمكن أن يتخذ أساساً لفكرة السامية .

هذا عن قضية النقاء العنصري وقد اتضح لنا من مناقشتها أن الحديث عن جنس أو عنصر سامي يصلح أساساً للتسمية السامية هو أمر أقل ما يقال فيه هو أنه مستبعد علمياً . ويبقى الحديث عن اتخاذ اللغة أساساً لوحدة الجنس أو العنصر . وفي هذا المجال فإنّ الثابت من الملاحظة التاريخية هو أن اللغة لا تصلح أساساً لأي تحديد عنصري لسبب بسيط هو أن الفئات البشرية لها قابلية غريبة لالتقاط اللغات إذا كان ذلك يخدم أهدافاً مصلحية أو عمرانية . وأول

(٨) عن هجرات اليونان راجع :
J. B. Bury : A History of Greece ط، (London ١٩٤٥) ، صفحات ٥ — ٧ و ٨٦ — ١٠٥ . عن هجرات البرابرة الى داخل حدود الامبراطورية الرومانية راجع : M. Cary ; A History of Rome (London ١٩٦٠) ط ٢ صفحات ٧٢٣ وما بعدها .

دليل على هذا هو الأماكن الحديثة التي تفصل بين القوميات المختلفة حيث نجد الاختلاط وتشابك المصالح يؤدي إلى ازدواج لغوي في أغلب الأحيان . كذلك فهناك أمثلة واضحة على شعوب غيرت لغتها كليـاً أو جزئياً في مراحل مختلفة من تاريخها . فالقسم الجنوبي من العراق كانت لغته في الفترة المبكرة من تاريخه القديم ، وهي اللغة السومرية ، لغة غير سامية ، بل تختلف عن اللغة السامية اختلافاً كلياً سواء في ألفاظها أو في تصريفات هذه الألفاظ أو تركيباتها . ومع ذلك فقد تحول هؤلاء السكان تدريجياً لكي تصبح اللغة الأكدية ، وهي لغة سامية ، هي لغتهم في كل جانب من جوانب حياتهم الفردية والجماعية ، ومصر التي تتحدث العربية الآن لم تكن تتخذها لغة لها في العصور القديمة . واختلاط بعض القبائل العربية بالمصريين الآن لم تكن في أعقاب الفتوح العربية لم يكن إلا بقدر ضئيل لا يصلح وحده سبباً لهذا التغيير الكلي في لغتها وإنما يجب أن نبحث عن هذا السبب في مجالات أخرى غير المجال العنصري . واللغة الإنجليزية في انجلتره حالياً يرجع القسم الأغلب منها إلى أصول لاتينية أو يونانية أو جرمانية . فإذا رددنا الأثر الجرماني فيها إلى غزو القبائل الانجلوسكسونية (وهي قبائل جرمانية) ومن ثم إلى تأثير عنصري . فيبقى أمامنا الأثر اللاتيني واليوناني الذي لا يمكن أن نرجعه إلى هذا التأثير العنصري . كذلك فإن اتخاذ بعض الشعوب إحدى اللغات لغة لها قد يعود إلى عامل الهجرة لسبب أو لآخر فحسب . ومثلنا على ذلك اليونان الذين يقطنون أماكن مختلفة من العالم من بينها أماكن في العالم العربي نفسه ومثل المهاجرين اللبنانيين في مهاجرهم بالأمريكتين . ومعروف أن كلاً من هاتين الفئتين يتكلم لغات المناطق التي هاجروا إليها . بل ولهجاتها . كلغة تعامل في حياتهم اليومية . بدرجة تصل إلى الإجادة بل إلى الطلاقة في أكثر الأحوال . وليكن مثلنا الأخير هو الولايات المتحدة التي اتخذ أبناؤها اللغة الإنجليزية لساناً لهم رغم ما بينهم من اختلاف يصل إلى درجة التنميط . سواء في الأصل أو في الملامح الجسمانية أو في المناطق التي هاجروا منها أساساً .

٢ ـ قضية اصل الساميين وشبه جزيرة العرب :

ا ـ ملاحظات مبدئية

الحديث عن أصل عنصري واحد كأساس للتشابه أو التقارب الكبير بين الشعوب التي اصطلح الباحثون ـ خطأ أو صواباً ـ على تسميتهم بالشعوب الساميّة يصبح ـ إذن ـ حديثاً غير وارد في ضوء الأدلة العلمية التي أسلفت الإشارة إليها . ولكن مع ذلك فيبقى التقارب اللغوي الكبير بينها ـ وهو أمر لا يمكن أن نسقطه من حسابنا ـ إذ هو يدلّ بدوره على تقارب كبير بين هذه الشعوب في صورة أو في أخرى ـ وهو تقارب يشير في رأيِ غالبية الباحثين إلى منطقة أولى أو موطن أصلي وجدت فيه مجموعة بشرية تتحدث لغة واحدة يمكن أن نطلق عليها « اللغة الأم » لكلّ اللغات الساميّة ـ ثم انطلقت جماعات من هذا الموطن الأصلي بشكل أو بآخر إلى بقية الأماكن التي ظهرت فيها في الفترة التاريخية الشعوب التي تتحدث باللغات السامية المنبثقة من هذه اللغة الأم .

ولنحاول الآن أن نناقش الآراء المختلفة في هذه القضيّة ـ وإن كنت أودّ قبل أن نقدم على هذه المناقشة أن أبادر بذكر تحفظين رئيسيين : أولهما هو أن الحديث عن موطن أصلي للغات السامية لا يفترض « بالضرورة » وجود مثل هذا الموطن الأصلي وإنما هو في رأيي لا يعدو أن يكون « احتمالاً » قد تثبت صحته وقد لا تثبت . ودليلي على هذا هو ما نلاحظه على مجموعة أخرى من اللغات المتشابهة أو المتقاربة وهي مجموعة اللغات « الآرية » أو « الهندو أوروبية » التي تنتشر في نطاق يمتد من شمالي شبه القارة الهندية إلى شمالي غرب شبه القارة الأوروبية لا تعني بالضرورة موطناً أصلياً انتشرت منه أصول هذه اللغات وإنما قد تعني تدرّجاً في التأثر نتيجة ظروف كثيرة أخرى .

أما التحفظ الثاني فهو أننا حتّى إذا افترضنا وجود موطن أصلي لمجموعة بشرية كانت تتحدث اللغة السامية الأمّ فإن انتشار هذه اللغة في المناطق المحيطة بها ليس معناه أن الجماعات التي حملتها معها أصبحت وحدها تشكل الشعوب الساميّة ، وإنما كل ما هناك أنها نشرتها بين أقوام أخرى كانت موجودة في هذه المناطق وانتهت إلى اتخاذ هذه اللغة لساناً لها لسبب أو لآخر بعد أن طبعتها بالتراث المحلي لمجتمعاتها وباحتياجات هذه المجتمعات وشتّى ظروفها الأخرى . ومن هنا فإنّ حديثي عن الموطن الأصلي المفترض للساميين والأدلة التي تشير إليه سيكون من منطلق انتشار اللغة وليس من منطلق وحدة العنصر .

والافتراضات التي ظهرت حتى الآن متعدّدة ومتداخلة في كثير من الأحيان . ولكنها تقوم على أساسين : أولهما هو التشابهات اللغوية التي تظهر بين بعض المناطق وما قد يدعم هذه التشابهات من ظروف تاريخية أو جغرافية تشير . تقريراً أو احتمالاً . إلى تحركات أو معاملات أو تأثيرات بين الجماعات البشرية وترجح أن تكون هذه التحركات أو المعاملات أو التأثيرات قد اتخذت طريقاً دون الآخر . أما الأساس الثاني فهو ما قدمته التوراة من حديث عن أبناء نوح (سام وحام ويافث) وعن الأماكن التي حلوا بها .

ب ــ افتراض اصل افريقي للساميين :

وأحد هذه الافتراضات الأساسية يرى أصحابه أن إفريقية هي موطن الساميّين . وهؤلاء يقدمون بين أدلّتهم صلات لغوية تربط بدرجات متفاوتة بين الأحباش والعرب والبربر . ويرى بعضهم . بناء على هذه الصلات اللغوية والاعتبارات التاريخية والجغرافية التي يفترضون أنها تدعمها . أن شمالي غرب إفريقية هو الموطن الأصلي للساميّين ومنها انحدروا إلى شبه جزيرة العرب . بينما يرى البعض الآخر أن إفريقية الشرقية تمثل الأصل المشترك بين الساميّين

والحاميّين وأن مجموعات من هذا الموطن الأصلي قد عبرت إلى شبه الجزيرة العربية عن طريق شبه جزيرة سيناء ومنها هبطوا إلى العربية الصخرية ، في القسم الشمالي الغربي من شبه جزيرة العرب ثم إلى بقية شبه الجزيرة ، أو عبرت مضايق الطرف الجنوبي للبحر الأحمر عند باب المندب إلى شبه الجزيرة . وأصحاب هذا الرأي الأخير يدعمون رأيهم بوجود عبادة الإله « ألمقه » في كلّ من الحبشة ومنطقة سبأ في العربية الجنوبية الغربية . كما يدعمونه كذلك بوجود تشابه بين الخطّ المسند الذي عرفت الكتابة به في كلّ من هاتين المنطقتين ثم ينتهي أصحاب هذا الافتراض الإفريقي إلى أن المجموعات التي استقرت في شبه الجزيرة العربية قد أكسبهم مكان إقامتهم الجديد خصائص جديدة ولكن هذه لم تتمكن من القضاء على الخصائص القديمة المشتركة التي لا تزال تشير إليها صلة التقارب بين اللغات الحامية واللغات السامية (٩).

على أنّ هذا الافتراض الإفريقي للموطن الأصلي للساميين تعترضه بعض الصعوبات والاحتمالات التي قد تقلل من وقعه بعض الشيء . وعلى سبيل المثال فإنّ لغة البربر (على القسم الغربي من الساحل الإفريقي الشمالي) لا يمكن أن تؤكد أنها لغة محلّية نقيّة . بل من المرجح أن يكون العكس هو الصحيح إذا أدخلنا في اعتبارنا أن قسماً لا يستهان به من قبال الوندال **Vandal** الجرمانية التي أتت من أواسط أوروبه واخترقت حدود الإمبراطورية في الغرب لتستقر في شبه جزيرة إيبريه **Iberia** (إسبانيه والبرتغال في الوقت الحالي) بعد القرن الرابع الميلادي قد واصلت زحفها عبر المضيق (الذي عرف في العصر

---

(٩) George Barton: المرجع ذاته ، صفحات ٦ وما بعدها. هذا ويقدم بارتون في دراسته هذه عرضا لكل من سبقه من الكتاب في صدد النظريات التي تتصل بأصل الساميين . جواد علي : المرجع ذاته ، صفحات ٢٣٤ وما بعدها . ويقدم كذلك عرضا للنظريات المتعلقة بالموضوع ذاته. راجع كذلك : **Philip K. Hitti : History of the Arab** ط ٧ ، (١٩٦١ London) .

العربي باسم مضيق جبل طارق) ليستقر جزء منها في القسم الغربي من الشواطىء الإفريقية الشمالية . وقد كانت هذه القبائل التي عبرت إلى الشاطىء الإفريقي على قدر من العدد والقوّة بحيث استطاعت أن تسقط الولاية الرومانية هناك وتقيم على أنقاضها مملكة خاصّة بهذه القبائل في ٤٢٩ م (١٠) . ومثل هذا الزخم الاستقراري الاستيطاني يفترض تعاملاً كثيفاً ، إن لم يكن اندماجاً ، مع السكان الأصليين للبلاد ، بما يستتبعه هذا من التأثير على لغة هؤلاء السكان أو على الأقل التفاعل معها .

هذا عن القسم الشمالي الغربي لإفريقية . أما فيما يخصّ شرقي إفريقية الذي يشير إلى الحبشة كموطن أصلي للسّاميين . فحقيقة إنّ الصلة بين الحبشة وجنوبي غربي العربية تشجّعها سهولة العبور بين الجانبين عبر مضيق باب المندب . وحقيقة أن الأحداث التاريخية تؤكد هذه الصلة فيما نراه من احتلال الأحباش لمنطقة اليمن عدة مرات ربما كان أكثفها ما حدث في القسم الأول من القرن السادس الميلادي . بل أكثر من هذا لقد أقام عدد من الأحباش في اليمن حتى في غير أوقات الاحتلال الحبشي . بل إن هناك احتمال كبير أن الأحباش كانت لهم مستوطنات في المنطقة (١١) . وهذا كلّه قد يشير إلى تأثير من جانب الحبشة على الجزيرة العربية على سبيل الترجيح طالما أن الحبشة هي الطرف القويّ في هذا « الحوار » من الناحية العسكرية .

ولكن هذا الاتجاه مردود عليه . فإذا كان الغزو العسكري يحمل معه في بعض الأحيان تأثيرات الطرف الغازي . فإن هذا في حدّ ذاته لا يشكّل في كثير من الأحوال قاعدة يمكن الاستناد إليها . ودليلنا على هذا أن الرومان

---

(١٠) J. H. Breasted : المرجع ذاته ، صفحات ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(١١) Maxime Rodinson : Mohammed (الترجمة الانجليزية قامت بها Anne Carter –١٩٧١ London) صفحات ٣٠–٣١ .

غزوا بلاد اليونان والمناطق المتأثرة بالحضارة اليونانية على امتداد القرون الأخيرة قبل الميلاد . ومع ذلك فإن الحضارة اليونانية هي التي غزت الرومان طوال هذه القرون وبعد هذه القرون غزواً يكاد يكون كاملاً سواء من جانب العلم أو الأدب أو الفلسفة أو المسرح أو الفن في كافة صوره، بل إنه رغم احتفاظ الرومان بلغتهم اللاتينية وتطويرها إلى مستوى النثر الفني والكتابة الفكرية الراقية إلا أن اللغة اليونانية بقيت رغم ذلك لغة الثقافة الأولى التي لا يستغني أديب أو خطيب أو مفكر أو سياسي روماني عن دراستها والتعمق فيها . والشيء ذاته يقال عن الفترة التي بدأت فيها الإمبراطورية الرومانية تترنح تحت ضربات القبائل الجرمانية المتبربرة القادمة من الشمال . لقد استمرت هذه الضربات نحو قرن من الزمان انتهت بسقوط رومه . (٤١٠ م) ثم بإزاحة آخر الأباطرة الرومان عن العرش الروماني (٤٧٦ م) وبقيام الممالك التي أسسها البرابرة قبل وبعد هذا التاريخ على أنقاض الإمبراطورية الرومانية ، ولكن مع ذلك فإن الحضارة الرومانية هي التي غزت هذه الممالك ثقافة وفناً وتأثيراً لغة وديناً [١٢] .

ومن هنا فالاحتمال قائم ، فيما يخص سبأ والحبشة ، أن الخط المسند قد يكون تأثيراً سبئياً على الحبشة وليس العكس ، وأن التأثير اللغوي قد سار في الطريق ذاته ، والشيء ذاته يمكن أن يقال عن التأثير الديني الذي يرمز إليه الإله « إلْمَقَهْ » الذي لا يوجد من الأدلة القاطعة ما يثبت أنه كان بالضرورة حبشياً . كذلك فمن الأمور الواردة ، إن لم يكن من الأمور المرجحة ، أن يكون الأثر الذي تركته الديانتان اليهودية والمسيحية قد قرب ثقافة الحبشة من

---

(١٢) عن التأثير الحضاري اليوناني على الامبراطورية الرومانية راجع :
M. Cary & T. J. Haarhoff : Life and Thought : in the Greek and Roman World (London ١٩٦١) . عن التأثير الروماني على البرابرة راجع Breasted : المرجع ذاته ، صفحات ٧٦٩ وما بعدها .

الثقافة السامية ومن ثم أفسح الطريق أمام التأثير السامي في اللغة الحبشية (١٣) .

ج ـ افتراضات اصل آسيوي للساميين

هذا عن الافتراض الإفريقي للوطن الأصلي للشعوب الساميّة . على أن عدداً آخر من الباحثين في هذه القضيّة اتجهوا بأنظارهم صوب القارة الآسيوية محاولين أن يجدوا فيها البقعة التي تصلح في رأيهم أن تكون هذا الوطن الأصلي وإن كانوا قد اختلفوا فيما بينهم في تحديد هذه البقعة . وأحد هذه الآراء يرى صاحبه أن منطقة أرمينية هي أنسب المناطق في هذا الصدد . وهو يعتمد في رأيه هذا على قصّة الطوفان كما جاءت في التوراة ويرى أنّ أوصاف هذه المنطقة تتفق مع ما يمكن استنباطه ممّا جاء في التوراة . ولما كانت القصة تذكر أن نوحاً قد أخذ أسرته (بما فيها أبناؤه) في الفلك فتكون الشعوب الساميّة والشعوب الآرية التي انحدرت من صلب هؤلاء الأبناء الذين عددتّهم التوراة قد بدأت في أرمينية كموطن أصلي لها (١٤) .

ولكن هذا الردّ تعترضه في رأيي صعوبتان : إحداهما هي أن قصة الطوفان لم يقتصر ورودها على التوراة كجزء من التراث العبري أو اليهودي . ولكنها ترد كذلك في تراث عدد كبير من الشعوب سواء في الفترة التي تسبق التوراة أو تلك التي تليها ـ وفي منطقة الشرق الأوسط وغيرها من المناطق في أرجاء مختلفة من العالم إذ هي تشير ـ احتمالاً ـ إلى الأمطار الغزيرة التي هطلت في دهر في عصر البلايستوسين ـ آخر العصور الجيولوجية ـ في المناطق المدارية في حقبة ما قبل التاريخ ـ واحتفظت بها الشعوب في ذاكرتها عبر الرواية من جيل لجيل حتى عبّروا عنها ، كتابة ـ كلّ بتصوّره الخاصّ ومن هنا فإنّه

---

(١٣) جواد علي : المرجع ذاته ، ص ٢٣٧ ، والحواشي ١ ـ ٤ .

(١٤) صاحب الراي هو John Peters ويرد الراي في J. Barton : المرجع ذاته ، ص ٨ .

يوجد أكثر من مكان مناسب لهذه القصة حسب تصوّر كلّ شعب ، والصعوبة الثانية ، وهي امتداد للأولى ، أن قصة الطوفان كما وردت في التوراة تأخذ هيكلها العام وأكثر تفاصيلها عن قصة الطوفان كما وردت في أساطير وادي الرافدين . وقصة الطوفان في وادي الرافدين سواء في ذلك روايتها السومرية أو البابلية أو روايتها كما وردت في ملحمة جلجامش تذكر أماكن في وادي الرافدين مثل مدينة أوروك Uruk (الوركاء حالياً) ومدينة شورباك Shuruppak (تل فاره حالياً) وكلاهما تقعان في جنوبي وادي الرافدين . كما تحدّد مكاناً في وادي الرافدين كذلك للجبل الذي وصلت إليه سفينة نوح ، وهو جبل نيسير Nisir الذي يحدّده الباحثون عادة بجبل بيرعمر كودرون الذي يقع جنوبي نهر الزاب الصغير (أحد روافد نهر دجلة) في سلسلة جبال زاجروس التي تمتد بطول المنطقة الشرقية لوادي الرافدين من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي [(١٥)] .

وإلى جانب هذا الرأي هناك رأي آخر يدخل كذلك ضمن الافتراض الآسيوي للموطن الأصلي للشعوب السامية . وأصحاب هذا الرأي الآخر يحاولون أن ينفذوا إلى اختيارهم لهذا الموطن الأصلي من طريق أخرى . فهم يلاحظون أن الجمل قد لازم الشعوب السامية منذ فجر تاريخهم . ولما كان الموطن الأصلي للجمل هو هضبة آسيه الوسطى أو المنطقة الواقعة إلى جنوب وجنوب شرقي بحر قزوين ، فقد انطلقت الشعوب السامية إذن من إحدى هاتين المنطقتين مروراً بإيران والمناطق الآهلة بالشعوب الهندوأوروبية حتى وصلوا إلى بابل

---

(١٥) فاضل عبد الواحد علي : الطوفان في المراجع المسمارية، بغداد ١٩٧٥ . وفيه يجد القارىء العربي ترجمة عربية للاصول المسمارية لقصة الطوفان — قصة الطوفان السومرية، صفحات ١١٩ وما بعدها، قصة الطوفان البابلية (اتراخاسيس) ، صفحات ١٢٣ وما بعدها ، قصة الطوفان في ملحمة جلجامش ، صفحات ١٧٤ وما بعدها .
قصة الطوفان في التوراة : سفر التكوين ، الاصحاحات ٦ — ٩ .

في القسم الجنوبي من وادي الرافدين ومن هناك كان تفرعهم إلى بقية أرجاء المنطقة التي استقرت فيها الشعوب السامية بصفة نهائية . وقد أيد هؤلاء رأيهم بشاهد لغوي مؤداه أن اللغات السامية يشترك أغلبها في عدد ملحوظ من الألفاظ الدالة على مسميات تتصل بأنواع من النباتات والحيوانات وجوانب العمران ، وأنه بتحليل هذه الألفاظ وبمقارنتها وتتبعها بغية التوصل إلى أقدم المناطق التي ظهرت فيها المسميات التي نشير إليها ، نجد أن هذه المسميات من صميم المنطقة التي تقع فيها بابل (١٦) .

وقد وجه إلى هذا الرأي ردان : أحدهما هو أنه لم يثبت ثبوتاً علمياً قاطعاً أن المسميات التي تشير إليها الألفاظ المذكورة وجدت في إقليم بابل قبل غيره من المناطق التي عاشت فيها الشعوب السامية . هذا بالإضافة إلى أن عدداً آخر من الألفاظ الدالة على مسميات أكثر التصاقاً بحياة هذه الشعوب . لم تشترك فيها اللغات السامية مع أن هذا الاشتراك ، إذا نظرنا من وجهة نظر لغوية صرفة . يصبح أمراً وارداً ومنتظراً (١٧). أما الرد الآخر فهو أن أية تحركات أو هجرات بشرية بغية الاستقرار تتجه بالضرورة من المناطق المقفرة إلى المناطق الخصبة وليس العكس (١٨)، ومن ثم فمن غير الممكن أن تكون الهجرات السامية قد انتقلت من جنوبي العراق . وهي منطقة على

---

(١٦) راجع آراء: Von Kremer : Semitische Kulturen Entlehnungen aus Pflantzen - und - Tierreiche;
Wright : Comparative Studies of the Semitic Languages; A. Guidi : Della Sede Primitiva . dei Popoli Semitici
وهذه الآراء معروضة في Barton : المرجع ذاته ، ص ٣ .

(١٧) Noldeke : Semitische Sprachen ، ط ٢ (١٨٩٩ Leipzig) ص ٣.

(١٨) Hitti : المرجع ذاته ، ص ١٠ .

جانب كبير من الخصوبة . إلى مناطق صحراوية مثل شبه جزيرة العرب أو شبه صحراوية مثل المنطقة السوريّة .

وأودّ أن أويّد هذا الردّ الأخير بمثال من الحضارة السومرية التي ظهرت في جنوبي وادي الرافدين في الفترة المبكرة من تاريخ هذه المنطقة . ان قائمة ملوك سومر التي ترك لنا فيها السومريون تصوّرهم عن أسماء السلالات والملوك الذين حكموا المنطقةوالمدن التي حكموا فيها. يمكن ان نستنتج منها ان مجموعات سامية كانت في حركة مستمرة ومتزايدة من المنطقة الصحراوية التي تلي وادي الرافدين غرباً . أو على الأقل من المنطقة الرعوية التي تقع فيها هذه الحدود . إلى المنطقة الخصبة التي تقع في جنوبي الوادي . والدليل على ذلك أنّ القائمة المذكورة تظهر فيها بعض الأسماء السامية في الفترة الأولى من العصر السومري ولكن عددها قليل بالنسبة لعدد الملوك ذوي الأسماء السومرية . بينما نجد الأسماء السامية يزيد عددها في الفترة اللاحقة من هذا العصر . كما يظهر على سبيل المثال من أسماء ملوك مدينة كيش (الأحيمر حالياً) الذين بلغ عددهم ٢٣ ملكاً . فإذا أغفلنا أسماً واحداً من هذه الأسماء (لم يستطيع الناسخون القدماء أن يقرأوه جلياً من الألواح الطينية التي سجلت عليها الأسماء) ليصبح عدد الأسماء الثابتة هو ٢٢. وجدناها تضمّ ١٢ إسماً من أصل سامي وستة أسماء سومرية وأربعة أسماء لا يمكن تحديد أصلها . وهذه الزيادة المندرجة تشير في رأيي إلى هجرات سامية من خارج المنطقة الخصبة في جنوبي وادي الرافدين بدأت على هيئة مجموعات قليلة ثبتت أقدامها في المنطقة بدليل وصول عدد من زعمائهم إلى حكم البلاد ، ثم زادت أعداد هذه المجموعات حتى أصبحت تشكل أغلبية في السكان أو أغلبية في السيطرة على موارد الإنتاج أدت إلى أن تكون أغلبية ملوك المدينة أو الدويلة المذكورة من بين زعمائهم [١٩] .

---

(١٩) George Roux : Ancient Iraq (طبعة Pelican ١٩٦٦) ؛ ص ١١١

ج ـ حول اصل الساميين وشبه جزيرة العرب

هذا فيما يخص منطقة بابل في جنوبي وادي الرافدين كموطن أصلي انطلقت منه الشعوب السامية إلى الأماكن التي استقرت فيها في العصور التاريخية . وقد رأينا الصعوبات التي تقف في طريق أصحاب هذا الرأي بعد أن رأينا صعوبات من نوع آخر تعترض الرأي الذي يجد في منطقة أرمينية أنسب مكان للوطن الأصلي لهذه الشعوب . على أن رأياً ثالثاً ضمن الافتراض الآسيوي لأصل الشعوب السامية استحوذ ولا يزال يستحوذ على مناقشات الباحثين بشكل موسّع حتى الآن، وهو الرأي الذي يجد أصحابه أن شبه جزيرة العرب (بما فيها الصحراء السورية التي تشكل تخومها الشمالية) هي الموطن الأصلي للساميّين .

وموجز ما توصّل إليه أصحاب هذا الرأي هو أن شبه جزيرة العرب لم تكن منطقة صحراوية جافة في كلّ عصورها القديمة ، فقد تعرّضت لهطول أمطار غزيرة طوال عصر البلايستوسين (آخر العصور الجيولوجية) شأنها في ذلك شأن بقية المناطق المدارية (على الأقل في آسيه وأوروبه وأميركه الشمالية) وأنها كانت نتيجة لذلك منطقة تغطيها الغابات والنباتات والأعشاب وتسكنها المجموعات البشرية على امتداد مساحتها . ولكن العصر البلايستوسيني انتهى بأمطاره حوالي ١٠,٠٠٠ ق . م . وبدأ الجفاف يزحف على المنطقة لتحلّ محلّ هذه المناطق الخضراء المأهولة بالسكان امتدادات صحراوية جافة مجدبة (إلاّ حيث وجدت الأنهار التي نحتت لها مجرى واستقرت عليه مثل نهر النيل ونهري دجلة والفرات) ـ وكانت شبه الجزيرة العربية إحدى هذه الامتدادات . وقد كانت نتيجة ذلك ـ في رأي هؤلاء الباحثين ـ أن موارد الغذاء من النبات والحيوان بدأت تتضاءل بالتدريج بحيث اضطر سكان المنطقة إلى أن ينزحوا منها بالتدريج كذلك كلّما زحف الجفاف والإجداب على هذه الموارد ـ الأمر الذي أدى إلى موجات متتالية من الهجرات البشرية من شبه الجزيرة العربية إلى المناطق

الخصبة أو الأقل جفافاً والتي كانت تقع على تخومها . وهي هجرات كانت آخرها ، حسبما رأى بعض هؤلاء الباحثين . هي الهجرة العربية التي تمت في أعقاب الفتوح العربية الإسلامية في القرن السابع م . وقد استقرت هذه الهجرات في المناطق التي وصلت إليها بعد أن حملت معها لغتها ، وكانت النتيجة هي هذه الشعوب السامية المتعدّدة التي تتقارب لغاتها إلى حدّ كبير سواء في ألفاظها أو في طريقة تركيب هذه الألفاظ أو تصريفها (٢٠) .

وقد رتّب أصحاب هذا الرأي هذه الهجرات . استناداً إلى ما استنتجوه من الشواهد التاريخية . بحيث كانت تفصل بين كلّ هجرة والتي تليها فترة تطول أو تقصر . هي الفترة اللازمة لكي يزيد عدد السكان عن موارد البلاد المتعرّضة للجفاف والتراجع بالقدر الذي يدفع جماعات منها إلى الهجرة بحثاً عن موارد جديدة خارج المنطقة . ويمكن وضع صورة الهجرات التي توصّلوا إلى ترتيبها على النحو التالي :

---

(٢٠) نجيب ميخائيل ابراهيم : موسوعة « مصر والشرق الادنى القديم » ، ج ٣ (سورية) ، ط ١ ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ . وفيه تفصيل للهجرات السامية Hitti : المرجع ذاته ، صفحات ١٠ وما بعدها ، ويرى انه برغم ان الوطن الاصلي المشترك للساميين والحاميين هو شرقي افريقية، الا ان الفرع السامي عبر الى شبه الجزيرة العربية لتصبح الوطن الاصلي للساميين ، ومن هذا الوطن الاصلي انطلقت الهجرات السامية الى حيث توجد الآن . كذلك : L. Caetani : Studi di Storia Orientale ، ج١ ، (Milano ١٩١١) صفحات ٥١ ــ ٢٨٨ ، وهو صاحب نظرية الدافع الاقتصادي للهجرات السامية من شبه الجزيرة العربية وان الفتوح العربية في العصر الاسلامي هي آخر موجات هذه الهجرات بهذا الدافع . راجع رداً على النقطة الخاصة بالدافع الاقتصادي لهذه الفتوح في : السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ، ١٩٧٠ ، صفحات ٦٧ ــ ٦٨ وفيه يرد هذه الفتوحات الى فكرة « الجهاد » التي تضمنتها العقيدة الاسلامية ، على الاقل في بداية هذه الفتوحات ، وان لم يستبعد الدافع الاقتصادي استبعادا كاملا .

١ — الأكديون وقد استقروا في وادي الرافدين في الألف الرابعة . ق. م.

٢ — الكنعانيون (بما فيهم الفينيقيون) والآموريـّون. وقد استقروا في المنطقة السورية ووادي الرافدين خلال الألفين الثالثة والثانية ق . م .

٣ — الآراميون وقد استقروا في كل مناطق الهلال الخصيب ،والعبرانيون الذين استقروا في المنطقة السورية في النصف الثاني من الألف الثانية ق.م.

٤ — الأنباط وبعض القبائل العربية الجاهلية وقد استقروا في منطقة الهلال الخصيب بين القرن الثاني ق . م . والقرن السادس م .

٤ — العرب المسلمون وقد استقروا في منطقة الهلال الخصيب ومصر وبقية شمال إفريقية منذ القرن السابع الميلادي .

ويدعم أصحاب هذا الرأي القائل بموجات كبيرة شبه منتظمة من الهجرات انطلقت من شبه الجزيرة العربية نتيجة للجفاف الذي حلّ بها (بعد أن كانت منطقة خضراء مأهولة بالسكان) بعدد من الملاحظات الصحراوية في شبه الجزيرة من القواقع المتحجرة أو التي جفت والتي لا تعيش إلاّ في المياه العذبة ، ومن بقايا عظام وأدوات حجرية ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ ممّا يشير إلى وجود الماء والحياة في هذه المناطق الصحراوية في الماضي البعيد . ومن بينها عدد من الوديان الجافة في الوقت الحاضر مثل وادي الدواسر ووادي الرمّة ووادي السرحان التي ربما كانت قبل ذلك وديان أنهار جفّت بعد تراجع عصر الأمطار . ومن بينها كذلك أن عدداً من الحيوانات والأشجار التي كانت معروفة في شبه الجزيرة والتي أوردها الكتاب الكلاسيكيون (اليونان والرومان. ٥٠٠ ق . م — ٥٠٠ م تقريباً) أو الكتّاب العرب ، ولكنها قلّت أو اندثرت في الوقت الحاضر — وهو أمر يدعم نظرية استمرار الجفاف ومن ثم زحف

الإقفار على المنطقة حتّى في العصور التاريخية (٢١) .

وقد انقسم أصحاب هذا الرأي حول تحديد المكان ، الذي انطلقت منه هذه الهجرات من شبه الجزيرة العربية فقال بعضهم أن وسط شبه الجزيرة وبخاصة منطقة نجد ، هي الموطن الأول الذي انطلقت منه الهجرات السامية إلى حيث استقرت في العصور التاريخية ويرى هؤلاء أنّ هذه المنطقة تمثل الصفات الأساسية التي تجمع بين الشعوب السامية خير تمثيل ومن ثم فهي أنسب من غيرها من المناطق لكي تكون موطناً أصلياً لهذه الشعوب (٢٢) غير أنّ ضعف هذا الافتراض يبدو واضحاً في جانبين : الجانب الأول هو أن منطقة نجد تفتقر كثيراً إلى أسباب الحياة التي تؤدي إلى تكاثر السكان وتضخّم عددهم بالصورة التي تجعلها خزاناً بشرياً لا يلبث أن يفيض بما فيه من هؤلاء السكان فينطلقون منه في موجات مهاجرة متعاقبة.فالمنطقة لا يوجد فيها إلاّ عدد قليل من الواحات المتناثرة وسط ساحات كبيرة مقفرة . كذلك فإنّ قيام هجرات من هذه المنطقة إلى أطراف شبه الجزيرة في الشمال والجنوب والشرق والغرب (كما يرى أصحاب هذا الرأي) تلزمه دابّة نقل مثل الجمل الذي يستطيع أن ينقل أحمالاً ثقيلة لمسافات طويلة في الأرض الرملية وفي الجو الحار الجاف في ظروف قد تنقطع فيها المياه أياماً متعاقبة . وفي هذا المجال فإنّ الجمل لم يظهر في مناطق الشعوب السامية إلاّ منذ القرن الثاني عشر ق . م . أما دابة النقل

---

(٢١) عن ترتيب الهجرات راجع : G. Roux : المرجع ذاته ، ص٣٧ .
عن ترتيب الهجرات بشكل مفصل راجع : نجيب ميخائيل ابراهيم : المرجع ذاته ، صفحات ٢٣ ـ ٣٠ . عن عرض ملخص لدعامات هذا الرأي راجع ، جواد علي : المرجع ذاته ، صفحات ٢٤٢ ـ ٢٤٥ .

(٢٢) Karl Brockelmann: Grundrisse der Vergleichende Grammatik der Semitischen Sprachen, Hommel : Ethnologie und Geographie des Alten Orients (Berlin, ١٩٠٨) ج ١ ص ٢ ، (Muenchen , ١٩٢٦) ، ص ١٠

التي عرفتها المنطقة قبل ذلك فهي الحمار الذي لا يصلح إلاّ لنقل أحمال محدودة لمسافات محدودة (٢٣) .

أما القسم الآخر من أصحاب نظرية الهجرات المنظمة من شبه الجزيرة العربية فيرون أن اليمن هي الموطن الذي انطلقت منه الهجرات الساميّة ، ودليلهم في ذلك أنّ إله القمر الذي عرفه اليمنيون ظهر كذلك بين بعض الشعوب الساميّة الأخرى ، كما يرون أن الخط المسند الذي عرف في اليمن هو الذي اشتقت منه سائر الخطوط التي كتبت بها الشعوب السامية الأخرى ومنها الخط الفينيقي (٢٤) . على أن هذا الرأي يعتوره عدد من نقاط الضعف . ومن بين هذه النقاط أنّ اليمن ظلّ لفترة طويلة منطقة خصبة مستقرّة ودليلنا على هذا الاستقرار ما وصل إليه سكانه من مستوى حضاري مزدهر في عصوره السابقة للإسلام ، وهو مستوى ظهر في أكثر من جانب سواء في ذلك بناء السدود أو تنظيم الريّ والزراعة أو الطرز المعماريّة أو انتشار العملة ورسوخها أو العلاقات السياسية الخارجية. وإذا كان اليمن قد ظهرت فيه بعض الاضطهادات أو الاضطرابات أو حتّى بعض التراخي الحضاري في فترة أو أخرى من فترات تاريخه . فإن هذا لا يكفي لأن يدفع بسكانه إلى هجرات كبيرة منتظمة أو شبه منتظمة إلى الخارج البلاد .

كذلك فإن انتقال عبادة إله القمر من اليمن إلى بعض الشعوب السامية لا يعني بالضرورة هجرات بشرية حملت معها هذه العبادة إلى مناطق أخرى. فهناك عقائد وعبادات قديمة انتقلت وانتشرت خارج المناطق التي ظهرت فيها دون هجرات على الإطلاق . مثل عبادة الإله آمون المصري التي عرفت طريقها

---

(٢٣) G. Roux : المرجع ذاته ، صفحات ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢٤) Philby: The Background of Islam (Alexandria, ١٩٤٩) صفحات ٩ وما بعدها ، Montgomery : Arabia and the Bible (Philadelphia ١٩٣٤) ، ص ١٢٦

إلى بلاد اليونان ، ومثل الإلهة إيزيس المصرية التي انتشرت عبادتها في العالم اليوناني الروماني وكان لها معبد في رومه ، دون أن يستلزم هذا هجرات مصرية تنقل عبادة الإلهين إلى هذه البلاد [٢٥] وما يقال عن هاتين العبادتين يصدق على غيرهما ، فالعقيدة المسيحية انتشرت على امتداد الإمبراطورية الرومانية دون أن يستدعي هذا هجرة بشرية من فلسطين ، بل لقد انتشرت هذه العقيدة رغم محاربة الأباطرة الرومان لها ورغم اضطهادهم لكلّ من كان يعتنقها وهو اضطهاد وصل إلى درجة المذابح الجماعية المنظمة كما حدث في رومه على عهد الإمبراطور نيرون (٥٤ م ـــ ٦٨ م) وكما حدث في الاسكندرية على عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ م ـ ٣٠٥ م) [٢٦]. أمّا اشتقاق الخط العربي الشمالي أو الخط الفينيقي من الخط المسند فهو أمر لا يزال غير ثابت حتى الآن ، وحتى على افتراض احتماله فإنّ انتقاله من جنوبي الجزيرة إلى شماليها لا يستلزم بدوره أية هجرات بالضرورة . بل إنّ انتقاله عبر المعاملات التجارية هو أمر طبيعي ووارد .

أما القسم الثالث من أقسام شبه الجزيرة الذي اتجهت إليه أنظار بعض الباحثين ليروا فيه الموطن للهجرات الساميّة فهو منطقة البحرين في شرقي الجزيرة . وقد أقام هؤلاء رأيهم على بعض الدراسات التي قد تثبت أن الفينيقيين (وهم فرع من الكنعانيين ـ أحد الشعوب الساميّة) قد هاجروا إلى المدن الفينيقية من هذه المنطقة . ونحن نستطيع أن نزيد على هذه الدراسات ، تأييداً

---

(٢٥) عن وجود عبادة الاله المصري آمون في بلاد اليونان راجع ، افلاطون في محـاورات : Alkibiades, II, 148 E-149 B و Nomoi ,738 C؛ عن وجود عبادة الالهة المصرية ايزيس عند الرومان راجـع : M. Cary المصدر ذاته ، صفحات ٤٦٨ ، ٥٣٥ ، ٥٨٨ ـ ٩ ، ٦٩٧ ـ ٨ .

(٢٦) اضطهادات المسيحيين في رومه على عهد نيرون ، Cary : ذاته ، ص ٥٣١ ، على عهد دقلديانوس ، المؤلف ذاته : المرجع ذاته ٧٦٧ ـ ٨ .

للصلة بين منطقة البحرين والفينيقيين ، نصاً واستنتاجاً . أما النصّ فهو للرحالة المؤرخ الجغرافي اليوناني سترابون Strabo الذي كتب في أواخر القرن الأول ق . م . وأوائل القرن الأول الميلادي . وفيه يتحدث عن الخليج الذي تطلّ عليه منطقة البحرين فيشير فيه إلى جزيرتين هما : أرادوس Arados وصور Tyros ويحدثنا أن بهاتين الجزيرتين معابد تشبه معابد الفينيقيين وأن أهل الجزيرتين يؤكدان أن المدن والجزر الفينيقية الّتي تحمل هذين الاسمين (يشير إلى ميناء إرواد وإلى ميناء صور الّتي كانت في أصلها جزيرة ربط الفينيقيون بينها وبين الساحل السوري) هي مستوطنات لهم (أي لأهل جزيرتي الخليج) [٢٧] . وأمّا الاستنتاج فهو أن الفينيقيين حين ظهروا لأول مرّة على مسرح التاريخ في مدنهم على الساحل السوري ، ظهروا كملاحين مهرة دون أن نعرفهم في فترة بدائية فيها فنّ الملاحة وتدربوا عليه حتّى وصلوا إلى درجة الصقل والإجادة — وهذا يرجّح . استنتاجان أنهم لا بدّ وقد مرّوا بهذه المرحلة التمهيدية على شواطىء أخرى قبل وصولهم إلى الشاطىء السوري . ومن هنا . وفي ضوء النصّ الذي أورده سترابون تبرز منطقة البحرين كموطن أصلي محتمل هاجر منه الفينيقيون إلى الشاطىء السوري .

كذلك فأودّ أن أشير فيما يخص منطقة البحرين أن علاقات حضارية قديمة وجدت بينها وبين وادي الرافدين في الفترة المعاصرة لثقافة العُبَيد (٤٠٠٠ — ٣٣٠٠ ق . م .) وللحضارة السومرية في عصر فجر السلالات السومرية (٢٧٥٠ — ٢٣٠٠ ق . م .) يدلّ على ذلك قدر لا بأس به من الآثار الّتي كشف عنها المنقبون الأثريون . من بينها قطع من الفخّار المصنوع والمزخرف على النمط العبيدي والمعاصر لثقافة العبيد في وادي الرافدين عثر عليها في موقع الدوسرية على الشاطىء الغربي للخليج العربي (جنوبي الجبيل)

---

(٢٧) عن الجزر الواقعة في الخليج Strabo : XVI, 3, 4 ؛ عن المدن ذاتها على الشاطىء السوري ، الكاتب ذاته : XVI, 2, 15 .

ومن بينها كذلك تمثال يشبه التماثيل السومرية في جزيرة تاروت الواقعة على الخليج العربي ممّا يلي واحة القطيف [٢٨] . وفي مجال التأثير والتأثر الحضاري بين هذه المنطقة وبين وادي الرافدين يصبح احتمال التأثير من منطقة البحرين على وادي الرافدين احتمالاً وارداً تماماً مثل الاحتمال المعاكس طالما أنّ الدليل القاطع على اتجاه التأثير لم يكتشف حتى الآن وإذا صح هذا الاحتمال الأول فقد يشير إلى هجرة من البحرين إلى المنطقة الجنوبية من وادي الرافدين وبخاصّة إذا تذكّرنا ما سبقت الإشارة إليه من أن قائمة الملوك السومريين ضمت بين أسماء ملوكها في دويلات المدن السومرية الجنوبية بعض أسماء ساميّة . وعلى أيّ حال فإن هذا ، كما ذكرت ، يظلّ احتمالاً نضمّه إلى ترجيح انطلاق هجرة من هذه المنطقة إلى الشاطىء السوري الفينيقي ، ولكن كلاهما لا يرقى إلى مرتبة التأكيد ، كما أنه حتى في حالة ثبوت كلّ من الترجيح والاحتمال . فإنّ هذا لن يدلّ إلاّ على هجرتين (بصرف النظر عن حجمهما) لا يستقيم الاعتماد عليهما وحدهما لافتراض منطقة البحرين وطناً أصلياً لكلّ الشعوب الساميّة .

وأخيراً ، ففي مجال افتراض شبه الجزيرة العربية كموطن أول لهجرات سامية استقرت في كافة المناطق التي يتكلم سكانها اللغات السامية الآن ، نجد رأياً يقتصر على الحافة الشمالية لشبه الجزيرة العربية كمنطلق لهذه الهجرات [٢٩] والرأي في حد ذاته منطقي من حيث أنه لا يصطدم بصعوبات جغرافية في وصول هذه الهجرات إلى منطقة وادي الرافدين أو المنطقة السورية على سبيل

---

(٢٨) راجع ملحق اللوحات عن المخلفات الفخارية العبيدية في القسم الشمالي الشرقية من شبه الجزيرة العربية ، عن عصر العبيد في وادي الرافدين راجع: G, Roux: المرجع ذاته ، صفحات ٦٧ – ٧١ .

(٢٩) G, Roux : المرجع ذاته ، صفحات ١٣٨–١٣٩ . ويرى هذا الباحث ان الساميين كانوا في هذه المنطقة منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولكنهم كانوا يظهرون على المسرح التاريخي في سجلات الدول المستقرة عندما يرتبط اسمهم بحدث ظاهر ، قد يكون تحركاً عسكرياً أو تفوقاً سياسياً أو غير ذلك.

المثال . وفي الحقيقة ان افتراض هجرة آمورية إلى وادي الرافدين وهجرة آرامية إلى سورية من هذه المنطقة يبدو افتراضاً وارداً ، ولكن مع ذلك فإن هذا الافتراض ، إذا ثبتت صحته ، لا يفسّر إلاّ هجرتين اثنتين يمثلان شعبين اثنين من الشعوب المتكلمة باللغات السامية وتبقى بقية الحالات المتصلة ببقية هذه الشعوب دون تفسير مقنع .

هذه ، بإيجاز ، هي آراء الباحثين الذين يرون أن شبه الجزيرة العربية هي موطن الساميّين ، وأعود فأذكّر بأساس افتراضهم ، وهو أنّ شبه الجزيرة كانت قبل الألف العاشرة ق . م . منطقة خضراء مأهولة بالسكان ، ولكن ظروف الجفاف التي حلّت بها دفعت بها نحو الإقفار التدريجي ، ومن ثم فقد أخذت مواردها في النضوب ممّا دفع بسكانها إلى الانطلاق في هيئة هجرات متعاقبة إلى المناطق المتاخمة لها سعياً وراء موارد جديدة . ولكن أحد الباحثين البارزين الذين عكفوا على دراسة تاريخ شبه الجزيرة وأحوالها تصدّى لهذا الافتراض بشقّيه ، سواء في ذلك الشقّ الذي يردّ إقفار شبه الجزيرة إلى عوامل الجفاف الطبيعي ، أو الشقّ الذي يفترض هجرات كبيرة انطلقت من شبه الجزيرة لتنتهي إلى تكوين الشعوب السامية الحاليّة . ويرى هذا الباحث أن إقفار الجزيرة لا يعود إلى عامل الجفاف فالبحوث الجيولوجية التي تتصل بهذا الموضوع لم تتم إلاّ في عدد محدود من أقسام شبه الجزيرة العربية لا يكفي لأن يسري حكماً على المنطقة بأكملها ومن ثمّ فهو يستبعد الاعتماد على هذه البحوث الجيولوجية ويقتصر على الدلائل التاريخية في التوصّل إلى رأي في القضيّة (٣٠) .

---

(٣٠) Alois Musil : Negd (New York ، ١٩٢٨) ، صفحات ٣٠٤ — ٣١٩ . راجع كذلك ردا على راي هذا الباحث يؤكد تحولا في مناخ جنوبي شبه الجزيرة نحو الجفاف ابتداء من القرن الثالث الميلادي دفع سكان اليمن الى الهجرة نحو الشمال ، اعتمادا على ادلة اثرية وتاريخية وادلة من القصص الشعبية في : S. Huzayyin : Changement Historique du Climat et du Paysage de l'Arabie du Sud (Bulletin of the Faculty of Arts, Uuiversity of Egypt) المجلد الثالث ، الجزء الاول ، (القاهرة ١٩٣٥) ، صفحات ١٩ — ٢٣ .

ومن هذا المنطلق التاريخي يرى هذا الباحث أن تحوّل الأرض الخصبة إلى صحاري مقفرة جاء نتيجة لعامل آخر هو تدهور سلطة الحكومات التي كانت موجودة في شبه الجزيرة . الأمر الذي أدى إلى تخلخل الأوضاع في الداخل وخروج الزعماء المحليّين ورؤساء القبائل عن طوع هذه الحكومات ، وهذا بدوره أدّى إلى انتشار النزاعات القبلية والتفكك والتفتت الذي يغري بالغزو الخارجي بما يستتبعه هذا من قمع وثورات واضطهادات تؤدي إلى مزيد من تدهور الأمور. وقد ترتب على هذا التدهور انعدام الاستقرار من جهة والانصراف عن العناية بموارد البلاد من جهة أخرى بكل ما يعنيه هذا من تقلّص الرقعة المزروعة وتضاؤل وإهمال المدن والمنشآت الحيوية وتضاؤل النشاط التجاري الذي يؤدي بالضرورة إلى تحوّل الطرق التجارية . والنتيجة الطبيعية لكلّ هذا هي هجرة مجموعات من سكان البلاد إلى أماكن أخرى أكثر أمناً واستقراراً ، ومن ثم أكثر ملاءمة لحياة يجدون فيها من أسباب الحياة ما بدأوا يفتقدونه في مناطقهم الأولى — وإن كان الباحث يسارع فينفي عن هذا النوع من الهجرة الصفة الدورية شبه المنتظمة التي يتبناها أصحاب الرأي الذي انبرى للردّ عليه .

والباحث يقدم دليلاً على هذا ما حدث في اليمن حين ضعفت الحكومة المركزية وبرزت سلطة الزعماء المحليين من الأقيال والأذواء وتفاقم ما بينهم من شقاق ونزاع فوقعت البلاد فريسة للتدخل الخارجي سواء من جانب الفرس أو من جانب الحبشة في النصف الأخير من القرن السادس الميلادي . ويستطرد الباحث ليذكر أنّ تصدّع سدّ مأرب في تلك الفترة كان نتيجة مباشرة لضغط الماء على جوانبه ضغطاً أدى إلى انهياره ، ومن ثم إلى حرمان منطقة واسعة من الأرض الزراعية من المياه التي كانت تعتمد عليها في ريّها ، ومن ثم إلى هجرة القبائل التي كانت تقطن هذه المنطقة وتعتمد على زراعتها كمورد حيويّ لها . وواضح أن تصدّع جدران السدّ هو نتيجة مباشرة لإهمال الحكومة القائمة في ذلك الوقت للمنشآت الحيوية للبلاد ، وسدّ مأرب هو من أبرز هذه

المنشآت . وأخيراً فإنّ الباحث يحاول تدعيم نظريته هذه التي تردّ زحف الإقفار على الأراضي الخصبة نتيجة لتدهور الحكومات وانصرافها عن شئون العمران وليس إلى عوامل الجفاف الطبيعي بأمثلة من التقدم الذي حدث في عدد من البلاد العربية بعد القرن التاسع عشر والذي كانت نتيجته إنشاء عدد من المدن في مناطق صحراوية واسترجاع قدر كبير من الأراضي المقفرة وتحويلها إلى أراضي مزروعة عن طريق حفر الآبار وشقّ القنوات وتعمير القرى .

وينتهي هذا الباحث من أدلّته إلى أن فكرة الهجرات الدورية الكبيرة من شبه جزيرة العرب ليس لها ما يبرّرها فليس هناك من يثبت مثلاً أن العبرانيين أو الهكسوس قد جاءوا من شبه الجزيرة . كما أن الحديث عن أن قبائل يمنية هاجرت إلى تخوم الشام والعراق وأسست هناك إمارتي الغساسنة والمناذرة قول لا تؤيده المصادر الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) أو السريانية التي تشير بوضوح إلى أن هذه التخوم كانت مناطق عامرة بالسكان تعيش على الموارد التجارية نتيجة لمرور خطوط القوافل بهذه المنطقة . وأن الحكومتين اللتين قامتا هناك أسسهما زعماء أو رؤساء قبائل من المنطقة ذاتها دون أن نضطر إلى افتراض يخرج بنا عن حدودها كذلك فهو يرى أن الفتوح الإسلامية لم تشكل هجرة كبيرة بالمعنى المتعارف عليه انطلقت من شبه الجزيرة . وفي رأيه أن القوات التي فتحت العراق والمنطقة السورية لم تقتصر على القبائل الحجازية أو النجدية ، وإنما أسهمت فيها قبائل من نصارى العراق وسورية رأوا أن المقاتلين المسلمين من بني جلدتهم فانحازوا إليهم رغم اختلاف الدين ضدّ الفرس والبيزنطيين .

وفي رأي هذا الباحث عدد من نقاط القوة دون شك . وبخاصة فيما يتعلق باعتراضه على فكرة الهجرات الدورية الكبيرة وفي ذكره لعامل القلاقل المحلية

التي قد تدعو إلى هجرات صغيرة غير منتظمة . على أني أجد في رأيه عدداً من نقاط الضعف أودّ أن أردّ عليها في إيجاز وأول هذه النقاط هي أن تجاهل نظرية كسبب أساسي للإقفار اعتماداً على أن البحوث الجيولوجية التي تمت في شبه الجزيرة العربية محدودة سواء في عددها أو في عدد المناطق التي أجريت فيها ليس كافياً لتجاهل العلاقة بين الجفاف والإقفار كسبب ونتيجة مترابطين ترابطاً وثيقاً . ودليلنا على هذا هو أن المنطقة المقفرة لا تقتصر على شبه الجزيرة وحدها بحيث يمكن أن نردّ الإقفار إلى إهمال الحكومات فحسب . فشبه الجزيرة العربية تشكل جزءاً واحداً من امتداد صحراوي مقفر كبير يمتد من الشواطىء الغربية الإفريقية المطلة على المحيط الأطلسي غرباً إلى نهر الإندوس في الهند شرقاً لا يخفف من حدّته إلاّ منطقتان كانت الأنهار الكبيرة فيهما قد نحتت مجراها واستقرت عليه قبل حلول عصر الجفاف ، وهما وادي النيل في مصر ووادي دجلة والفرات في العراق . ونحن لا نستطيع أن ندّعي أن كل هذا الامتداد الصحراوي (الذي يضمّ إلى جانب شبه الجزيرة العربية ، الصحراء الغربية إلى غربي النيل والصحراء الشرقية — وتسمى أحياناً صحراء العرب — إلى شرقيّ هذا النهر ، ثم هضبة إيران) قد جاء إقفاره نتيجة لضعف الحكومات وانصرافها عن الاهتمام بالموارد الحيوية للبلاد فقد كانت بعض هذه الصحارى ضمن حدود دول شهدت فترات من القوة والوحدة والتماسك والازدهار مثل مصر وفارس . ومع ذلك بقيت الامتدادات الصحراوية المقفرة كما هي دون أن تمتدّ إليها الخصوبة .

أما الاستشهاد بأن يد الإنسان قد تمكنت بعد القرن التاسع عشر من انتزاع مساحات من الأرض المقفرة الصحراوية في البلاد العربية وإدخالها في دائرة الخصوبة والزراعة والعمران فردّنا عليه هو أنّ إمكانات العلم الحديث قد أتاحت لإنسان القرن العشرين قدراً من السيطرة على الطبيعة لم يكن متاحاً له في العصور القديمة سواء في تعمير الأراضي المقفرة أو في غيرها من المجالات .

وحتى مع ذلك فإنّ مساحات الأراضي المقفرة التي أمكن استصلاحها ومدّ العمران إليها لا تشكل حتى الآن نسبة على قدر كبير من الضآلة إذا قورنت بمساحة الامتدادات التي لا تزال على إقفارها في هذه البلاد .

وأخيراً ، وليس آخراً ، فإنّ استشهاد الباحث بما حدث في حالة اليمن في القرن السادس الميلادي هو استشهاد محدود زمناً ومكاناً . فشبه الجزيرة العربية ، وإن كانت تخضع في عمومها لظروف جغرافية واحدة ، فإن أقسامها المختلفة تختلف فيما بينها في حظ كل منها من هذه الظروف ، سواء في ذلك عامل الجفاف الذي لم يكن متماثلاً في كل أقسام شبه الجزيرة وإنما كان يقسو أحياناً قسوة بالغة يظهر أثرها واضحاً في حياة الارتحال والتفكك وتخف قسوته أحياناً فتحظى بعض المناطق بأنصبة متفاوتة من الماء والخصوبة أو عامل الموقع الذي يتأثر بالضرورة بطرق المواصلات والخطوط التجارية . كما يتأثر بالقوى والعلاقات الدولية المحيطة به في فترة أو في أخرى من فترات الحركة التاريخية النشطة غالباً المتراخية في بعض الأحيان . بين القوى الشرقية والغربية المتصارعة والتي ظهر صراعها بشكل خاصّ في المنطقة التي تشغل نقطة الوسط بين هذه القوى ، وهي منطقة الشرق الأوسط ، وشبه الجزيرة العربية . وقد كانت نتيجة كل ذلك اختلافاً في طبيعة القوام السياسي بين منطقة ومنطقة . ابتداء بالقوام القبلي ومروراً بالتجمعات أو الأحلاف القبلية وبالإمارات وانتهاء بالقوام الناضج للدولة في بعض المناطق — وهو وضع طبع شبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل الإسلام بطابعها المميز الذي تجاورت وتناوبت فيه الحضارة باستقرارها وثروتها وعمرانها وثقافتها وأديانها السماوية . مع البداوة بترحالها وفقرها وقفرها وتخلفها ووثنيتها البدائية .

٣ ـ الساميون والعرب :

هذا هو مجمل الآراء التي دارت حول الموطن المفترض للشعوب التي

أصبحت تسمى بالشعوب السامية على امتداد القرنين الأخيرين . وقد ناقشت ما جاء فيها من شواهد وأدلةوما أثارته من ردود واعتراضات مبيّناً موقفي من كلّ منها نفياً أو احتمالاً أو ترجيحاً . ولعل كثرة ما دار حول هذه القضية من نقاش وردّ ونقد واعتراض هو خير دليل على أنّ الحديث عنها لا يزال بعيداً عن مرحلة الرأي المؤكد المسلّم به .

ا ـ ملاحظات حول فكرة موطن اصلي للساميين

على أني أود ، رغم ذلك ، أن أورد في ختام هذا الحديث عدداً من الملاحظات سبق أن أشرت إلى بعضها ، حتى أخلص إلى تصوّر أرى أنه ، في غياب أيّ دليل فاصل وقاطع في هذا الموضوع ، يتفادى على الأقل عدداً من نقاط الضعف أو الاعتراضات التي ظهرت في المناقشات التي دارت حوله حتى الآن .

وأولى هذه الملاحظات هي أن افتراض موطن أصلي انطلقت منه هجرات كبيرة ، كونت الشعوب التي تتحدث اللغات السامية ليس أمراً ضرورياً أو لازماً لتفسير التشابه أو التقارب بين هذه اللغات . فاللغات أداة تعامل وتداول تنتقل وتؤثّر وتتأثّر بالحركة والاختلاط والتجاور والتبادل ، والهجرات جزء من هذا كلّه ولكنها ليست كل شيء ولا يمكن أن ينظر إليها على أنّها تشكل العامل الوحيد الذي يؤدّي إلى ما بين أية مجموعة من اللغات من تشابه أو تقارب .

والملاحظة الثانية هي أن الارتباط بين الهجرات الدورية أو الكبيرة وبين الجفاف والإقفار الذي حلّ بالمناطق التي انطلقت منها هذه الهجرات أمر وارد ولكنه لا يشكل مع ذلك حكماً عاماً أو قاعدة متواترة ، فهناك من الشواهد التاريخية ما يثبته ، لكن هناك كذلك ما ينفيه . وعلى سبيل المثال فمن

الشواهد التي تؤيده الهجرات التي انطلقت في القرن الثاني عشر ق . م . من سهوب آسية الوسطى بسبب عوامل الإقفار والقحط المترتب عليه ، واندفعت غرباً لكي تستقر في بعض مناطق آسيه الصغرى والقسم الشرقي من أوروبه وليفرّ أمامها عدد من الشعوب أو الأقوام التي حاولت أن تستقر في مناطق مختلفة على الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط ، وقد عرفت هذه الشعوب في التاريخ القديم باسم شعوب البحر [٣١] . ومن هذه المنطقة (آسية الوسطى) كذلك انطلقت في القرن الرابع الميلادي قبائل الهون التي أغارت على الحدود الشمالية الشرقية للإمبراطورية الرومانية واستقرت في عدد من مناطق أوروبه الشرقية . والمنطقة نفسها شهدت في القرن الحادي عشر الميلادي انطلاق القبائل التركية التي استقرت في آسيه الصغرى والشريط الساحلي الأوروبي لمداخل البحر الأسود لتؤسس الدولة العثمانية فيما بعد .

ولكن مع ذلك فالتاريخ يقدم لنا ، من الجانب الآخر ، أمثلة لا يرتبط فيها الجفاف والإقفار بالهجرات الكبيرة أو الدورية . فهناك مناطق انطلقت منها هجرات كبيرة دون أن تتعرّض لأيّ جفاف أو إقفار . وأوضح مثل على ذلك هو هجرات القبائل الجرمانية المتبربرة التي اتجهت من مواطنها الأصلية في شمالي أوروبه لتجتاح حدود الإمبراطورية الرومانية في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الميلادي . على أن المنطقة التي جاءوا منها لم تتعرّض للجفاف أو للإقفار . كذلك هناك مناطق أصابها الجفاف والإقفار ولم يؤدّ ذلك إلى هجرة سكانها . وعلى سبيل المثال فقد عرفت مصر عدة فترات من الجفاف والقحط نتيجة لعدم فيضان النيل كانت كلّ فترة منها تمتدّ عدة سنوات .

---

(٣١) النصوص المتعلقة بهجرات وتحركات شعوب البحر ، ترجمة انجليزية لها وتعليق عليها في : J. Wilson : The War against rhe People of the Sea (ANET) صفحات ٢٦٢ ـ ٢٦٣ . G. A, Wainwright Some Sea-peoples and Others in the Hittite Archives, Journal of Egyptian Archaeology (J.E.A.) XXV . ١٩٣٩ .

من بينها فترة على الأقل في العصر القديم ظلّت ذكراها متواترة إلى أن أشار إليها القرآن الكريم . وفترة أخرى في العصر الوسيط ذكرها المؤرخون المسلمون . وكان المصريون حسب الانطباع الذي يتركه لدينا القرآن وحسبما سجّل المؤرخون المسلمون ، يقاسون مقاساة شديدة . ومع ذلك فلم يترك المصريون موطنهم الأصلي ويهاجروا إلى مناطق جديدة . والشيء ذاته نجده في وادي الرافدين . فقد عرفت هذه المنطقة فترات مشابهة من الجفاف والقحط في عصورها المختلفة نتيجة لانخفاض منسوب المياه في نهري دجلة والفرات في وقت الفيضان، وقد وعت ذاكرة السكان في وادي الرافدين القحط والشدّة التي تعرّض لها سكان البلاد في تلك الفترات منذ القدم وسجّلها التراث الشعبي العراقي القديم فيما تركوه من ملاحم في عصر السومريين والبابليين ، ولكن هذه الملاحم لم تذكر ولو مرّة واحدة شيئاً عن هجرة سكان وادي الرافدين أو عن تفكيرهم في الهجرة (٣٢) .

والملاحظة الثالثة هي أنّه ليس هناك سبب حقي يدعو إلى الافتراض أن كلّ الشعوب المتحدثة باللغات الساميّة قد هاجرت بالضرورة من موطن صحراوي أو أن هذه الشعوب قضت في أطوارها الأولى حياة بدوية والدليل الذي أسوقه في هذا الصدد هو وضع « الأكّديين » في وادي الرافدين في العصور القديمة . لقد كان هؤلاء الأكّديون شعباً سامياً يقطن المنطقة الزراعية الوسطى في وادي الرافدين التي تمتد بين نهري دجلة والفرات من نهر في الجنوب إلى هيت وسامرّاء في الشمال تقريباً ، وقد ظهروا بشكل قوي على مسرح تاريخ وادي الرافدين ابتداء من عهد الملك سارجون الاكدي (حوالى

(٣٢) عن احدى فترات الاقفار والقحط في مصر في العصور القديمة ، راجع القرآن الكريم : سورة يوسف ، آيات ٤٣ ــ ٤٨ ، احدى فترات الاقفار في العصور الوسطى يشير اليها المؤرخ الاسلامي عبد اللطيف البغدادي . مثال من فترات الاقفار والقحط في وادي الرافدين في العصور القديمة يرد في النصوص الخاصة بالطوفان في النسخة البابلية (أتراخاسيس) ، راجع ترجمتها العربية في ، فاضل عبد الواحد علي : المرجع ذاته ، صفحات ٦٠ــ٦١

٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق . م .) وإن كان هذا لا يعني أنهم لم يكونوا موجودين في المنطقة قبل ذلك . وقد كانت منطقتهم أكّد تقع إلى شمالي المدن السومرية التي ظهرت منذ فجر التاريخ في جنوب الوادي ورغم أن تداخلاً حدث بين الأكّديين وبين السومريين قبل عهد سارجون كما يشير إلى ذلك عدد من الألفاظ السومرية التي تبنّاها الأكديون وعدد من الألفاظ الأكدية السامية التي تبنّاها السومريون (وهم شعب كان يتحدث لغة لا علاقة لها بالمرة باللغات السامية) . إلاّ أننا لا نجد نصّاً سومرياً واحداً (على كثرة ما عثر عليه من هذه النصوص) يصف الأكديين بأنهم أعداء أو غزاة أو بدو ، وهذا يشير إلى أنهم لم يكونوا وافدين إلى المنطقة من الصحراء وإنما كانوا مستقرين فيها مثلما كان السومريون مستقرين في الجنوب . وفي الواقع فإنّ هذا الاستقرار يشير إليه أكثر من دليل . فقد كان الأكّديون ، رغم اختلاف اللغة ، يمارسون نفس نمط الحياة الذي كان يمارسه السومريون (ولا غرابة في ذلك فالشعبان تحيط بهما ظروف طبيعية واحدة). فهم يعيشون مثلهم حياة حضرية في المدن والقرى ويشاطرونهم نفس أسلوب الحياة ونفس المعتقدات الدينية . وحين أصبحت السيادة على المنطقتين للأكديين منذ عهد الملك سارجون غيّرت هذه السيادة تاريخ وادي الرافدين بأكمله ، ولكنه رغم ذلك لم تغيّر الشخصية السومرية لحضارة وادي الرافدين . ومن بين الجوانب الكثيرة التي تشير إلى هذه الحقيقة جانب المعتقدات الدينية التي ظلّت كما هي في مضمونها . وجانب الملاحم البطولية التي ظلت تتخذ محوراً لها أبطالاً سومريين وجانب الأساطير التي كانت في عهد السياسة الأكدية مجرّد ترجمة للأساطير السومرية في أغلب الأحيان (٣٣) .

ب – تصور مطروح حول هذه الفكرة

وبعد هذه الملاحظات المبدئية ، وفي ضوئها ، أنتقل الآن إلى التصوّر

---

(٣٣) G. Roux : المرجع ذاته ، صفحات ١٣٩ – ١٤٠ .

الذي أريد أن أقدّمه في مسألة الشعوب الناطقة باللغات السامية : إنّ الناظر إلى المنطقة التي استقرت فيها هذه الشعوب يجد أنها تشكل امتداداً واحداً متكاملاً يضمّ شبه الجزيرة العربية ووادي الرافدين والصحراء السورية والمنطقة السورية ، وحتى منطقة الحبشة التي تقع عبر البحر الأحمر لا يمكن اعتبارها في الحقيقة خارجة عن هذا الامتداد إذا أدخلنا في اعتبارنا أنّ الذي يفصل بينها وبين شبه الجزيرة العربية هو المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، وهو مدخل ضيق مليء بالجزر التي تشكل اتصالاً بين الحبشة والطرف الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب أكثر ممّا يشكل انفصالاً بينهما . ومن الثابت جغرافياً أنّ هذه المنطقة كانت قبل نهاية عصر البلايستوسين (حوالي ١٠٠٠٠ ق. م.) منطقة خضراء آهلة بالسكان ولنا أن نتصوّر أنّ هؤلاء السكان ، بحكم تجاورهم وانتمائهم إلى منطقة واحدة كانوا يتحدثون بلغات متقاربة أو بلهجات متقاربة من لغة واحدة .

ومن الثابت جغرافياً كذلك أن عصر الجفاف قد حلّ بهذه المنطقة (كما حلّ بامتداداتها في الشرق إلى نهر الإندوس في الهند وفي الغرب إلى شواطىء المحيط الأطلسي) بحيث أدّى الجفاف المستمر إلى إقفار المنطقة وتحوّلها إلى صحراء فيما عدا بعض المناطق التي سمحت ظروفها الجغرافية ببقاء الخضرة والخصوبة لسبب أو لآخر — مثل وادي الرافدين الذي كان فيه نهرا دجلة والفرات قد نحتا مجراهما فتكون الوادي الخصب بينهما وأصبحا مصدراً لريّ هذا الوادي ، ومثل بعض المناطق الأخرى في جنوب غربي شبه الجزيرة وعلى الساحل السوري وفي الحبشة حيث تقوم المرتفعات بصدّ الرياح المحمّلة بالأمطار القليلة أو الكثيرة فتسقط هذه الأمطار على قلتها أو كثرتها في هذه المناطق لتعطيها نسباً متفاوتة من الخصوبة . ونتيجة لذلك فإن سكان المناطق التي استطاعت أن تتفادى نتائج الجفاف وتبقى على شيء من الخصوبة ظلّوا مستقرين في مناطقهم الأصلية ومارسوا حياة الاستقرار بكثافات مختلفة

حسب حظ مناطقهم من الماء ومن ثم من الخصوبة ، في وادي الرافدين والساحل السوري ومنطقة اليمن والحبشة والواحات التي تحيط بالعيون والينابيع المتناثرة في المناطق الصحراوية الواسعة في شبه جزيرة العرب أو على تخومها الشمالية . أمّا سكان المناطق المقفرة فقد تراجعوا أمام زحف الصحراء إلى تخوم المناطق الخضراء المتبقية ليعيشوا حياة بدوية تقوم على الرعي ومن ثم الارتحال إلى حيثما تنمو الأعشاب من منطقة إلى منطقة ومن موسم إلى موسم ؟

ويقدم لنا أحد الباحثين تصوّراً منطقياً وتاريخياً لما كان يمكن أن يجري في هذه المناطق الحدية الواقعة بين مناطق الخصوبة والاستقرار من جهة ومناطق البداوة والارتحال في الفترة السابقة لظهور الجمل في مناطق الشعوب الساميّة في غضون القرن الثاني عشر ق . م . ، حين كان الحمار لا يزال هو دابة النقل عند هذه الشعوب ، وهو يذكر لنا في هذا المجال أنّ البدو كانوا على علاقة وثيقة ومستمرة مع المزارعين في المناطق الخصبة فالمزارعون يشترون منهم بعض الأغنام ويزودونهم في مقابلها بالحبوب والتمر والأدوات والأسلحة والسلع الأخرى التي يحتاجون إليها في حياتهم اليومية والصورة العامّة لهذا التبادل هي أن أفراداً أو جماعات من الجانبين كانت تلتقي بشكل منتظم في القرى أو الأسواق الواقعة عادة خارج أسوار المدن ، يتبادلون سلعهم ويتبادلون معها ، دون شكّ ، أحاديثهم وأفكارهم ، وبعدها يعود البدو إلى مراعيهم التي ربما لم تبتعد عن هذه الأسواق والقرى إلاّ بضعة أميال . وفي بعض الأحيان فإن بعض الأفراد من البدو قد يتركون قبيلتهم لكي يعملوا في المدن إمّا كجنود مرتزقة أو كحرفيين أو كتجار . وفي أحيان أخرى فإنّ أسرة من البدو أو عشيرة أو قبيلة بكاملها قد تحصل على قطعة من الأرض داخل المنطقة المزروعة ، إمّا يستولون عليها استيلاء أو يقدمها إليهم أصحاب الأراضي الزراعية أو حكوماتهم . وفيها يمارس البدو حياة الزراعة إلى جانب رعي الأغنام .

وفي ضوء هذه الظروف كان يحدث كثيراً أن تمدّ حكومات المناطق الزراعية سيطرتها في صورة أو في أخرى إلى القبائل البدوية ليستخدموهم كجنود مرتزقة أو مساعدة بشكل خاصّ كلما احتاجوا إليهم . ولكن الوضع قد ينعكس في أوقات الاضطرابات أو القلق السياسي فتشنّ القبائل البدوية بشكل فردي أو جماعي الغارات على المجتمعات الزراعية المستقرة وتنهب مدنها وتحتل مساحة صغيرة أو كبيرة من أراضيها تنتهي بالاستقرار فيها . وهكذا يأتي هذا الباحث إلى ختام تصوّره التاريخي ليذكر أن استقرار البدو في المناطق الزراعية كان . على هذا النحو . تطوّراً بطيئاً ويكاد يكون مستمراً . مع فترات تدخل مسلّح من حين لآخر . وهو في هذا كلّه لم يتم نتيجة لحركات (هجرات) كبيرة من قلب الصحراء إلى المناطق الزراعية ، وإنما اتخذ شكل انتقال على مدى مكاني قصير أو متوسط في المناطق الحديّة الواقعة بين الأراضي الزراعية حيث الاستقرار والأراضي العشبية البدوية (٣٤) .

وهذا التصوّر وارد إلى حد كبير . ورغم اقتصار الباحث في حديثه على الفترة السابقة لظهور الجمل في حياة الشعوب السامية ، إلاّ أنّه بالإمكان أن يغطّي ، بشكل جانبي ، الفترة التالية لظهور الجمل كدابة نقل تصلح للمسافات البعيدة . وفي الواقع فإنّ ظهور الجمل في حياة البدو من الممكن أن يزيد من حجم هذا الاتصال بين سكان المناطق الواقعة حول العيون والينابيع في قلب الصحراء وبين المناطق الخصبة المزروعة . وقد يتم هذا عن طريق التعامل التجاري بين أطراف شبه الجزيرة العربية ، وهو أمر وجد فعلاً فظهرت خطوط القوافل التجارية لتصل بين سكان شبه الجزيرة العربية والمناطق المتاخمة لها في وادي الرافدين والمنطقة السورية . وقد ساعد على هذا دون شك الموقع المتوسط لشبه الجزيرة الذي كانت تمرّ بشماله الخطوط التجارية البرية الآتية

---

(٣٤) الكاتب ذاته : المرجع ذاته ، ص ١٣٨ .

من الشرق الأقصى والذي كانت تمر على شواطئه الخطوط البحرية من المحيط الهندي والموانىء اليمنية في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية ومنها تنتقل بالطرق البرية إلى الساحل السوري في الشمال ومنه إلى الشواطىء المتعدّدة للبحر المتوسط ، وهي طرق لم تندثر حتّى بعد أن نشطت الحركة التجارية في البحر الأحمر .

هذه الحركة التجارية التي كانت تجعل أجزاء شبه الجزيرة العربية على اتصال دائم مع المناطق المتاخمة لها كانت دون شكّ استمراراً موسّعاً لما كان يحدث في الفترة السابقة من تداخل بين مناطق البداوة والحضارة قبل أن يظهر الجمل في أفق الشعوب السامية . وقد كان هذا كلّه وسيلة لاتصال مستمرّ بين هذه الشعوب لا يجعل لغاتها تنفصل عن بعضها إلى نقطة اللاعودة أو حتّى إلى نقطة الاختلاف الكبير – وهو اتصال لم تقتصر مقوماته على هذه التحركات السلمية ، وإنما امتدّ ليشمل تحركات من نوع آخر كانت تتمّ بشكل توسّعي ، سياسي وعسكري ، وكانت تتخذ عادة شكل حروب وغارات تقوم بها القوات الآشورية والبابلية الحديثة بشكل خاص على المناطق الواقعة إلى غربيها وفي أثناء هذه التوسعات سواء أكانت مؤقتة أو طويلة الأجل كانت في حد ذاتها نوعاً من استمرار الصلة ، وإن تم بشكل عنيف ، داخل دائرة هذه الشعوب [٣٥] . وشيء مثل هذا يمكن أن يقال بتفاصيل أخرى عن العلاقة بين جنوب غربي شبه الجزيرة ومنطقة الحبشة عبر مضيق باب المندب عند الطرف الجنوبي للبحر الأحمر وبخاصة في القرن السادس الميلادي .

---

(٣٥) يوجد عرض وتحليل للنصوص المسمارية المتعلقة بهذه العلاقات التوسعية في ، رضا جواد الهاشمي : العرب في ضوء النصوص المسمارية، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، عدد ٢٢ ، شباط ١٩٧٨ ، صفحات ٦٣٩ - ٦٦٦ .

ونحن نستطيع أن ندرك مدى استمرار الصلة بين هذه الشعوب (بغض النظر عن الصورة التي تتخذها هذه الصلة) ومن ثم استمرار التقارب بين لغاتها إذا أضفنا إلى كل هذا أن المنطقة بأكملها كانت تقع بين القوات أو الإمبراطوريات الكبيرة في الشرق حيث الفرس وفي الغرب حيث الدول المتأغرقة التي قامت في بداية القرن الثالث على أنقاض إمبراطورية الاسكندر الأكبر، ثم الإمبراطورية الرومانية ثم الإمبراطورية البيزنطية وأن هذه الإمبراطوريات كانت في صراع شبه دائم إن لم يكن دائماً فعلاً في علاقاتها، وأن هذا الصراع كان يمتد في بعض الأحيان لكي يدخل فيه طرف ثالث مثل دولة الحبشة (وبخاصة في فترة الصراع بين البيزنطيين والفرس). وفي خلال كل هذا كان سكان المنطقة ينشطون بأشكال وصور مختلفة حسب نوعية الظروف التي تبرز من مرحلة إلى مرحلة، فتقوم لهم دول مستقلة مثل مملكة تدمر أو مملكة الأنباط أو إمارات تابعة أو شبه تابعة مثل إمارة المناذرة في الحيرة وإمارة الغساسنة في الشام، وتنشط الخطوط التجارية من حين لآخر إذا تمخضت كل هذه العلاقات أو بعضها عن ظروف مؤاتية. أو تنشط المواجهات العسكرية في ظروف أخرى. فيتم الاتصال سلاماً أو عنفاً ولكنه في كلتا الحالين محافظاً على استمرار التقارب بين لغات هذه الشعوب.

وأخيراً. وليس آخراً فنحن نستطيع أن نضيف إلى كل ما سبق ذكره عاملين سبق أن أشرت إلى أحدهما بشكل جانبي. وأحد العاملين هو دون شك الاضطرابات التي كانت تحدث في بعض المناطق مثل اليمن لتصيب الاستقرار والموارد الاقتصادية فيهاجر بعض أبناء المنطقة إلى مناطق أخرى بحثاً عن الأمن والاستقرار وعن موارد جديدة. أما العامل الآخر الذي لا ينبغي أن نستبعده احتمالاً، أو حتى ترجيحاً، فهو الهجرات الكبيرة التي لا أرى ما يمنع انطلاقها في بعض الأحيان، في ضوء ظروف الجفاف والقحط التي يمكن - إذا اشتدت وطأتها، أن تدفع بأعداد منظمة أو شبه منظمة من السكان إلى

ترك مناطقهم إلى مناطق أخرى أكثر خصباً وبخاصة بعد ظهور الجمل في حياة الشعوب الساميّة وإن كنت أبادر فأقول إن تحديد هذه الهجرات وترتيبها في أزمان محدّدة واستقرارها في مناطق محدّدة هو أمر لا نملك أن ندعمه بشواهد تاريخية قاطعة حتّى الآن .

وهكذا أصل إلى نهاية النقاش لأذكّر بأنّ الحديث عن الشعوب السامية ، ومن بينها العرب ، ليس حديثاً عن شعوب تنتمي إلى عنصر واحد وتنحدر من أصل واحد لهذا العنصر ، وإنما هو حديث عن شعوب تتقارب لغاتها إلى حدّ واضح في عدد من الجوانب الهامّة ، من بينها جذور ألفاظها وطريقة تكوين هذه الألفاظ وتصريفها ومن بينها الأسماء الدالة على تكوين الأسرة وعلى التنظيمات السياسية والعلاقات الاجتماعية والمعتقدات الدينية — وكلها ، كما هو ظاهر ، تدور حول تكوين المجتمع وحركته ، ومن ثم تدلّ على احتكاك مستمر بين هذه الشعوب . على أن هذا كلّه لا يدفعنا ، وليس هناك مبرّر علمي أو تاريخي لأن يدفعنا ، إلى افتراض موطن أصلي لهذه الشعوب انطلقت منه في صورة هجرات دورية كبيرة منتظمة إلى بقية أرجاء المنطقة التي استقرت فيها بشكل نهائي ، وإنما التصوّر الذي يتعارض مع المنطق والذي يتفادى كثيراً من النقد العلمي والتاريخي هو أنّ التشابه الذي نراه بين لغات هذه الشعوب حتى الآن هو نتيجة لتعامل مستمرّ اتخذ أشكالاً متعدّدة .

ومن بين أشكال هذا التعامل ، التداخل البطيء الذي كان يتم بين المناطق البدوية والمناطق الزراعية التي تقع على تخومها في الفترة السابقة لظهور الجمل كدابة نقل تملك الإمكانيات المناسبة للتنقلات البعيدة سواء من حيث الأحمال أو الاحتمال (٣٦) . ومن بينها احتمال هجرات كبيرة من حين لآخر ،

---

(٣٦) عن تاريخ ظهور الجمل عند الساميين راجع : — G. Roux : المرجع ذاته ، ص ١٣٨ . وعن مناقشة هذا التاريخ بتوسع راجع Forbs: Studies in Ancient Technology (Leiden, ١٩٥٥) صفحات ١٨٧ — ٢٠٣ . عن الامكانيات التي يملكها الجمل للتنقلات البعيدة من حيث الاحمال والاحتمال راجع : حاشية ٢٢ من الباب الثالث من هذه الدراسة .

بسبب اشتداد القحط أو بسبب اختلال الأمن وتدهور العناية بالموارد الاقتصادية في منطقة أو أخرى . ومن بينها كذلك ما دار داخل المنطقة من علاقات سلمية أو حربية بين المناطق الواقعة في داخلها . وإلى جـــانب كل هذا كان هناك الموقع المتوسط الذي تشغله المنطقة بين الشرق والغرب . فكانت ممراً تجارياً نشطاً بينهما . وهو ممرّ اشتركت فيه بقوافلها بكل ما تمثله هذه القوافل من معاملات واتصالات بين شعوبها . كما تأثرت بسبب هذا الموقع المتوسط . بالقوات الكبرى التي ظهرت في الشرق أو في الغرب بكل ما يستتبعه هذا من تحركات ولقاءات سلمية أو حربية كانت المنطقة في خلالها همزة وصل في كثير من الأحيان .

ج ـ العرب وفكرة الاصل السامي

هذا . إذن . هو التصوّر الذي أطرحه فيما يخصّ الساميين أو الشعوب السامية وأصلهم وصلتهم بشبه جزيرة العرب . وهنا نصل إلى سؤال أخير : أين موقع العرب من هذه الشعوب الساميّة ؟ لقد بدأ الحديث عن أصل العرب بين الإخباريّين أو كتّاب الأخبار الأول في صدر الإسلام عند اثنين من هؤلاء هما عبيد بن شريّة الجرهمي وهو يمنيّ ووهب بن منبّه وهو يمنيّ كذلك . وجاء الحديث ضمن ما رواه هذان الإخباريان عن أصل الشعوب الموجودة من عرب وغير عرب . واستمرّ هذا الحديث في الكتابات العربية في العصر الإسلامي عدّة قرون زادت فيها تفاصيله وتشعبت وتداخلت حتّى لخّصها وصنّفها ابن خلدون في أواخر القرن الثامن الهجري (أواخر القرن الرابع عشر الميلادي) في الجزء الثاني (الذي يلي جزء المقدمة) من تاريخه المعروف « العبر وديوان المبتدأ والخبر » .

ودون دخول في تفاصيل الأنساب التي ربطها هؤلاء الكتّاب بالعرب وفي اختلافاتهم في هذه الأنساب . فقد اتفقوا بشكل عام إلى تقسيم العرب إلى

طبقتين أساسيتين هما العرب البائدة ومن بينهم قبائل عاد وثمود وطسم وجديس وقد باد هؤلاء لسبب أو لآخر . وعرب باقية . وهؤلاء بدورهم قسّمهم الكتّاب من أخباريين ومؤرخين إلى طبقتين : العرب العـــاربة أي أصحاب للسان العربي الأول ، الذين أخذوا عن هؤلاء اللغة العربية واصطنعوها لساناً لهم . والذي يهمّنا في صدد الحديث الحالي . هوما ورد في هذه الكتابات من محاولات لربط العرب عرقياً . أي عن طريق تسلسل النسب وقرابة الدم بالأصل السامي . وهي محاولات يظهر من بينها ، على سبيل المثال ، ما ذكره عبيده بن شريه ، أثناء حديثه عن أبناء نوح عليه السلام ، من أنّ أحد أبنائه وهو « سام » كان له ابنان، أحدهما إرم وإليه وإلى بنيه ينتسب العرب (٣٧) . وما ذكره عدد من الكتاب الآخرين ، مثل البلاذري والمسعودي ، من أن العرب العاربة ينتسبون إلى قحطان بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح (٣٨) .

ورغم أنّ هذه الكتابات ظهرت جميعاً بعد انتهاء العصر الجاهلي وظهور الدعوة الإسلامية . بل كان ظهور بعضها بعد الإسلام بعدّة قرون كما أسلفت . ورغم أنّ بعضها على الأقلّ تحيط به شكوك كثيرة سواء فيما يخصّ الملابسات التي أحاطت بالكتابة نفسها أو بمضمون هذه الكتابة أو فيما يخصّ الاختلافات بين أصحاب هذه الكتابات (٣٩) . إلاّ أن نقطة أساسية لا بدّ

---

(٣٧) وهب بن منبه : التيجان في ملوك حمير(حيدر اباد الدكن ،١٣٤٧هـ) كذلك عبيد بن شريه : اخبار اليمن واشعارها وانسابها او كتاب الملوك واخبار الماضين (ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه) صفحات٣١٦ــ٣١٩

(٣٨) البلاذري : انساب الاشراف ، ج ١ ، (القاهرة ، ١٩٥٩) ص ٤ ، المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ٧١ .

(٣٩) كان عبيد بن شرية احد المقربين في بلاط معاوية بن ابي سفيان راجع المسعودي : ذاته ج ٢ ، ص ٨٥ . عن طريقة روايته لاخباره التي تأخذ شكل المسامرة للخليفة ، راجع : عبيد بن شرية : ذاته ، صفحات ٣١٢ وما بعدها ، كذلك المسعودي : ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٠ .

أن نعترف بها قبل البدء في مناقشة هذا الانتساب العرقي بين العرب وبين سام ابن نوح ، وهذه النقطة هي أنّ العرب كانوا حريصين على ظاهرة النسب في عمومها . وعلى وجه الخصوص في العصر الجاهلي . وهو أمر نلمسه بشكل واضح في الشعر الجاهلي وما فيه من مواضع كثيرة يفخر فيها شعراء الجاهلية بانتسابهم إلى عشيرة أو قبيلة معيّنة . أو يهجون فيها عشيرة أو قبيلة أخرى . وفي الواقع فإنّ هذه الظاهرة كانت من طبيعة الأشياء في شبه جزيرة العرب بكلّ ما أحاط بها من ظروف طبيعية تجعل العصبية رابطة أساسية تتكتل أو تلتف حولها كلّ مجموعة من المجموعات التي انقسم إليها سكانها . تلتف حولها القبائل البدوية في تلمسهم لأسباب الحياة تسابقاً وتصارعاً فيما بينها حول منابت العشب ومنابع الماء أو إغارة على قبائل الحضر المستقرة . وتتكتل حولها قبائل أو عشائر الحضر سواء في تصديهم . عنفاً أو سلاماً . لغارات البدو . أو في صراعهم فيما بينهم داخل المدينة الواحدة أو داخل الإمارة أو المملكة الواحدة في صراعها حول الاستئثار بزمام السلطة وما يعنيه هذا من خير كثير في وقت لم يكن فيه سكان شبه الجزيرة قد عرفوا التكتل حول إيديولوجيات سياسية . ومن ثمّ كان التصوّر الوارد هو التكتل حول العصبية التي تقوم على أساس من رابطة العرق أو رابطة الدم والانتماء إلى أصل واحد سواء أكان حقيقياً أو موهوماً . ونحن نلمس هذا التمسّك بأرومة الدم أو الأصل الواحد في احتفاظ عدد من الأقوام أو المجموعات التي سكنت بعض أقسام شبه الجزيرة العربية بأسمائها حتى بعد أن تنتقل . لسبب أو لآخر . من مواطنها الأصلية إلى مواطن أخرى بعيدة عنها . فقوم عاد الذين يشير القرآن الكريم إلى موطنهم الأصلي في منطقة الأحقاف في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة تحت اسم عاد الأولى ، لا نلبث أن نراهم . سواء في القرآن الكريم أو في الكتابات الكلاسيكية في موطنهم الجديد في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة محتفظين باسمهم القديم ، والثموديين الذين لا تزال نقوشهم قائمة حتى الآن في المنطقة الوسطى نراهم ، هم الآخرون ، وقد احتفظوا باسمهم في المنطقة الشمالية

الغربية ، مرة أخرى في المصادر القرآنية والكلاسيكية [٤٠] . والشيء ذاته ينطبق على السبئيين ، وهم من عرب الجنوب الذين أسسوا في الشمال مدناً أو مستوطنات تحت اسم سبأ مؤثرين بذلك إلى إيثارهم لتسميتهم كقوم على أية معطيات مكانية قد توحي باسم جديد .

وإذن فتصوّر الرابطة العرقية كنقطة تكتّل بين المجموعات الّتي سكنت شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام (وفي الواقع حتّى بعد ظهور الإسلام رغم كلّ ما حملت الدعوة الإسلامية من قيم جديدة تتجاوز القبلية والعنصرية عموماً) هو تصوّر قائم . ومن ثمّ يصبح الحديث عن الأنساب عند العرب أمراً وارداً . وهو حديث يصل التشبث به في الواقع إلى ما يتجاوز أنساب البشر في بعض الأحيان إلى محاولة لتنسيب الخيل ذاتها [٤١] . ولكن ، مع ذلك . فالحديث عن تأصيل النسب شيء . والمغالاة في هذا التأصيل شيء آخر . وفي هذا الصدد قد يكون من المعقول والمنطقي أن يعرف أبناء أسرة أو عشيرة نسبهم بشيء من الدقّة النسبيّة إلى حدود معينة أمّا أن يدفع هذا النسب تأصيلاً إلى عهد سام بن نوح (وفي بعض الأحيان إلى عهد آدم [٤٢] . الأب الأول للبشرية) فأمر لا بدّ أن يدخل فيه قدر كبير من النحت والخيال . وفي الواقع فإنه لا يوجد مما تركه له سكان شبه الجزيرة قبل الإسلام، سواء في مجال الآثار أو المخلفات المادية . أو في مجال النقوش والشعر . ما يشير إلى اعتقادهم في هذا النسب الذي يصل إلى سام بن نوح . كما أن محاولة تأصيل هذا النسب بين كتاب العصر الإسلامي قد أوقعت هؤلاء الكتّاب في قدر غير

---

(٤٠) عن عاد : راجع الباب الخامس من هذه الدراسة ، عن ثمود راجع: البابين الرابع والخامس من هذه الدراسة .

(٤١) ابن الكلبي : نسب فحول الخيل في الجاهلية والاسلام ، القاهرة ١٩٤٦ .

(٤٢) على سبيل المثال ، الموضوع الاول في كل من ، وهب بن منبه : ذاته . الهمداني : صفة جزيرة العرب .

قليل من الحرج والتناقض وما يؤدي إليه هذا من تخريجات وتبريرات من بينها ، على سبيل مثال واحد ، ما عمد إليه بعضهم في سدّ الفجوة بين أجيال العرب العاربة والمستعربة (٤٣) .

والتصوّر الذي أطرحه أعود فيه إلى ما سبق أن ذكرته في هذا الحديث وهو أن نقاء العناصر أو الأجناس أمر لم يعد وارداً من الناحية العلمية الآن ، ومن ثمّ فإنّ محاولة تنسيب العرب إلى أصل معيّن ، سواء إلى سام أو إلى غير سام ، تخرج بدورها عن نطاق التحديد العلمي . وأزيد هنا أنّ محاولات التنسيب والتأصيل العرقي كانت طريقة سائدة في العصور القديمة . كما حدث ، على سبيل المثال ، عندما حاول الرومان تنسيب أن ينسبوا رومولوس **Romolus** المؤسس الأسطوري لمدينة رومه إلى البطل الطروادي إينياس **Aeneas** (الذي قد يكون بدوره بطلاً أسطورياً) . بل لقد وصلت هذه المحاولات عند عدد من الشعوب إلى تنسيب الآلهة ذاتها . كما حدث في ملحمة « إينوما إيليش » (حينما في العلا) التي تروي أسطورة الخلق عند البابليين ، أو في ملحمة « ثيوجونيا » **Theogonia** (سلالة الآلهة) التي حاول فيها الشاعر اليوناني هزيودوس **Hesiodos** أن يفصّل فيها نسب الآلهة عند اليونان (٤٤) . فإذا أضفنا إلى هذا الاتجاه العام ما ذكرته عن تمسّك عرب شبه الجزيرة في الجاهلية

---

(٤٣) هذه الملاحظة في ، سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٨٤ (راجع ابن خلدون : ذاته ، ج ٢ ، ص ٤٧ مقتبسة في حاشية ٣ في الصفحة ذاتها) .

(٤٤) النص الكامل لملحمة اينوما ايلش في ANET ، صفحات ٦١–٧٢ ، نقل النص الاكدي الى الانجليزية E.A. Speiser تحت عنوان : The Creation Epic عن سلالة الالهة عند اليونان راجع : Hesiod : Theogonia ، الملحمة كلها. عن اينياس وروومولوس، راجع عرضا عاما لمحاولات الرومان في هذا الصدد في M. Cary : A. History of Rome ط ٢ (Oxford ١٩٦٠)) ص ٣٥ ، وحاشية ١٢ ، ص ٤٠ . عن اسفار اينياس الاسطورية التي حملته الى الشواطىء الايطالية راجع الانيادة للشاعر اللاتيني فرجيليوس ، النشيد الثالث .

برابطة العصبيّة التي كانت تتمثل في رابطة عرقيّة ذات انطباع عميق في تصوّر العرب ، تصبح لدينا البذرة الأولى لفكرة التنسيب التي ظهرت في الكتابات العربية بعد الإسلام .

وقد وجد العرب أنفسهم بعد الإسلام أمام تحديات حضارية جديدة . فالفتوح الإسلامية وضعتهم وجهاً لوجه أمام حضارات قديمة مستقرّة لا بدّ أنها دفعتهم أمام تأكيد هويتهم أمام هذه الحضارات وهو أمر نجد صداه فيما يذكره الكتاب العرب في العصر الإسلامي من صفات يتميّز بها العرب عن غيرهم (٤٥) — الأمر الذي نجده في شكل أوسع في أثناء ظهور الحركة الشعوبية في العصر العبّاسي حين أخذ الفرس يمجّدون أصلهم ويتعالون به على العرب، فكان ردّ الفعل عند العرب أن قابلوا ذلك بتمجيد مماثل للأصل العربي وللصفات العربية . وفي مجال تأكيد الهوية يصبح تأصيل النسب أمراً وارداً بالدرجة الأولى . أمـــا عن إرجاع هـــذا النسب إلى سام بن نوح فهو يمثل عنصر الإسرائيليات التي بدأت تتسرّب إلى الكتابات العربية آنذاك . وبخاصة إذا عرفنا أن عدداً من الكتّاب كانوا إمّا من أصل يهودي أو متأثرين بالكتابات والأخبار الإسرائيلية . مثل عبيد بن شريه الجرهمي ووهب بن منبّه وأبي عبيدة معمّر بن المثنّى التميمي (٤٦) .

وهكذا تصبح الكتابات العربية التي ظهرت في العصر الإسلامي عن أنساب العرب وردّها إلى سام بن نوح نتاجاً طبيعياً للظروف التي أحاطت

---

(٤٥) راجع ، على سبيل المثال ، الهمداني : صفة جزيرة العـرب ، ص ٣ ، الذي يضفي على العـرب عددا من الصفات المميزة لعـرب شبـه الجزيرة سواء في طريقة نطقهم او في صفاتهـم الجسمانية او في صفاتهـم النفسية ، او في معاملاتهم مع الغير .

(٤٦) عن الاصل اليهودي لابي عبيده التميمي راجـع ، ابن النديـم : الفهرست ، ص ٥٣ . عن انتشار التأثيرات الاسرائيليـة (على علاتهـا) عموما . راجع : جواد علي : ذاته ، ج ١ ، صفحات ١٢١ — ١٢٢ .

بعرب شبه الجزيرة سواء في العصر السابق لظهور الإسلام . أو بعد ظهور الدعوة الإسلامية وفترة الفتوحات العربية . وهي كتابات ربما عكست تصوّر العرب آنذاك . ولكننا لا يمكن أن ننظر إليها الآن كحقائق علميّة . وإن كانت من جهة أخرى لا تخلو من فائدة فيما تعكسه من اختلافات بين عرب الجنوب وعرب الشمال في شبه الجزيرة وهو اختلاف له أصوله من حيث الغنى والفقر والحضارة والبداوة وأسلوب الحياة بوجه عام . كما تعكس لنا ذكريات ، مهما كانت باهتة في أذهان العرب آنذاك . عن أقوام من شبه الجزيرة ظهروا في بعض الفترات ثم هاجروا أو اندثروا وبعضهم. رغم وحدة المقام في شبه الجزيرة العربية كانوا يتحدثون بلهجات أخرى غير اللهجة التي أصبحت لغتهم العربية . ولعلّ كلّ ما يمكن أننصل إليه في هذا الموضوع بشكل محدّد هو أنّ عرب شبه الجزيرة الذين سبق أن رأينا كيف أسهمت الظروف في تبلور شخصيتهم أو هويتهم الجماعية بشكل تدريجي في الفترة السابقة للإسلام . كانوا عند ظهور الإسلام قد بدأوا يشعرون بشكل محدّد بأنهم قوم لهم صفة عربية محدّدة سواء كمجموعة بشرية لها صفات عامة تجمعها وتميزها عن غيرها ، أو كأصحاب لغة عامة موحدة تجمع بينهم رغم اختلاف لهجاتهم المحلية . وأن لديهم انطباعاً عاماً يعتقدون من خلاله أنهم ينحدرون من سلالة إبراهيم عليه السلام . وقد أكد القرآن الكريم هاتين الفكرتين بشكل يدل علىأن عرب شبه الجزيرة كان لديهم هذا الانطباع (٤٧) .

---

(٤٧) الاشارة الى الصفة العربية في القرآن الكريم : سورة فصلت : ٤٤ الاشارة الى الاعراب (عشرة مرات) ، سورة التوبة : ٩٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٢٠ ؛ سورة الاحزاب : ٢٠ ؛ سورة الفتح : ١١ ، ١٦ ، سورة الحجرات : ١٤ ، الاشارة الى اللسان العربي (١٠ مرات) : سورة النحل : ١٠٣ ، سورة يوسف : ٢ سورة الرعد : ٣٧ ، سورة طه : ١١٣ ، سورة الزمر : ٢٨ ، سورة فصلت : ٣ ، سورة الشورى : ٧ ، سورة الزخرف : ٣ ، سورة الاحقاف : ١٢ ، الشعراء : ١٩٥ .

الباب الثالث

شبه جزيرة العرب : الملامح العامة

١ ـ الموقع والسطح والاقسام الطبيعية :

تقع شبه جزيرة العرب في القسم الجنوبي من القارة الآسيوية . وهي أقصى منطقة من هذه القارة في هذا الاتجاه ، وتحدّها مياه البحار من الشرق والجنوب والغرب . ومع هذا فقد سمّاها علماء العرب « جزيرة العرب » ، وهي تسمية فيها تجاوز علمي ظاهر . وأحد الأسباب التي جعلتهم يقدمون على على هذا التجاوز هو وجود نهر الفرات الذي يدخل المنطقة في قسمها الشمالي الغربي قرب شواطىء البحر المتوسط ثم يمتد في اتجاه جنوبي‌شرقي حتى يصب في مياه الخليج في القسم الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة ، وهو أمر دفع هؤلاء العلماء إلى النظر إلى المنطقة بشكل تجاوزي على أنها جزيرة . كذلك كان بين هذه الأسباب أن المنطقة تشبه جزيرة بشرية يتحدث سكانها باللغة العربية وتحدّها (غير الحدود البحرية) مجموعات بشرية تتحدث بلغات أخرى ممّا حدا بأحد هؤلاء العلماء إلى أن يقول إن المنطقة « تسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربي فيها شائع وإن تفاضل » [1] .

---

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة : جزيرة العرب ؛ الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ١ .

ورغم قلة عدد السكان في شبه جزيرة العرب بشكل ظاهر ، إلاّ أنّها أكبر شبه جزيرة في كلّ قارات العالم على السواء ، وتبلغ مساحتها ما يقرب من ربع مساحة القارة الأوروبية بأكملها أو ثلث مساحة الولايات المتحدة الأميركية . أمّا عن تفاصيل موقعها فيحدّها من الشرق الخليج العربي الذي عرف في نصوص وادي الرافدين باسم « البحر الأدنى » و « النهر المرّ » و « البحر المالح » و « بحر الشروق الكبير » ، وعرفه الكتّاب الكلاسيكيون (اليونان والرومان) باسم « الخليج الفارسي » أو « البحر الفارسي » . أمّا في الجنوب فتطلّ شواطىء شبه الجزيرة على المحيط الهندي الذي عرفه الكتّاب الكلاسيكيون باسم « البحر الأحمر » (وهي الترجمة العربية للفظة Erythre Thalassa اليونانية) أما في الغرب فتغسل شواطىء شبه الجزيرة مياه البحر الأحمر الذي أطلق عليه الكتّاب الكلاسيكيون الاسم نفسه . كما سمّوه كذلك باسم « خليج العرب » بينما عرفوا طرفه الشمالي من ناحية شبه جزيرة العرب باسم « خليج أيلة » أو « خليج الأيلانيين » نسبة إلى « إيلات » أو « إيلوت » وهي التسمية العبرية لميناء العقبة [2] .

---

(٢) عن اسماء الخليج في نصوص وادي الرافدين : البحر الادنى : ANET صفحات ٢٦٧ على عهد سارجون الاول (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م.) ص ٢٧٧ على عهد شلمنصر الثالث (٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م.) . النهر المر : (نار مرّاتو) نص من عهد شلمنصر الثالث مقتبس في G. Roux : ذاته ، ص ٢٧٠ . البحر المالح : ANET ، ص ٣١٦ ، نص من عهد حشويرش Xerxes (٤٨٥ – ٤٦٥ ق.م.) اثناء الحكم الفارسي في المنطقة . بحر الشروق الكبير ، G. Roux : ص ٤٦٥ (خريطة)
عن اسماء الخليج عند الكتاب الكلاسيكيين : البحر الفارسي : Persa Thalatta في اليونانية Strabo : XVI, 4, 1, و Mare Persicum في اللاتينية عند Plinius: Historia Naturalis VI, 137. الخليج الفارسي : Persikos Kolpos في اليونانية Strabo : XVI, 3,2 و Sinus Persicus في اللاتينية Plinius: H. N., VI, 138 . عن المحيط الهندي عند الكتاب=

والبحر الأحمر الذي يفصل بين شبه الجزيرة من جهة والقارة الإفريقية من جهة أخرى يمثل في الواقع الجزء الأكبر من أخدود أو هبوط أرضي حدث في العصر الجيولوجي الثالث ويعتبر ، في ضوء هذه الحقيقة امتداداً طبيعياً لوادي الأردن والبحر الميت ووادي عربه من ناحية الشمال . أما ساحله الذي تطلّ عليه شبه الجزيرة فأغلب مناطقه من الشعب أو الصخور المرجانية المتشعبة التي لا تصلح لأن تقوم فيها موانىء لرسوّ السفن ممّا صعّب الملاحة وحدا بالعرب إلى أن يديروا ظهورهم لهذا البحر بشكل عام . وأخيراً ففي أقصى الجنوب من هذا البحر توجد أضيق أماكنه وهي المنطقة المعروفة باسم مضيق « باب المندب » الذي ينتشر فيه عدد من الجزر فتجعل الانتقال بين الطرف الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة وبين الشاطىء الإفريقي أمراً ميسوراً ، وقد كان هذا بالفعل هو سبب الاتصال الوثيق بين اليمن والحبشة في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها . سواء أكان اتصالاً ودّياً في مجال النشاط التجاري والثقافي أو نشاطاً عدائياً في مجال التدخل السياسي أو الغزو والسيطرة العسكرية .

أما الحدود الشمالية والشمالية الشرقية لشبه الجزيرة فهي المنطقة الصحراوية التي تمتد بين وادي الرافدين والمنطقة السورية . والتي تقع إلى جنوبي امتداد الهلال الخصيب . والقسم الشرقي من هذه المنطقة وهو القسم المتاخم لوادي

= الكلاسيكيين : « البحر الاحمر » (كناية عن المحيط الهندي) Erythre Thalassa في اليونانية Herodotos : II, 8 كما ورد شاطىء البحر الاحمر Rubrus Litus بمعنى شاطىء المحيط الهندي في اللاتينية Plinius : VI 154 . عن البحر الاحمر عند الكتاب الكلاسيكين : البحر الاحمر Erythre Thalassa في Herodotes : II , 185 , Rubrum Mare في Plinus : H. N. , VI, 165 . كذلك الخليج العربي Arabios Kolpos في Herodotos : II , 11, 102 وفي Strabo : XVI , 4 : 2 كذلك Sinus Arabicus في Plinius : H. N, , VI , 163 .

الرافدين يعرف باسم بادية السماوة بينما يعرف القسم الغربي المتاخم لسورية باسم بادية الشام . وهذه البادية الأخيرة توجد عند أطرافها من ناحية الجنوب الغربي بعض مناطق صخرية على شيء من الاتساع مثل المنطقة التي ظهرت فيها مدينة بترا Petra (البتراء) عاصمة الأنباط ، والتي كانوا يتحكمون من موقعها في خط القوافل التجاري المتجه إلى سورية .

وفي حدود هذا الإطار نجد أن العمود الفقري لشبه الجزيرة هو سلسلة من الجبال تمتد من جنوبي سورية في الشمال إلى اليمن في الجنوب موازية لساحل البحر الأحمر وقريبة منه ، وهي جبال السراه . وهي سلسلة يصل ارتفاعها إلى ٩٠٠٠ قدم في منطقة مدين في القسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة ، وفي الوسط (الحجاز الحالية) إلى ١٠٠٠ قدم وإلى أكثر من ١٢,٠٠٠ قدم في اليمن ، وهذه السلسلة الجبلية تنحدر انحداراً شديداً نحو الغرب حيث المنخفض الساحلي الذي تغسله مياه البحر الأحمر ، بينما تنحدر بتدرج وامتداد كبير عبر كل القسم الشرقي لشبه الجزيرة . وفي وسط هذا الامتداد المتدرج الكبير مع اتجاه بسيط نحو الشمال تقع هضبة نجد التي يبلغ متوسط ارتفاعها ٢٥٠٠ قدماً . كما توجد بها سلسلة من الجبال هي جبال شمّر ، تصل إحدى قممها ، وهي جبل أجأ ، إلى ٥٥٥٠ قدماً فوق مستوى البحر . أما عن بقية شبه الجزيرة فنحن نجد شريطاً من الأرض المنخفضة على طول السواحل الجنوبية والشرقية تليها نحو الداخل سلاسل جبلية تصل إلى ارتفاعات متفاوتة ، ومن بين هذه المرتفعات يصل الجبل الأخضر في عُمان إلى ٩٩٠٠ قدم مشكلاً بذلك استثناء واضحاً للاتجاه الشرقي المتدرج لسطح شبه الجزيرة [٣] .

وفيما عدا السلاسل الجبلية والمناطق المرتفعة . وأهمها نجد أو الهضبة الوسطى الشمالية . فإنّ بقية الأرض تتكوّن من امتدادات مقفرة أو مناطق

---

(٣) Hitti : المرجع ذاته : صفحات ١٤ ــ ١٥ .

معشبة وهذه الأخيرة تسمّى الدارات. والدارة منطقة سهليّة على شيء من الاستدارة تحيط بها التلال وتحتوي على قدر من المياه الجوفية ينبثق في شكل عيونأو ينابيع (٤).ومن المناطق العشبية التي تكثر فيها الدارات بادية السماوة (غربي العراق) وبادية الشام (شرقي سورية) رغم ما قد توحي به تسمية «البادية» في بعض الأحيانمن صفةصحراوية تغري بالاعتقادفي إقفارهاالكامل.

أما المناطق الصحراوية المقفرة فيمكن تقسيمها من حيث تكوينها . إلى ثلاثة أقسام : وأحد هذه الأقسام أو التكوينات هو منطقة النفود . والمنطقة تشكّل امتداداً صحراوياً واسعاً يقع بشكل مستعرض في القسم الشمالي من شبه الجزيرة ويبلغ طوله نحو ٤٥٠ كيلومتراً مبتدئاً بواحة تيماء في الغرب ومتجهاً نحو الشرق ، بينما يبلغ عرضه نحو ٢٥٠ كيلومتراً من الجوف شمالاً إلى جبال شمّر جنوباً . وتمتد المنطقة من الغرب إلى الشرق في انخفاض تدريجي يصل إلى نحو ١٥٠ متراً . وبفعل الرياح تتخذ الرمال التي تغطّي المنطقة شكل تموّجات رملية أحياناً بينما تتخذ شكل كثبان في أحيان أخرى ورغم جفاف المنطقة فإنها تتعرّض من حين لآخر لشتاء ممطر فتغطيها (وبخاصة في الأماكن ذات الرمال الحمراء) الأعشاب والنباتات والزهور التي يقصدها الأعراب الرعي ، كما تنبت فيها بعض النباتات المرتفعة القوية السيقان (مثل بعض أنواع الغضى) يتخذها البدو حطباً يستخدمونه في أغراض حياتهم اليومية . ولكن هذه الفترات من الاخضرار لا تستمرّ إلاّ أسابيع قليلة ، تجف بعدها أمام رياح السموم الحارقة التي تهبّ من الشرق والجنوب في أواخر فصل للربيع وفي أشهر الصيف (٥) .

(٤) الفيروزابادي : القاموس المحيط ، مادة : دارة ، ويعدد اكثر من ١١٠ دارات في شبه الجزيرة العربية . راجع ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ٣٠ .

(٥) Moritz: Arabien, Studien Zur Physikalisshen und Histo-rischen Geographie des Landes (Hanover ١٩٢٣) ، ص ١٥ ؛ Hitti المرجع ذاته ، ص ١٥ جواد علي : المرجع ذاته ، صفحات ١٥٢ — ١٥٣

أما القسم أو التكوين الثاني فيعرف باسم الدهناء أي الأرض الحمراء ، وهو مسطح شاسع من الرمال الحمراء يبتدىء من النفود في الشمال ويمتد في شكل قوس كبير عبر مسافة تزيد عن ٦٠٠ ميل نحو الجنوب الشرقي دخولاً في المنطقة المعروفة باسم الربع الخالي والجزء الغربي من الدهناء يعرف أحياناً باسم الأحقاف (أي الكثبان الرملية) . وربما كانت مياه الخليج تغمرها في يوم من الأيام إذ يوجد فيها امتداد فرعي صغير للخليج يمتد إلى جنوبي قطر كما توجد فيها رواسب من النوع الذي يوجد في قاع البحر . وحين تسقط الأمطار في المنطقة بشكل موسمي تنبت الأعشاب التي يقصدها البدو لأسباب الرعي لعدّة شهور في السنة ولكنها تجفّ تماماً في أشهر الصيف بحيث لا يصبح فيها مجال للحياة .

ويبدو أن المنطقة كانت أقل إقفاراً في مجال الحياة ومجال السكان لفترة طويلة أو قصيرة قبل الإسلام ، لسببين أحدهما أنها كانت أكثر مطراً أو عيوناً ومن ثم كانت أكثر خصباً وثانيهما أنها كانت تمرّ بها بعض الطرق التي تسلكها الخطوط التجارية من جنوبي شبه الجزيرة إلى شواطىء الخليج . ومن بين الشواهد التي قد تدل على ذلك آثار عدد من القرى القديمة في منطقة وبار (جنوبي غربي رمال يبرين أو جبرين) ، وإشارة القرآن الكريم إلى منطقة الأحقاف كموطن لقوم عاد كما يدل على نشاط الخط التجاري الذي يمرّ بها بيت شعر للأعشى يشير فيه إلى قوافل الجمال التي كانت تمرّ بالدهناء إلى شاطىء الخليج حيث يحمّلها التجار بالسلع التي كانت توجد في سوق « دارين » إحدى موانىء جزيرة تاروت (تقع إلى شمالي قطر الآن) وتعود بعدها وقد حملت من هذه السلع شيئاً كثيراً (٦) .

---

(٦) Moritz : المرجع ذاته ، الصفحة ذاتها . جواد علي : المرجع ذاته ، صفحات ١٥٠ ــ ١٥٢ . بيت الشعر المنسوب للاعشى في ، الالوسي : تاريخ نجد ، طبعة القاهرة ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٣٠ ، وهو :

يمرون بالدهنا خفافا عيابهم ويرجعن من دارين بجر الحقائب

ثم نأتي إلى القسم أو التكوين الثالث من المناطق الصحراوية وهو ما يعرف باسم « الحِرار » أو « الحرّات » (جمع حرّة) وهي الإراضي التي تغطيها حجارة بركانية سوداء ، بعضها هو أفواه البراكين ذاتها ، والبعض الآخر ناتج من تفتت الحمم أو اللافه (سمّاها العرب اللاّبه أو اللّوبه) التي قذفت بها هذه البراكين ثم بردت وتفتتت بمرور الزمن . وثوران البراكين ظاهرة عرفتها شبه الجزيرة العربية منذ العصور السحيقة كما عرفتها المناطق المقابلة لها سواء في الحبشة أو في عدد من الأماكن الأخرى على السواحل الشرقية للقارة الإفريقية . وقد ظلّ بعض هذه الحرار ثائراً أو ثار بشكل متقطع بعد العصر الإسلامي ، مثل حرّة « النار » التي كانت لا تزال ثائرة في عهد عمر بن الخطّاب ثاني الخلفاء الراشدين . وكانت آخر مناسبة ثارت فيها البراكين في شبه جزيرة العرب في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي (١٢٥٦ م) حين ثارت إحدى الحرّات في شرقي المدينة لعدة أسابيع وامتدت الحمم التي قذف بها حتى توقفت على مسافة بضع كيلومترات قليلة من المدينة وكانت ثورة هذه الحرّة فيما يبدو مظهراً من مظاهر الهزات الأرضية والانفجارات البركانية التي عرفتها بعض المناطق في غربي آسيه في أواخر القرن الثاني عشر وخلال القرن الذي يليه .

وتوجد الحرار في شبه الجزيرة العربية على امتداد المنطقة الغربية من الجنوب قرب باب المندب حتى تلتقي بالمنطقة التي توجد فيها الحرار في سورية في منطقة حوران . كما توجد في بعض المناطق الوسطى في شبه الجزيرة مثل المنطقة الشرقية الجنوبية من هضبة نجد . وقد عدّ أحد علماء العرب ٢٩ من هذه الحرار . كما أضاف إليها الرحالة المحدثون عدداً آخر . ومن بين الحرات التي عرفها العرب حرة تبوك وحرّة النار قرب خيبر (وكلاهما في شمالي غربي شبه الجزيرة) . وحرة واقم التي تقع إلى شرقي المدينة وحرة وبرة التي تقع على بعد ثلاثة أميال غربي المدينة في أول الطريق المؤدية إلى مكة وحرّة

ضروان في اليمن (٧) .

وفي حدود هذه الملامح السريعة لحدود شبه جزيرة العرب وحدودها تعرفت دول وشعوب العالم القديم على شبه الجزيرة وحاولوا تصوّرها في أقسام تتفق بشكل أو بآخر مع اهتماماتهم السياسية أو الاقتصادية أو مع معلوماتهم الجغرافية ، كما قسمها علماء العرب في العصر الإسلامي إلى أقسام تعكس تصوّر سكان شبه الجزيرة أنفسهم لهذا التقسيم في العصر السابق للإسلام . وتعتبر دون شك استمراراً لهذا التصوّر . وفي هذا المجال فإننا نجد أنه في خلال الفترة الأولى التي بدأت فيها الدول والشعوب المحيطة بشبه الجزيرة العربية تهتم بالمنطقة ، وهي فترة تمتد بين أواسط القرن التاسع ق . م . والنصف الثاني من القرن السادس ق . م . كانت هذه الدول والشعوب تعنى بالقسم الشمالي فحسب ، من بلاد العرب مع اختلاف في مدى امتداد هذا القسم من الشرق إلى الغرب أو عمقه من الشمال إلى الجنوب .

ففي عهد الملوك الآشوريين ابتداء من حكم الملك شلمنصّر الثالث (٨٥٨–٨٢٤ق‌م) كانت بلاد العرب حينما تذكر في سجلات هؤلاء الملوك تعنى أقصى القسم الشمالي لشبه الجزيرة . وهو القسم الذي يشكّله المعبر بين وادي الرافدين وسورية . وفي آخر عهد الدولة البابلية الحديثة نجد أنّ هذا التصوّر يتّسع بعض الشيء إذ نجد الملك نابونائيد (٥٥٦ – ٥٣٩ ق . م . وهو الذي عرفه اليونان باسم نابونائيد Nabonidos) يقيم بين السنةالسابعة والسنة الحادية عشر من حكمه في مدينة تيماء التي توجد جنوبي هذا المعبر (في القسم الشمالي

---

(٧) ياقوت : معجم البلدان ، مادة : حرّة ؛ Moritz : المرجع ذاته ، ص ١٢ . Henri Lammens : Le Berceau de l'Islam, l'Arabie Occidentale à la Veille de l'Hégire ، الجزء الاول وهو الوحيد الذي ظهر (١٩١٤ Romae) ، ص ٧٣ ؛ Hitti : المرجع ذاته ، ص ١٧ .

الغربي لشبه جزيرة العرب) كما يصل بحملاته جنوباً حتى يصل إلى يثرب (المدينة فيما بعد) وبذلك يكون قد دفع تصوّر البابليين عن بلاد العرب إلى حدود هذه المدينة [٨] . أمّا اليونان فقد عرفوها في أواسط القرن الثامن ، أو بالأحرى أشاروا إلى المنطقة ضمناً عن أنها بادية الشام فحسب ، وهو تصوّر كان سائداً عند الآراميين كذلك ، حسبما نستنتج من أحد النصوص الآرامية التي ترجع أحداثها إلى النصف الأول من القرن الثامن ق . م . فإذا وصلنا إلى الفترة بين أواخر القرن السادس وأواسط القرن الخامس وجدنا تصوّر الفرس لبلاد العرب يتراجع ، على ما يبدو ، إلى تصوّر الآشوريين ، أي إلى المعبر الصحراوي بين وادي الرافدين وسورية رغم ما يبدو في نص أكدي من عهد أحشويرش الإمبراطور الفارسي (٤٨٥–٤٦٥ ق.م.) ممّا قد يشير إلى توسع في هذا التصوّر خارج هذه المنطقة [٩] .

---

(٨) ANET : النصوص في صفحات ٢٧٩ ، ٢٨٣ – ٢٨٦ ، ٢٩١ – ٢٩٢ ، ٢٩٧ – ٣٠١ ، ٣٠٦ (الاشارة في هذا النص الاخير الى مدينة تيماء وليست الى بلاد العرب باللفظ) ؛ Luckenbill : ARAB ، يرد فيه ٣٧ نصا اولها في ج١ نص رقم ٦١١ منعهد شلمنصر الثالث (٨٥٨–٨٢٤ق.م.) وآخرها في ج٢، نص رقم ١٠٨٤ من عهد آشور بانيبال (٦٦٨–٦٢٦ق.م.)

(٩) التصوراليونانيالمذكوريأتيفي، Homeros : Odysseia النشيد الرابع ، سطر ٨٤ ، حيث يذكر العرب مباشرة بعد الصيدونيين مما قد يوحي بالجوار في تصور الشاعر ؟ (راجع بداية الحديث عن الكتاب الكلاسيكيين في الباب الخاص بالمصادر الكتابية في القسم الثاني من هذه الدراسة) . عن التصور الآرامي The Words of Ahiqar, ANET ص ٤٣٠ (نقل النص الآرامي الى الانجليزية H, L. Ginsberg) . النص الاكدي من عهد الامبراطور الفارسي حشويرش Xerxes (٤٨٥ – ٤٦٥ ق.م.) في Anet ، ص ٣١٦ (نقله الى الانجليزية Leo Oppenheim) . وفيه يأتي ذكر منطقة Makai قارن Maka عند سترابون XVI, 3. 2 (وهي عمان الحالية) . ثم بعدها مباشرة « العربية » مما يوحي بمنطقة في وسط شبه الجزيرة ، ولكن هذا التجاور اللفظي قد لا يعني التجاور على الطبيعة بالضرورة ، فمن جهة نجد ان منطقتين من المناطق المذكورة في النص بعد « العربية » احداهما الهند والاخرى قبادوقية (في آسيا =

ولكن الفترة التي تبدأ بأواسط القرن الخامس ق . م . تشهد تغيّراً كبيراً في تصوّر بلاد العرب لدى الشعوب والدول التي اهتمت لسبب أو لآخر بالمنطقة . ويبدو هذا التغيّر واضحاً فيما تركه لنا الكتّاب الكلاسيكيون (اليونان والرومان) سواء من بينهم المؤرخون أو الرحالة أو الجغرافيون أو الكتّاب الموسوعيون . وقد كان أول من ظهر في كتاباته هذا التغيّر الواضح في تصوّر حدود شبه الجزيرة هو هيرودوتس **Herodotos** أول المؤرخين (أو أبو التاريخ حسبما لقّبه شيشرون **Cicero** الخطيب والسياسي الروماني الشهير الذي عاش في القرن الأول ق . م) . فقد كان هذا المؤرخ هو أول من دفع بحدود بلاد العرب لكي تشمل كل شبه الجزيرة العربية وإن كان قد زاد على هذه الحدود بعض المناطق التي تقع إلى خارجها.وهو تصوّر يتأرجح بين شبه الجزيرة وهذه المناطق الواقعة إلى خارجها (مع اختلاف في امتداد هذه المناطق الخارجية) حتى استقرّ نهائياً على شبه الجزيرة بما في ذلك المنطقة الصحراوية الشمالية الواقعة على الحدود الجنوبية لمنطقة الهلال الخصيب (أي بما في ذلك بادية العراق وبادية الشام) في كتابات بطلميوس كلاوديوس **Ptolemaios Klaudios** التي قام بها في خلال النصف الأول من القرن الثاني الميلادي . وهو الكاتب اليوناني المصري الذي عرفه العلماء العرب في العصر الإسلامي باسم بطلميوس الجغرافي .

ولم يقتصر الكتّاب الكلاسيكيون على تقديم التحديد العام لشبه جزيرة العرب ، وإنما تعدّوا ذلك إلى تقسيمها إلى مناطق طبيعية . قسّموها بدورها إلى أقسام تضمّ الأماكن الزراعية أو الرعوية أو التي يعيش أهلها على التجارة

= الصغرى) رغم ورودهما واحدة بعد الاخرى مباشرة ، كذلك فان الثابت تاريخيا ان منطقة سيطرة الامبراطورية الفارسية لم تشمل وسط شبه الجزيرة وانما اقتصرت من هذه المنطقة على اطرافها الشمالية (بادية السماوة وبادية الشام) بين وادي الرافدين والمنطقة السورية .

كما وصفوا تضاريسها وشواطئها ومناخها وسكانها ونباتها وحيوانها . وحين وصل هذا التقسيم العام إلى أدقّ ما وصل إليه عند الكتاب الكلاسيكيين كان يضم ثلاث مناطق : المنطقة الأولى أطلقوا عليها اسم « العربية الصحراوية » **Arabia Erema** وهي القسم الأكبر من الناحية الشرقية من الامتداد الصحراوي الذي يتوسط وادي الفرات شرقاً وسورية غرباً . « والعربية الصخرية » **Arabia Petraea** وتضم القسم الغربي من هذا الامتداد وتقع في وسطها مدينة البتراء **Petra** المنحوتة في الصخر قرب وادي موسى في الأردن حالياً) التي أتخذها الأنباط عاصمة لهم في القرن الأول ق . م . والقرن الأول الميلادي قبل أن يدخلوا ضمن الإمبراطورية الرومانية . ولنا أن نتصوّر أنّ القسم كان حدوده يتقلّص أو يتّسع بالضرورة حسب الظروف السياسية . فقد وصل نفوذ الأنباط إلى دمشق أحياناً في الشمال . كما امتدت منطقة نفوذهم الجنوبية إلى المنطقة التي تعرف بمدائن صالح في الوقت الحاضر (في القسم الشمالي الغربي من المملكة السعودية الآن) تدلنا على ذلك الآثار النبطية التي توجد في هذه المنطقة الآن والتي تعتبر امتداداً لآثار البتراء سواء من حيث نحتها في الصخر أو في الطراز المعماري لها . أما القسم الثالث والأخير من هذه المناطق الطبيعية التي قسم الكتاب الكلاسيكيون بلاد العرب إليها فقد أسموه «العربية الميمونة أو المباركة» **Arabia Eudaemon** وهو القسم الذي يقع إلى الجنوب من خط وهميّ يمتدّ من الطرف الشمالي للخليج العربي (أو الفارسي حسب التسمية الكلاسيكية آنذاك) في الشرق . إلى رأس خليج العقبة (خليج أيلة في الكتابات القديمة) أو إلى نقطــة على الشاطيء الشرقي لهذا الخليج . وقد سمّاها الكتّاب الكلاسيكيون بهذا الاسم لوفرة مواردها . سواء أكانت هذه موارد زراعية وبخاصة في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية (منطقة اليمن) أو كانت موارد تجارية من نقل السلع بين الأطراف المختلفة

لشبه الجزيرة [١٠] .

وقد كانهذا القسم الأخير من التقسيم الكلاسيكي ،وهو « العربية الميمونة أو المباركة » ، هو القسم الذي اقتصر عليه تصوّر الجغرافيين العرب في العصر الإسلامي ثم قسموه إلى خمسة مناطق ، وأكرّر هنا ما سبق أن أشرت إليه وهو أنّ هذه المناطق تعكس بالضرورة تصوّر العرب قبل الإسلام لشبه الجزيرة العربية ومن ثم فهو استمرار لهذا التصوّر [١١] . وأولى هذه المناطق الخمسة هي منطقة الحجاز ، وقد أطلقها الجغرافيون العرب على المنطقة التي تمتد فيها سلسلة جبال السّراة التي رأيناها تخترق شبه الجزيرة من شماليها إلى جنوبيها ، وسبب تسميتها بالحجاز عند العرب هو أنها تحجز بين المنطقة الضيقة التي توجد إلى غربيها نحو ساحل البحر الأحمر ، والمنطقة الفسيحة التي تمتد شرقي هذه الجبال حتى الخليج . وقد أشار الكتاب العرب إلى عدد غير قليل من الأودية التي تتخلل هذه المنطقة الجبلية والتي يوجد بها عدد من العيون المائية . ومن بين هذه الأودية وادي نخال الذي يقع بين مكة والمدينة . ووادي القرى الذي يقع بين المدينة والعلا (ديدان القديمة)وكان يمرّ به طريق القوافل الرئيسي قبل الإسلام وبه واحة ونهر صغير (يقعان غرب آثار ديدان) وكان يتصل بهذا الوادي واديان آخران هما وادي جزل في الشمال ووادي حمض في الجنوب . ومن بينها كذلك وادي بدا الذي يوجد قرب أيله (العقبة الحالية ، على

---

(١٠) راجع الحديث عن الكتاب الكلاسيكيين في الباب الخاص بالمصادر الكتابية في القسم الثاني من هذه الدراسة .

(١١) يذكر الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ١ ، ان جزيرة العرب تضم سيناء وان بادية الشام تدخل ضمنها . ولكن تقسيم شبه الجزيرة عند الجغرافيين العرب لا يتضمن هذ هالمناطق . راجع هذا القسم أدناه في الباب الحالي .

رأس خليج العقبة) [١٢] .

والمنطقة الثانية في التقسيم العربي لشبه الجزيرة هي منطقة « تهامة » وهي المنطقة الضيقة المنخفضة التي تقع بين جبال الحجاز والبحر الأحمر ، وقد كانت كلمة تهامة عند العرب تعني الأرض المنخفضة ، وهي كلمة يبدو أن العرب اشتقوها من طبيعة هذه المنطقة . أما التسمية ذاتها فهي تسمية ترد في النصوص العربية الجنوبية السابقة للإسلام في صورة « تهمت » أو « تهم » وربما كانت لها علاقة بكلمة « تيهوم » العبرانية ، كما يرى أحد الباحثين احتمال اشتقاقها من كلمة تيامتو **Tiamtu** التي تعني البحر في البابلية وإن كنت أستبعد هذا الرأي الأخير [١٣] .

ثم تأتي المنطقة الثالثة وهي « اليمن » وتقع في الركن الجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب . وتخترق جبال السراة اليمن حتى البحر عند حدودها الجنوبية . ويتخلل المنطقة سواء في المناطق السهلية أو في الهضبة المطلة على عدن عدد من

---

(١٢) ياقوت : المرجع ذاته ، مادة : حجاز ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ؛ الهمداني: المرجع ذاته ، ص ٤٨ . قارن Doughty: Travels in Arabia Deserta (London ١٩٣٦) ، ج ١ ، ص ١٨٧ .

(١٣) ياقوت : المرجع ذاته،ج٢ ، ص٦٣، مادة: تهامة .ويميل جواد علي (ذاته ، ص ١٧٠) الى تأييد شرادر Schrader في الراي الذي يذكره في دراسته عن النقوش المسمارية والتوراة Die Keininschriften und das Alte Testament في الطبعة التي قام بتنقيحها Zimmern و Winkler (برلين ١٩٠٣) ، ص ٤٩٢ . وفيها يرجح شرادر وجود علاقة بين لفظة « تهامة » ولفظة « تيامتو » التي تعني « بحر » في البابلية ولفظة « تيهوم » العبرية . ويرى ان الذي يجمع بين هذه الالفاظ هو اصل سامي قديم له علاقة بالمنخفضات الواقعة على البحر والتي تتميز بشدة الحرارة وشدة الرطوبة ، ويذكر بأن اللفظة في لغة القرآن الكريم وفي اللهجات العربية الجنوبية تشير الى السواحل المنخفضة الواقعة بين الجبال والبحر .

الوديان الجافة تنساب فيها المياه في الموسم المطير ، وربما كانت هذه بقايا أنهار قديمة ولكنها جفّت على مرّ القرون . ويرد اسم اليمن في النصوص العربية الجنوبية السابقة للإسلام في صورة « يمنت » أو « يمنات » أمّا الجغرافيون العرب في العصر الإسلامي فقد ردّ بعضهم تسمية اليمن إلى تيامن العرب بها على أساس أنها تقع إلى يمين الأرض (بالنسبة للشخص الذي يقف وظهره إلى البحر ونظره إلى امتداد شبه الجزيرة) بينما تقع الشام ناحية الشِمال (بكسر الشين) أي إلى اليسار كما ذكر البعض الآخر أن سبب هذه التسمية يرجع إلى اليُمْن والخير لما فيها من زراعة ونخيل وثمار (١٤) . ولعلّه من الوارد في هذا المقام أن نذكّر بأنّ تسمية **Arabia Eudameon** اليونانية وتسمية **Arabia Felix** اللاتينية وهما التسميتان اللتان أطلقهما الكتاب الكلاسيكيون على المنطقة تعنيان ، كلاهما ، «العربية السعيدة أو الميمونة » بينما تضيف التسمية اللاتينية إلى هذه المعاني معنى « العربية الخصبة » .

والمنطقة الرابعة في تقسيم العلماء العرب لشبه جزيرة العرب هي منطقة العروض. وهي تغطّي الامتداد الذي يبدأ من الأطراف الشرقية لليمن ثم يستمر في اتجاه شرقي وشمالي شرقي حتى يصل إلى اليمامة وشواطىء البحرين (وإن كان أحد هؤلاء الجغرافيين يجعل اليمامة من أقسام نجد) . والمنطقة تتكون من صحارى وسهول ساحلية ، وفيها عدد قليل من الواحات التي نجمت عن سقوط القليل من المطر أو عن وجود بعض العيون التي تبلغ نحو ٤٠ عيناً . ومن بين مدنها « هجر » التي عرفها الكتّاب الكلاسيكيون باسم إجرا **Egra** ، والعقير ولعلّها كانت المدينة التجارية الهامّة التي عرفها هؤلاء الكتّاب باسم جرهاء **Gerrha** . وإذا اعتبرنا اليمامة (وهي المنطقة التي تلي البحرين من

---

(١٤) ياقوت : المرجع ذاته ، ج ٥ ، ص ٤٤٧ ، مادة : يمن ؛ الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ٥١ .

ناحية الغرب) قسماً من أقسام العروض . فإننا نجدها الآن منطقة صحراوية وإن كانت الدلائل تشير إلى أنها كانت منطقة مأهولة في العصور السابقة . فقد وجدت ببعض جهاتها مواقع أثرية بها بقايا أبنية ضخمة لعلها كانت قصوراً وهو أمر محتمل إذا أدخلنا في اعتبارنا أن خطاً تجارياً كان يمرّ عبر اليمامة هو درب اليمامة . ومما يشجع هذا الاحتمال أنّ الأخبار المتواترة تذكر أن المنطقة كانت ذات عيون وآبار ومراع ومزارع وجدت ولا يزال بعضها يوجد في أوديتها . ومن بين هذه الأودية العرض أو العارض وهو يخترقها من الشمال للجنوب ووادي الفقي ووادي حنيفة وعرض شمّام [(١٥)]

وخامس أقسام شبه جزيرة العرب ، حسب التقسيم العربي ، هو منطقة نجد التي تشكّلها الهضبة الوسطى في شبه الجزيرة. ويقسمها علماء العرب إلى قسمين : نجد العالية . وهي ما ولي الحجاز وتهامة ، ونجد السافلة (أي المنخفضة) وهي ماولي العراق . وقد جاء هذا التقسيم نتيجة تكوينها الطبيعي الذي يبدأ مرتفعا في الغرب ثم ينحدر بلطف حتى يصل إلى منطقة العروض في الشرق . ويتكوّن سطح الهضبة من عدد من التلال التي يبلغ ارتفاعها بضع مئات من الأقدام، كما يوجد بها عدد من الأودية أهمها وادي الرمة ذو الأرض الطباشيرية في ناحيته الشمالية والأرض الرملية في ناحيته الجنوبية . ويبدو أن منطقة نجد كانت أكثر خصوبة في الماضي منها في الحاضر، إذ يرى بعض الباحثين المحدثين أنه كانت توجد في بعض أجزائها أشجار وغابات ولا سيّما في « الشربه » جنوبي وادي الرمّة وفي « وجرة » [(١٦)] .

---

(١٥) ياقوت : ذاته ، ج ٤ ، ص ١١٢ مادة : عروض و ج ٥ ، ص ٢٤٢ مادة : يمامة و ج ٥ ، ص ٢٠٣ ، مادة : هجر ، قارن جواد علي : ذاته ، صفحات ١٧٠ ــ ١٧٤ . كذلك Philby : The Geographical Journal (عدد يونيو ــ حزيران ١٩٤٩) صفحات ٨٦ ــ ٩٠ .

(١٦) ياقوت : ذاته ، ج ٥ ، ص ٢٤٥ ، مادة : نجد و ج ١ ، ص ٩٦ ، مادة : اجأ .

٢ ـ المناخ :

هذا عن سطح شبه الجزيرة العربية بحدوده وأقسامه الطبيعية ، وعن تصوّر العرب والشعوب المجاورة لهم أو المتصلة أو المهتمة بهم وببلادهم لهذه الحدود والأقسام الطبيعية . ونستمر الآن في الحديث عن بقية الملامح الجغرافية لشبه الجزيرة . وأول ما يسترعي انتباهنا في هذا المجال هو المناخ الذي يميل بشكل ملحوظ إلى الجفاف والذي يسيطر على أغلب أقسام المنطقة بشكل عام . وقد يبدو هذا غريباً إذا أدخلنا في اعتبارنا أن شبه جزيرة العرب تحيط بها ثلاثة امتدادات مائية هي الخليج العربي في الشرق والمحيط الهندي في الجنوب والبحر الأحمر في الغرب — وهي امتدادات مائية يبدو للوهلة الأولى أنها كفيلة، بما ينتج عنها من بخر ، أن تجعل المنطقة أميل إلى الرطوبة المسبّبة للمطر . ولكن بعض العوامل الطبيعية حالت دون هذه النتيجة المفترضة ومن ثمّ أدت إلى الجفاف الذي أصبح السّمة المناخية الغالبة لشبه الجزيرة .

واول هذه العوامل الطبيعية هو أن اثنين من هذه الامتدادات المائية ، وهما الخليج في الشرق والبحر الأحمر في الغرب لا يشكلان في حقيقة الأمر إلاّ سطحين ضيّقين إذا قيسا ببعض البحار الداخلية مثل البحر المتوسط أو البحر الأسود أو بالمسطحات المائية الهائلة مثل المحيطات ، ومن هنا فإن أثرهما من حيث الرطوبة غير كاف لكسر حدة الامتداد الصحراوي الجاف وفي استمراريته المتوافرة عبر الكتلة الإفريقية الآسيوية الهائلة . أما المحيط الهندي الذي يغسل الشواطىء الجنوبية لشبه الجزيرة فرغم ما يوفره من كمية بخر هائلة إلاّ أنّ رياح السّموم الحارقة (وتسمّى أحياناً بالسهام أو الهفوف) . وهي العامل الطبيعي الثاني تستوعب أغلب هذا البخر وتحول دون تحوّله إلى أمطار ومن ثم تقضي على أثره . وتبلغ درجة الحرارة المترتبة على هذه الرياح حول ٥٥ درجة مئوية في عمومها مع اختلاف بسيط بين منطقة وأخرى كما هو الحال ، على سبيل المثال ، بين مكّة التي ترتفع فيها درجة الحرارة بشكل

ملحوظ ، والمدينة التي تقع إلى شماليها والتي تخفّ فيها درجة الحرارة بشكل نسبي . كما توجد بعض الاستثناءات في المناطق المرتفعة كما هو الحال في صنعاء (باليمن) التي ترتفع إلى ٧٠٠٠ قدم فوق سطح البحر وتعتدل فيها الحرارة بصورة تجعل جوّها من أحسن أجواء شبه الجزيرة . ولا عجب ، بعد هذا ، أن يرتاح أغلب سكان شبه جزيرة العرب إلى الريح الشرقية التي أسموها ريح الصّبا ، وهي ريح معتدلة الحرارة ، وهو ارتياح عبّر العرب عنه في أشعارهم بشكل واضح سواء في كثرة الأشعار التي يذكرون فيها هذه الريح أو في نوعية ابداء هذا الارتياح الذي يصل إلى ما يقرب من التغزّل في كثير من الأحيان . ثم يأتي بعد هذين العاملين اللّذين أدّيا إلى الجفاف الغالب على شبه جزيرة العرب العامل الثالث وهو وجود المناطق المرتفعة بمحاذاة السواحل وعلى مقربة منها . بحيث تصدّ القدر الأكبر من الرياح المحمّلة بالسحاب ، ومن ثم تفرغ حمولتها من المطر ، إذا توفّرت الظروف الطبيعية لتحويل هذا السحاب إلى مطر ، إلاّ في أماكن قليلة أو في حالات عارضة (١٧).

وقد كانت نتيجة هذه العوامل الثلاث المؤدية إلى الجفاف أو المساعدة عليه أن أغلب المسطح الأرضي الذي تمتد عليه شبه جزيرة العرب أصبح بادية صحراوية قد لا يصيبها المطر لفترات طويلة كما هو الحال في منطقة الحجاز (بتحديدها الحالي) التي قد يستمر فيها الجفاف ثلاث سنوات متعاقبة . بينما قسم بسيط من هذا المسطح هو وحده الذي ينعم بالمطر بدرجات متفاوتة ، وإذا كان هذا المطر ينهمر غزيراً في بعض الأحيان . إلاّ أن هذه الغزارة ليست لها صفة الاستمرار ، ومن هنا فإنّ شبه الجزيرة بكاملها ليس فيها نهر واحد تمكن من أن يشقّ مجراه ، نتيجة لغزارة الأمطار ، حتى يصل إلى شواطىء المنطقة ، وإنما توجد بدلاً من الأنهار ، شبكة الوديان التي تنحتها هذه المناسبات

---

(١٧) Hitti : ذاته ، صفحات ١٧ — ١٨ .

العارضة من المطر الغزير ثم ينحسر المطر فتجف الوديان وتشكل، بمرور الزمن ، شبكة الطرق الطبيعية التي عرفها سكان شبه الجزيرة في تنقلهم وراء الكلأ أو في هجراتهم أو اتخذوا منها خطوطاً لقوافلهم التجارية . وليس بغريب ، نتيجة لهذا الجفاف العام في شبه جزيرة العرب ، أن تكون إحدى تسميات المطر عند العرب هي « الغيث » التي توحي بمفهوم الإغاثة من الإقفار الناتج عن الجفاف ،أو أن نسمع بين الممارسات الدينية للعرب عن صلوات « الاستسقاء» و « الاستمطار » حتى ينزل المطر ليسقي الأرض فيحيي النبت لصالح الإنسان والحيوان على السواء .

أما هذا المطر فإنه ، إلى جانب قلته ، لا يصيب المناطق التي ينزل فيها بمعدل واحد من الوفرة أو الانتظام ففي اليمن ومنطقة عسير ينزل منه قدر منتظم يسمح بالزراعة الدائمة في بعض الوديان التي تمتد إلى مسافة ٢٠٠ ميل من الشاطىء إلى الداخل ، وفي مساحات أخرى على الشاطىء ولكنها ليست بهذا الامتداد . بل إن المطر قد ينزل على بعض المناطق الجبلية فيحولها السكان إلى مناطق زراعية ، كما يفعل سكان « الجبل الأخضر » في اليمن حيث تصطدم السحب المثقلة بالبخار بقمم هذا الجبل فتفرغ ما بها من أمطار على جوانبه ويعمد سكان المنطقة إلى تسوية جوانب الجبل على هيئة مدرجات تستقبل مسطحاتها مياه المطر وتحتفظ بها ومن ثم يمكن زراعتها ، بدلاً من أن تنزل الأمطار جميعها إلى أسفل الجبل . وقد أدى هذا الوضع في اليمن بالذات إلى تنوع النباتات التي تتناسب مع الأجواء المختلفة ، بين الجو المعتدل في المرتفعات . والجو الدافىء في الأماكن الأقل ارتفاعاً ، والجو الحار الرطب في الوديان المنخفضة .

ولكن هذا النوع من الأمطار لم يكن من حظ مناطق أخرى ، ففي القسم الشمالي من النفود ، وفي القسم الشمالي الشرقي من الحجاز (بحدوده الحالية) تنزل كميات من المطر ولكنها لا تعادل أمطار اليمن وعسير سواء من حيث

الوفرة أو الانتظام . وقد أدّى هذا إلى ظهور بعض الواحات التي قد يستمر بعضها دون البعض الآخر . ودليلنا على هذا عدد من الواحات ، أكبرها تشغل مساحتها عشرة أميال مربّعة ، لا تزال باقيـــة فيالقسم الشمالي من الحجاز . بينما عدد آخر من الواحات التي كانت موجودة في المنطقة إمّا اندثر أو اضمحل مثل واحة « فَدَك » (تعرف حالياً باسم الحائط) التي كان لها شأن في صدر الإسلام ، ولكنها لم تعد الآن على ما كانت عليه من الخصوبة آنذاك .

على أنّ هذه الأمطار ، على عدم وفرتها أو انتظامها في كل المناطق بنسب متساوية ، قد تهطل في بعض الأحيان بغزارة غير معتادة فتتحول إلى سيول قد تؤدي شدة تدفقها إلى إغراق بعض السكان أو إلى تدمير بعض معالم العمران كما كان يحدث في بعض الأحيان في مكة والمدينة ، وفيما يخصّ مكّة فقد كاد أحد هذه السيول أن يهدم الكعبة في دفقة من دفقاته العنيفة ، ولكن مع ذلك فلم تكن كلّ هذه السيول شرّاً محضاً ، فقد عمل السكان أو الحكومات على السيطرة عليها عن طريق بناء سدود تختزن مياهها للانتفاع بها في أوقات الجفاف . وأشهر هذه السدود هو سدّ « مأرب » في اليمن . وإن لم يكن هذا هو السدّ الوحيد ، فقد وجد الرحالة آثار سدود قديمة في بعض مواضع في الحجاز ونجد والعربية الجنوبية تعود إلى ماقبل العصر الإسلامي [١٨] .

٣ ـ النبـات والحيوان :

وقد ظهر أثر هذا الجو الذي يسوده الجفاف ، إلى جانب ملوحة أجزاء

---

(١٨) Lammens : ذاته ، صفحات ١٧ ـ ٢٥ ؛ راجع الحديث عن السدود في الباب الخاص بالآثار والنقوش فيالقسم الثاني من هذهالدراسة، راجع كذلك ملحق اللوحات في آخر الدراسة . هذا وكان بعض السيـــول ينزل بغزارة في الحجاز بحيث يهدد الكعبة. وفيهذا الصدد يعقد البلاذري : فتوح البلدان (ليدن ١٨٦٦) صفحات ٥٣ فصلا بأكمله عن سيول مكة ، صفحات ٥٣ ـ ٥٥ .

كبيرة من أرض شبه الجزيرة العربية في النباتات التي عرفتها المنطقة ، فلم تتسم هذه النباتات بوفرة أصنافها أو بترف نوعياتها . هذا وقد توزعت هذه النوعيات على مناطق مختلفة من شبه الجزيرة تبعاً لمقدار خصوبة الأرض أو نوع تربتها ، وتبعاً لحظها من الرطوبة والحرارة ، كما أن عدداً منها لم يكن أصيلاً في المنطقة وإنما أدخل إليها من بلاد أخرى في فترة أو أخرى من فترات التاريخ . كذلك يبدو أن عرب شبه الجزيرة قد تعرّفوا على بعض طرق الزراعة في مجال حرث الأرض أو ريّ المزروعات من مناطق خارج شبه الجزيرة ، وهو أمر قد تشير إليه بعض الألفاظ التي اتخذها أهل الحجاز ونجد في هذا المجال من بينها ، على سبيل المثال ، وصف « بعل » للنباتات التي لا تحتاج الى ري يقوم به الإنسان، والإله بعل كان إله الينابيع والأرض الباطنية في المنطقة السورية . وقد دخلت عبادة بعل إلى المنطقة في العصر الجاهلي من سورية . كذلك لفظة « أكار » بمعنى حارث الأرض ، والكلمتان من أصل آرامي .

وفي مجال الحبوب عرف سكان البلاد زراعة القمح في اليمن وفي بعض الواحات ، كما عرفوا زراعة الأرز في عمان والحسا، وفي مناطق متفرقة عرفوا زراعة الذرة كما زرعوا الشعير كطعام أو علف للخيل . كذلك في مجال الفواكه كان عدد منها معروفاً في شبه الجزيرة ، فقد ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم مثل التين والزيتون والأعناب والرمّان . ومن بين هذه فإنّ زراعة الكروم (الأعناب) نبتت في مواطن كثيرة من بينها الطائف (في الحجاز) واليمن ومنها كانوا يعصرون نبيذ الزبيب . ويرى البعض أنها دخلت الحجاز من منطقة الشام في القرن الرابع الميلادي . أما الزيتون فيرى أحد الباحثين أن الحجاز لم يعرفه إطلاقاً ، بينما يرى باحث آخر أنّ ورود ذكره في القرآن الكريم يدلّ على وجوده في هذه المنطقة ، وربما يكون قد وجد في العصر القديم ثم اندثرت زراعته مع اندثار بعض الواحات ، كما سبق لنا أن رأينا ، إمّا بسبب زحف الجفاف على هذه الواحات وإمّا بسبب هجرة بعض

القبائل أو أعداد منها من الحجاز إلى مناطق أخرى مع عصر الفتوح الإسلامية ، أو لانصرافهم عن الزراعة واشتغالهم بالتجارة أو غيرها كذلك فإنّ ذكر الزيتون في القرآن إذا كان يشير إلى معرفة عرب الحجاز بهذه الفاكهة فإنّ هذا ليس معناه وجودها في هذه المنطقة بالضرورة فربما عرفها سكّان البلاد عن طريق المبادلات التجارية التي نقلت إليهم ثمرات وسلعاً (بل وأفكاراً) كثيرة لم يتعرفوا عليها إلاّ من خلال هذه المبادلات .

أمّا عن الأشجار ، فقد كانت الشجرة الأولى في شبه جزيرة العرب هي النخلة ، التي انتفع سكان المنطقة بكلّ جزء منها فهي التي تحمل التمر ، أكثر الفواكه شيوعاً وتنوعاً في الانتفاع به عند العرب . فالتمر (مع الحليب) هو الطعام الأساسي لعرب البادية إذا استثنينا بعض المناسبات التي يتناولون فيها شيئاً من لحم الجمل . وليس من الغريب في هذا المقام ، إذن ، أن يجعله سكان البادية أحد العنصرين الأساسيين للحياة حين يعبّر عن حصوله على « الأسودين » وهما التمر والماء كهدف يسعى دائماً إلى تحقيقه . ومن التمر يستخرجون كذلك الدبس والنبيذ، وبعض أجزاء النخلة يتخذونه دواء يتطيبون به . ومن هنا فقد اكتسبت شجرة النخيل عند عرب شبه الجزيرة أهمية خاصة بل وصلت إلى قدر كبير من التبجيل في كثير من الأحيان. ومن مظاهر هذه الأهمية أن ثروة الرجل إذا كانت تقاس بما كان يملك من جمال فإنها كانت تقاس كذلك بما كان يملك من نخيل . كذلك اهتم السكّان بزراعة أنواع كثيرة من النخيل تحمل أنواعاً مختلفة من التمر ، وفي هذا المقام نجد الكتاب العرب يعدّون مائة نوع من التمر في المدينة وحولها وحدها . وفي مجال الحديث عن نخيل شبه الجزيرة يستشهد أحد المؤرخين المسلمين بحديث يحث فيه الرسول (ص) على تبجيل النخلة لانها « من طينة آدم » وسواء أكان الحديث صحيحاً أو منحولاً فهو يشير إلى الفكرة التي كانت سائدة لدى العرب عن أهمية هذه الشجرة ، وهي أهمية يبدو أنها لم تقتصر على العرب وحدهم وإنما

شاركهم فيها بعض الشعوب السامية حيث نرى مواضع عديدة في التوراة والتلمو تشيرد إلى نوع من التقديس لشجرة النخيل (١٩) .

ومن الأشجار التي كانت على جانب كبير من الأهمية في بعض أجزاء شبه الجزيرة العربية ، أشجار البخور واللّبان التي كانت تنمو على الساحل

---

(١٩) عن النبات في شبه الجزيرة بوجه عام راجع جواد علي : ذاته ، صفحات ٢٠٧ — ٢١١ ؛ Hitti : ذاته ، صفحات ١٨ — ٢٠ . عن الاشجار في الحجاز بوجه خاص راجع Lammens : ذاته ، صفحات ٦٩ — ٩٣ . عن التمر كغذاء اساسي للبدوي راجع ، ابن قتيبة : عيون الاخبار (القاهرة ١٩٣٠) ، ج ٣ ، صفحات ٢٠٩ — ٢١٣ . الحديث النبوي في تبجيل النخلة مذكور في السيوطي : حسن المحاضرة (القاهرة ١٣٢١ هـ) ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ . عن تبجيل النخلة عند العبرانيين في التوراة والتلمود ، اللاويون : ٢٣/٤٠ ؛ نحميا : ٨/١٥ ؛ المكابيون الاول : ١٣/١٥ . عن ادخال زراعة بعض اشجار الفواكه من خارج الجزيرة يرى Hitti (ذاته ، ص ٢٠) ان النخلة لا بد ان تكون قد دخلت شبه الجزيرة من وادي الرافدين حيث موطنها الاصلي الذي جذب الانسان في العصر المبكر الى هذه المنطقة . ولكن رغم كثرة النخيل في هذه المنطقة بشكل يجعله سمة اساسية لها ويسترعي الانتباه بشكل ملحوظ ، الا ان هذا الراي يظل في تصوري مفتوحا للمناقشة، فالعبرانيون عرفوا النخلة وبجلوها كما اسلفت، والنخلة عموما تنبت حيثما يوجد المناخ الحار وشيء من الرطوبة والتربة الرملية القوام . عن وجود شجرة الزيتون في شبه الجزيرة ينفي ذلك Hitti (ذاته ، ص ١٩) الذي يرى ان موطنها هو سورية . على ان تكرار ذكر هذه الشجرة في القرآن الكريم (سورة الانعام: آيات : ٩٩ و ١٤١، سورة النحل : ١١ ، سورة التين : ١ ، سورة عبس : ٢٩ ، سورة النور : ٣٥) يشير الى معرفة العرب بها . كذلك يرد ذكر شجرة الزيتون في شبه الجزيرة العربية عند سترابون في أواخر القرن الاول ق.م. واوائل القرن الاول الميلادي في XVI , 4 : 18 ، وعند بلينيوس في اواسط القرن الاول الميلادي في H . N. XII , 77، حيث يبينان خصائص الزيتون العربي التي تميزه عن غيره . كذلك يذكر Hitti (الموضع ذاته) ان عددا آخر من اشجار الفواكه نقلها اليهود والانباط من (الموضع ذاته) ان عددا آخر من اشجار الفواكه نقلها اليهود والانباط من الشمال الى شبه الجزيرة . عن دخول الكروم في فترة متأخرة الى المنطقة راجع ، جان جاك بيربي : جزيرة العرب (الترجمة العربية ، بيروت ، ١٩٦٠) ص ٢٠٥ . عن تعرف عرب شبه الجزيرة على بعض طرق الزراعة من الآراميين راجع Hitti : ذاته ، ص ٢٠ .

الجنوبي لشبه الجزيرة . وقد اكتسبت هذه الشجرة أهمية خاصّة في العصر القديم حين كان إحراق الطيوب يشكل قسماً أساسياً من الطقوس أو الشعائر الدينية في كلّ العالم القديم ، ليس فقط على صعيد المناسبات الرسمية ، وإنما كذلك على صعيد الحياة اليومية ، وحين كان اللبان يستخدم في كثير من الأغراض الطبيّة . وقد كانت هذه الأشجار هي السلعة الأساسية التي تحملها القوافل التجارية من جنوبي شبه الجزيرة لتجد طريقها إلى أسواق مصر والشام ، ثم لتجد طريقها من موانىء الشام بوجه خاصّ إلى بلاد اليونان والرومان الذين كانوا يستخدمون كميات هائلة من الطيوب واللبان للأغراض الدينية والطبية ولأغراض الزينة التي تقوم مقامها الآن الروائح العطرية .

ولكن إذا كانت الأشجار ، النخيل والبخور واللبان ، قد وجدت في شبه جزيرة العرب تربة ومناخاً ملائمين لظهورهم فإنّ حظ هذه البلاد كان أقلّ في مجال الأشجار الكبيرة التي تصلح لاستخراج الأخشاب اللازمة في بناء السفن والمعابد والبيوت. وربما وجد في بعض العصور قدر منهذه الأشجار في المناطق الجبلية والمناطق القريبة منها حيث كان يغزر هطول الأمطار ممّا يؤدي إلى ظهور الأحراج والغابات في بعض مناطق اليمن مثلاً . وربما كان يوجد مثل هذه الغابات في مناطق الحجاز وهو أمر قد يشير إليه تعبّد أهل هذه المنطقة لإله اسمه « ذوغابة » . ولكن إذا كان شيء من هذا قد وجد فلا بدّ أنّه قلّ بدرجة واضحة في أواخر العصور القديمة حيث نجد سكان شبه الجزيرة يستوردون الأخشاب التي يحتاجون إليها من مناطق مثل الهند وإفريقية . ولكن على أي الأحوال فإن أشجاراً أخرى أقل من هذه في قيمة خشبها أو صلاحيته للأغراض المذكورة، مثل أشجار الأثل والطلح (الذي يستخرج منه الصمغ العربي) والأراك والغضى (الذي كان يحرق للحصول على الفحم) والسنط والسمح وغيرها [٢٠] .

(٢٠) جواد علي : ذاته ، صفحات ٢٠٨ وما بعدها .

ونتقل الآن إلى الحيوانات الّتي عرفها العرب في شبه جزيرتهم قبل ظهور الإسلام . وأول ما يطالعنا في هذه المملكة الحيوانية بالضرورة هو الجمل . وقد بدأ الساميون يعرفون الجمل في القرن الثاني عشر ق . م . ولكنه اقترن باسم العرب منذ أن بدأ اسم « العرب » يظهر في مجال الاحتكاكات الدولية بين الشعوب المجاورة لهم وبينهم ، فابتداء من أواسط القرن التاسع ق . م تظهر الجمال كجزء من الغنائم الّتي حصل عليها ملوك الآشوريين كلما كان العرب ، وحدهم أو مع غيرهم من الشعوب، هدفاً لحملات هؤلاء الملوك. والشيء ذاته نجده في النصوص الفارسية فيما يخصّ علاقة الفرس بالعرب . وحين قام الملك الفارسي حشويرش (الذي عرفه اليونان باسم اكسركسيس Xerxes) بحملته على بلاد اليونان في أوائل القرن الخامس (٤٨٠ ق . م) كان جنود الفصائل العربية في جيشه يركبون الجمال [٢١] .

وفي واقع الأمر فإن اقتران الجمل باسم العرب ليس شيئاً عفوياً . فالجمل بالنسبة لأهل البادية هو رمز الحياة الّتي لا يستطيع العرب أن يتصوروها بدونه فالعربي يشرب لبن الناقة (أنثى الجمل) حتى يوفّر المياه (ولنتذكّر أن المياه عزيزة في البادية) للماشية الّتي يعيش عليها بما فيها الجمل نفسه . وهو يأكل لحم الجمل ويغطّي نفسه برداء مصنوع من جلده . ويصنع خيمته من وبره ويستخدم بعره وقوداً في أغراض الطهي أو التدفئة ومن بوله يتّخذ دواء لبعض الأمراض بما فيها الأمراض الّتي تصيب الشعر . ولا يقتصر دور الجمل في حياة عرب البادية على ذلك . إذ هو وسيلتهم الأساسية للمواصلات ووسيلتهم

---

(٢١) عن ورود ذكر الجمل في النصوص الآشورية راجع ANET ص ٢٧٩ (نص من عهد شلمنصر الثالث ، ٨٥٨ ــ ٨٢٤ ق.م.) ، صفحات ٢٨٣ ــ ٢٨٤ (نصان من عهد تجلات بيليسر الثالث (٧٤٤ــ٧٢٧ق.م.)، قارن Luckenbill : ARAB ، ج ١ ، نصوص ٦١٠ ، ٧٧٢ ، ٨١٥ ــ ٨١٩ . عن ظهور الفصائل العربية في جيش حشويرش وهي تركب جمالا راجع Herodotos : VII, 86-7 .

الوحيدة للمواصلات البعيدة ، إذ هو الحيوان الوحيد المؤهل لنقل الأحمال الثقيلة لمسافات بعيدة بحكم تكوين خفّه الذي يساعده على المسير في الرمال بحمولته الثقيلة دون أن يغوص فيها ، وبحكم قوّته واحتماله وصبره الشديدين. فهو يستطيع أن يحمل أربعة أطنان ويقطع بها ٦٠ ميلاً في اليوم في الصحراء كما يستطيع أن يسافر عشرين يوماً بدون ماء في درجات الحرارة العالية . وأكثر من ذلك إذا أعطي شيئاً من الكلأ الأخضر . وإلاّ فهو يستطيع أن يواصل سفره خمسة أيام أخرى قبل أن يموت . ومن هذا المنطلق نقدر دور الجمل في الحركة التجارية الواسعة التي مارسها العرب بشكل نشط قبل الإسلام والتي كانت قوافل الجمال تحمل في خلالها منتجات شبه الجزيرة من البخور واللبان والطيوب إلى خارج المنطقة لتعود بالسلع التي يحتاجها أهل البلاد — الأمر الذي شكل المورد الاقتصادي الأول عند سكان شبه الجزيرة والمصدر الأساسي لثروتهم . ومن هذا المنطلق كذلك نستطيع أن نقول إن الجمل بصفاته هذه . كان عاملاً أساسياً في تسهيل مهمّة العرب في أثناء الفتوح التي تمت بعد غروب العصر الجاهلي وظهور الدعوة الإسلامية .

وفي مقدورنا أن نتبيّن الأهمية الكبيرة التي أضفاها عرب شبه الجزيرة على الجمل من ظاهرتين أساسيتين : إحداهما هي أن ثروة العربي كانت تقدّر بعدد ما يملكه من جمال (إلى جانب ما كان يملكه من نخيل) على أساس أن الجمل يمثل أثمن سلعة في البادية . ومن هذا المنطلق كذلك كان الجمل يشكل ما يمكن أن نسمّيه العملة الصعبة في المعاملات إذا جاز لي أن أستخدم تعبيراً معاصراً . فالمهر الذي يدفع لأهل العروس ، والديّة التي يتقاضاها أهل القتيل ، والربح الذي يحصل عليه لاعب الميسر كانت كلها تقدّر بعدد من الجمال . أما الظاهرة الثانية التي تشير إلى أهمية الجمل في حياة العرب في عصر ما قبل الإسلام فهي هذا العدد الهائل من الأسماء والصفات التي أعطيت للجمل (أو الناقة) فيما يخصّ أنواعه ودرجات لونه ومراحل نموّه وطرق سيره وهي

أسماء تظهر بشكل واضح في أشعار العرب في العصر الجاهلي [٢٢] .

وإذا كان القرآن الكريم (كمصدر نستقي منه جانباً من معلوماتنا عن حياة العرب في العصر السابق للإسلام) قد ألمح إلى الجمل كوسيلة نقل لحمل الأثقال إلى مسافات وبلاد بعيدة ، فقد أشار إلى الخيل والبغال والحمير كدواب للركوب أو الزينة . وفي هذا المجال فإن الحمار هو أقدم هذه الدواب جميعاً . فقد عرفه الساميّون من فترات بالغة في القدم كوسيلة للنقل . وهو يظهر في وادي الرافدين على سبيل المثال مع بداية تاريخهم ، بل إنهم حين بدأوا يعرفون الجمل سمّوه (في اللغة الأكّدية) حمار البحر (ربّما إشارة إلى أنه أتى من الشاطىء العربي لمنطقة الخليج) وفي هذا الوصف وحده دليل على أن معرفتهم بالحمار كانت أقدم بكثير . والقبائل العربية البدوية كانت متاخمة لوادي الرافدين ومن ثمّ فإنّ معرفة أحد الجانبين للحمار كانت تعني بالتبعية معرفة الجانب الآخر له . ولكن الحمار كان بالضرورة وسيلة نقل لا تلبّي في قطع المسافات الطويلة وبخاصّة في رمال البادية . ومن ثمّ فإن استخدامه لا بدّ أنّه كان محدوداً وقاصراً على الحضر وأماكن الاستقرار كدابّة لركوب العوام . ولعلّ هذه الصفة هي التي جعلت العرب تضعه في مرتبة أدنى بكثير من مرتبة

---

(٢٢) تحمل الجمل للنقل في المسافات البعيدة يأتي في القرآن الكريم بشكل متضمن في سورة النحل : آية ٧ . عن تفصيل حمولته ومدى احتماله راجع Rodinson : ذاته ، ص ١٣ ؛ Hitti : ذاته ، ص ٢٢ . عن اتخاذ بول الجمل دواء لبعض الامراض نجد ذلك في احد ابيات لبيد بن ربيعة (٥٦٠ ؟ — ٦٦١ م ؟) في ، لويس شيخو — افرام البستاني : المجاني الحديثة ، ج ١ ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٢٢ ، بيت ٣٤ ، يصف فيه طريقا تقطعها ناقته :

يهوي الى قصب كأن جمامه سملات بول اغليت لسقيم

عن استخدام الجمل كوسيلة للمعاملة بدلا من المال راجع Hitti : ذاته، ص ٢٢ ، وجواد علي : ذاته ، ص ١٩٧ .

الجمل كما يظهر في أشعارهم (٢٣) .

ويأتي الحصان بعد الحمار من حيث قدم التعرف عليه من جانب عرب شبه الجزيرة ، وإذا كانت أنواعه الجيدة قد اقترنت باسم العرب ، إلاّ أنهّ حيوان دخيل على العرب وبقية الشعوب السامية على السواء ، فقد كان أول من دجّنه وحوله بذلك إلى حيوان أليف هم الرعاة من القبائل الآرية (الهندو أوروبية) في بعض المناطق التي تقع إلى شرقي بحر الخزر ثم استورده الكاشيون (من المجموعات التي استقرت في وادي الرافدين) والحيثيون (في آسيه الصغرى) وأدخلوه إلى غربي القارة الآسيوية في اوأسط الألف الثانية ق . م . ومن سوريا عرف طريقه إلى شبه جزيرة العرب في الفترة السابقة للعصر الميلادي.

ولكن الحصان لم يصبح في الواقع أداة نقل في المقام الأول عند عرب شبه الجزيرة . وإنما استفاد العرب من سرعته ومن بعض صفاته الأخرى في الغارات التي كانت تقوم بها القبائل فيما بينها في العصر السابق للإسلام.أمّافيما عدا ذلك فقد كان دابّة ترف بالنسبة للعرب،إذ كانت مهمة إطعامه والعناية به تشكّل عبءاً بالنسبة لأهل البادية . ومن ثم فقد كان اقتناؤه لا يتيسّر إلاّ لمن كان على قدر من الثراء ، وكان يعتبر في الواقع مظهراً من مظاهر هذا الثراء وما يتصل به من ممارسات . فالحصان كان يستخدم . إلى جانب الغزوات أو الغارات ، في بعض أنواع الرياضة مثل الصيد والسباق الذي يبدو أنّه كان

---

(٢٣) الاشارة في القرآن الكريم الى الخيل والبغال والحمير في سورة النحل : آية ٨ . عن انتقال الحمار من الشواطىء العربية للخليج الى العراق راجع جواد علي : ذاته ، ص ١٩٧ . وضع العرب للحمار في مرتبة ادنى من الجمل يظهر ، على سبيل المثال ، في بيت للمتلمس (توفي ٥٨٠ م ؟) ، راجع شيخو ـ البستاني : المجاني ، ص ١٩٢ ، بيت ١ .

هواية وصلت عند عرب الجاهلية إلى قدر كبير من التفصيل والتفنّن والإتقان(٢٤)

وأخيراً يأتي البغل كدابة ركوب أو نقل . ويشير كتّاب السّير من العلماء المسلمين إلى أنّ أول بغلة رئيت في الإسلام كانت بعد هجرة الرسول (ص) ممّا يستنتج منه أنّ هذه الدابة كانت نادرة الاستخدام في العصر الجاهلي . ولكن يبدو . إذا صحّت رواية هؤلاء الكتاب ، أن حديثهم لا يشمل شبه الجزيرة بأكملها . ولعلّهم ، وهو الأرجح ،كانوا يقصدون منطقة الحجاز إذ أنّ الحديث يدور عن بغلة أهداها المقوقس للرسول (ص)(٢٥) . واستند في هذا الافتراض إلى بعض القرائن : فمن جهة نجد أن ذكر البغال

---

(٢٤) عن تدجين رعاة القبائل المتحدثة بالآرية للحصان ودخوله الى وادي الرافدين مع الكاشيين راجع G. Roux : ذاته ، ص ٢٢١ . عن دخوله الى شبه جزيرة العرب من المنطقة السورية راجع Hitti : ذاته، ص ٢٠ ، واوئيد هذا بأن الحصان قد عرف في المنطقة السورية ابتداء من القرن السادس عشر ق.م. على الاقل، استنادا الى ان جماعات الهكسوس التي اجتاحت مصر الشمالية قادمة من المنطقة السورية في ذلك الوقت (فرارا بدورها امام اجتياح جماعات آرية من آسيه الصغرى) قد ادخلت استخدام الحصان الى مصر بعد ان نقلت ذلك بدورها من جماعات من آسيه الصغرى راجع J. H. Breasted : A History of Egypt From the Earliest Times to the Persian] Conquest (New york ١٩٦٤ Bantam Books) ص ١٨٦ عن الحدث و ص ٥٠١ عن تحديد التاريخ . عن اشارات القرآن الكريم الى الحصان كدابة من دواب الزينة ، سورة آل عمران : ١٤ ، النحل : ٨ ، كدابة حرب ، سورة الانفال : ٦٠ ، الاسراء : ٦٤ . عن استخدام الحصان للصيد والرياضة يظهر في عديد من المواضع في الشعر الجاهلي ، على سبيل المثال ، عند امرىء القيس في شيخو ــ البستاني : المجاني ، ص ٣٦ ، ابيات ٦١ ــ ٦٨ ، وعند زهير بن ابي سلمى في شيخو البستاني : ذاته ، صفحات ٩١ ــ ٩٢ ، ابيات ١٢ ــ ٢٩ . عن مدى التفنن في رياضة السباق بالخيل نجد عشرة اسماء عند عرب شبه الجزيرة لترتيب الخيل في السباق وهي : السابق او المميز وهو اول الخيل في الوصول الى الهدف ، ثم المصلي والمسلي والتالي والمرتاح وهو الخامس ثم العاطف والخطي والمؤمل والسكيت وهو العاشر : راجع دراستنا « الكيان العربي » ، بيروت ١٩٦٥ .

(٢٥) ابن سعد : الطبقات ، بيروت ١٩٥٧ ، ج ١ ، ص ٤٩١ .

ورد في سورة النحل وهي سورة مكية والسور المكية نزلت قبل هجرة الرسول إلى المدينة ، بينما التراسل بين الرسول (ص) وبين المقوقس لم يتم إلا بعد أن استقرت الدعوة الإسلامية في أعقاب الهجرة الى المدينة . ومن جهة أخرى فإن شبه الجزيرة العربية كانت بها أقسام صخرية أو جبلية مثل منطقة الأنباط في شمالي غربي شبه الجزيرة التي أطلق عليها الكتّاب الكلاسيكيون اسم « بلاد العرب الصخرية » **Arabia Petraea** لكثرة ما بها من صخور (بل أن عاصمتهم « البتراء » هي مدينة كاملة واسمها هو في حد ذاته ترجمة حرفية لكلمة **Petra** اللاتينية التي تعني الصخرة أو الحجر) وكذلك مثل بعض مرتفعات اليمن . ومثل هذه المناطق الوعرة أو المرتفعة لا يمكن للجمل أن يسير فيها أو يتسلقها ، والبغل قادر على ذلك ومن ثم لا يمكن الاستغناء عنه كدابة للركوب أو لحمل الأثقال التي يستطيع البغل أن يحمل قدراً لا بأس به منها . كذلك فإن البغل كان معروفاً في منطقة فلسطين ومن هنا فإن الانتفاع به على الأقل في المناطق الصخرية القريبة من فلسطين يصبح أمراً وارداً .

أما عن بقية الحيوانات المستأنسة التي عرفتها شبه جريزة العرب في الجاهلية فهي الأغنام والماعز والكلاب اللازمة للحراسة بالضرورة والقطط . وغير هذه كانت توجد الحيوانات البرية مثل الأسد الذي كان موجوداً في الجاهلية وكانت له عدّة أسماء يتسمى بها العرب ولكنه انقرض الآن والفهد وبعض الزواحف والهوام مثل الثعابين والحيات التي يبدو أنها كانت منتشرة بشكل ظاهر في شبه الجزيرة (٢٦) وبعض أشباه الزواحف مثل الضبّ ، وحيوانات

---

(٢٦) عن ثعابين شبه الجزيرة في النصوص الآشورية راجع Luckenbill : ARAB ، ج ٢ ، نصوص ٢٠٩ ، ٢٢٩ ؛ في المصادر الكلاسيكية انظر **Herodotos, III. 107** حيث يحدثنا المؤرخ عن ثعابين مجنحة ذات الوان متعددة ، كذلك **Strabo , XVI,4, 19** ، الذي يتحدث عن نوع من الحيات القافزة ذات لون احمر داكن .

أخرى مثل القرود التي لا تزال موجودة في المناطق الجبلية باليمن حتى الآن ثم الجراد وبعض الطيور الجارحة مثل العقاب والباز والنسر والصقر والبومة وعدد من الطيور الأخرى مثل الغراب والهدهد والعندليب والقطا ، وهذه الأخيرة يبدو أنها نالت استحسان عرب الجاهلية لسبب أو لآخر (لعلّه جمالها أو وداعتها إلى جانب استخدامها كطعام شهيّ) فخلّدوها في أشعارهم .

القسم الثاني

المصادر

الباب الرابع : الآثار والنقوش

الباب الخامس : المصادر الدينية

الباب السادس : المصادر الكتابية

الباب السابع : الشعر الجاهلي

الباب الرابع

الاثار والنقوش

قبل أن أبدأ الحديث عن الآثار والنقوش كمصدر أساسي لمن يقدم على التأريخ لشبه الجزيرة العربية في الفترة السابقة للإسلام أودّ أن أقول إني أقصد بالمصادر كلّ ما يمكن أن تصل إليه أيدينا من أصول نستطيع عن طريقها أن نرسم صورة واضحة في حدود الإمكان لمجتمع شبه الجزيرة في تلك الفترة في كل جوانب حياته ، سواء في ذلك نشاطه الاقتصادي والموارد التي كان يعتمد عليها في ممارسة هذا النشاط ، أو تكوينه الاجتماعي بطبقاته وفئاته ، أو معتقداته وعباداته التي كان يؤمن بها ويتصرف بدرجات متفاوتة في دائرة اقتناعه بها ، أو نظمه السياسية التي كانت تربط بين أفراده وما تمليه ظروفهم من تكتلات صغيرة أو كبيرة قد تكون عشيرة أو قبيلة أو مجموعة قبائل أو إمارة أو مملكة ، أو علاقاته الخارجية بالمجتمعات الأخرى التي تحيط به ويحتكّ بها في صورة أو في أخرى ، ثم الوسائل التي كان يصطنعها ، أو كانت ظروفه توجهه إلى اصطناعها ، لكي يعبّر عن نفسه أو بالأحرى عن محصّلة انطباعه بتجربته في كل هذه الجوانب ، سواء أكان ذلك عن طريق الفن أو الأدب أو غير ذلك .

١ ـ قيمة الآثار والنقوش في التاريخ لشبه الجزيرة :

والآثار والنقوش تأتي في مقدّمة هذه المصادر ، فهي التعبير المادّي الملموس الذي تركه لنا مجتمع شبه الجزيرة العربية (أو من احتكوا به) عن ممارسات هذا المجتمع في كلّ الجوانب التي أسلفت ذكرها . فالآثار تنقسم إلى أنواع عديدة من بينها ، في مجال المعمار ، بقايا المنازل والقصور والمعابد والأضرحة والحصون والسدود والبوابات والأسوار والمسلاّت وغيرها . وفي مجال النحت نجد التماثيل بكافة أنواعها سواء أكانت كاملة أو نصفيّة أو دمى صغيرة أو زخارف بالنحت البارز ، ثم هناك الرسوم التي تركها سكان بعض المناطق في شبه الجزيرة على شكل مخربشات على صخور الجبال ، والفخّار الذي كان يشغل حيّزاً كبيراً في الحياة اليومية وبخاصة في مجتمعات الحضر في شبه الجزيرة (وفي الواقع في كل مجتمعات العصور القديمة) سواء اتخذ شكل أوعية أو أواني أو غير ذلك . وإلى جانب ذلك هناك بطبيعة الحال أدوات العمل اليومي وأدوات الزينة . ثم المسكوكات أو العملة التي كان يتداولها هذا المجتمع في قضاء حاجاته ومعاملاته وبخاصّة إذا أدخلنا في اعتبارنا أنّ التجارة . بما فيها من معاملات نقدية كانت تشكل مورداً أساسياً من موارده الاقتصادية . ثم نصل في نهاية المطاف إلى النقوش التي تركها لنا سكان شبه الجزيرة في أكثر من منطقة على جدران المعابد أو الأضرحة أو صخور الجبال أو النصب أو الألواح التذكارية التي أراد بعض الأفراد أو الحكام أن يخلّدوا بها حدثاً أو موقفاً يرغبون في تخليده لسبب أو لآخر .

ونحن نستطيع أن نستنتج الشيء الكثير عن حياة مجتمع شبه الجزيرة من كل نوع من هذه الآثار . ففي مجال المعمار ، على سبيل المثال ، يشير موقع الحصن أو السور الممتدّ حول المدينة إلى أن المنطقة التي يوجد بها في حاجة إلى دفاع من نوع خاصّ لأنها تقع في منطقة تتعرّض فيها للخطر من جانب مجتمع مجاور

لديه اتجاهات توسّعية ، أو لأن المنطقة (التي قد لا تشكل في حدّ ذاتها مطمعاً) تقع في معبر قد تجتاحه دولة مجاورة في طريقها للاعتداء على أرض دولة أخرى مجاورة . والحجارة التي تستخدم في بناء هذا الحصن أو هذا السور لها أكثر من دلالة . ومن بين ما تدل عليه مدى الاهتمام بتحصين الموقع وهذا نستطيع أن نعرفه من حجم الحجارة وسمك السور أو سمك جدران الحصن . كذلك هي تدلّنا على مدى قدرة أفراد المجتمع في هذا الموقع على السيطرة على الحجر صقلاً وترتيباً . وعلى مدى تأثرهم في طراز البناء بغيرهم أو مدى تعبيرهم عن شخصيتهم الخاصّة . والشيء ذاته يمكن أن نقوله بتفاصيل مختلفة عن بقية أنواع المعمار ، فأساسات أو بقايا المنزل أو القصر الذي يجده المنقّب الأثري في أثناء حفائره يشير . بين أشياء كثيرة . إلى المستوى الاقتصادي أو الطبقي لمن كانوا يسكنون هذا المنزل أو القصر . والمعبد يبين لنا ، إلى جانب طرازه ومدى ما فيه من شخصية فنية محلية أو تأثير خارجي ، نوع العبادة التي كان يمارسها سكان المنطقة التي أقيم فيها هذا المعبد . وشيئاً عن المعبود الذي تدور حوله . وربما شيئاً عن الطقوس أو الشعائر التي كانت تتصل بهذا المعبود وهكذا .

والتماثيل أو النحت البارز أو الرسوم والمخربشات هي الأخرى نستطيع أن نستنطقها الكثير مما كان يدور في مجتمع شبه الجزيرة قبل ظهور الإسلام كما نستطيع أن نتعرف من العملة على أكثر من جانب من جوانب الحياة التي كان يمارسها . فالكتابة التي تظهر على أحد وجهي العملة قد تعطينا اسم الحاكم أو صفته والرسم الذي قد يوجد على الوجه الآخر له دلالته سواء صور معبوداً أو حيواناً يقدسه المجتمع أو طائراً أو نباتاً له أهميته في الحياة اليومية . والعملة الأجنبية التي نعثر عليها نستطيع أن نعرف منها مثلاً أنّ قدراً من التعامل كان قائماً بين مجتمع شبه الجزيرة والدولة صاحبة هذه العملة ، وعدد ما يعثر عليه من قطع هذه العملة الأجنبية يعطينا فكرة عن مدى كثافة المعاملات مع هذه

الدولة . كذلك، فنوعية المعدن الذي سكّت منه العملة يزوّدنا بفكرة عن رسوخ الوضع الاقتصادي أو عدم رسوخه ، إذا كانت هذه العلمة ذهباً أو فضّة أو برونزاً وهكذا.

ثم نأتي إلى النقوش . وهذه عبارة عن نصوص تركها لنا مجتمع شبه الجزيرة في العصور السابقة للإسلام . إمّا محفورة بشكل سريع على واجهات الصخور ، أو محفورة بشكل منظم ، وعادة ما يكون منمقاً ، على جدران المعابد أو المنازل أو على واجهات الأضرحة أو شواهد القبور ، أو مختومة على ألواح أو رُقُم طينية تحرق بعد أن تسجّل عليها هذه النصوص كي تكتسب شيئاً من الصلابة التي تضمن لها البقاء فترات طويلة دون أن تتعرّض للتفتت أو التآكل . وهذه النصوص تتراوح في طولها . فقد تكون سطوراً قليلة لا تتعدّى أصابع اليد الواحدة أو قد تمتد لتشمل عدة فقرات طويلة . كذلك فهذه النقوش قد توجد في مناطق داخل شبه الجزيرة العربية ، كما قد توجد في مناطق داخل بلاد أخرى كانت على صلة بشكل أو بمجتمع شبه الجزيرة ، ومن ثم ترد في نصوص إلى شبه الجزيرة ومعلومات عنها .

والنقوش لها أكثر من دلالة تضعها أمام من يريد التعرّف على مجتمع ما قبل الإسلام في شبه الجزيرة العربية . وعلى سبيل المثال فإن انتشار نصوص بلغة أو لهجة معينة في عدد من المناطق يشير إلى انتشار الفئة أو المجموعة التي تتحدث بهذه اللغة أو اللهجة في الأماكن التي وجدت فيها هذه النقوش . أو يشير على الأقل إلى تواجد بصفة أو بأخرى لهذه المجموعة في تلك الأماكن . ووجود نقوش بلغات مختلفة في منطقة واحدة يشير عادة إلى أن هذه المنطقة كانت نقطة التقاء أو مرور للمجموعات التي كانت تتحدث بهذه اللغات . وهو لقاء أو مرور يتم لغرض عادة ما يكون تجارياً . كذلك قد يشير أحد النقوش إلى حدث معين قد يكون غزوة قام بها حاكم منطقة بعيدة إلى المنطقة التي اكتشف فيها النقش . وقد يكون ابتهالاً من أحد حكام أو أفراد منطقة

معينة إلى إله من آلهتها ، فنعرف من ذلك اسم هذا الحاكم أو الشخص واسم الإله أو الآلهة التي كانت عبادتها تسود هذه المنطقة وهكذا .

وتعمل الآن في حقل الكشف عن الآثار والنقوش في شبه الجزيرة العربية مجموعة من الهيئات العلمية المتخصصة . تتكوّن كل منها في أغلب الأحوال من فريق متكامل يمثل التخصصات المختلفة . يوجد فيه المنقّب الأثري والمتخصص اللغوي والجغرافي والرسام والمهندس المعماري . وهذه الهيئات التي تنتمي إلى بلاد مختلفة تؤدي مجهوداتها هذه إلى توضيح الصورة التاريخية لشبه الجزيرة أمام الباحثين يوماً بعد يوم . على أننا ندين في الواقع ببداية الاهتمام بتاريخ شبه الجزيرة العربية وبداية التعرف العلمي على آثارها ونقوشها إلى عدد من العلماء الأوروبيين والعرب والأميركيين كان لمجهوداتهم الأولى . التي عرضتهم لكثير من المصاعب والمخاطر (وهي مخاطر أودت بحياة عدد منهم في بعض الأحيان) أكبر الأثر في قيام واستمرار العمل العلمي القائم الآن في هذا المجال . وقد كان عمل هؤلاء الرواد مختلطاً في أغلب الأحوال بين الآثار والكشف عن النقوش القديمة حسبما تتيسّر الظروف . ولا أهدف في هذه الكلمة التمهيدية إلى حصر أسمائهم أو أعمالهم وإنما أودّ أن أعرض بشكل سريع إلى التعريف بالمراحل التي سارت فيها هذه الكشوف بهدف إعطاء هيكل عام لها .

وقد كان أول هؤلاء هو كارستن نيبور **Karsten Niebuhr** . الجغرافي الدنمركي الذي قام هو وخمسة أفراد آخرين في بعثة أرسلها ملك الدنمرك للكشف عن آثار اليمن بين ١٧٦١ و ١٧٧٢ . وقد هلك زملاؤه الخمس وبقي هو ليضع كتاباً ضمنه نتاج العمل الذي قامت به البعثة . ورغم أن الكتاب يحتوي على قدر كبير من تفاصيل الرحلة ذاتها ممّا قد لا يهمّ الباحث في تاريخ شبه الجزيرة . إلاّ أنّ هذا الكتاب كان له أثران هامان : أولهما هو أنّه نبّه

أذهان العلماء إلى إمكانية وأهمية العمل في حقل التعرف على آثار ونقوش اليمن ، وثانيهما هو الخريطة المفصلة التي ظهرت في هذا الكتاب لتبيّن مواقع وأماكن لم يكن يعرف بها أحد من قبل — الأمر الذي يسّر الأمور بشكل ظاهر لمن أتى بعده من العلماء .

أما المرحلة الثانية فيمثلها توما أرنو **Thomas Arnaud** الصيدلي الفرنسي الذي زار اليمن في ١٨٤٣ وكشف ، بين أشياء أخرى ، عن ٥٦ نقشاً . وأهمية رحلته العلمية هو إقبال المستشرقين على فك رموز الخط العربي الجنوبي الذي أطلقوا عليه بشكل عام في البداية اسم الحروف الحميرية . ثم تلت ذلك خطوتان هما تمكن هؤلاء المستشرقين من تقسيم هذه الحروف بشكل تخصيصي إلى ثلاث مجموعات هي الحروف الحميرية والحروف المعينية والحروف السبئية ، أما الخطوة الثانية فهي التمكن من ترجمة كل النقوش التي اكتشفت في العربية الجنوبية حتى ذلك الوقت ثم جمعها والتعليق عليها في موسوعة النقوش السامية **Corpus Inscriptionum Semiticarum**

وتتمثل المرحلة الثالثة في مجهودات عالمين آخرين هما الفرنسي جوزيف هاليفي **Joseph Halévy** الذي وصل إلى نجران وصنعاء في ١٨٧٠ . وتمكن من اكتشاف ٦٨٦ نقشاً من ٣٧ موقعاً . وأدوارد جلازر **Edward Glaser** العالم النمسوي الذي قام بأربع رحلات إلى اليمن بين ١٨٨٢ و ١٨٩٤ كانت حصيلتها ألفي نصّ . وأهمية جهود هذين العالمين هي هذا العدد الهائل من النقوش التي عثروا عليها وسجّلوها . وبفضل هذا العدد من النقوش تمكن المهتمون بدراسة تاريخ هذا القسم من شبه الجزيرة من التعرف الأعمق على خصائص اللغات العربية الجنوبية القديمة ومقارنتها بغيرها من اللغات السامية بما يستتبعه هذا من التوصل إلى معرفة عدد من العلاقات الداخلية والخارجية في صدد الاتصالات بين هذه المنطقة وغيرها من مناطق العالم القديم .

والمرحلة التالية في مجال التعرف على تاريخ اليمن القديم يمثلها ، بين

آخرين ، عالمان مصريان هما العالم الجغرافي سليمان حزين الذي زار المنطقة ضمن بعثة ثلاثية أرسلتها جامعة القاهرة في ١٩٣٦ أصدر على أثرها بحثين أحدهما عن الخطوط التجارية في شبه الجزيرة في العصر الروماني والآخر عن التغيرات المناخية التي أدت إلى الهجرات من جنوبي شبه الجزيرة إلى شماليها في العصور القديمة . والثاني عالم أثري هو أحمد فخري الذي قام برحلة علمية أثرية إلى المنطقة في ١٩٤٨ تمكن خلالها ، إلى جانب نتائج أخرى . من دراسة معبد إلمقة . إله القمر السبئي الموجود في مأرب دراسة علمية وافية صدرت في ثلاثة أجزاء في ١٩٥٢ . أمّا العالم الآخر الذي يمثل هذه المرحلة ، فهو العالم الأثري الأميركي وندل فيليبس **Wendell Phillips** الذي ترأس بعثة أميركية أثرية إلى اليمن ١٩٥٢ تمكن على أثرها من الكشف على الفناء الأمامي لمعبد إلمقة .

وإلى جانب هذه المجهودات العلمية الخاصّة بالعربية الجنوبية كانت هناك مجهودات موازية في القسم الشمالي من شبه الجزيرة من بينها ما قام به العالم التشيكوسلوفاكي ألويس موسيل **Alois Musil** الذي تمكن في خلال رحلاته إلى نجد والحجاز . وبخاصّة المواقع التي كانت تمرّ بها خطوط القوافل التجارية . ومن بين هذه المجهودات كذلك ما قام به المستشرق الفرنسي رينيه دوسّو **René Dussaud** الذي ظهرت نتائج تحقيقاته في دراسة عن نفاذ الأقوام العربية والنشاط التجاري والسياسي العربي إلى داخل المنطقة السورية (*) .

(*) مثال من البعثات العلمية الاثرية التي عملت في شبه الجزيرة العربية في الفترة الاخيرة نجده في خمس بعثات قامت بتنقيبات في المملكة العربية السعودية هي : بعثة جامعة تورنتو الكندية وجامعة كنتكي الاميركية برئاسة الفريد وينيت ووليم ريد في ١٩٦٢ و ١٩٦٧ في شمال غربي المملكة وفي منطقة حائل ، واعمال الاستاذة الالمانية روت شتيل والعالم البرت جامي (١٩٦٣ ـ ١٩٦٨) في المنطقة الشمالية الغربية واعمال البعثة الدنمركية (١٩٦٨) في المسح الاثري للمنطقة الشرقية واعمال بعثة معهد الآثار بجامعة لندن (١٩٦٨) في المنطقة الشمالية الغربية، واعمال بعثة معهد سمثسونيان الاميركي (١٩٦٨) في المنطقة الجنوبية الغربية للمملكة ومنطقة نجران واعمال بعثة قسم التاريخ =

٢ ـ امثلة من المخلفات الاثرية :

وسأعرض في هذه السطور إلى المخلفات والنقوش التي تتصل بشبه الجزيرة العربية ، لا على سبيل الحصر ، فهذا يتجاوز طاقة الباحث كما يخرج عن نطاق هذا الدراسة التقديمية ، ولكن عن طريق تقديم نماذج من كلّ نوع من هذه الآثار والنقوش يمكن أن تعطي صورة عامّة متكاملة في حدود المستطاع تصلح مدخلاً للتعرف على أحوال المجتمع العربي في عصور ما قبل الإسلام .

أ ـ الآثار المعمارية

ولتكن بداية الحديث عن الآثار المعمارية . ومن بين المعالم البارزة في هذا الصدد معبد العوّام الذي اكتشفت آثاره باليمن على مسافة ٤ كيلومترات جنوبي صرواح (غربي مأرب ـ عاصمة الدولة البيئة القديمة) [١] . إنّ هذا المعبد على قدر ظاهر من الفخامة ، سواء في مساحته أو في تفاصيل بنائه . فالقسم الأساسي منه بيضاوي الشكل يصل محيطه إلى ألف قدم (وتره الطويل ٣٧٠ قدماً ووتره الصغير ٢٥٠ قدماً) ، ويفضي إليه فناء مربّع (حوالي ٧٢ × ٥٧

= بجامعة الرياض برئاسة الدكتور عبد الرحمن الانصاري في منطقة الفاو بوادي الدواسر في بداية السبعينات . راجع : مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ادارة الآثار والمتاحف ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٧٥ . عن تفاصيل رحلات بعض العلماء الاثريين راجع : Zahra Freeth & Victor Winstone : Explorers Of Arabia (London ١٩٧٨) بعض امثلة من الابحاث التي ظهرت لبعض العلماء المذكورين هي :

M. Niebuhr : Travels through Arabia (ترجمة انجليزية) Edinburgh ١٧٩٢

Ahmad Fakhry : An Archactogical Journey to Yemen (ثلاثة اجزاء) Cairo ١٩٥٢

S. Huzayyin : Changement Historique du Climat et du Paysage de l'Arabie du Sud, Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt, ١٩٥٢

Alois Musil : Northen Negd, New York, ١٩٢٨

Wendell Phillips : Qataban and Sheba, London, ١٩٥٥

René Dussaud : La Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris ١٩٥٥

(١) راجع ملحق اللوحات : ١ ـ أ و ١ ـ ب

قدماً) تمتد بإزاء جدرانه من الداخل مجموعة من ٣٢ عموداً مربعاً ، وفي وسط هذا الفناء المربع عثر على تمثال لرأس ثور من المرمر على هيئة ثور وهو أحد الأوصاف التي عرف بها إله القمر إلمقه ، بينما تفضي نهايته إلى ثمانية أعمدة طويلة كلّ منها عبارة عن كتلة واحدة منحوتة من الحجر المصقول ، ما عدا اثنين يتكوّن كل منهما من قطعتين الواحدة فوق الأخرى . هذا بينما يظهر على الجدران قدر كبير من الزخرفة الدقيقة على هيئة نوافذ وهمية .

أما القسم الأساسي البيضاوي من المعبد فإنّ جدرانه تصل في سمكها إلى ١٣ قدماً ونصف قدم . ورغم أنّ هذه الجدران قد تهدّمت أجزاء منها بحيث لا نستطيع أن نتعرف على ارتفاعها الأصلي إلاّ أن ما تبقّى منها يصل في بعض المواضع إلى ارتفاع ٢٧ قدماً ، وتدل بقايا من معدن البرونز في المعبد على أنّ أبوابه والدرج المفضي إليه كانت معطاة بهذا المعدن . هذا وقد عثر في المعبد على عدد من النقوش سواء على الحجر أو على صفائح من البرونز بها ابتهالات مقدّمة إلى الإله إلمقه . أمّا تاريخ البناء فإنّ الأساليب المعمارية المتعددة التي تظهر في جدران المعبد تدلّ على أنّه بني على مراحل تمتد من القرن الثامن إلى القرن الخامس ق . م .

وأول ما يسجّله دارس التاريخ في صدد هذا الموقع الأثري هو أنّ منطقة سبأ كانت لا تشذ عن بقية مناطق العربية الجنوبية في عبادة القمر الذي كانت عبادته شائعة في هذه المناطق تحت أسماء مختلفة كجزء من عبادة الكواكب التي كان يجمعها ثالوث : الزهرة والقمر والشمس . كذلك تدلّنا العناية الفائقة ببناء هذا المعبد ، سواء من حيث بنائه (أو بنائه وترميمه) على مدى ثلاثة قرون أو من حيث تفاصيل البناء ذاته على مدى الاهتمام بالحياة الدينية في العربية الجنوبية ، وهي ظاهرة استرعت أنظار عدد من الكتّاب الكلاسيكيين من بينهم ، على سبيل المثال ، الكاتب الروماني بلينيوس **Plinius** الذي

يحدثنا (في أواسط القرن الأول الميلادي) عن بعض مناطق الجنوبية العربية فيذكر أن الجبانيّين Gebanitae كانت إحدى مدنهم وهي ثمنه Thomna تضمّ ٦٥ معبداً ، وأنّ سابوته (شبوه) Sabota عاصمة الحضرميين Atramitae كان بها ٦٠ معبداً . وهذه الظاهرة في حدّ ذاتها من ظواهر حياة الاستقرار التي تسود المناطق ذات الاقتصاد الزراعي المنتظم ، ونحن نلاحظها على سبيل المثال في مصر وفي وادي الرافدين ، وقد كانا من الحضارات القائمة على الاقتصاد الزراعي المستقرّ .

كذلك تدلّنا ضخامة البناء وفخامته على مدى البذخ والثروة التي كانت تتمتع بهما منطقة سبأ . وفي هذا نعود مرّة أخرى إلى شهادة الكاتب الروماني بلينيوس الذي يذكر لنا أنّ أغنى أقوام العربية الجنوبية هم السبئيون « بسبب خصوبة غاباتهم في إنتاج الطيوب . وبسبب مناجم الذهب (التي توجد لديهم) وأراضيهم الزراعية التي تعتمد على الريّ (المنظم) وإنتاجهم للعسل والشمع » . كما يدلّ الطراز المعماري للمعبد ، بما يظهر فيه من إتقان في مبانيه وأعمدته وزخرفته على مدى ما وصل إليه اليمنيون من تقدّم فنّي في الفترة التي مرّ بها بناء هذا المعبد على الأقل . وهي تمتد . كما رأينا ، عبر ثلاثة قرون . من القرن الثامن إلى القرن الخامس ق . م . وهو تقدّم يدل على قدر من الرخاء كان لا يزال سائداً . حسبما تشير شهادة بلينيوس ، في القرن الأول الميلادي [٢]

---

(٢) عن تفاصيل القسم الاساسي من المعبد راجع :
(Cairo ١٩٥٢) Ahmed Fakhry. An Archaological Journey to Yemen
ج ١ ، صفحــات ٢٩ ـ ٥٦ ويسميه الكاتب احيانا « محرم بلقيس » .
عن تفاصيل الفناء الامامي الذي يفضي الى المعبد راجع :
٢٥٦ ـ صفحات (London, ١٩٥٥) Wendell Phillips : Qataband Sheba
٢٦٨ . عــن وفــرة المعابد في العربيــة الجنوبية في القــرن الاول الميــلادي
راجع فيما يخص مدينة ثمنه Thomna في منطقة الجبانيين : Plinius : H.
N., VI 153 ، وفيما يخص مدينــة شبوه sadota عند الحضارمة :
الكاتب ذاته ، الكتاب ذاتــه ، V1، 155 وعن ثروة السبئيين ومواردها :
ذاته ، ذاته ، VI, 61

وأخيراً ،وليس آخراً،فإنّ الباحث في التاريخ قد يستنتج من الشكل البيضاوي للمعبد عدّة أشياء ، ربما كان أحدها أنّ هذا الشكل يساعد في حراسة المعبد ، بما فيه من ثروة (تشير إليها بعض الأوعية الذهبية التي عثر عليها المنقبون الأثريون بداخله) ضدّ غارات البدو الذين كانوا يقطنون الأماكن الصحراوية في اليمن . إذ في حالة الشكل البيضاوي لا تكون هناك زوايا في البناء تحجب الرؤية عمّن يقومون بحراسة المعبد ، وهو استنتاج يمكن أن يتمشّى مع ظاهرة أخرى عرفها الطراز المعماري في اليمن في حالة بناء المنازل . فقد كانت هذه تبنى على ارتفاع يتكون من عدّة طوابق حتّى يكون عنصر الارتفاع عاملاً يساعد على السيطرة على البدو المغيرين .

مثال آخر من الآثار المعمارية نأخذه من الموقع الأثري التي تمّ الكشف عنه تحت التلّ الكبير في منطقة الفاو (جنوبي بلدة السليّل) في وسط شبه الجزيرة العربية ، بالقرب من ملتقى سلسلة جبال طويق مع وادي الدواسر (على بعد ٧٠٠ كيلومتر تقريباً إلى الجنوب الغربي من مدينة الرّياض). ومن أبرز المعالم الأثرية التي أظهرها معول المنقّب الأثري في هذا الموقع سوق تجارية كبيرة تشكل مركزاً تجارياً متكاملاً يرجع إلى أكثر من ألفي عام ، أي إلى القرن الأول ق . م . على أقل تقدير . وهنا يؤكّد لنا الموقع الأثري بشكل محدّد ما كنّا نعرفه بشكل عام من الكتاب الكلاسيكيين (اليونان والرومان) عن وجود طريق للقوافل التجارية بين اليمن في جنوبي غربي شبه الجزيرة ومدينة جرهاء **Gerrha** (التي يعتقد أنها كانت تقوم حول ميناء العقير الحالي إلى الشمال الشرقي من الهفوف حسبما تشير البحوث الأثرية التي تمّت في الفترة الأخيرة) في شمالي شبه الجزيرة . وربما يكون من المعلومات ذات المغزى في هذا الصدد أن الجغرافي اليوناني الذي عرّفنا لأول مرة عن وجود هذا الخط التجاري ، وهو سترابون **Strabo** . كان يكتب في الشطر الأخير من

القرن الأول ق . م . والشطر الأول من القرن الأول الميلادي ، أي حوالي الفترة التي يرجع إليها تأسيس هذا المركز التجاري في منطقة الفاو [٣] .

وفيما يخصّ عمارة الأسوار التي تحيط بالمدن أقدّم مثالين : أحدهما السور القديم الذي توجد آثاره عند مدينة تاج الحالية في المنطقة الشرقية لشبه الجزيرة على مقربة من شاطىء الخليج . والسور الذي يبلغ عرضه ثمانية أمتار

---

(٣) قام عدد من المهتمين بدراسات شبه الجزيرة العربية وهم : فيلبي ، فيليب لينز ، ج. ركمانز ، غ. ركمانز Philby, Philippe Lippens, J Philippe Lippens, J في بداية الخمسينيات من القرن الحالي باستطلاع عابر لمنطقة الفاو ضمن استطلاع عام لمنطقة أوسع . ثم قام قسم التاريخ بجامعة الرياض تحت اشراف د. عبد الرحمن الانصاري في مطلع السبعينات بعمليات تنقيب متعددة في التل الكبير بالمنطقة ، وكشفت الحفريات عن ان الموقع سوق للقرية تحتوي على عدد من المحال التجارية في صفين متقابلين من الجنوب والشمال تفصل بينهما ساحة تتوسطها الى الشرق بئر واسعة. كما عثر خلف المحال التجارية على غرف لخزن البضائع ولاقامة اصحاب القوافل . وقد وجدت نقوش على جدران بعض الغرف تكررت فيها كلمة « كهل » في اشكال مختلفة بتواتر يدل على ان هذا الاله كان يعبد في هذه القرية ، وهي حقيقة يدعمها ورود اسم « كهل » على مقبرة لعجل بن هفعم كمعبود اساسي . كما عثر على مقبرة ثانية لملك عاش في هذه المنطقة وهو معاوية بن ربيعة الذي اعطى لقب ملك قحطان ومذحج كما يظهر من نص من ثلاثة سطور على شاهد القبر . راجع :

عبد الرحمن الطيب الانصاري : اضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار ونقوش قرية الفاو (بحث القي في الندوة العالمية الاولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ـ مصادر تاريخ الجزيرة ، الرياض ، ١٩٧٧) . عن ذكر سترابون للطريق التجارية بين المنطقة الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة الى جرها Gerrha في شرقي شبه الجزيرة (وهي الطريق التي يشير موقع قرية الفاو الى انها تمر بها) راجع : Strabo : XVI, 3 : 3 . عن تحديد موقع جرها على انها ميناء العقير الواقعة الى الشمال الشرقي من الهفوف ، تشير الى ذلك بحوث البعثة الدنماركية التي قامت بمسح اثري للمنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية في ١٩٦٨ . راجع في ذلك :عبدالله حسن مصري : مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ادارة الآثار والمتاحف ، وزارة المعارف ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٧٥ ، ص ١٥ . عن تفاصيل آثار موقع الفاو راجع : ملحق اللوحات : لوحة ٢ .

وطوله ٣٠٠٠ متر يرجع إلى فترة الحكم السلوقي الذي بدأ في أول القرن الثالث ق.م . ويمثل السور دون شك اهتماماً كبيراً بتحصين هذا الموقع وهو أمر نستطيع أن نفهمه إذا عرفنا أن هذه الفترة شهدت قيام حكم البيت السلوقي (نسبة إلى سلوقس Seleukos أحد قواد الاسكندر وأحد خلفائه) في وادي الرافدين والمنطقة المطلة على الخليج وسط صراعات عنيفة كان أحد أسلحتها ، إلى جانب المواجهة العسكرية . هو السلاح الاقتصادي الذي دفع السلوقيين إلى تأمين تجارة الخليج . أما المثال الآخر الذي أقدّمه لهذه الأسوار فهو السور القديم الذي لا تزال آثاره باقية إلى ارتفاع أربعة أمتار في بعض الأماكن حول مدينة تيماء في القسم الشمالي الغربي من شبه جزيرة العرب . وهذا السور يفسّر لنا أهمية الموقع الذي كانت تشغله هذه المدينة في العصور القديمة . فالمدينة كانت تقع في الطريق بين وادي الرافدين وسورية أي ،في المنطقة التي شهدت اجتياح القوات العسكرية الآشورية لسورية . ومؤمرات ملك دمشق وأحلافه ضدّ الآشوريين . وهو صراع نعرفه من عدد من النصوص الآشورية ، وظل مستمراً بشكل أو بآخر في عهد الدولة البابلية الحديثة التي اتخذ آخر ملوكها (وهو نابونائيد ، نابونيدوس Nabonidos عند الكتاب الكلاسيكيين) من تيماء مقرّاً له حين اضطربت الأمور في بابل[٤] .

---

(٤) عن قيام الحكم السلوقي وظروف الصراع في منطقة الشرق الادنى آنذاك راجع : لطفي عبد الوهاب يحيى ، دراسات في العصر الهلسنتي ، بيروت ، ١٩٧٨ ، صفحات ٨٨ ـ ٩٤ ، ١٠٤ ـ ١٠٦ . نشاط السلوقيين الاقتصادي في المنطقة يدل عليه اقامة السلوقيين مجموعة من المستوطنات من نهر الفرات الى مدينة جرها ، وعقدهم اتفاقية مع هذه المدينة لتزويدهم بالتوابل والبخور راجع : J.G.C. Anderson : CAH المجلد العاشر ، صفحات ٢٤٧ وما بعدها . راجع كذلك : W.W. Tarn : Arabia (Oxford Classical Dictionary) OCD . كذلك يشير الجغرافي اليوناني سترابون الى تجارة جرها مع الفرات عن طريق البحر Strabo : XVI, 3 : 3 عن بقايا سورتاج راجع : ملحق اللوحات في نهاية هذه الدراسة ، لوحة ١٣ . عن تيماء راجع النصوص الآشورية والبابلية الحديثة في ANET ، صفحات ٢٨٣ ـ ٢٨٤ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ . عن بقايا سور تيماء راجع : ملحق اللوحات ، لوحة ٣ ب .

أمّا عن الآثار المعمارية الّتي تتّصل ببناء السدود ، فلعلّ أبرزها بقايا سدّ مأرب في اليمن الذي كانت تحجز مياه الأمطار وراءه بحيث يمكن التحكم فيها من خلال عيون تفتح وتغلق حسب الحاجة ، ومن هذه السدود كذلك سدّ السملّقي الموجود بأعلى وادي ليّه من ضواحي مدينة الطائف على مسافة ٣٥ كيلومتراً جنوبي المدينة المنورة بمنطقة الحجاز في شرقي شبه الجزيرة ، وقد استمرّ وجوده في العصر الإسلامي ولا تزال معظم جوانبه قائمة ، وسدّ الحصين الواقع إلى جنوبي خيبر في المنطقة الشمالية الغربية لشبه الجزيرة ، ويمتاز هذان السدّان الأخيران بطراز واحد هو طراز البناء المتدرج أي الذي يظهر فيه جسم السدّ على هيئة مدرجات . وعمارة السدود في المجتمع العربي قبل الإسلام تدلنا على أحد الشواغل الأساسية الّتي كانت تشغل سكان هذا المجتمع الذي كان (ولا يزال) يخلو من الأنهار بشكل تام ، ومن هنا تصبح موارده المائية الوحيدة هي العيون أو الينابيع المبعثرة بشكل غير كافٍ في أغلب الأحوال في أرجاء شبه الجزيرة أو الأمطار الّتي تسقط بشكل موسميّ ومن ثمّ يصبح تجميعها والتحكم فيها في بقية مواسم السنة أمراً وارداً في المناطق الّتي يسقط فيها قدر معقول من الأمطار يبرّر الإقدام على بناء هذه السدود (٥) .

ثم نلاحظ في نهاية الحديث عن الآثار المعمارية : نوعاً من الأبنية ظهر بوجه خاصّ في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية (الّتي يقع قسم منها الآن في المملكة العربية السعودية وقسم في جنوبي الأردن) الّتي تكثر التكوينات الصخرية في عديد من مناطقها . وهو نوع من العمارة لا يتم عن طريق البناء . وإنما عن طريق النحت في هذه التكوينات الصخرية بحيث ينتهي هذا النحت في شكل غرف وأبواب وواجهات كبيرة وأعمدة وزخارف . ونحن نجد أمثلة كثيرة لمعابد وأضرحة نحتت في الصخر في مدينة البتراء (في جنوبي الأردن) الّتي كانت عاصمة لدولة الأنباط ، وفي شمالي غربي المملكة

---

(٥) راجع : ملحق اللوحات ، لوحات ٤ أ ، ٤ ب ، ٤ج .

العربية السعودية في واحة البدع (التي تعرف باسم مغاير شعيب — في نهاية وادي الأبيض المسمّى « عفل » على الجانب الشرقي لخليج العقبة ويبعد عن تبوك ١٧٠ كيلومتراً إلى الغرب) وفي مدائن صالح (١٥ كيلومتراً شمالي العلا) وهي التي عرفها الكتاب الكلاسيكيون باسم « إجرا » Egra وجاءت في القرآن الكريم باسم « الحجر » كحاضرة ثمود ، قوم نبي الله صالح .

ونحن نستطيع أن نستنتج من هذا النوع من العمارة الذي ظهر في هذه المنطقة عدداً من الحقائق : من بينها امتداد المنطقة التي شملها حكم الأنباط الذين تميّزوا بهذا النوع من العمارة . ومن بينها التأثّر بالطراز اليوناني — الروماني في العمارة بشكل ظاهر . فواجهات هذه القطع المعمارية واجهات pedaments يونانية — رومانية وكذلك الإفريز freeze المستطيل الذي يلي الواجهة إلى أسفل وكذلك الأعمدة التي تلي الإفريز نزولاً لتحيط بباب المعبد أو الضريح . كذلك نلمس في هذا النوع من المعمار ظهور جانبي ولكنه ملموس للشخصية العربية المعمارية (وبخاصة في مدائن صالح في القسم الجنوبي من هذه المنطقة) وهي الشخصية التي بلغت أوجها في الطراز المعماري في العصر الإسلامي . فمن جهة نجد أن الواجهة التي تتخذ في الطراز اليوناني شكلاً مثلثاً ذي جانبين لهما زوايا حادة ورأس له زاوية منفرجة ، تظهر في بعض الأحيان القليلة في هذه المنطقة وقد اختفى التدبيب من زاوية الرأس فصار لها شكل قوس بيضاوي ، ثم نجدها في أحيان قليلة أخرى في عدد من الطاقات niches وقد اتخذت قوساً نصف دائري هو القوس الذي يظهر في العمارة العربية بعد ذلك. كذلك نجد أقسام الإفريز التي كانت تتخذ في الإفريز اليوناني شكل مساحات مربعة أو مستطيلة metops تملؤها صور من النحت البارز تمثل قصصاً من الأساطير اليونانية . وتفصل بين كل قسم والآخر ثلاثة خطوط رأسية متجاورة triglyphs تبقى كما هي في الإفريز العربي (النبطي) ولكن يظهر فيها تغيير جزئي ، فبدلاً من النحت البارز الذي يمثل القصص اليونانية ينحت

شكل زهرة ذات ست أو ثماني وريقات في أغلب الأحيان (لعلّها مقدّمة النجمة المثمنة في الزخرفة الإسلامية فيما بعد) (٦)

ب ـ النحت والمخربشات

وأنتقل الآن إلى الحديث عن النوع الثاني من الآثار وهو النحت الذي يتخذ شكل تماثيل ، والنحت البارز الذي يتخذ شكل صور أو زخارف بارزة على واجهات أو جدران المباني أو المسلاّت . ومن أمثلة هذه الآثار في شبه الجزيرة العربية تمثال حجري عثر عليه قرب القلعة الموجودة في جزيرة تاروت التي تكاد تلاصق الشاطىء الغربي للخليج عند القطيف . والتمثال له دلالة حضارية كبيرة بالنسبة لتاريخ هذه المنطقة ، فهو يشبه التماثيل السومرية التي وجدت في جنوبي العراق والتي يرجع تاريخها إلى نحو ثلاثة آلاف سنة ق . م . وهذا يدل على اتصال وثيق بين هذا القسم من شبه جزيرة العرب وبين حضارة وادي الرافدين في هذه الفترة المبكّرة (٧) ، وهو اتصال له ما يؤيده من البقايا الفخارية المتشابهة التي عثر عليها في المنطقتين كما سنرى بعد قليل ، بما يحمله هذا من معاني وما قد يلقيه من أضواء على بعض الجوانب الخاصة بأصل الحضارة السومرية أو بتأثيراتها . كذلك عثر في المعبد اللحياني في الخريبة (مدينة العلا القديمة قرب مدائن صالح في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة) على تمثال صغير (طوله متر واحد) يبدو نسخة مصغرة من التماثيل المصرية القديمة سواء في وقفته المتصلّبة أو في الذراعين الملتصقين بجانبي الجسم أو في اليدين المقبوضتين . ولم تظهر دراسة مفصّلة عن هذا التمثال حتى الآن ، ولكنه يشير بشكل واضح إلى تسرّب التأثير الفني المصري بشكل أو بآخر إلى المنطقة (٨) .

---

(٦) راجع : ملحق اللوحات ، لوحات ٥ أ ـ ح .

(٧) راجع : ملحق اللوحات : لوحتي ٧ أ ـ ب .

(٨) راجع ملحق اللوحات : لوحتي ٨ أ ـ ب . التأثير المصري في مجال الفن وارد عن طريق الاحتكاك التجاري ، وفي هذا المجال فإن بترا (البتراء) Petra عاصمة الاقباط كانت تتفرع من عندها طريقان

أما المثال الثالث الذي أقدّمه في هذا الصدد فهو تمثال برونزي عثر عليه ضمن مجموعة من التماثيل في مدينة « تمنع » في قتبان وهي من الأقسام السياسية التي قامت في جنوبي شبه جزيرة العرب وهو تمثال لطفل يمتطي أسداً . والطفل يمسك في يده اليمنى بلجام وفي يده اليسرى بشيء يشبه القفل بينما يرفع الأسد رجله اليمنى وكأنّه يهمّ بالحركة. وفي هذا التمثال نجد أثر الفنّ اليوناني بارزاً إلى حد كبير سواء في عري الطفل ، والعري ظاهرة شائعة في التماثيل اليونانية ، أو في ملامح وجهه أو في ليونة الحركة الخارجية (التي تميّز الفنّ اليوناني عن فنون الشرق الأدنى القديم مثل الفن المصري أو الفنّ الآشوري) . ونحن نستطيع أن نستنتج من هذا التمثال ، الذي يرجع صنعه إلى القرن الأول ق . م . أو القرن الأول الميلادي ، تأثيراً يونانياً على المثال العربي في هذه المنطقة من شبه الجزيرة جاء نتيجة احتكاك اتخذ صورة أو أخرى بين اليونان وجنوبي شبه الجزيرة ، وبخاصّة إذا عرفنا أن اليونان كانوا قد بدأوا يزاولون الملاحة في البحر الأحمر منذ العصر المتأغرق (القرون الثلاث الأولى ق . م) بتشجيع من ملوك البيت الحاكم البطلمي في مصر ، ثم استمر نشاطهم البحري بعد ذلك في عصر الأمبراطورية الرومانية (ابتداء من ٢٧ ق . م) بعد أن عمل الأباطرة الرومان منذ بداية قيام الإمبراطورية الرومانية على فرض نفوذهم بطريق أو بأخرى على مدخل البحر الأحمر عند مضيق باب المندب (قصى الطرف الجنوبي لهذا البحر) كمنطقة تتحكم في الطريق التجارية بين موانىء البحر المتوسط (ثم برّاً إلى البحر الأحمر ثم اختراقاً لهذا البحر حتى جنوبيه) والمحيط

تجاريتان احداهما تؤدي الى تدمر Palmyra وسورية ، والاخرى تؤدي الى غزه راجع : Plinius : H.N., 144 ، كذلك فان طريقا كانت تؤدي الى بلوزيون Peluseon (الفرما) في مصر ومنها يوجد طريق مختصر الى هيرويس Heroes (السويس) في مصر ، راجع : Strabo : XVI, 2 : 30 حيث تستمر الطريق البرية بعدها الى داخل مصر . كذلك راجع العلاقات الوثيقة بين التجار المعنيين من العلا وبين مصر ، وبخاصة نص زيدإيل التاجر المعيني الذي اصبح كاهنا في المعابد المصرية في الوقت ذاته، في آخر هذا الباب وحاشية ٢٦ .

الهندي . وفي خلال هذا النشاط البحري التجاري بما فيه من مبادلات كان المجال مفتوحاً لوصول بعض الدمى اليونانية التي قلّدها الفنّان العربي الجنوبي [٩].

وأنهي الحديث عن الآثار المنحوتة في شبه الجزيرة العربية بمثال من النحت البارز يمثله شاهد مقبرة من تيماء (القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة) (يرجع إلى أواسط الألف الأولى ق . م)وقد نحتت على هذا الشاهد صورة الإله « هلال » إله القمر الثمودي وقد ظهر في النحت شخص يقدم قرابين إلى الإله [١٠] ، ونستطيع بشكل بسيط ومباشر أن نستنتج من النحت الموجود على هذا الشاهد حقيقتين : إحداهما أن الثموديين ، أو الفرع الشمالي منهم ، كانوا يقيمون بشكل مستقرّ ، وليس بشكل عابر لتجارة أو غيرها ، في هذه المنطقة . أمّا الحقيقة الثانية فهي نوع العبادة التي كان يمارسها هؤلاء الثموديين في هذه المنطقة وما يمكن أن يكون لها من صلة بعبادات الأقوام الذين وجدوا في المناطق المجاورة أو الذين احتكّوا بها في صورة أو في أخرى .

وإذا كان النحت بنوعيه ، النحت المستدير (التماثيل) والنحت البارز يقدم لنا الشيء الكثير عن حياة العرب في شبه الجزيرة في العصر السابق للإسلام فإن المخربشات التي تركها السكان على صخور الجبال ، وإن كانت أقل منها

---

(٩) راجع ملحق اللوحات : لوحتي ١٩ ا ــ ب عن النشاط البحري اليوناني في البحر الاحمر والمحيط الهندي (مرورا بشواطىء المنطقة الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية) في القرنين الاول ق.م. والاول م. وما حولهما راجع : Rostovtzeff : Social and Economic History of the Hellenistic World (SEHH) ، ج ٢ (١٩٤١ Oxford) صفحات ٩٢٣ ــ ٩٢٩ وحواشي ٢٠٣ ــ ٢٠٧ ، كذلك : W. W. Tarn : The Greeks in Bactria and India (١٩٣٨ Cambridge) ، صفحات ٣٦٦ ــ ٣٧٣ و M. Cary : Geographic Background to Greek and Roman Histor ، صفحات ٢٠٤ ــ ٢٠٥ .

(١٠) راجع : لوحة ١٠ .

شأناً من الناحية الفنيّة ، إلاّ أنها لا تقلّ عنها في قيمتها كمصدر نستقي منه أحوال المجتمع العربي في ذلك العصر . وهناك في الواقع أمثلة عديدة لهذه المخربشات التي نقشها السكان بشكل غير متقن أو بشكل عفوي وبسيط وسريع في أغلب الأحيان . وسأختار عدداً منها من المنطقة الوسطى في شبه الجزيرة ، يعطينا فكرة عن بعض جوانب المجتمع الذي كان يوجد في هذه المنطقة . وأوّل مجموعة من هذه المخربشات نجد منظرين منها على جبل برمة في القسم الشمالي الشرقي من هذه المنطقة . وهي تضمّ منظراً لعنزة في حركة قافزة ، ومنظراً آخر يظهر فيه جمل وما يشبه النعامة . بينما نجد منظراً ثالثاً في وادي ماسل يضم عدداً من النعام . والمنظر الأول الذي تظهر فيه العنزة يعبّر عن حياة الرعي التي سادت هذه المنطقة ، بينما يعبّر المنظر الثاني الذي يظهر فيه الجمل عن وسيلة المواصلات الأساسية لسكان المنطقة . أمّا النعامة فيبدو ، رغم انقراضها الآن بشكل كلّي أو يكاد يكون كليّاً ، أنها كانت من الحيوانات أو الطيور الشائعة في عصر ما قبل الإسلام شيوعاً جعلها أو جعل التشبيه بها يظهر بشكل متواتر في أشعار الجاهليين من أمثال امرىء القيس ولبيد ابن ربيعة والحارث بن حلزة اليشكري وعنيزة بن شداد والنابغة الذبياني وعامر ابن الطفيل وعبيد بن الأبرص [11] .

والمجموعة الثانية من هذه المخربشات منحوتة على صخور جبل برّاقة (حوالى ٣٠ كيلومتراً شمالي موقع الدوادمي) وفي أحد مناظرها نجد صورة

---

(١١) راجع : اللوحات : ١١ أ (العنزة القافزة) ؛ ١١ ب (جمل وما يشبه النعامة) ؛ ١١ ج (عدد النعام) . عن ذكر النعـام في شعـر امرىء القيس راجع الابيات في شيخو ــ البستاني : المجاني ، ص ٣٥ ، بيت ٥٨ و ص ٤١ ، بيت ٢٤ ؛ عند لبيد بن ربيعه ، المرجع ذاته : ص ١٠٣ ، بيت ٦ و ص ١١٠ ، بيت ٦٧ ؛ عند الحارث بن حلزة اليشكري ، ذاته : ص ١٥٠ ، قصيدة صيد وفخر ، بيت ٩ ؛ عنـد عنتره بن شداد ، ذاته : ص ١٥٥ ، بيت ٢٥ ؛ عند النابغة الذبياني ، ذاته : ص ٢٢ ، بيت ١١ ؛ عند عامر بن الطفيـل ، ذاته : ص ٢٩٠ ، بيـت ١٤ ؛ عنـد عبيد بن الابرص ، ذاته : ص ٣٤١ ، بيت ٢ .

لجمل تحيط به من جميع الجهات صورة مكرّرة أربع مرّات هي عبارة عن دائرة وإلى جانبها خط مقوّس بعض الشيء [١٢] . إن هــذه هي صورة « الوسْم » أو العلامة التي كانت تتخذها كل قبيلة تمييزاً لها عن القبائل الأخرى . وربما كان للشكل الذي يتخذه هذا الوسم سبب أسطوري وربما كان مجرّد اتفاق تعبيري بين أفراد القبيلة ، ولكنّه يبرز للباحث حرص كل قبيلة على الترابط فيما بينها وعلى ألاّ تذوب شخصيّتها في المحيط الواسع الذي تتجاور فيه القبائل في منطقة أو أخرى من مناطق شبه الجزيرة العربية . ومنه تستطيع أن تدرك مدى تغلغل النزعة الانفصالية التي عبّرت عن نفسها في شكل العصبيّة القبلية والتي سادت المنطقة (وفي الواقع أغلب مناطق شبه الجزيرة العربية) بشكل حادّ في الفترة السابقة لظهور الإسلام .

أمّا المجموعة الثالثة من المخربشات فنجدها على بعض الصخور الموجودة في وادي ماسل (٧٠ كيلومتراً جنوبي الدوادمي) ، وفي أحد مناظرها تظهر صورة متجاورة لعدد من الأشخاص يقومون بحركات إيقاعية تمثل مشهداً راقصاً. وقد يشير هذا المشهد إلى جانب من الحياة الترفيهية التي كان يعمد إليها سكان المنطقة من حين إلى حين ولكن يبدو كذلك وربما كان هذا هو الأرجح إذا قارناه ببعض المظاهر الأخرى ذات الطابع الديني ، أنه يعبّر عن رقصة تتصل ببعض الشعائر الدينية ، ربما كانت جزءاً من ابتهالات يقدمها أبناء القبيلة لإلهم حتى ينزل المطر في هذه المنطقة التي ربما مرت بها بعض السنوات المتعاقبة دون مطر [١٣] .

ج ـ الفخار والعملة

والبقايا الفخارية هي الأخرى تشكل مصدراً على جانب كبير من الأهمية

---

(١٢) راجع : لوحة ١٢ .
(١٣) راجع : لوحة ١٣ .

في تصوير حضارة المجتمع الذي كان يوجد في شبة الجزيرة في الفترة السابقة للإسلام . ولعلّ الفخّار يصوّر هذه الحضارة أكثر من غيره من أنواع الآثار الأخرى . فالفخّار . في العصور القديمة ، كان السلعة أو الأداة التي تستخدم أكثر من أيّ شيء آخر في الحياة اليومية . فمذ كانت تصنع أواني الطعام ، والأوعية اللازمة لحفظ أو تخزين بعض أنواع المؤن مثل الزيت والنبيذ ، كما كانت تصنع المزهريات وأوعية البخور التي تستخدم في الطقوس الدينية سواء في المعابد أو في أماكن الاجتماعات ، ومنه كذلك كانت تصنع بعض الدمى الصغيرة لأغراض دينية أو في الحياة اليومية . وعلى هذا فوجود كميات من الفخّار في أحد المواقع يشير إلى أنّ هذا الموقع كانت توجد فيه حياة مستقرة وأنه لم يكن مجرّد معبر أو محطّ تجاري ، وبخاصّة إذا وجد في المنطقة بقايا أثرية أخرى تدلّ على وجود مستوطنات أو قرى أو مناطق سكنية على قدر ظاهر من الاتساع . وسأختار في هذا الصدد مجموعتين من الفخّار كشف عنهما في منطقة ساحل الخليج في القسم الشرقي من شبه الجزيرة . وإحدى هاتين المجموعتين وجدت في موقع الدوسرية (على شاطىء الخليج جنوبي الجبيل) وفي بعض المواقع القريبة منها. وفي هذه المواقع عثر على بقايا فخّار ينتمي من حيث طرازه وطريقة حرقه وألوانه وزخرفته إلى المرحلة الحضارية التي عرفت باسم ثقافة « العُبَيد » (نسبة إلى موقع العبيد قرب الطرف الجنوبي للعراق) التي عرفتها منطقة وادي الرافدين حوالى ٤٠٠٠ـــ٣٥٠٠ق. م .[١٤] وهذه المجموعة . بوصفها هذا ، تعتبر مؤشراً آخر (إلى جانب ما رأيناه في مجال النحت) إلى الصلة الحضارية الوثيقة ، تأثراً أو تأثيراً ، مع هذه المرحلة الحضارية المبكرة في وادي الرافدين . وهذا بدوره معناه صلة من نوع ما قد تكون صلة تجارية أو هجرة بشرية مثلاً . أما الثانية فقد وجدت في موقع « تاج » (غربي الجبيل نحو الداخل) وفي جزيرة تاروت وهي أوعية فخّارية

---

(١٤) راجع : لوحتي ١٤ أ ــ ب .

يونانية الطراز ترجع إلى العصر السلوقي (فترة ما بعد الاسكندر ، القرون الثلاث الأخيرة ق . م) وتشير إلى ما تركته الفترة التي سيطر فيها السلوقيين على هذه المنطقة من تأثير حضاري يوناني[١٥] .

وأعرض الآن بشكل سريع إلى نوع آخر من الآثار كثيراً ما ألقى الضوء على عدد من جوانب الحياة في مجتمع (أو مجتمعات) شبه الجزيرة العربية في الفترة السابقة للاسلام ، وهو العملة . وسأتعرض هنا لثلاث قطع من العملة على سبيل التوضيح. والقطعة الأولى عملة سبئية من الفضة ترجع إلى القرن الثالث أو القرن الثاني ق . م . ونحن نجد على وجه هذه القطعة من العملة رأس الإلهة أثينة اليونانية وقد تدلّى من أذنها قرط بينما ظهر على خدّها حرف النون بالخط السبئي. أمّا ظهر العملة فقد ظهرت عليه صورة بومة وصورة هلال وغصن زيتون به ورقتان في وسطهما حبة زيتون ثم الحرفان الأولان من أثينة (الألف والثاء) مكتوبان بالخط اليوناني.

ونحن نستطيع أن نبدأ استنتاجنا للحقائق التي تقدّمها هذه القطعة من العملة من مجرّد وجود عملة سبئية في تلك الفترة ، إذ معنى ذلك أن العلاقات التجارية للمنطقة مع الخارج كانت قد بلغت مرحلة متطورة من النشاط والكثافة أصبح معها استخدام العملة بدلاً من المقايضة أمراً وارداً إن لم يكن في الواقع أمراً محتوماً. كذلك نجد المواصفات العامّة لهذه القطعة من العملة تحاكي مواصفات العملة الأثينية التي كانت قد بلغت ذروتها مع ذروة النشاط التجاري لمدينة أو دولة أثينة ابتداء من فترة التوسع الأمبراطوري لهذه الدويلة في غضون النصف الأول من القرن الخامس ق . م . بحيث أصبحت في القرن التالي (الرابع) ق . م . عملة دولية تحتذى في عدد من مواصفاتها . والطراز الأساسي للعملة الأثينية تظهر فيه صورة الإلهة أثينة على وجه العملة بينما يوجد

---

(١٥) راجع : لوحتي ١٥ أ ــ ب .

على ظهر العملة رسم البومة (التي تبرز في بعض الأساطير اليونانية المتصلة بهذه الإلهة) ، وغصن الزيتون ذي الورقتين وفي وسطهما حبة الزيتون (وهو يشير إلى اعتبار شجرة الزيتون شجرة مقدسة في الفولكلور الأثيني) ، والحرفان الأولان أو الحروف الثلاث الأولى من اسم الإلهة [١٦] . ومعنى هذه المحاكاة من جانب السبئيين للعملة الأثينية أن المعاملات بين منطقة اليمن وبين الأثينيين كانت قد خطت شوطاً ملموساً عند ظهور هذه العملة السبئية (القرن الثالث أو القرن الثاني ق . م .) إمّا بالطريق البرّي من اليمن إلى الموانىء السورية حيث كان النشاط التجاري الأثيني على أكثفه في القسم الشرقي للبحر الأحمر قبل القرن الثالث ق . م . وإمّا عن طريق البحر الأحمر ابتداء من القرن الثالث ق . م . حيث بدأ التجار اليونان (ومنهم الأثينيون) يصلون إلى الموانىء اليمنيّة .

أمّا ظهور حرف النون بالخط السبئي على خدّ الإلهة أثينة فأرجح الظنّ في تفسيره، حسبما أرى ، هو أنّه هو الحرف الأول من اسم الملك الحاكم في سبأ وقت سكّ هذه القطعة من العملة . ونحن نجد في الواقع ملكين سبئيين يبدأ اسم كلّ منهما بهذا الحرف . أحدهما هو نشاكرب (يهنعم بن ذمر على ذرح) الذي حكم حوالي عام ٢٥٠ ق . م . (أي في أواسط القرن الثالث ق . م .) والثاني هو نصرم (يهنعم) الذي حكم في حدود عام ٢٠٠ق. م . (أي في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الثاني ق . م) . فإذا أتينا إلى صورة الهلال التي توجد على ظهر هذه القطعة من العملة فيبدو واضحاً إلى حد كبير أنها تشير إلى عبادة القمر التي شاعت في اليمن في الفترة السابقة للإسلام وانتشرت في الواقع في أماكن أخرى في شمالي شبه الجزيرة العربية . نقلها معهم ، على أرجح تقدير ، التجار السبئيون الذين كانت قوافلهم التجارية

---

(١٦) راجع : لوحتي ١٦ أ ــ ب .

تصل الجزيرة والذين كانت لهم عدّة مستوطنات تحمل اسم سبأ في هذه المنطقة [١٧] .

أمّا المثال الثاني الذي أعرض له في مجال الحديث عن العملة كمصدر من مصادر تاريخ شبه الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام فهو قطعة برونزية سبئية كذلك يظهر على وجهها صورة رأس رجل وخلفها شكل صغير يبدو كأنه قرص شمس ثم علامة شخصية ؛ أما ظهرها فتظهر عليه صورة رأس رجل (يبدو من ملامحها ومن طريقة تصفيف الشعر أنها للرجل نفسه) وإلى جانبها نقش بالخط السبئي يقرأ : كرب إلى وتر. ونحن نجد في هذه القطعة من العملة تطوّراً عن القطعة السابقة . فالوجه المرسوم لم يعد مجرّد تقليد اوجه مرسوم على عملة أجنبية وإنما أصبح الآن وجهاً للحاكم ذاته والنقش الموجود لم يعد محاكاة لخط أجنبي ليس له معنى بالنسبة لسكان أو حتّى لتجار المنطقة ، وإنما أصبح اسماً لملك المنطقة مكتوباً بلغة المنطقة وخطّها ، ومن ثمّ فإنّ هذه القطعة من العملة لا بدّ أن يكون تاريخها لاحقاً للعملة السابقة . وهذه الحقيقة في حدّ ذاتها تساعدنا إلى حدّ ما في التعرّف على شخصية الملك الذي تحمل العملة صورته . فنحن نعرف من النقوش التي وصلت إلينا اسم ملكين سبئيين يحملان نفس الاسم : أحدهما كرب إل وتر (بن ذمر على بين)

---

(١٧) عن وجود مستوطنات سبئية في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة ، يظهر ذلك في عدد من النصوص الآشورية من بينها ، على سبيل المثال ، نص من عهد الملك تجلات بيليس الثالث (٧٤٤–٧٢٧ ق.م.) في السنة التاسعة من حكمه ، وفيه يذكر عدداً من الاماكن يصفها بانها في أقصى الغرب (اي بالنسبة لوادي الرافدين) ، ويذكر ان من بينها سبأ الذي يضعها بجانب تيماء — النص في ANET ص ٢٨٣ ، راجع كذلك : Grohmann : Arabien (١٩٦٣ ، Nuenchen) ، ص ٢٢ . كذلك : Strabo · XVI, 4 : 21 الذي يجعل بلاد النبط وسبأ يليان سورية مباشرة نحو الجنوب . اما عن اسمي الملكين : نشاكرب يهنعم ونصر يهنعم، فيردان في قائمة فلبي Philby للملوك السبئيين التي يوردها جواد علي : ذاته ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

وقد حكم في أوائل القرن الرابع ق . م . (حوالي ٣٩٠ ق . م) والآخر كرب إلى وتر (يهنعم بن وهب آل يحز) الذي حكم في أواسط القرن الثاني ق . م . (حوالى ١٦٠ ق . م) [١٨] . وطالما أنّ قطعة العملة التي نحن بصدد الحديث عنها لا بدّ ، كما رأينا ، أن تكون لاحقة في تاريخها لقطعة العملة السابقة التي يرجع تاريخها إلى القرن الثالث أو الثاني ق . م . فيترتب على ذلك أنّ الملك المقصود هو صاحب الاسم الثاني . وأخيراً فإنّ قرص الشمس يشير بشكل مرجّح إلى عبادة الشمس التي كانت إحدى عبادات ثلاثة منتشرة في المنطقة وهي عبادة الكواكب : الزهرة عشتار والشمس (ذات حمم) والقمر (إلمقه) .

ثم أنتقل إلى المثال الثالث . وهو قطعة عملة برونزية من بترا (البتراء) عاصمة الأنباط في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية . ونجد على وجه هذه العملة صورة نصفية لأحد الأباطرة الرومان ، وهذا يظهر بالاستنتاج من مظهره وملبسه كما يظهر بالتأكيد من النقش اليوناني الذي يحيط بالجزء الأكبر من الصورة وهو : الحاكم المطلق قيصر ترايانوس . أما الوجه الآخر فنجد على محيطه نقشاً كتب باليونانية كذلك وهو : مدينة بترا بينما تظهر في وسطه صورة إلهة لا بدّ أنها اللات — مناتو ، إلهة هذه المدينة . ونحن نعرف من هذه العملة أنها ترجع إلى وقت حدوده هي ٩٨ — ١١٧ م ، وهي فترة حكم الإمبراطور الروماني ترايانوس (تراجان) . ومن ثمّ فإنّ إمارة أو مملكة الأنباط التي كان لها كيانها المستقل ، قد أصبحت ولاية رومانية إمّا في خلال حكم هذا الإمبراطور أو قبله . وهنا نجد ، بالمقارنة مع كتابات الجغرافي اليوناني سترابون ، الذي كتب في أواخر القرن الأول ق . م . وأوائل القرن الأول الميلادي أن إمارة الأنباط كانت قد فقدت استقلالها قبل الفترة التي

---

(١٨) راجع : لوحة ١٧ . اسم الملكين المذكورين يردان في قائمة فلبي ، راجع الحاشية السابقة (١٧) .

كتب فيها أو على الأقل في أثنائها ، فهو يشير في حديثه إلى تبعية بلاد الأنباط لرومه في « الوقت الحالي » مشيراً إلى الوقت الذي كان يكتب فيه . ولكنّا نعرف من الكاتب الروماني بلينيوس **plinius** (الذي عاش وكتب بعد سترابون) أن هذه البلاد كانت لا تزال مستقلة في وقته (٢٣/٢٤ – ٧٩م) . وفي الواقع فإن إمارة الأنباط لم تصبح ولاية رومانية إلاّ منذ عام ١٠٥ م حين ضمها تراجان إلى الإمبراطورية الرومانية ، وبعد ذلك التاريخ أصبحت تعرف باسم « ولاية العربية الصخرية » **Arabia peraea** [١٩] وفي هذه الحال يصبح حديث سترابون معناه في الحقيقة أن إمارة الأنباط قبل ١٠٥ م كانت داخلة في دائرة النفوذ الروماني ولكن دون أن تتحول بشكل رسميّ إلى ولاية رومانية . وما دام النقش والصورة الموجودان على قطعة العملة يؤكدان تبعية المنطقة « رسمياً » للإمبراطور الروماني ، فيكون تاريخ ضرب هذه العملة يقع بين عام ١٠٥ م وعام ١١٧ م (وهو آخر عهد تراجان) على وجه التحديد ، ونستطيع عندئذ أن نقول إنّ أية صفقة أو معاملة تتصل بها هذه القطعة من العملة تقع ضمن هذه الاثني عشر عاماً الممتدة بين ١٠٥ م و ١١٧ م .

كذلك نستطيع أن نستنتج من هذه العملة شيئاً آخر . فاللغة التي كتب بها النقشان الموجودان على وجهيها هي اللغة اليونانية . ومع ذلك فاللغة الرسمية للإمبراطورية الرومانية هي اللغة اللاتينية . وإذن فلا بدّ من سبب لهذا التناقض

---

(١٩) راجع : لوحة ١٨ . عن حديث سترابون عن بلاد النبط راجع : Strabo : XVI, 4 : 21 ؛ عن وضعها في وقت بلينيوس، راجع : Plinius : H. N. VI, 144 وفي الواقع نحن نستطيع ان نقول ان دخول بلاد النبط في دائرة نفوذ الامبراطورية الرومانية يبدأ منذ ان ارسل اغسطس حملة الى اليمن التي استعان فيها بالوزير النبطي سللاّيوس ثم وجدت رومه من حقها ان تحكم على هذا الوزير بالاعدام حين تردد انه خدع القائد الروماني في هذه الحملة ، راجع عن اعدام سللايوس : Strabo : XVI, 4 : 24 . عن ضم امارة او مملكة الانباط الى رومه في ١٠٥ م لتصبح ولاية رومانية بصورة رسمية ، راجع : M. Cary, A History of Rome ، ط ٢ (١٩٦٠ ، London) ص ٦٤٥ .

الظاهر . ونحن في الواقع لسنا بحاجة إلى أن نذهب بعيداً في البحث عن هذا السبب فالثقافة اليونانية هي التي كانت تسيطر على هذه المنطقة طوال العصر المتأغرق (الهللنستي) الذي بدأ مع خلفاء الاسكندر في بداية القرن الثالث ق . م وفي هذا العصر كانت اللغة اليونانية هي لغة المعاملات بشكل أساسي سواء في الثقافة أو الإدارة أو التجارة . وقد استمرت هذه اللغة لغة للمعاملات حتى بعد أن دخلت المنطقة في دائرة السيطرة الرومانية ، ولما كان الرومان واقعيين وعمليين في سياستهم فقد أبقوا على هذه اللغة بشكل رسمي في الولايات الرومانية — وهكذا سكت هذه العملة وقد ظهرت النقوش التي عليها باليونانية وليست باللاتينية .

٣ — النقـوش :

ا — نقوش عن الاحوال الداخلية لشبه الجزيرة

وبعد هذا الحديث السريع عن بعض الأمثلة من أنواع الآثار المختلفة التي وجدت أو عثر عليها في شبه الجزيرة . أقدم الآن بعض أمثلة من النقوش ، سواء منها ما عثر عليه بشبه الجزيرة أو في بلاد أخرى احتكت بها أو تعاملت معها بشكل أو بآخر وسجلت هذه الاحتكاكات أو هذه المعاملات نقوشها . وقد سبق أن ذكرت أن وجود عدد من النقوش بلغات مختلفة في إحدى المناطق يشير عادة إلى أن هذه المنطقة كانت نقطة التقاء أو مرور في هذه المنطقة ، عادة ما يكون تجارياً . للفئات أو المجموعات التي تتحدث بهذه اللغات . ونحن نجد منطقة لها هذه الصفة في القسم الشمالي الأوسط من شبه الجزيرة . ففي واحة الجوف وغيرها من المواقع الأثرية عثر على عديد من النقوش النبطية والثمودية واللحيانية والمعينية السبئية . كما تتكرر الظاهرة ذاتها في المنطقة الشمالية الغربية في شبه الجزيرة حيث نجد في موقع العلا عدداً من النقوش

الدادانية والمعينية واللحيانية والثمودية والنبطية .[٢٠] ويلاحظ هنا أنّ النقوش المعينية من أندر النقوش في هذه المنطقة لأنها مقصورة إلى حد كبير على جنوبي شبه الجزيرة . ونحن نستطيع أن ندرك مغزى تجمع هذه النقوش المختلفة اللغات في هذه المنطقة إذا تذكّرنا أن هذه المنطقة يمرّ بها الخط التجاري البرّي الذي كان يتفرع من خط القوافل الطولي (الذي كان يخترق شبه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال) جنوبي العلا ليصل إلى وادي الرافدين في منطقة تقع عند مدينة النجف الحالية .

كذلك مرّ بنا أنّ انتشار نقوش بلغة واحدة في مناطق عديدة من شبه الجزيرة يعني أن المتحدثين بهذه اللغة ينتشرون في كلّ هذه المنطقة . وهو أمر نجده واضحاً في انتشار النقوش الثمودية (النجدية والتيمائية) على امتداد واسع يشمل وسط شبه الجزيرة حيث نجد نقوشاً ثمودية كثيرة على واجهة جبل برمة وفي موقع البيجادية شرقي الدوادمي . ويمتد نحو الغرب لنجد مجموعة أخرى من هذه النقوش حول مدينة الطائف . وإلى الشمال حيث نجد مجموعة ثالثة على جبل ياطب وجبل المليحية وإلى المنطقة الشمالية الغربية حيث نجد بعض هذه النقوش على جبل غنيم تدلّنا على أنّه المكان الأصلي والأول لعبادة صلم الوثنية. ثم بعدد من المواقع في المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة . من بينها عدد من النقوش على واجهة أحد الجبال في وادي عكمة شمالي العلا . ونقش على جدار في منظر بني عطيه بالقرب من القريّة[٢١] .

وبعض النقوش قد تقدّم لنا معلومات تساعدنا على معرفة مدى الارتباط أو الاتصال بين لغة ولغة . ومن أمثلة ذلك النقوش المعينية السبئية (وهي نقوش

---

(٢٠) راجع امثلة لبعض هذه النقوش في ملحق اللوحات : ١٩ أ ـ ج ؛ راجع كذلك : مقدمة عن آثار المملكة العربيـــة السعودية ، صفحات ٦٥ ، ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢١) راجع : مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، صفحات ١٧ ـ ١٨ ، ١٥٦ . راجع كذلك لوحات ٢٠ أ ـ ج .

بلغة جنوبية كما أسلفت) التي وجدت بموقع إثرا في منطقة قريّات الملح في القسم الشمالي الأوسط من شبه الجزيرة والتي يحاول الباحثون اللغويون أن يجدوا فيها همزة الوصل بين لغة الجنوب ولغة الشمال . ومثل النقش الذي اكتشفه جوزف هاليفي في نقب الحجر بمنطقة نجران (عام ١٧٧٢ م)ومن هذا النقش عرف الباحثون اللغويون أنّ اللغة الجنوبية في شبه جزيرة العرب قريبة من اللغة الأكدية (البابلية والآشورية) واللغة الحبشية في بعض الجوانب مثل تكوين الأسماء وتصريف الأفعال وبعض المفردات والضمائر . ولكن وجود جمع التكسير بها يجعلها تقترب أكثر من لغة العرب الشماليين واللغة الحبشية . كذلك فإنّ الخطّ الذي كتب به النقش الذي نحن بصدد الحديث عنه كان البداية لمعرفة العلاقة بين الخط العربي الجنوبي وبين الخط الذي كتبت به بعض النقوش التي عثر عليها في سيناء . وهو الخط الذي يمثل حلقة الوصل بين الأبجدية الفينيقية والأبجدية المصرية القديمة التي أخذت عنها الأبجدية الفينيقية وطوّرتها (٢٢) .

كذلك نعرف من بعض النقوش معلومات عن الأحوال والنظم والقوانين والعبادات التي كانت سائدة في منطقة أو أخرى من شبه الجزيرة . وفي هذا المجال فقد تمّ العثور حتى الآن في اليمن وحدها على حوالى ٤ آلاف نقش يرجع أقدمها إلى القرن التاسع أو الثامن ق . م . على أقل تقدير ، ويمكن تصنيفها إلى عدة أنواع . فبعضها يتصل بنذور قدمها بعض الأشخاص إلى الآلهة « إلمقه » و « عشتار » و « شمس » وقد نقشوها على لوحات من البرونز وضعوها في معابد هذه الآلهة ومنها نتعرف على جانب من عبادات المنطقة ، وبعضها منقوش على جدران المعابد وبعض المباني العامّة ليسجّل ويخلّد أسماء المهندسين المعماريّين الذين أسهموا في بنائها ، ومن هذه النقوش (إلى جانب

(٢٢) عن النقوش المعينية ــ السبئية في القسم الشمالي الاوسط من شبه الجزيرة راجع حاشية ٢٠ . عن نقش نجران راجع : لوحة ٢١ . راجع كذلك Hitti : ذاته ٥١ ــ ٥٢ .

البقايا الأثرية نفسها) نعرف إلى أيّ حدّ ازدهر فن المعمار في اليمن بحيث حرص المهندسون المعماريون أو القائمون على هذه المباني على الربط بين أسمائهم وبين العمل المعماري الذي قاموا به أو أسهموا فيه بشكل أو بآخر . ومن بين هذه النقوش كذلك مجموعة تسجّل أحداثاً تاريخية مثل ذكر حملة عسكرية أو تسجيل انتصار ، ومجموعة تسجّل أوامر الشرطة والأوامر الإدارية الداخلية التي نتعرف من خلالها على اتجاهات الحكومات التي قامت في المنطقة في تنظيم مجتمعهم وإشاعة الاستقرار فيه ، ثم مجموعة لها قيمتها بالنسبة لدارس النظم السياسية وهي تسجّل بعض القوانين التي تكشف النقاب عن تطوّر دستور طويل عرفته المنطقة ، وأخيراً هناك عدد من النقوش الجنائزية الموجودة على عدد من المقابر والتي تشير إلى بعض الشعائر والطقوس والأسماء التي تعطينا فكرة عن تقاليد السكان في هذا المجال إلى جانب بعض المعلومات التي قد تساعدنا الأسماء الموجودة في النصوص على التوصّل إليها بشكل غير مباشر عن طريق المقارنة مع نصوص أخرى .

ومن بين هذه النقوش اليمنية ، على سبيل المثال ، نصّ وجد منقوشاً على حجر في الحائط الجنوبي لمنزل كشف الأثريون عنه في « تمنع » في وادي بيهان (في قتبان) . والمنزل يدعى منزل « يَشَف » . والنصّ يذكر شراء بعض أشخاص لهذا المنزل حسب القواعد والقوانين المرعيّة التي كانت سائدة في عهد الملك « شَهْر ياجل يُهَرْجِبْ » ملك قتبان وعمّه الوصيّ على العرش فرِع كرِب ، والتي تباركها الآلهة (والنص يعدد هذه الآلهة) . ومن تفصيلات النصّ يمكن للباحث أن يعرف شيئاً عن عبادات منطقة قتبان وآلهتها ، وعن بعض أنواع العمارة التي كانت سائدة في الفترة التي نقش فيها هذا النصّ . إذ أن النصّ يذكر لنا تفصيلات المبنى وغرفه وملحقاته ، وعن نظام تسجيل العقارات ، ثم نستطيع عن طريق المقارنة مع نصوص أخرى ظهر فيها اسم الملك المذكور في النصّ ، أن هذا النصّ يرجع إلى أوائل القرن الأول ق . م .

على أبكر تقدير ، وأخيراً فنحن نستطيع أن نعرف بمقارنة هذا النصّ مع نصوص أخرى أن انقلاباً أو اغتصاباً للعرش قد حدث في هذه الفترة (٢٣) .

ب ـ نقوش عن العلاقات الخارجية لشبه الجزيرة

أمّا عن النقوش التي تعرّفنا بالعلاقات الخارجية لشبه جزيرة العرب فسأقدّم ثلاثة يمثل كل واحد منها نوعاً من هذه العلاقات . والنقش الأول عثر عليه في وادي ماسل بالمنطقة الوسطى من شبه الجزيرة ، وهو نقش سبئي يرجع تاريخه إلى ٥١٦ م كتب باسم معديكرب يعفر بمناسبة حملته ضدّ المنذر الثالث ملك الحيرة (وهي إمارة عربية في القسم الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة) (٢٤). وذكر هذه الحملة في هذا النصّ يساعد على توضيح العلاقات الدولية التي

---

(٢٣) توجد هذه النصوص في عدد من المجموعات هي :

CIH : Corpus Inscriptionum Semiticarum , Pars Quarta, Inscriptiones Himyariticas et Sabaeas Continens (I - III). Paris, (١٩٢٩–١٨٨٩)

RES : Repertoire d'Epigraphie Semitique (V - VII), Paris (١٩٥٠–١٩٢٨)

Sitz. A. W. W., Ph - hist. : Kl. : Sitzungsberichte, Akademie der Wissenschaft in Wien, Philosophisch - historische Klasse

SE : Collection of South Arabian Texts copied by the South Arabia Expedition of the Academy of Sciences in Vienna

كذلك يوجد عدد من هذه النصوص ضمن مجموعة ANET مع ترجمة الى الانجليزية بقلم A. Jamme ؛ كما توجد مجموعات منشورة بأسماء مكتشفيها مثل مجموعات : Glazer, Halévy, Jamme, Philby ؛ بينما توجد نقوش متفرقة مصورة في Ahmed Fakhry : المرجع السابق ذكره ، عن نص تمنع في وادي بيهار . راجع : Wendell Phillips : ذاته ، ص ١٠٢ .

(٢٤) مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ص ١٨ . هذا ويوجد بالمنطقة نقش آخر يشير الى نوع من العلاقات « الخارجية » ولكن بين منطقة ومنطقة في داخل شبه الجزيرة العربية (على اعتبار ان شبه الجزيرة لم تكن تشكل دولة واحدة قبل ظهور الاسلام) . ويشير هذا النص (المرجع ذاته ، الصفحة ذاتها) الى ان « ابي كرب » اسعد وابنه حسان ملكي سبأ و « ذوريدان » وحضرموت ويمنات خيما بالمنطقة (وادي ماسل الجمح) اثناء حملتهما على قبيلة سعد الموجودة بها . راجع صورة للنقش في ملحق اللوحات : لوحة ٢٢ .

كانت سائدة في ذلك الوقت.ودون دخول في التفاصيل فقدكان هناك صراع سياسي اقتصادي ديني متعدّد الأطراف ، ظهر فيه البيزنطيون والفرس والحبش واليمنيّون ووجود وفاق أو خلاف بين هؤلاء الأطراف كان أمراً يخضع لكثير من التغيّر من ظرف إلى ظرف ، ومن هنا فإنّ احتكاكاً أو اتصالاً بين ملك اليمن وملك الحيرة (الذي كان تابعاً للإمبراطور الفارسي) كان أمراً وارداً .

والنقش الثاني واحد من عدد كبير من النقوش تشير إلى العرب أو إلى شبه الجزيرة العربية ، عثر عليها بين السجلات الخاصة بملوك الدولة الآشورية والدولة البابلية الحديثة . ويعود أولها إلى عهد الملك الآشوري شلمنصّر الثالث (٨٥٨ — ٨٢٤ ق . م) وآخرها إلى عهد نابونائيد (٥٥٥ — ٥٣٩ ق . م) آخر ملوك الدولة البابلية الحديثة . والنقش الذي نحن بصدد الحديث عنه يرجع إلى عصر الملك آشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٣٣ ق . م) وفي هذا النقش يتحدث الملك عن حملة قام بها ضدّ «يواتع ملك العربية» ويذكر أنّه قام بهذه الحملة ضدّه لأنّ يواتع قد تجاهله ولم يرسل له الجزية المقرّرة عليه . وبعد أن يصف آشور بانيبال سير الحملة وتفاصيل المعركة يختم نقشه بأن يذكر أنّه انتصر على يواتع وسكان العربية الذين ثاروا معه وأنه سحق هؤلاء الثوار وأحرق خيامهم ، أما يواتع نفسه فقد فرّ إلى أرض النبط [٢٥] . والنقش يلقي ضوءاً على التيارات التي كانت سائدة في شمالي شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت . وهي منطقة أصبحت معبراً بين الدولة الآشورية واتجاه توسّعها نحو سورية . ويبدو من النص أن العرب في هذه المنطقة العبورية كانوا قد اعترفوا بنوع من التبعية للملوك الآشوريين . ولكنّها لم تكن تبعيّة ليّنة العريكة ، وإنما كان فيها شدّ وجذب من حين إلى حين . كما يظهر لنا كذلك أنّ هذا الملك العربي الذي ربما كان مجرّد شيخ لقبيلة قوية أو رئيساً

---

(٢٥) راجع النص في ANET ، صفحات ٢٩٧ — ٢٩٨ .

لمجموعة متحالفة من القبائل في المنطقة ، كانت له علاقات خارجية من النوع الذي يمكن أن نسميّه علاقات حسن جوار مع منطقة الأنباط الموجودة تجاه الغرب .

ثم أشير إلى أقدم نقش عربي وجد في مصر ، وهو نقش يرجع إلى العصر البطلمي (٣٠١ – ٣٠ ق . م) ومدون بالخط العربي الغربي على تابوت التاجر المعيني « زيد إيل » . والتابوت محفوظ في المتحف المصري بالقاهرة . وفي هذا النقش يتحدث زيد إيل عن معاملات بينه وبين كهنة المعابد المصرية نراه في أثنائها يقدم إلى هذه المعابد مقادير من المرّ وقصب الطيّب مقابل أقمشة مصرية . ويذكر أنّه استخدم سفينة في استيراد هذه المحاصيل العربية ، كما يشير إلى دَين عليه يستحقّ الوفاء في شهر حتحور . وفي موضع آخر في النصّ يشير إلى أنّه وفّى بكلّ ديونه في شهر كيهك. ويختم زيد إيل حديثه بنوع من الدعاء إلى الآلهة يبدو منه أنّه يبتهل إليها لكي تضفي حمايتها على تابوته وهو يجمع في هذا الدعاء بين الإله المصري « أوزير – حابي » (وهو يورده في النصّ بنطق معرّب هو أثر حف) وبين آلهة موطنه الأصلي [٢٦] .

---

(٢٦) F. Hommel : A Mineaean Inscription of the Ptolemaic Period, Proceedings of The Society of Biblical Archaeology XVI (١٨٩٤) صفحات ١٤٥–١٤٩ H. Schwarts : Dies Inschriften des Wuestentempels in Redesije, Jahrbuch fuer Klassische Philologie, CLIII ، ١٨٩٦ ، ص ١٥٧ ؛ N. Rhodokanakis : Die Sarkophaginschrift von Gizen, Zeitschrift fuer Semitik und Verwandte Gebiete II ١٩٢٤ ، صفحات ١١٣ – ١١٤ . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ (بيروت ١٩٦٩) ، صفحات ٣٤–٣٧ . عبد المنعم عبد الحليم السيد : الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر (بحث قدم في الندوة العالمية الاولى لدراسات الجزيرة العربية ، الرياض ، ١٩٧٧) ، صفحات ٩ – ١١ . ويمتاز هذا البحث بأن كاتبه يبين هذا النص في ضوء بقية النصوص العربية الجنوبية والشمالية التي وجدت في مصر من جهة ، والنصوص المصرية التي سبقت ذلك من جهة أخرى .

ويستطيع دارس هذا النقش أن يتعرّف من خلاله على مجموعة من الحقائق ومن بين هذه الحقائق على سبيل المثال مدى العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بين هذا التاجر العربي وبين الكهنة المصريين . وهذه العلاقة الوثيقة يمكن أن نوائم بينها وبين عدد كبير من النقوش التي كتبت بلغة عربية جنوبية أو لغة عربية شمالية ، وهي نقوش عثر على أعداد كبيرة منها في الصحراء المصرية الشرقية بين نهر النيل والبحر الأحمر وتشير إلى نزوح عدد من سكان شبه الجزيرة العربية إلى هذه المنطقة في عهد البطالمة . كذلك بمقدورنا أن نستنتج من هذا النص اندماج هذا التاجر العربي في الحياة المصرية (وهو اندماج يمكن أن يكون وارداً في حالة عدد كبير من العرب النازحين إلى مصر في تلك الفترة) ، فنحن نرى هذا التاجر يتقدم بدعائه وابتهالاته لا إلى آلهته فحسب ، بل كذلك إلى إله مصري . ثم هو لا يذكر هذا الإله المصري باسمه الذي كان شائعاً بين اليونان المقيمين في مصر (وفي الواقع بين اليونان في خارج مصر ، وقد كانت عبادة هذا الإله شائعة بينهم كذلك) وهو سرابيس، ولكنه يذكره باسمه المصري أوزير — حابي (بعد أن عربه إلى أثرحف) ممّا يشير إلى أن اندماج هذا التاجر لم يكن مع اليونان وإنما مع المصريين . بل لقد ذهب بعض الباحثين ، بناء على هذا الاندماج ، إلى أن « زيد إيل » أصبح في الواقع كاهناً في المعابد المصرية ، وأن الكهنة المصريين قبلوا انخراطه في سلك رجال الدين المصريين ، ورأوا في هذا ما ييسّر عليهم الحصول على حاجتهم من البخور والطيوب اللازمة لأداء الشعائر والطقوس الدينية بشكل مباشر دون وساطة السوق التي ترفع وساطتها من ثمن هذه السلع بالضرورة .

وأخيراً فإن النقش يكشف لنا عن حقيقة هامة هي أنّ المواصلات في هذه الفترة بين عرب شبه الجزيرة العربية وبين مصر لم تكن قاصرة على الطريق البرّي ، وإنما كانت تتمّ كذلك عن الطريق البحري عبر البحر الأحمر . وفي الواقع نحن نعرف أن المواصلات البحرية عبر البحر الأحمر كانت قائمة ،

فقد وجدت أو أقيمت في مصر موانىء على شاطىء البحر الأحمر من الناحية المصرية مثل ميناء ميوس هرموس وميناء بيرينيكي (رأس بناس حالياً) وميناء القصير ، كما أقام اليونان على الساحل الشرقي للبحر الأحمر من ناحية شبه الجزيرة العربية ميناء « ليوكي كومي » أو القرية البيضاء (الوجه حالياً) . ولكن الجديد الذي يقدّمه لنا النصّ هو أن الطرق البحرية بين هذه الموانىء المتقابلة على البحر الأحمر بين مصر وشبه الجزيرة العربية لم تكن حكراً على البحارة اليونان وإنما كان الملاحون العرب يستخدمونها كذلك . ولهذه الحقيقة التي يكشفها النصّ أهميتها فإنّ النقوش العربية العديدة التي عثر عليها في صحراء مصر الشرقية كلّها تقريباً نقوش مقتضبة ومن ثم لم تتّسع للإشارة إلى عدد من الحقائق ، من بينها هذه الحقيقة .

ج ــ تقويم عام للنقوش

وفي ختام الحديث عن النقوش أودّ أن أشير إلى أن هذا النوع من النصوص هو عادة أدقّ في تصويره للحقيقة التاريخية من غيره من النصوص ، مثل تلك التي ترد ضمن كتابات تاريخية قد لا يكون كاتبها معاصراً للأحداث التي يؤرخ لها أو قد يكون منحازاً ، لسبب أو لآخر ، لأحد الأطراف التي يكتب عنها . ولكن النقوش ، من جهة أخرى ، تكون عادة أقلّ شمولاً من حيث إعطاء صورة متكاملة للمجتمع ككلّ ، أو لفترة زمنية على شيء من الطول . فالنقش ، في أغلب الأحوال ، يتناول حدثاً واحداً وقد لا يزيد عن بضع سطور في كثير من الأحيان وهو أمر نلمسه ، على سبيل المثال ، في الغالبية العظمى من النصوص اليمنية (السبئية أو الحميرية أو المعينية) .

كذلك ، فرغم دقة النقوش في تصوير الحقيقة بالنسبة لبعض الكتابات الأخرى ، إلاّ أنه لا تنبغي لنا أن نأخذ ما تقدمه هذه النقوش كقضيّة مسلم بصحتها في كلّ الحالات . وربما كان من المؤشرات السليمه في الاعتماد على

ما تقدمه لنا النقوش ، هو أن نطمئن إليها إذا كانت تتحدث عن مسائل في الحياة اليومية العادية ، كتسجيل عقار ، أو صفقة تجارية أو الإشارة إلى قانون أو تقديم قربان لإله أو لعدد من الآلهة . ولكننا يجب أن نكون على شيء من الحذر إذا كان النقش يشير إلى ملك أو حاكم يتحدث عن منجزاته وبخاصّة إذا كان الأمر يتعلّق بانتصارات أحرزها على خصومه أو أعدائه . فالملوك أو الحكام في العصر القديم (وفي الواقع في كلّ العصور!) يميلون إلى المبالغة في تمجيد أنفسهم وأعمالهم إذا كان الحكم فرديّاً . وعلى سبيل المثال فإنّنا حين نسمع من أحد النصوص الآشورية التي تخص علاقة الآشوريين بالعرب أن الملك تجلات بيليسر الثالث (٧٤٤ – ٧٢٧ ق . م) . قد اجتاح ١٥ مدينة للملك إيديبعلى العربي ، فإننا يجب أن نتوقف قليلاً ، فهذه « المدن » قد لا تكون في الواقع أكثر من تجمعات بسيطة من الخيام . كذلك حين يذكر هذا الملك ذاته أنّه قتل (ربما يقصد غَنَمَ) من الملكة سمسي ، ملكة بلاد العرب . ٣٠ ألف جمل فإننا يجب أن نتوقف مرّة أخرى . فالملكة سمسي ليست ملكة لكلّ بلاد العرب ، وإنما هي رئيسة لقبيلة أو ربما لعدد من القبائل المتحالفة على أكثر تقدير ، و ٣٠ ألف جمل هو عدد مبالغ فيه دون شكّ في مثل هذه الدائرة الضيقة (٢٧) . ولكن هذه المبالغات ، التي هي في الواقع من طبيعة

---

(٢٧) نص الملك تجلات بيليسر الثالث في ANET ، ص ٢٨٤ ، وتبدو المبالغة في عدد ٣٠ الف من الجمال اذا قارناه بنص آخر من عهد الملك سنحاريب (٧٠٤ – ٦٨١) ARAB ، ج ٢ ، ص ١٥٨ ، نص رقم ٣٥٨ ، وفيه نجد هذا الملك يغنم من ملكة عربية الف جمل فقط ، كذلك نجد نصا من عهد الملك اسرحدون (٦٨٠ – ٦٦٩ ق.م.) ANET ص ٢٩٢ ، يتحدث بأرقام مختلفة هي ٥٠ جملا و ٦٥ جملا ، ورغم ان هذه الارقام الاخيرة هي مجرد زيادة فوق الجزية المقررة على ملكة وعلى ملك ، الا انها مع ذلك لا يمكن ان تتناسب مع عدد من الجمال يزيد كثيرا عن الالف .

الأشياء ، لا تلغي قيمة النقش ، أو حتى تقلّل من هذه القيمة إلى حدّ ملموس . فالباحث لا يعتمد في دراسته على نقش واحد . وإنما يقارنه بغيره من النقوش أو المصادر الأخرى المتعلقة بالحدث أو الموقف الذي يكتب عنه ، ومن هذه المقارنة يستطيع في أغلب الأحوال أن يقترب إلى حدّ كبير من الحقيقة التاريخية .

الباب الخامس

المصادر الدينية

إذا كانت الآثار التي تركتها مجتمعات شبه الجزيرة العربية هي السّجل الفعلي الذي نعرف من خلاله ما أنجزته هذه المجتمعات (في حدود ما نعثر عليه من هذه الآثار)، وإذا كانت النقوش التي خلفها بعض أفراد أو فئات من هذه المجتمعات تعرّفنا بما ذكره هؤلاء عن أنفسهم أو عن ظروفهم ومواقفهم وعلاقاتهم، فإنّ نوعاً آخر من المصادر يعطينا زاوية أخرى أساسية للتعرف على مجتمعات شبه الجزيرة في الفترة السابقة لظهور الإسلام — وهذا النوع هو المصادر التي وصلتنا عن طريق التدوين الكتابي والتي فيها ذكر لأحوال هذه المجتمعات .

وينقسم هذا النوع من المصادر إلى قسمين رئيسيين : أولهما دينيّ ويضمّ القرآن الكريم والتوراة ، اللذين وصلا إلينا في هذه الصورة المكتوبة ، ثم الأفكار الوثيقة الصلة بهذين الكتابين المنزلين وهي الحديث الشريف الذي يضمّ مجموعة التعليمات والتعليقات التي نطق بها الرسول (ص) . وتنوقلت عن طريق الرواية حتى تمّ تدوينها فيما بعد ، ثم التلمود الذي يمثل مجموعة الأحكام والشروح والروايات المتصلة بالتوراة التي تواترت هي الأخرى شفاهاً بعض الوقت ثم سجّلها بعض أحبار اليهود كتابةً بعد ذلك . أما القسم

الثاني من هذه المصادر التي وصلتنا عن طريق التدوين الكتابي فهي الكتابات التي تركها لنا الأقدمون من المؤرخين والجغرافيين والرحالة وكتّاب الموسوعات العلمية وغيرهم من أصحاب القلم .

١ ـ القرآن الكريم :

وأتحدث في هذا الباب من الدراسة عن أول هذين النوعين من المصادر وهو المصادر الدينية ، وفي مقدّمتها يأتي القرآن الكريم ، فهو كلام الله الذي لا يرقى إليه الشكّ من جهة ، ثم هو الكتاب الذي لم يتطرق إليه تبديل أو تحريف على مرّ العصور من جهة أخرى . وربما ذهب بعض الباحثين إلى أن القرآن الكريم ، رغم ما يرويه من أحداث ومواقف تاريخية ، لا يهدف في المقام الأول إلى تسجيل تاريخ المجتمعات القديمة في حدّ ذاتها ، وإنما يستهدف إرساء القيم الروحية التي تربط الإنسان بالله والقيم الاجتماعية التي تنظّم علاقة الإنسان بالمجتمع ، ومن ثمّ فإنّ الأحداث أو المواقف التي يرويها لا تعدو أن تكون أمثلة هدفها الحقيقي هو إظهار العبرة المستفادة من تاريخ هذه المجتمعات ــ وهكذا جاءت بعض الإشارات التاريخية في القرآن الكريم مقتضبة أو عابرة أو جاء تصويرها بشكل يمتزج فيه تسجيل الحدث أو الموقف بالعرض الوجداني له .

وأودّ أن أردّ على هذا الانطباع السائد بين بعض الباحثين من ناحيتين . تتصل إحداهما بالشكل وتتّصل الأخرى بالمضمون . وفيما يتصل بالشكل فإنّ الإشارة المقتضبة أو العابرة إلى بعض الأحداث أو المواقف لا ينتقص من قيمتها في شيء . فالمصادر جميعاً وحدة متكاملة . تتساند فيما بينها في استكمال الحقيقة التاريخية . سواء أكانت هذه المصادر آثاراً أو نقوشاً أو كتباً سماوية أو كتابات تاريخية أو غيرها . بل إن سطراً واحداً أو عدة كلمات من سطر نعثر عليه في أحد هذه المصادر قد تستكمل لنا حقيقة ناقصة أو تقدّم تصوّراً

جديداً لهذه الحقيقة أكثر اقتراباً إلى الصواب . كذلك فيما يتصل بالشكل فإنّ المصدر التاريخي ليس من اللازم في كلّ الأحوال أن يكون سجلاً مباشراً للأحداث أو المواقف . بل ربما كان الاستنتاج غير المباشر هو السبيل الوحيدة الواردة أمام الباحث في كثير من الأحيان . ودور الباحث هو أن يستخلص الحقيقة التاريخية التي يبحث عنها من الإطار الذي جاءت ضمنه أو الصورة التي عرضت بها . فقد تأتي الحقيقة متناثرة داخل عدة نصوص دينية أو قانونية أو سياسية أو قصصية أو غيرها . كما قد تعرض في صورة تقريرية أو تقديرية أو يمتزج فيها العرض التقريري بالعرض الوجداني أو حتى قد يداخلها الخيال في بعض الأحيان دون أن يقف هذا عائقاً حقيقياً أمام استخلاصها .

وأمّا فيما يتعلق بالمضمون فإن القرآن الكريم . إلى جانب قداسة إشارته إلى كل الحقائق . فإنّه يشير إلى عدد من الأحداث والمواقف الخاصة بمجتمع شبه الجزيرة العربية . والمعاصرة لنزوله أو التي سبقت ذلك بوقت قصير أو طويل ولكنها كانت لا تزال موجودة . بدرجات متفاوتة بين التعميم والتفصيل في وعي سكان شبه الجزيرة . ومن ثم فإن القرآن الكريم يبين لنا بشكل نابض مدى انفعال هذا المجتمع بهذه الأحداث والمواقف . كذلك فإن القرآن الكريم في محاولته تصحيح عدد من الأوضاع والممارسات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي عند نزوله يعطينا فكرة واضحة عن هذه الأوضاع والممارسات وعن الدوافع التي أدت بهذا المجتمع إلى اتخاذها طريقاً له وإلى التمسّك بها والمجادلة عنها والتعنّت في سبيل المحافظة عليها — وهي دوافع يسهب القرآن الكريم في عرضها وتفصيلها — ومن ثم يحصل الباحث على صورة تاريخية حيّة للصراع الذي شهده هذا المجتمع في نهاية العصر الجاهلي بين أسلوبين للحياة أحدهما هو ما كان قائماً فعلاً والآخر هو ما كانت الدعوة الإسلامية بسبيل تقديمه .

أ ــ امثلة لاقوام شبه الجزيرة في القرآن

وفي الواقع فإنّ القرآن الكريم تعرض لأحوال المجتمع أو المجتمعات

التي كانت موجودة في شبه الجزيرة العربية وألقى أضواء على عديد من جوانبها وسأكتفي هنا، على سبيل المثال لا الحصر، بالإشارة إلى عدد من هذه الجوانب. فقد عرّفنا القرآن الكريم بعدد من الأقوام التي كانت موجودة في شبه الجزيرة. فإلى جانب قريش التي كانت موجودة وقت نزوله في أوائل القرن السابع الميلادي (واستمرت بعد ذلك) كانت هناك أقوام أخرى سابقة مثل عاد وثمود وسبأ. وفيما يخصّ عاد فيشير القرآن الكريم إلى عاد الأولى التي وجدت ثم اندثرت وإلى عاد أخرى اندثرت كذلك. ونحن نستطيع أن نتتبع الإشارة هذه ونستكمل بها ما جاء في مصادر أخرى. فعاد الأولى التي أرسل الله إليها هود عليه السلام كانت موجودة في جنوبي شبه الجزيرة العربية حسبما نستنتج من ارتباط اسمها بالأحقاف [1] وهي منطقة صحراوية تقع في العربية الجنوبية، كذلك يشير القرآن الكريم في موضعين آخرين إلى وجود آخر لعاد في فترة غير بعيدة قبل نزوله. وفي أحد هذين الموضعين إلى منطقة تنطبق أوصافها على القسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة العربية كمكان لإقامتهم [2]. وإذن فنحن أمام وجودين لقوم عاد في مكانين مختلفين أحدهما في الجنوب عند الأحقاف وأحدهما في الشمال الغربي، وفي زمانين مختلفين أحدهما لا نعرفه على وجه التحديد والآخر في وقت غير بعيد قبل نزول القرآن.

---

(١) عاد الاولى، سورة النجم: ٥٠؛ ارتباط عـاد الاولى بالاحقاف، سورة الاحقاف: ٢١، هذا ورغم ان الاحقاف تعني لغويا الكثبان الرملية، او على حد ما جاء في القاموس المحيط للفيروزابادي (طبعة القاهرة ١٩١٣م) الرمـل العظيم المستدير او المستطيل المشرف (ج ٣، ص ١٢٩) الا ان الاشارة اليها على طريقة التخصيص في الآية الكريمـة تجعل المراد بها هو المكان المسمى بالاحقاف تحديدا، وهو يقع في القسم الجنوبي الغربـي من الربع الخالي في جنوبي شبه الجزيرة.

(٢) آثار مساكنها باقيـة، سورة العنكبوت: ٣٨؛ موقع المنطقـة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية نستنتجه مع ان قوم عاد كانوا ينحتون في الجبال بيوتـا، سورة الاعـراف: ٧٤، راجـع عن البيـوت (الاضرحة) المنحوتة في الجبال الباب الرابع من الآثار والنقـوش في هذه الدراسة.

ونحن في الواقع نستطيع أن نستكمل هاتين الإشارتين إلى حدّ كبير من مصادر الكتاب الكلاسيكيين ، إذ نجد ذكراً لقوم عاد يظهر في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي على الخارطة التي رسمها جغراني يوناني من مصر هو بطلميوس كلاوديوس **Ptolemaios Claudios** (كتب بين ١٢١ و ١٥١ م) الذي عرفه الجغرافيون العرب باسم بطلميوس القلوذي . ويظهر قوم عاد في هذه الخارطة تحت اسم **Oaditae** في شمالي شبه الجزيرة العربية في المنطقة الواقعة إلى شرقي خليج العقبة [٣] (وهي المنطقة التي ينطبق عليها الوصف الذي جــاء في القرآن الكريم والــذي كان التجار العرب في الواقع يمرون به جيئة وذهاباً في خط القوافل الذي يصل شبه الجزيرة العربية بالمنطقة السورية) . ومعنى هذا أن عاداً الثانية قد تواجدت بشكل ظاهر يلفت نظر هذا الجغرافي ابتداء من النصف الأول من القرن الثاني على الأقل . ويبقى أمامنا تحديد الفترة التي اختفت فيها عاد الأولى .

وهنا نلجأ مرّة ثانية إلى الكتّاب الكلاسيكيين . وفي هذا المجال لا نجد ذكراً لقوم عاد فيما تركه لنا الكاتب الموسوعي الروماني بلينيوس **Plinius** في أواسط القرن الثاني الميلادي (٢٣/٥٤ ــ ٧٩ م) رغم أن هذا الكاتب تعرّض باستفاضة لشبه جزيرة العرب وحرص على أن يذكر في عرضه المستفيض أكبر عدد من الأماكن والأقوام الموجودة في شبه الجزيرة . بل لقد ذكر عدداً من المواقع كان موجوداً ثم اندثر قبل زمنه . وهو يجد في حرصه هذا نقطة اعتداد علمي يذكّر القارىء بها [٤] . فإذا توغّلنا قليلاً في الماضي إلى أوائل القرن الأول الميلادي والنصف الاخير من القرن الأول ق. م. لا نجد ذكراً لهؤلاء القوم في كتابات الجغرافي اليوناني استرابون Strabo (٦٣/٦٤

---

(٣) راجع خريطــة شبــه الجزيرة عنــد بطلميوس كلاوديوس في ملحــق الخرائط ، خريطة رقم ٤ .

(٤) Plinius : N. H., VI, 32. 160

ق . م . — ٢١ م على الأقل) رغم اهتمامه بوجه خاصّ بالقسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة وذكره اثنين من الأقوام الموجودة بها (٥) . فإذا تابعنا التوغل في الماضي نجد أن قوم عاد لا يظهرون في كتابات ارتميدوروس في أواخر القرن الأول ق . م . (ظهرت بعض كتاباته في ١٠٤ — ١٠١ ق . م) أو في كتابات الجغرافي اليوناني إراتوسثنيس (عرفه الجغرافيون العرب باسم إراتسطين الذي عاش بين ٢٧٥ و ١٩٤ق.م. وثم نستطيع ان نقول انه بدا يكتب منذ أوائل القرن الثاني ق . م (٦).وهكذا نستطيع أن نستنتج من هذه المقارنة بين القرآن الكريم وبين ما ذكره الكتاب الكلاسيكيين أن عادا الأولى كانت قد اختفت من جنوبي شبه الجزيرة العربية ابتداء من النصف الأول من القرن الثاني ق . م على الأقل .

أمّا عن وجود مكانين مختلفين لعاد الأولى وعاد الثانية فتفسير ذلك هو الهجرات التي عرفها عرب الجنوب إلى شمالي شبه الجزيرة . وهي هجرات قد تكون سبب تغيّر مناخ المنطقة نحو الجفاف بشكل تدريجي ابتدأت آثاره تظهر بوضوح منذ القرن الثالث ق . م . كما يذهب بعض الباحثين . أو قد تكون لها أسباب أخرى (٧) . ولكن الثابت هو أن هجرات قد تمت من الجنوب إلى الشمال بشكل أو بآخر وأن بعض هذه الهجرات اتخذ شكل مستوطنات أقامها التجار أو الحكام الجنوبيون في شمال شبه الجزيرة كمحطات تجارية لقوافلهم في البداية ولكن هـذه المستوطنات لم تابث أن تحوّلت إلى كيانات قائمة بذاتها تتصرف وتقيم علاقاتها مع المدن أو الدول المحيطة أو القريبة منها في ضوء ظروفها الخاصّة . وقد كان بعض هذه المستوطنات يتخذ اسم القوم

---

(٥) Strabo : XVI, 4 : 21

(٦) اقوال ارتميدوس في Strabo : XVI, 4 : 5, 18-19 اقوال اراتوسثنيس في ذاته : XVI, 1 : 12, 3 : 2, 4 : 2 .

(٧) راجع الباب الثاني من هذه الدراسة تحت عنوان « الساميون وشبه الجزيرة والعرب » .

أو البلد الذي جاء منه المستوطنون في البداية . ومن أمثلة ذلك مدينة جرَش التي لا تزال قائمة في العربية الجنوبية (الآن في القسم الغربي من المملكة العربية السعودية) وسمّيتها مدينة جرش في الشمال (الآن في المملكة الأردنية) ، تقعان على خط القوافل التجارية الذي كان يمتد بين اليمن وسورية ، إحداهما على شوطه اليمنيّ والأخرى على شوطه السوريّ . ومن أمثلتها كذلك المستوطنات التي أقامتها سبأ في الشمال واتخذت واحدة منها على الأقل الاسم ذاته وكانت لها مواقف خاصّة بها إزاء محور الدفع والجذب بين الآشوريين في وادي الرافدين ودويلات المنطقة السورية في الغرب في القرن الثامن ق . م . كما نظر إليها الرومان في أواخر القرن الأول ق . م . على أنها كيان قائم بذاته (٨) .

وفي ضوء هذا كله يبدو أمراً متفقاً مع الظروف التي سادت شبه الجزيرة العربية أنّ نفترض أنّ قوم عاد قد هاجرت منهم جاليات أقامت لها مستوطنات في شمالي شبه الجزيرة . ثم تعرّض القوم الأصليون في الجنوب إلى ظروف الجفاف وظروف مناخية أخرى مصاحبة مثل الأعاصير المدارية العنيفة التي تعرفها المنطقة الاستوائية والتي قد تستمر أياماً عديدة متوالية تدمّر فيها مناطق بأكملها وتغطّيها بالرمال إذا كانت أرض هذه المناطق أرضاً رملية (٩) . ولنا أن نتصوّر أن مستوطنات عاد في القسم الشمالي من شبه الجزيرة ، التي ابتدأت قليلة وبسيطة في عدد سكانها لم تلبث أن ازدهرت وتزايد عدد سكانها

---

(٨) عن سبأ الشمالية راجع اشارة النصوص الآشورية اليها في القرن الثامن ق.م. (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م.) على عهد تجلات بيليس الثالث في ANET ص ٢٨٣ . عن سبأ الشمالية في العصر الروماني راجع : Strabo : XVI, 4 : 21

(٩) الاعصار المداري له قوة قد تصل الى ما بين ٢٠٠ الى ٣٠٠ كيلوطن في الثانية ، وهذه قوة خارقة اذا ادخلنا في اعتبارنا ان قنبلة هيروشيما - على سبيل المثال - كانت قوتها ٢٠ كيلوطن في الثانية اي ١/١٠ من القوة المذكورة، جريدة Le Monde ، باريس ، ١٨ نوفمبر ١٩٧٠ ، ص ٢٣، اعمدة ١-٣ . عن الاعاصير في القرآن راجع ادناه في هذه الدراسة .

حتى أصبحت تشكل قوماً ملحوظين منذ أوائل القرن الأول من النصف الثاني . يسترعي وجودهم نظر عالم جغرافي مثل بطلميوس كلاوديوس وهو يضع خارطة للمنطقة ، وبخاصة إذا كان هؤلاء يشغلون منطقة تمرّ بها خطوط القوافل التجارية الواصلة من شبه الجزيرة إلى المنطقة السوريّة ، وهي المنطقة التي وضعهم فيها هذا العالم الجغرافي بالفعل . ولنا كذلك أن نقول إنّ هذا الازدهار قد استمرّ فترة ربما امتدّت ثلاثة أو أربعة قرون ثم اندثرت هذه المستوطنات العاديّة الشمالية لأسباب تتعلّق بالعوامل الطبيعية أو بالمنافسات التجارية وما يصحبها من غارات (كما سنرى في أثناء الحديث على ثمود) أو لأسباب أخرى ، بحيث لم يعد لها ولا لقوم عاد وجود ظاهر عند نزول القرآن الذي يشير إلى عاد على أنهم قوم قد اندثروا أو اندثرت أماكن إقامتهم قبل ذلك بقليل .

وإذا كنا نستطيع أن نتابع أوضاع قوم عاد من خلال آيات القرآن الكريم مستكملين الحديث من خلال المصادر الكلاسيكية فالشيء ذاته ينطبق على قوم ثمود . ان القرآن الكريم يشير في مواضع عديدة إلى أرض الثموديين على أنها واحة غنيّة بالمياه الجوفيّة وما يترتب على ذلك من ثروة زراعية (جنات وعيون وزروع ونخل) [١٠] ، وهي إشارة نجدها كذلك عند الكاتب الكلاسيكي إراتوستثنيس الذي يقسم سكان المناطق الغربية (من شبه الجزيرة) المتاخمة لسواحل البحر الأحمر فيصف المنطقة الشمالية منها (وهي المنطقة التي نحن بصدد الحديث عنها) بأنها منطقة بها قدر من الزراعة . فإذا أضفنا إلى ذلك أن المنطقة تمرّ بها خطوط القوافل التجارية المتجهة من شبه الجزيرة إلى المنطقة السورية . استطعنا أن ندرك ما يشير إليه القرآن الكريم من ثروة الثموديين (أو بالأحرى ثروة الطبقة الارستقراطية الزراعية التجارية من الثموديين) التي تبدو في الإشارة إلى عدد القصور الذي أصبح ظاهرة

---

(١٠) سورة الشعراء : ١٤٧ ــ ١٤٨ .

تستَرعي الانتباه وإلى النشاط المعماري الذي جعلهم ينحتون في الجبال « بيوتاً » (وهي في الواقع أضرحة ومعابد تتخذ شكل البيوت فعلاً ولا تزال قائمة حتى الآن في منطقة مدائن صالح – نبي ثمود) . وقد اندثر الثموديون كقوم لهم كيانهم في فترة سبقت قيام الدعوة الإسلامية بفترة غير طويلة حسبما يتبين لنا من آيات الكتاب الكريم [١١] .

ونحن نستطيع في الواقع أن نتتبع الثموديين في عدد من المصادر الإخرى . فهم يظهرون في نقش آشوري يعود إلى حكم الملك سرجون في الشطر الأخير من القرن الثامن ق . م . (٧٢١ – ٧٠٥ ق . م) . على أنهم (أو أن قسماً منهم) يسكنون في المنطقة الشمالية لشبه جزيرة العرب . ثم نجد عدداً من النقوش الثمودية منتشرة في عدد من مناطق شبه الجزيرة العربية وتعود إلى القرون الثلاثة من الخامس إلى الثالث ق . م . ثم نجد الثموديين بعد ذلك في كتابات بلينيوس في أواسط القرن الأول الميلادي تحت اسم **Tamudaei** ثم على خارطة بطلميوس كلاوديوس (القلوذي) في النصف الأول من القرن الثاني م . تحت اسم **Thamudenoi** ومتعاصرين مع قوم عاد الذين يضعهم بطلميوس على خارطته إلى الشمال من الثموديين [١٢] . ولما كان القرآن

---

(١١) الاشارة الى القصور ، سورة الاعراف : ٧٤ ؛ البيوت المنحوتة في الجبال ، السورة ذاتها : الآية ذاتها ، قارن سورة الحجر : ٨٠ – ٨٢ ، قارن كذلك الآثار التي لا تزال قائمة في مدائن صالح (شمال غربي شبه الجزيرة) ، ملحق اللوحات : ٩ ج . عن اندثارهم بوجه عام راجع : بين آيات اخرى كثيرة ، سورة التوبة : ٧٠ ، الفرقان : ٣٨ ، ص : ١٣–١٥ ، غافر : ٣١ و ٣٣ ، الذاريات : ٤٣ – ٤٤ ، النجم ٥١ ، الفجر : ٩ ، ١٣ . اشارة اراتوستثنيس منقولة في سترابون Strabo : XVI, 4 : 2

(١٢) النص الآشوري الذي يشير الى ثمود ، في ANET ٢٨٦ ؛ عن انتشار النقوش الثمودية في عدد من مناطق شبه الجزيرة بين القرنين الخامس والثالث ق.م. راجع الباب الرابع الخاص بالآثار والنقوش في هذه الدراسة وملحق اللوحات (لوحات ٢٠ أ – ج) ؛ عن ظهور الثموديين في كتابات بلينيوس راجع : Plinius, N. H., VI 32 : 157 . عن تعاصر الثموديين مع العاديين في زمن بطلميوس كلاوديوس راجع ملحق الخرائط (خريطة ٤) .

الكريم يجعلهم « خلفاء من بعد عاد » ويشير إلى ما تبوأوه من مركز وثروة في منطقهتم ،فبإمكاننا أن نستنتج من ذلك أنّ الثموديين استمروا بعد تعاصرهم مع العاديين فترة أخرى قبل أن يندثروا كقوم لهم سطوتهم أو مركزهم كأرستقراطية متحكمة في المنطقة الغنيّة الّتي كانوا يقيمون بها . ونحن لا نستطيع أن نضع وقتاً محدّداً لاندثار الثموديين أو اختفائهم كقوم لهم عددهم وسطوتهم ، إذ نحن نعود نسمع عنهم بعد بطلميوس الجغرافي في كتابات الكلاسيكيين ابتداء من يوسيبيوس **Eusebios** (حوالى ٢٦٠ – ٣٤٠ م) وانتهاء عند بروكوبيوس **Prokopios** الذي توفي في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي (٥٦٥ م) وصمت الكتّاب الكلاسيكيين عن ذكر الثموديين طوال هذه الفترة الّتي تبلغ ثلاثة قرون تقريباً لا يثبت لنا بالضرورة شيئاً عن وجود هؤلاء القوم أو عدم وجودهم ، إذ قد يكون هذا الصمت ناتجاً عن عدم اهتمام هؤلاء الكتّاب بشكل خاصّ بذكر تفصيلي لأقوام المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية . ولكن الثابت هو أن الثموديين كانوا قد اندثروا قبل عهد الرسول (ص) وان اندثارهم تم قبل ذلك بفترة غير طويلة . فقد كانت بقايا مساكنهم . حسبما يذكر القرآن الكريم لا تزال قائمة يستطيع أن يستشهد بها الرسول (ص) وهو في صدد محاجتّه للجاهليين واقناعهم بالدعوة الوليدة [١٣] .

وغير عاد وثمود يحدثنا القرآن الكريم عن أقوام عربية أخرى مثل قوم سبأ . وفي هذا المجال يشير إلى سيل العرم الذي اجتاح هذه المنطقة وكان سبباً في كثير من الآثار السيئة الّتي عانت منها . والمنطقة في الواقع كانت معرّضة لهذا النوع من السيول الناتجة عن الأمطار الموسمية الغزيرة وكان سكّانها يعمدون إلى جمع مياه هذه الأمطار خلف جدران السدود الّتي أقيمت لهذا الغرض . وأهم هذه السدود هو سدّ مأرب. عاصمة سبأ . ولا تزال بقايا

---

(١٣) راجع حاشية ١١ اعلاه .

هذا السدّ قائمة في مكانها حتى الآن . كذلك تشير لنا النقوش التي عثر عليها في المنطقة أنّ جدران هذا السدّ تصدّعت في أكثر من مناسبة ، إذ تذكر لنا هذه النقوش أن ترميمات لسدّ مأرب تمّت في عهد شرحبيل يعفر في أواسط القرن الخامس الميلادي (٤٤٩ – ٤٥٠ م) ثم في عهد أبرهة ، حاكم اليمن من قبل نجاشي الحبشة ، في أواسط القرن الذي يليه (٥٤٣ م) وإذا كان السيل الذي أعقبه هذا الترميم الأخير قدتمّ في فترة قريبة من ظهور الدعوة الإسلامية بحيث كانت أخباره لا تزال ماثلة في أذهان الجاهليين الذين نزلت آيات القرآن الكريم لتذكرهم بها . فإن أخبار التصدّعات والترميمات الأخرى السابقة لهذه المناسبة الأخيرة لا بدّ أن تكون شيئاً وعَتْه ذاكرة العرب كتاريخ على مرّ القرون أثناء رحلاتهم التجارية بين اليمن والشام . فالقحط الذي يصيب منطقة مشهورة بخصبها مثل اليمن(الشهيرة بثروتها الزراعية وما يترتب عليها من رخاء) بعد أن تفقد المياه التي كان سدّ مأرب يحفظها للانتفاع بها في مواسم الجفاف لا بدّ أن يؤثّر على منتجات اليمن التي تحملها القوافل التجارية وتبادل بها سلعاً أخرى . ومن ثم فلا بدّ أن يكون تصدّع السدّ شيئاً بارزاً يتناقله القادمون من اليمن والذاهبون إليه ، بل إن مثل هذا الحدث يتحول في الواقع إلى تاريخ يروونه ويحدّدون به مواعيد الأحداث التي وقعت قبله أو بعده . وإذا كان التصدّع الأخير قد حدث في عصر سيادة الحبش على المنطقة فإنّ أذهان العرب لا بدّ أنها كانت تعي تصدّعات أخرى في السدّ حدثت حين كان السبئيون هم أصحاب السيطرة على المنطقة (١٤) .

(١٤) عن هذا السيل ، سورة سبأ : ١٥ – ١٦ ؛ عن السيول في شبه جزيرة العرب بوجه عام ، سورة الرعد : ١٧ . عن بقايا السد راجع ملحق اللوحات : لوحة ٤ . عن شيوع فكرة السدود في شبه الجزيرة بغرض تخزين مياه الامطار والسيول ، راجع الحديث عن سد السملقى (اعلى وادي ليه من ضواحي مدينة الطائف) وسد الحصين جنوبي خيبر في الباب الرابع (الخاص بالآثار والنقوش) من هذه الدراسة ، انظر كذلك لوحتي ٤ ب – ح في ملحق اللوحات . عن القحط الناتج عن الجفاف الذي سببه تصدع السد ومن ثم ضياع المخزون وراءه من المياه راجع الآيتين في بداية هذه الحاشية .

على أن هذه الإشارة ليست الوحيدة إلى سبأ والسبئيين في القرآن الكريم . فهناك إشارة أخرى إلى زيارة ملكة سبأ إلى سليمان النبي . ونحن نعرف أن سليمان كان ملك يهوذا وأنه حكم في الشطر الأوسط من القرن العاشر ق . م . (٩٧٠ – ٩٣٧ ق . م) . ولكن ربما كانت سبأ المقصودة هنا ليست سبأ الموجودة في اليمن ، وإنما مدينة سبأ الموجودة في الشمال الغربي لشبه الجزيرة العربية ، التي كانت على أرجح وجه إحدى المستوطنات التي أقامها التجار السبئيون على خط القوافل من اليمن إلى سورية . وقد مرّ بنا أن هذه المدينة مذكورة في سجلات بعض الملوك الآشوريين على أنّها إحدى المدن الموجودة في القسم الشمالي من شبه الجزيرة على مقربة من المنطقة السورية . وفي الواقع فإن هذا الافتراض هو الأرجح ، وقد يدعمه ما نستخلصه من الآيات القرآنية التي وردت فيها زيارة هذه الملكة إلى سليمان النبي . فبعد مقدّمات متوتّرة بينهما تظهر في لهجة الكتاب الذي أرسله سليمان إليها ، وفي اتجاه مستشاري الملكة نحو مقابلة التهديد بالقوّة العسكرية ، تنتهي الأمور بأن تتخذ الزيارة شكلاً وديّاً بين حاكمين ، ومن ثم نستطيع أن نصفها بأنّها محاولة منطقية من جانب الملكة السبئية لتحسين علاقاتها بحاكم آخر يبدو أنه كان يحسب حسابه في مجال العلاقات الخارجية ، وبخاصة إذا تذكرنا أن مدينة سبأ كانت تحصل على ثروتها من تجارة العبور (الترانزيت) عن طريق القوافل التجارية البرية في المقام الأول ، وأن علاقات حسن الجوار تصبح ، نتيجة لذلك ، أمراً وارداً إن لم يكن في الواقع أمراً حيوياً بالنسبة لها . وإذا تذكّرنا إلى جانب ذلك أن سليمان قد أنشأ أسطولاً وأنه كان بسبيل اعتماد سياسة تجارية بحرية عن طريق البحر الأحمر ، لا بدّ أن تؤثّر تأثيراً ضاراً على نشاط الخط التجاري البرّي ، سواء بحكم طبيعة الأشياء ، أو بضغوط مقصودة من جانب سليمان نفسه تعرقل الخط التجاري البرّي لصالح خطه البحري. كذلك مما يدلّ على أنّ إشارة القرآن الكريم إلى سبأ الشمالية وليست إلى سبأ الجنوبية أن سجلاّت الملوك في العربية الجنوبية ، سواء من السبئيين أو غير السبئيين لا

تضم حالة واحدة فيها اسم لملكة ، بينما تظهر أسماء لعدة ملكات في العربية الشمالية من بينها ملكتان لمنطقتين اجتاحهما الملك الآشوري تجلات بيليسر الثالث (٧٤٤ — ٧٢٧ ق . م) في غاراته على القسم الشمالي من شبه الجزيرة وملكتان أخريان على عهد ملك آشوري آخر هو أسارحدون (٦٨٠ — ٦٦٩ ق . م). وقد ظهرت أسماء هذه الملكات في النقوش الآشورية التي سجلت أعمال هذين الملكين [١٥] .

ب — امثلة عن الحياة الدينية في شبه الجزيرة

ويعرّفنا القرآن الكريم كذلك ببعض جوانب الحياة الدينية التي عرفتها مجتمعات شبه الجزيرة في العصور السابقة للإسلام ، وببعض ما كان يدور حول هذه الحياة الدينية أو يتصل بها من صراعات وممارسات . فمن بين العبادات ، على سبيل المثال ، عبادات ودّ (القمر) والشمس والشعرى . وقد سادت هذه في العربية الجنوبية ومستوطناتها في القسم الشمالي من شبه الجزيرة . وهذا يثير في ذهن الباحث بعض القضايا المتصلة بهذا الموضوع فربما تكون عبادة هذه الكواكب تلقائية انبثقت من المنطقة . وربما يكون بعضها ، مثل عبادة الشمس ، نتيجة تأثير جاء من بعض الحضارات المحيطة

---

(١٥) عن توقيت بداية حكم سليمان . راجع نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الادنى القديم ج ٣ (سورية) ط ١ ، ١٩٥٩ ، ص ٢٣٤ وحاشية ٢ ، وعن نهايته راجع جواد علي : ذاته ، ج ٢ ، ص ٦٤ . عن موقف سليمان في المجال الدولي وعن زيارة ملكة سبأ اليه وتطورها من مقدمات متوترة الى علاقات ودية ، راجع سورة النمل : ٢٢ — ٢٣ و ٢٨ — ٤٤ . عن اتجاه سليمان الى سياسة بحرية تجارية راجع التوراة، سفر الملوك الثالث، اصحاح ٩ : ٢٦—٢٧ ، المناقشة ادناه في هذا الباب . كذلك فيما يخص نفس الاسلوب في محاولة سليمان تقويته للطريق البحرية التجارية على حساب طريق القوافل البرية ، قارن محاولة اغراء الملك الفينيقي حيرام ، ملك صور ، باستخدام الطريق البحرية بدلا من طريق مصر ، راجع نجيب ميخائيل ابراهيم : ذاته ، ص ٢٣١ .

بالمنطقة مثل الحضارة المصرية القديمة حيث عبدت الشمس تحت اسم الإله رع أو حضارة وادي الرافدين حيث كان الإله شمس أحد الآلهة الرئيسية . كذلك عرف عرب شبه الجزيرة عبادة نسر وهو أيضاً من عبادات الجنوب ، وعبادات أخرى مثل عبادات سواع ويغوث ويعوق وبعل . كذلك يذكر القرآن الكريم عبادة اللات التي أشار المؤرخ اليوناني هيرودوتس Herodotos (أواسط القرن الخامس ق.م) إلى شيوعها عند العرب والتي قرن هذا المؤرخ بينها وبين عبادة أفروديتي Aphrodite عند اليونان ، كما يذكر القرآن الكريم عبادة العزّى وعبادة مناة . ويبدو من الألفاظ الواردة في الإشارة القرآنية أن هذه الإلهات الثلاثة السابقة كانت تشكّل عند العرب ثالوثاً إليها [١٦]، وهي الفكرة التي قد تشير إلى فكرة التثليث التي كانت سائـــدة في بعض بلاد الشرق الأدنى في العصور القديمة مثل إيزيس وأوزيريس وحورس في مصر القديمة ، وهي الفكرة التي ظلّت سائدة حتى ظهرت في بعض مذاهب العقيدة المسيحية بعد ذلك .

أما عن الصراعات التي كانت تدور في مجال الحياة الدينية ، فهنا يتحدث القرآن الكريم في مواضع عديدة عن عدد من حركات الإصلاح التي ظهرت في صورة دعوات دينية قام بها عدد من الانبياء في عدد من مناطق شبه الجزيرة

---

(١٦) عن المعبودات القديمــة في القــرآن القديــم ، الشمس في ســورة النمل : ٢٤ ؛ الشعري في سورة النجم : ٤٩ ؛ ود وسـواع ويغوث ويعــوق ونسر في سورة نوح : ٢٣ ــ ٢٤ ، نص عربي جنوبي تظهر فيه عبادة ود في ANET ص ٥٠٦ ، عن ثالوث الكواكب المعبودة في معين بالعربية الجنوبية راجع ، جواد علي : ذاته ، ج ٢ ، ص ١١٤ ، عن عبادة نسر عند العــرب راجع كذلك ، التلمود : عبودة زاره ، ١١ ب . كذلك يذكرها ابن الكلبي : كتاب الاصنام (طبعة القاهرة) ، ١٩٦٥ ، صفحات ١١ و ٥٧ . عن عبادة بعل ، سورة الصافات : ١٢٥ ؛ اللات والعزى ومنــاة في سورة النجــم : ١٩ ــ ٢٠ ، فكرة التثليث نستنجها من الفــاظ الآية ٢٠ المشار اليهــا (ومناة الثالثة الاخرى). اللات عند هيرودوتس تحت اسم اليلات Alilat ومقارنتها بأفروديتي الالهة اليونانية راجع : Herodotus : Historiae 1, 131

قبل قيام الدعوة الإسلامية مثل دعوة هود في قوم عاد الأولى في العربية الجنوبية، ودعوة أو حركة إصلاح أخرى في سبأ الجنوبية لا يذكر لنا القرآن الكريم اسم صاحبها وإن كان يذكر رفض السبئيين لها ، ثم دعوة صالح في قوم ثمود ودعوة شعيب في أهل مَدْين . ودعوة أخرى لعاد الثانية لم يذكر صاحبها أو نبيّها — وكلّ من هذه الدعوات الأخيرة قامت في القسم الشمالي من شبه الجزيرة . ثم يذكر كيف لقيت هذه الدعوات تصدّياً عنيفاً من جانب هذه الأقوام بحيث لم يكتب لها النجاح أو الانتشار . ونحن ندرك من سياق الآيات القرآنية أن الذين عارضوا هذه الدعوات أو رفضوها أو حاربوها يشكّلون طبقات ارستقراطية يشير القرآن الكريم إلى سطوتها وبطشها وأنها كانت تستعين على ذلك بثرائها العريض . ويشير القرآن الكريم بشكل مباشر إلى المورد الاقتصادي الزراعي الذي كانت هذه الطبقات تستمد منه ثروتها كما يشير بشكل ضمني إلى مورد آخر لهذه الثروة وهو المورد التجاري الذي نستنتجه من موقع هذه الأقوام أو المدن سواء على الخط التجاري الذي كان يربط جنوب شبه الجزيرة بشاطىء الخليج وبوادي الرافدين ، وهو الخط الذي يمرّ بمنطقة الأحقاف حيث موطن عاد الأولى ، أو على الخط التجاري الموازي للبحر الأحمر في غربي شبه الجزيرة وهو الخط الذي كانت تسيطر عليه مواقع الأقوام والمدن الأخرى . كما يشير القرآن إلى مورد صناعي لهذه الثروة نتعرف منه على بعض نشاط يتعلق بالتعدين وصهر المعادن وبعض الصناعات القليلة المتصلة به [١٧] .

---

(١٧) عن تصدي بعض اقوام شبه الجزيرة لدعوات او حركات الاصلاح ، في حالة عاد راجع سورة هود : ٥٠ — ٥٨ ، وفي هذه الآية الاخيرة اشارة الى فريق المؤيدين وفريق المعارضين ، كذلك ، سورة الحج : ٤٢ ، العنكبوت : ٣٨ ، الاحقاف : ٢١ . في حالة ثمود ، سورة هود : ٦١ — ٦٦ ، المؤيدون والمعارضون يظهرون في الآية الاخيرة ، كذلك ، الاسراء : ٥٩ ، النمل : ٤٥ ، الذاريات : ٤٣ . في حالة مدين ، الاعراف : ٨٥ — ٩١ ، صراع المؤيدين والمعارضين في آية ٩٠ . في حالة سبأ ، سورة سبأ : ١٥—١٦ . عن الدعامة الاقتصادية الزراعية ، سورة سبأ ١٥ ، =

أما عن بعض الممارسات التي تمت في داخل هذا المحيط الديني ، فيعطينا القرآن الكريم مثلاً لها مما دار في منطقة الأخدود التي كانت في منطقة اليمن قديماً (الآن في نجران في القسم الجنوبي الغربي من المملكة السعودية) حيث يشير إلى اضطهاد ديني عنيف أحرق فيه عدد من الناس أحياء بسبب تمسكهم بعقيدتهم . وتتوقف الإشارة القرآنية عند وصف هؤلاء بأنهم مؤمنون دون أن تفصل في التعريف بعقيدتهم وبالأسباب التي أدت إلى إحراقهم ربما لأن الحادثة كانت أشهر من أن تعرف عند قيام الدعوة الإسلامية وبخاصة إذا أدخلنا في اعتبارنا أن اضطهاداً بهذا العنف كانت أخباره تنتقل بالضرورة مع القوافل التجارية التي تمر بالمنطقة جيئة وذهاباً بصفة مستمرة . ومثل هذه الإشارة السريعة نجدها كذلك في الحديث عن « أصحاب الفيل » دون ذكر لمن قام بها أو للدوافع التي أدت إلى القيام بها . ربما لأنها كانت لا تزال ماثلة في الأذهان إذ لم يكن قد مر عليها عند نزول الرسالة أكثر من أربعين عاماً أو نحو ذلك ومعنى هذا أن عدداً من الذين عاصروا الرسول (ص) كانوا شهوداً عياناً لها . ونحن نستكمل من مصادر أخرى أن حادثة الأخدود كان

= الشعراء : ١٣٤ ، ١٤٧ ــ ١٨٤ . عن الصناعة كدعامة اقتصادية لعاد الاولى ؛ سورة الشعــراء : ١٢٩ ، عن الاشارة الى ممارسة صهر المعادن لصناعة الحلى وغيرها ، الرعد : ١٧ ، عن احتمال ان تكــون الاشارة الى معدن الذهب ، راجع الباب الثامن الخـاص بالحياة الاقتصادية من هذه الدراسة . عن الدعاية الاقتصادية التجارية لهؤلاء الاقــوام ، موقع عــاد الاولى في منطقة الاحقاف ، سورة الاحقاف ٤٦ : ٢١ على طريق الخط التجاري الى الخليج ووادي الرافدين ، موقع ثمود على الخط التجاري بين اليمن والشام كما تدل على ذلك الاشارة الى البيوت المنحوتة في الجبال (مدائن صالح الحالية) سورة الشعراء : ١٤٩ ، كذلك الاشارة الى اهل الحجر (وهي مدينة في المنطقة ذاتها ــ الوجــه حاليا) ، سورة الحجــر : ٨٠ ، الحكم الطبقي الارستقراطي نستنجه من مستوى المعيشة (حياة القصور) في سورة الاعراف : ٧٤ ، كذلك عاد وثمود ضمن اقوام اخــرى في سورة الحج : ٤٥ ، كما نستنتجه من صفات الطبقات المعارضة للدعوات ، مثــل البطش . الشعــراء : ١٣٠ ، والطغيــان ، الفجــر : ٩ ، والاستكبــار ، فصلت : ١٥ ، والجبروت ؛ هود : ٥٩ .

سببها أن حاكم اليمن (وهو ذونواس) الذي كان قد اعتنق اليهودية قد حاول أن يرغم على اعتناقها نصارى نجران فلما رفضوا أقدم على تعذيبهم بهذه الوسيلة (حوالي ٥١٢ م) وأن سبب حادثة الفيل هو أن الحبش المسيحيين الذين جاءوا إلى اليمن لنصرة المسيحيين هناك احتلوا اليمن بعد ذلك وأرادوا أن يوجهوا ضربة إلى مركز العبادة الوثنية في شبه الجزيرة آنذاك وهو الكعبة ، فوجّه حاكمهم على اليمن ، وهو أبرهة ، عدداً من قواته العسكرية مع فيل أو بعض الفيلة لهدم الكعبة (حوالي ٥٧٠ م) (١٨) .

ج ــ مثال لتكوين المجتمع في شبه الجزيرة

وليس الحديث عن الأقوام التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية وعن أحوالهم الدينية هو كلّ ما نستطيع أن نستخلصه ، أو نستخلص إشارات عنه ، من القرآن الكريم . وإنما تتطرق الآيات القرآنية إلى ما يعطينا فكرة عن الاهتمامات والعلاقات التي كانت تظهر في الشقين الرئيسيين للسكان في شبه الجزيرة العربية : وهما سكان المدن وسكان البادية . ومكة إحدى المدن التي يرد ذكرها في القرآن الكريم مؤكداً صفتها الدينية الموغلة في القدم ، وهي صفة اكتسبتها في العصور السابقة للإسلام من وجود الكعبة بها ، ومشيراً في موضع آخر إلى الأمن الذي كانت تتمتع به . وهو أمن نستطيع أن نردّه إلى هذه الصفة الدينية وإلى صفة أخرى هي أنها كانت معقد الخطوط التجارية الرئيسية نحو الشام في الشمال واليمن في الجنوب ووادي الرافدين في الشمال الشرقي . وهو وضع يفرض الأمن بين أصحاب القوافل التجارية كإجماع على ضرورة حيوية بالنسبة لمصالحهم . كذلك نسمع من القرآن الكريم عن الصلح الذي تمّ بين الرسول (ص) وبين قريش في المنطقة المحيطة بمكّة

---

(١٨) الاخدود في سورة البروج : ٤ ــ ٨ ، سورة الفيل : ١ ــ ٥ ، عن عرض سريع لظروف الحادث راجع Rodinson : ذاته ، صفحات ٣١ــ٣٣ ، عن منظر لمنطقة الاخدود راجع ملحق اللوحات : لوحة ٢ ب .

فنعرف بذلك الملابسات التي تمّ فيها هذا الصلح الذي كان يمثل إحدى مراحل الحوار الدقيق والتداخل المتوازن بين الأوضاع القديمة والأوضاع الجديدة التي شهدتها نهاية العصر الجاهلي — وهو حوار كان لا يمكن أن يتمّ بهذه الصورة إلاّ بين سكّان المدن ، وقد كان الطرفان المتحاوران من سكان المدن . أما الإشارة القرآنية الأخيرة إلى مكّة فتلقي ، رغم اقتضابها ، ضوءاً على جانب أساسي من جوانب الحياة بها ، وهو « الإيلاف » أو الاتفاقات التي كان المكيون حريصين على إبرامها مع غيرهم حتّى يؤمنوا حركتهم التجارية في « رحلة الشتاء والصيف » ، وهي اتفاقات ، سواء أكانت داخلية في شبه الجزيرة أو خارجية مع الدول التي تصل إليها القوافل التجارية . يبدو واضحاً من هذه الإشارات أنها كانت تعود عليهم بقدر كبير من الاستقرار الذي يتمثل في عاملين رئيسيين هما : الرخاء والأمان (١٩) .

كذلك هناك الإشارات العديدة إلى يثرب التي اكتسبت بعد هجرة الرسول (ص) إليها اسم المدينة المنوّرة . وفي هذه الإشارات نرى وصفاً دقيقاً ونابضاً لعدد من الاتجاهات المعارضة أو المبطّنة أو المتأرجحة التي أحاطت بالدعوة الإسلامية الوليدة والتي تعطي صورة تاريخية مجسّمة لمجتمع الجاهلية وهو يعيش لحظاته الأخيرة أمام مدّ جديد . إنّنا نرى هنا بقايا الطموحات القديمة التي يتشبث بها أصحابها ولا يريدون أن يعترفوا بوضع جديد من شأنه أن يقضي على هذه الطموحات . ومن هنا فهم يعملون على الرجوع إلى المدينة

---

(١٩) الصفة الدينية لمكة في سورة آل عمران : ٩٦ : وصفها بالامن ، التين : ٣ ، المعاهدات التجارية وما تعود به من رخاء وامان ، سورة قريش : ١ — ٤ ويلاحظ في هذا الصدد ان قبيلة قريش عقدت حوالي ٤٦٧م اتفاقات مع الامبراطور البيزنطي والامبراطور الفارسي ونجاشي الحبشة وملك حمير اليمني اتفاقات تجارية تسمح لهم بتسيير قوافلهم الى هذه المناطق مما جعل في يدهم زعامة اغلب الجزيرة في مجال التجارة ، ومن ثم عاد عليهم بكثير من الرخاء ، عن صلح الحديبية ، الفتح : ١٨ و٢٤؛ عن وضع مدينة قريش كمعقد للخطوط التجارية راجع ملحق الخرائط : خريطة ٦ .

لإخراج الرسول (ص) منها إخراج العزيز للذليل حسب تصوّرهم آنذاك. كذلك نجد في داخل المدينة عدداً من مروّجي الإشاعات ضد الدعوة الجديدة أو «المرجفين» حسبما يسميهم القرآن الكريم وعدداً من المنافقين الذين لم يتخلصوا بعد من روابط العصر الذي يمرّ بلحظاته الأخيرة ولكنّهم لا يجرؤون على معاداة التيار الصاعد الجديد. ثم هناك الذين انضمّوا إلى الدعوة الجديدة ولكن ليست لديهم الشجاعة الكافية لتحمّل المصاعب أو المخاطر التي يستتبعها هذا التحوّل الذي أقدموا عليه. ربما باقتناع غير كامل. ومن هنا فهم يتعلّلون أمام صاحب الدعوة الجديدة بخوفهم على بيوتهم وأسرهم. وهكذا يمضي الوصف لنجد فيه تصويراً مجسّداً للحظة تاريخية معاصرة للوقت الذي نزل فيه القرآن الكريم يمرّ بها مجتمع يعيش منعطف تحوّل كبير تلتقي عنده نهاية عصر وبداية عصر [٢٠].

ثم أنقل الحديث إلى الإشارات القرآنية التي تتصل بالشقّ الآخر من سكان شبه الجزيرة العربية. هؤلاء هم الأعراب الذين لا يقيمون في المدن بشكل أساسي. وإنما تكون إقامتهم في البادية أو حول المدن. هكذا تذكر لنا هذه الإشارات. كما تلقى ضوءاً على نفسية هؤلاء الأعراب وعلى تصرفاتهم ودوافعهم. فهم لا «يؤمنون» أو يرتبطون بقيم ثابتة. وإنما صفتهم الأساسية هي «الكفر» بهذه القيم أو على أقل تقدير مجاراتها عن «نفاق» وسوء نية. فيقولون «بألسنتهم ما ليس في قلوبهم». وهم ينشغلون عن هذه القيم الثابتة بالمصالح المادية التي تمثلها «أموالهم وأهلوهم». كذلك فهم قوم لا يحفظون عهداً ولا يُركن إلى وعد قطعوه على أنفسهم ولا يرون بأساً في أن «يقولوا» أو يتخلوا في اللحظة الحاسمة عمّن يعتمد عليهم، أمّا أسلم طريق للتعامل

(٢٠) عن النفاق والمنافقين، سورة التوبة: ١٠١ و١٢٠؛ عن الشائعات، الاحزاب: ٦٠، عن الصراع داخل المدينة، المنافقون: ٨، عن التوتر والخوف ومحاولات الفرار: الاحزاب: ١٣.

معهم فهي الترغيب « بالأجر الحسن » أو الترهيب « بالعذاب الأليم ».[٢١]

ولا يقتصر القرآن الكريم ، كمصدر لمجتمع شبه الجزيرة العربية في العصر السابق للإسلام ، على هذه الجوانب السابقة وإنما يتجاوزها ليعطي فكرة محدّدة عن المنطقة فيما يتعلق بعدد من الجوانب الأخرى . فالكتابة ، بغضّ النظر عن مدى انتشارها ، معروفة ، وكذلك القلم والصحف (بمعنى الأوراق المكتوب عليها) والرق الذي يكتب عليه . كذلك فإن مجتمع شبه الجزيرة لا يجهل عدداً من جوانب اللّهو مثل الصيد الذي تستخدم فيه الجوارح . ومثل استخدام الخيل لأغراض « الزينة » التي قد تشير إلى بعض أنواع السباق أو الألعاب الأخرى[٢٢] .

وأما فيما يخص شبه الجزيرة نفسها فمناخها معرّض لرياح قائظة هي « السّموم » وتجتاحه في بعض الأحيان أعاصير مدارية قد تكون مدمّرة سواء في سرعتها أو فيما تذروه من رمال أو حصى . وهي لهذا توصف بعدة أوصاف : فهي « الطاغية » مرة و « الذاريات » في موضع آخر و « الحاصب » من الريح مرة ثالثة وبالريح العقيم التي لا تذرشيئاً في موضع رابع وهي « الصيحة » أو « الصاعقة » أو « ريح صرصر عاتية » في آيات قرآنية أخرى . كما تتعرّض المنطقة لهزّات أرضيّة في بعض المناسبات مثل « الرجفة » التي تعرّض لها أهل

---

(٢١) عن اقامة الاعراب في البادية ، الاحزاب : ٢٠ ، عن اقامتهم حول المدينة المنورة ، التوبة : ١٠١ ، ١٢٠ ، عن شدة كفرهم ونفاقهم ، التوبة ٩٧ ؛ عن تقديم الماديات على القيم الاخرى ، الفتح : ١١ ؛ عدم الامن لهم ووجوب معاملتهم بالترغيب والترهيب : الفتح : ١٦ ؛ صفات المراوغة والادعاء ، الحجرات : ١٤ .

(٢٢) عن معرفة الكتابة (بصرف النظر عن مدى شيوعها) ، العرفان: ٥ ، النور : ٣٣ ، البقرة : ٢٨١ ــ ٢٨٣ ، ادوات الكتابة ، القلم في سورة القلم : ١ ، العلق : ٤ ، الرق في سورة الطور : ٣ ، الصحف في سورة النجم : ٣٦ ، عبس : ١٣ ، التكوير : ١٠ ، الاعلى : ١٨ ــ ١٩ . الصيد بالجوارح ، المائدة : ٤ . الخيل لاغراض الزينة ، النحل : ٨ ، آل عمران : ١٤ .

مَدْين ومثل الإشارة إلى خسف الأرض في مناسبات أخرى وهكذا . كذلك فإن وسائل المواصلات البعيدة بين بلد وبلد يستخدم فيها الجمل الذي يشير إلية القرآن الكريم مرّة بشكل صريح ومرة أخرى بشكل ضمني ، كما تستخدم الفلك في المواصلات البحرية . أما النقل القريب فتستخدم فيه البغال والحمير ، وأما الخيل فهي وسيلة الحرب الأساسية (٢٣) .

٢ ـ الحديث الشريف :

كان القرآن الكريم ، إذن ، هو المصدر الديني الأول لتاريخ العرب قبل الإسلام لأنه لا يرقى إليه الشكّ ولأنّه ، كما أسلفت الإشارة في بداية هذا الحديث ، معاصر لمجتمع شبه الجزيرة العربية في نهاية العصر الجاهلي ، ثم لأنّه لم يتعرّض لأي تحريف أو تبديل . وإذا كان القرآن الكريم هو المصدر الديني الأول ، فإنّ المصدر الديني الإسلامي الذي يليه هو الحديث ، وهو الأقوال المروية عن الرسول (ص) . وأهمية الحديث كمصدر تاريخي للمجتمع العربي قبل الإسلام تنسحب بالضرورة على المرحلة الأخيرة من المراحل التي مرّ بها هذا المجتمع ،وهي المرحلة التي عاصرت ظهور الدعوة الإسلامية، ومن ثم يصبح الحديث مطابقاً لها من الناحية الزمنية، كذلك فإن الحديث، رغم اهتمامه بالأحكام الدينية وقوانين المجتمع الإسلامي في المقام الأول إلاّ أنّه

---

(٢٣) ريح السموم ، التشبيه بقيظها الحارق في ، الحجر : ٢٧ ، الطور : ٢٧ ، الواقعة : ٤٢ . وصف الريح القوية بالطاغية في سورة الحاقة : ٥ ، وبالذاريات في سورة الذاريات : ١ ، وبالحاصب من الريح في الاسراء : ٦٨ ، وبالريح العقيم التي لا تذر شيئا ، الذاريات : ٤١ ، وبالصيحة ، هود : ٦٧ ، وبالصاعقة ، فصلت : ١٧ ، وبالصرصر العاتية في عدد من المواضيع منها الحاقه : ٦ . عن الهزات الارضية ، الرجفة في العنكبوت : ٣٧ ، خسف الارض ، الاسراء : ٦٨ ، الملك : ١٦ . الاشارة الى الجمل ضمنا ، النحل : ٧ ، وتصريحا في الاعراف : ٤٠ (الاشارة هنا الى حجمه ولكن فيها الدلالة على وجوده في حياة العرب اليومية) . البغال والحمير في النحل : ٨ ، الخيل كوسيلة للحرب في الانفال : ٦٠ .

تضمّن ، إلى جانب هذه الأحكام والقوانين ، قدراً من أخبار الجاهليين . كذلك فنحن نستطيع أن نستنتج بشكل مباشر أو غير مباشر بعض ممارسات المجتمع الجاهلي من خلال التعاليم التي تتضمنها هذه الأحاديث النبوية .

وعلى سبيل المثال فقد جاء في أحد الأحاديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً قيل : يا رسول الله أنصره مظلوماً فكيف أنصره ظالماً . قال : بأن تنهاه عن ظلمه » والحديث في محاولة لتغيير مفـــاهيم المجتمع الجاهلي ، يشير إشارة مباشرة إلى العصبية العشائرية أو القبلية التي كانت تحكم هذا المجتمع والتي نراها في كثير ممّا وصلنا من أشعار الجاهليين . وعلى سبيل مثال آخر فقد جاء في أحد الأحاديث « إخوانكم خولكم . فأطعموهم ممّا طعمتم والبسوهم ممّا لبستم » وفي الحديث حضّ صريح لحسن معاملة الخدم ، الذين كانوا في أغلب الأحوال عبيداً . ونحن نستطيع أن نستنتج منه سوء معاملة هذه الطبقة ومن ثم نعرف شيئاً عن العلاقات الطبقية في المجتمع الجاهلي القريب من الإسلام . وهي علاقات يذكرها القرآن الكريم ، فيما يخصّ طبقة العبيد ، في أكثر من آية ويشير إلى ما كانت تتسم به من قسوة وتسلّط [٢٤] .

على أنّ هناك عدّة اعتبارات ينبغي أن ندخلها في حسابنا ونحن نعتمد على الحديث كمصدر لتاريخ المجتمع العربي في الفترة السابقة للإسلام . وأول هذه الاعتبارات يتعلق بطريقة انتقاله إلينا . فالحديث ظل ينتقل بالرواية الشفوية على امتداد قرنين كاملين حتّى جمع ودوّن على عهد عمر بن عبد العزيز في أواخر القرن الثاني الهجري وهو أمر قد يؤدي إلى شيء من الزيادة أو

---

(٢٤) عن شعر الجاهلية في مجال العصبيـــة القبلية والعشائرية ، على سبيل المثال ، دريد بن الصمة (توفي حوالي ٦٣٠ م) :

وما انا الا من غزية ان غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

كذلك عمرو بن كلثوم (القرن السادس م) في المعلقة :

ونشرب ان وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينـــا

عن سوء معاملة العبيد في العصر الجاهلي كما يصورها القرآن الكريم ، البقرة : ١٧٧ ، النســاء : ٣٦ ، التوبة : ٦٠ .

النقصان في هذه الأحاديث أو إلى التغيير في بعض ألفاظها ممّا قد يستتبع تغييراً في المعنى المحدّد المقصود منها – وهذا على عكس ما حدث في حالة القرآن الكريم الذي كانت آياته وسوره ، كما رأينا في مناسبة سابقة ، تسجّل عند نزولها ممّا لا يدع مجالاً لأي تغيير فيها ، وحتّى إذا كان رواة الحديث ثقاتاً فإن هذا وحده لا يكفي ، فالحديث ليس رواية فحسب ولكنه ، حسبما يؤكد المتخصصون فيه . « رواية ودراية » . أي أن الذي يروي الحديث لا يكفي أن يكون صادقاً وحريصاً في روايته فحسب . بل ينبغي كذلك أن يكون على علم بالأحاديث المروية سواء فيما يخصّ معناها أو ألفاظها أو الملابسات التي قيلت فيها والغرض المقصود منها يوم قولها . فالحديث قد يكون صحيحاً وثابتاً وقاله الرسول (ص) فعلاً . ولكنه منسوخ . أي أبطل العمل به في عهد الرسول نفسه [٢٥] . وحتّى لو افترضنا أن بعض الأحاديث قد دوّنت فعلاً قبل عهد عمر بن عبد العزيز ، وهو أمر وارد إذا أدخلنا في اعتبارنا أن المجتمع الإسلامي الأول كان على معرفة بالكتابة وأدواتها ، مهما ضاق نطاق هذه المعرفة ، فإنّ هذا لا يغيّر من الأمر شيئاً فيما يخص الدراية بالأحاديث عامّة وفيما يتعلق بالأحاديث المنسوخة بوجه خاصّ . كذلك يجب أن ندخل في اعتبارنا أن الفترة التي سبقت جمع الحديث وتدوينه ، وهي التي تمتـد عبر القرنين الأول والثاني للهجرة ، كانت فترة مشحونة بالتيارات والنزاعات السياسية التي قد تتداخل أحياناً مع اعتبارات دينية ، ومن ثم يصبح نحل بعض الأحاديث من قِبَل فئة أو أخرى أمراً وارداً في سبيل تبرير موقف أو دحض موقف مضادّ [٢٦] .

وقد كان هذا دون شك هو الذي أدّى إلى شيء من الاختلاف بدرجات

---

(٢٥) قواعد التحديث لجمال الدين القاسمي (دمشق ١٣٥٣ هـ) صفحات ٥١ – ٥٣ ؛ مصطلح الحديث لعبد الغني محمود (مصر ، ط ٢ ، ١٣٣١ هـ – ١٩١٣ م) ، صفحات ٢ – ٥ . مقتبس في ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، بيروت ١٩٦٤ ، ص ٩ وحاشية ١ .

(٢٦) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠ .

متفاوتة سواء في عدد الأحاديث أو ألفاظها في عدد من مجموعات الحديث التي نذكر من بينها : الموطّأ للإمام مالك (توفي ١٧٩ هـ) وجامع الصحيح للبخاري (ت ٢٥٧هـ) وصحيح مُسْلم (ت ٢٦٢هـ) وسُنَن أبي داود (ت٢٧٥هـ) وسنن الترمذي (ت ٢٧٩هـ) ومسند الإمام أحمد بن حنبل (ت قبل ٣٠٣ هـ) . هذا التفاوت يدفع الباحث في الواقع إلى قدر كبير من الحرص وهو بصدد الاعتماد على الحديث كمصدر تاريخي لمجتمع شبه الجزيرة قبل الإسلام ومن هنا فلعل خير سبيل نعتمده في هذا المجال هو ما ذهب إليه مفكّر عربي معاصر من أننا نستطيع الاعتماد على الحديث «إذ كان موافقاً لما ورد في القرآن الكريم»[(٢٧)] .

٣ – **التوراة والتلمود :**

وإلى جانب القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهما المصادر الدينية العربية التي نتعرف من خلالها عن أحوال شبه جزيرة العرب ومجتمعها . هناك مصدران دينيان غير عربيين هما التوراة والتلمود . والتوراة . وهي الكتاب المقدس عند اليهود . والتلمود يعتبر تكلمة للتوراة ويشمل مجموعة الأحكام والشروح والروايات المتصلة بها والتي تواترت شفاهاً بعض الوقت قبل أن يدوّنها بعض أحبار اليهود في فترة لاحقة . وقيمة التوراة والتلمود كمصدر من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام هي أنهما يتحدثان عن علاقة العبرانيين بالعرب في مواضع عديدة من جهة . كما أنهما معاصران لفترة ما قبل الإسلام من جهة أخرى . وأودّ أن أشير . هنا كذلك . أن ما يذكره هذان المصدران الدينيان قد يكون مقتضباً أو عابراً في بعض الأحيان وأن على الباحث أن يستكمل الحقيقة التاريخية بالمقارنة مع المصادر الأخرى مثل الآثار والنقوش والكتابات الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) . كما أودّ أن أقول أن فترة

---

(٢٧) عمر فروخ : ذاته ، ص ١٦ .

الرواية الشفهية التي مرّت بها أحكام التلمود (وربما بعض أسفار التوراة) قبل أن تدوّن . لا بدّ أن ندخلها في اعتبارنا ونحن نعتمد على ما جاء بهما من أخبار ونقارنها بالمصادر الأخرى . وأخيراً فإنّ كلمة « العرب » في التوراة والتلمود تعني البدو أو عرب الصحراء أساساً وحتّى حين يرد داخل المدن فإن المقصود بهم في هذه الحال هو البدو الذين نزحوا إلى هذه المدن لسبب أو لآخر . أمّا سكان الحضر من شبه الجزيرة العربية فإنّ هذين المصدرين يشيران إليهما كأهل هذه المنطقة أو تلك كأن يقال « أهل سبأ » أو « سكان أرض تيماء » أو «الدادانيون » (وهم سكان منطقة العلا الحالية بشمالي غربي شبه الجزيرة) . أو كأن ينسب شخص إلى مدينة « هجر » (وهي التي ترد باسم « الحجر » في القرآن الكريم ومكانها ميناء الوجه حالياً قرب مدينة العلا أو مدائن صالح) على سبيل المثال [٢٨] .

وسأقدم في السطور التالية بعضاً من الجوانب التي اشتملت عليها حياة سكان شبه الجريزة العربية كما تصورها التوراة والتلمود وكيف نحاول أن نستكمل صورتها التاريخية . وأول هذه الجوانب يخص المناطق شبه الصحراوية

---

(٢٨) عن تدوين بعض اسفار التوراة بعد فترة رواية شفهية قد تصل الى قرنين او ثلاثة قرون وما يترتب على ذلك من تداخل في الاحداث من الناحية الزمنية قد يصل الى قرن كامل راجع التداخل بين الاسماء الواردة في سفر عزرا : الاصحاح الثاني (في صدد العودة من السبي) وتلك الموجودة في سفر نحميا : الاصحاح السابع : عن تفصيل التداخل راجع ، نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الادنى القديم ، ط ١ ، ج ٣ (سورية) ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ ، ص ٣١٢ . كذلك قصة سبأ وزيارتها لسليمان (راجع ادناه في هذا الباب) دوّنت بعد تداولها شفهيا بعدة قرون ، راجع ، جواد علي : ذاته ، ج ١ ، ص ٦٣٦ ، ارض العرب في التوراة يقصد بها الصحراء راجع ، نبوءة اشعيا ، اصحاح ٣٣ : ٩ ؛ نبوءة ارميا ، اصحاح ٥٠ : ١٢ و ٥١ : ٤٣ وفيهما ترد تسمية « مساها عرب » بهذا المعنى . عن سكان عرب من الحضر لا يوصفون بوصف « عرب » وانما ينسبون الى مواطن اقامتهم راجع عن اهل سبأ : نبوءة يوئيل ، الاصحاح ٣ : ٨ عن الدادانيين ، نبوءة اشعيا ، ٢١ : ١٣ ، عن سكان ارض تيماء ، ذاته : ٢١ : ١٤ ، عن يازيز الهجري ، سفر اخبار الملوك الاول ، ٢٨ : ٣٠ .

من شبه الجزيرة وعلاقة سكانها بالمناطق المستقرّة المتاخمة لها . والمنطقة هي منطقة « عوص » التي كان يقطنهاأيوب وآله من « بني قِدِم » . ونستنتج من التوراة أنها منطقة شبه صحراوية تجمع بين الرعي والزراعة ، إذ تذكر أنّ أيوب كان يملك سبعة آلاف من الغنم وثلاثة آلاف من الإبل وعدداً من البقر يكفي لفلاحة خمسمائة فدان من الأرض الزراعية وخمسمائة أتان . كذلك تذكر التوراة أن الكلدانيين قد هاجموا هذه المنطقة وأخذوا الجمال وتركوا وراءهم عدداً كبيراً من القتلى من بين السكان ، بينما أغار السبئيون عليها وأخذوا البقر والأُتن (٢٩) .

ولنحاول الآن أن نحدّد مكان منطقة « عوص » . وفي هذا المجال نجد اختلافاً في الرأي بين الباحثين . فبعضهم يرى أنها منطقة حوران في سورية . وبعضهم يرى أنها تقع في منطقة الحجاز . وهو رأي قد يغري به وجود موضع حتى الآن يدعى « عيص » في الحجاز فعلاً (شمال غربي المدينة وشمال ينبع النخل) . وبعضهم يضعها في مناطق أخرى (٣٠) . فأين إذن منطقة « عوص » على وجه التحديد ؟ إنّ التوراة أطلقت على سكانها « بني قِدِم » . وهو وصف يعني سكان الشرق أي السكان الذين يقطنون إلى شرقي العبرانيين . وهذه طريقة في تحديد الأماكن تتمشى مع ما اتبعته الأقوام القديمة في هذا الصدد (كما كان أبناء وادي الرافدين ، على سبيل المثال ، يسمّون القبائل البدوية القاطنة إلى غربيهم قبائل أمورو أي قبائل الغرب) . كذلك فالمنطقة تقع في متناول غارات الكلدانيين . والكلدانيون من سكان وادي الرافدين وقد أقاموا حكماً لهم هناك بعد أن اشتركوا في إسقاط حكم الآشوريين في ٦١٢ ق . م . وإذن فمنطقة عوص قريبة من وادي الرافدين أو على الأقل

(٢٩) منطقة عوص ، سفر ايوب ، ١ : ١ ، بني قدم ، ذاته ، ١ : ٣ ، املاك ايوب ، ذاته : الموضع ذاته ، هجوم السبئيين ، ذاتـه : ١ : ١٥ ، هجوم الكلدانيين ، ذاته ، ١ : ١٧ .

(٣٠) راجع جواد علي : ذاته ، ج ١ ، ص ٦٣١ وحاشية ٢ .

تقع في المجال الذي تجتاحه قوات وادي الرافدين في طريق غاراتها المعتاد على المنطقة السورية . من جهة أخرى فإنّ السبئيين الذين أغاروا على منطقة عوص لا يمكن أن يكونوا قوات مملكة سبأ التي كانت في اليمن . فلا يعقل أن يتكبّد هؤلاء مشقّة اختراق شبه الجزيرة من جنوبيها إلى شماليها لكي يغيروا على منطقة يأخذون منها عدداً من البقر والأتن . وإذن فسبأ المقصودة هنا هي مستوطنةسبأ التي أقامها السبئيونفي شماليشبه الجزيرة والتي يرد ذكرها في عدد من النصوص الآشورية (٣١) — وهكذا نستطيع أن نقول إن منطقة « عوص » المذكورة هي منطقة تقع في البادية الشمالية من شبه الجزيرة والتي تمتد بين وادي الرافدين والمنطقة السورية . وأن الحادثة التي ترويها التوراة تمثل نوعاً من الاحتكاكات التي كانت تحدث بين البدو والمناطق المستقرّة التي يوجدون على تخومها وأن الحدث المذكور قد يكون نوعاً من الغارات التأديبية على هؤلاء البدو لسبب أو لآخر .

وقد ذهب بعض المعلقين . سواء من القدامى أو المحدثين . ومن بينهم ابن عزرا . العالم اليهودي الذي عاش في القرن الثاني عشر . إلى أن أيوب وقومه كانوا من العرب . استدلوا على ذلك بما وجدوه في بعض الأسماء والألفاظ والتعابير التي وردت في سفر أيوب الذي يضمّ هذا الحدث . وهي تشير . في رأيهم . إلى أثر عربي واضح . بل إن بعض الباحثين ذهبوا إلى أن هذا السفر ربما كان ترجمة لأصل عربي مفقود . وعلى أي حال فالذي يهمّنا في الموضوع هو أنّ المنطقة التي عاش فيها قوم أيوب تقع في شبه الجزيرة

---

(٣١) عن بداية حكم الكلدانيين في وادي الرافدين راجع : George Roux : Ancient Iraq ، صفحات ٣٣٨ وما بعدها . عن اشارة النصوص الآشورية الى سبأ الموجودة في الشمال راجع القسمالاول من هذا الباب . وتجدر الاشارة هنا ان بوسعنا ان نحدد تاريخ هذا السفر استنادا الى تاريخ قيام حكم الكلدانيين في وادي الرافدين (الفقرة التاليــة لعام ٦١٢ ق.م.) .

العربية ؤوأن الحدث المروي يمثل علاقة هذه المنطقة شبه الصحراوية بجيرانها.(٣٢)

على أن أغلب الإشارات الواردة في التوراة ، فيما يخص موضوعنا ، تبيّن لنا عداً من الجوانب التي اتسمت بها العلاقات بين العرب والعبرانيين ، سواء أكان العرب المقصودون من البدو أو من أهل الحضر . وهي علاقات كانت تسير في بعض الأحيان في طريق العنف السافر الذي ينتصر فيه أحد الطرفين مرّة وينتصر الطرف الآخر مرة ، وتسير في طريق المؤامرات أحياناً أخرى ، أو في طريق العلاقات التجارية في أحيان ثالثة . فالتوراة تذكر لنا مثلاً أن الفلسطينيين والعرب « الذين بقرب الكوشيين » هاجموا مملكة يهوذا على عهد ملكها يورام أو يهورام (٨٥١ — ٨٤٣ ق . م) . ويبدو من سياق الحديث أنه كان هجوماً عنيفاً اكتسحوا فيه المملكة ، فقد هاجموا قصر الملك وسبوا نساءه وأسروا كل أبنائه فيما عدا واحد ونهبوا أمواله . وهنا تقف أمام الباحث صعوبة ، فالكوشيون عادة يعني الأحباش أو سكان منطقة السودان . ومن هنا ذهب أحد الباحثين إلى أن العرب الذين بقرب الكوشيين هم أهل اليمن ، بينما ذهب باحث آخر إلى أنهم عرب سيناء على أساس أنهم بقرب المصريين اعتباراً بأن المصريين من الحاميين ومن ثم يكونون هم المقصودون بالكوشيين (٣٣) .

ولكن الرأيين مردود عليهما . وفيما يخص الرأي الأول ، فإن التوراة حين ترد فيها لفظة العرب تعني عرب الصحراء أي البدو ، واليمن كانت

---

(٣٢) جواد علي : ذاته ، ج ١ ، صفحات ٦٣٣ — ٦٣٤ وحاشية ١ في ٦٣٤ .

(٣٣) عن نص التوراة ، اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٢١ : ١٦ — ١٧ ، عن شدة هذا الهجوم ، السفر ذاته ، أصحاح ٢٢ : ١ ، صاحب راي عرب اليمن هو ماجوليوت Margoliouth وصاحب راي عرب سيناء هو موسل Musil ، الرايان مقتبسان في جواد علي : ذاته ، ج ١ ، ص ٦٤٣ وحاشية ١ و ٢ في الصفحة ذاتها .

منطقة حضر وكانت النظرة إليها في العصور القديمة دائماً بهذا الوصف الحضري رغم وجود بعض المناطق البدوية فيها بالضرورة . وسكانها يذكرون في التوراة على أنهم « سبئيون من أرض بعيدة » كما سنرى في مناسبة مقبلة ، وحتى إذا دخلنا في باب الافتراض الجدلي فإنّ اليمنيين لا يمكن أن يكونوا هم المقصودين فليس هناك أي احتمال لاشتراك بدو اليمن مع الفلسطينيين في مهاجمة مملكة يهوذا لا من جانب المصلحة المشتركة ولا من جانب جوار (غير موجود) بينهما . أما فيما يخص الرأي الثاني الذي يجد في هؤلاء العرب القريبين من الكوشيين عرباً من سيناء (على اعتبار أن المصريين هم الكوشيون) فالاحتمال ضعيف . إذ أن الألفاظ الدالة على المصريين وعلى أرض مصر واردة ومتكررة في التوراة ولو كان العرب المقصودون في النصّ هم عرب سيناء لأشارت التوراة إلى المصريين بالتحديد وليس إلى الكوشيين . وإذن يبقى هناك تفسيران محتملان . أولهما أن العرب المقصودين بهذا الوصف هم من جيران الفلسطينيين بحكم ظرف الحادث الوارد في النصّ . ولكنهم كانوا من القبائل اليمنية المهاجرة إلى الشمال والتي عاشت في الشمال حياة بدوية . وأما التفسير الثاني ، وهو الأبسط والأرجح في رأيي .فهو أن يكون الوصف مجرّد استخدام مجازي للفظة « الكوشيين » وكان النصّ يريد أن يقول إن الفلسطينيين لم يكونوا وحدهم في الهجوم وإنما كانت معهم قبائل بدوية « من كل حدب وصوب » أو « من كل فجّ عميق » أو « من آخر الدنيا » وهي صيغة مبالغة في التعبير واردة في اللغات السامية [٣٤] .

ونحن في الواقع نستطيع أن ندرك السبب الذي من أجله تم هذا التحالف بين هذه القبائل العربية القريبة من مملكة يهوذا وبين الفلسطينيين إذا رجعنا إلى

---

(٣٤) راجع عن الهجرات من اليمن واسبابها الباب الثاني (الساميون وشبه الجزيرة والعرب) من هذه الدراسة . راجع عن المبالغات ، ما جاء من مبالغات الاعداد في النصوص الآشورية في الباب الرابع الخاص بالآثار والنقوش في هذه الدراسة .

الوراء قليلاً لنرى ما تقوله التوراة عن عهد سلمان (٩٧٠ ٩٣٧ ق . م) . فقد وجه سليمان اهتمامه إلى ناحية التجارة البحرية واتخذ ميناء عصيون جابر (بجوار ميناء إيلات) على البحر الأحمر مرفأً أساسياً لهذه التجارة . وقد كان هذا دون شك ضربة للموانيء الفلسطينية على شاطيء البحر المتوسط ، كما كان في الوقت ذاته ضربة إلى الأطراف الشمالية للطرق البرية التي توصل إلى موانيء الفلسطينيين ، وهي الأطراف التي تمرّ بالضرورة في أراضي العرب المحيطين بفلسطين وتعتبر مورداً اقتصادياً حيوياً بالنسبة لهم (٣٥) .

مثال آخر من الأمثلة التي تقدمها التوراة في تصوير هذه العلاقات العنيفة بين العرب والعبرانيين نرى فيه الملك عزيّا ملك يهوذا وقد حارب الفلسطينيين والعرب المقيمين بمنطقة « جُور بَعْل » والمعونيين وهدم أسوار مدنهم وأخذ جزية من العمونيين (٣٦) . وهنا تقابلنا مشكلة تحديد هذه الأماكن الثلاث . جُور بَعْل وأرض المعونيين وأرض العمونيين . فلفظة «جور » تعني في العبرية « مسكن » ومن ثم فمنطقة جوربعل معناها الحرفي مسكن بعل وتشير بذلك إلى منطقة تسود فيها عبادة هذا الإله والمنطقة السورية بأكملها كانت تعرف عبادة هذا الإله . لقد ذهب أحد الباحثين إلى أن المنطقة توجد على حدود الحجاز الشمالية . وليس من المستبعد ، قياساً ، أن تكون هذه العبادة قد انتشرت من سوريا إلى الحجاز فالعقائد الدينية المرتبطة بعدد من الآلهة القديمة انتشرت في أحيان عديدة خارج المناطق التي ظهرت بها . كما أن طرق القوافل التي تربط بين الحجاز وسورية كان من الممكن أن تساعد على انتقال

---

(٣٥) عن الاتجاه البحري لسليمان راجع ، سفر الملوك الثالث ، اصحاح ٩ : ٢٦ والباب الخاص بالعلاقات الخارجية لشبه الجزيرة القسم الثالث من هذه الدراسة .

(٣٦) اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٢٦ : ٦-٨ .

هذه العبادة إلى الحجاز (٣٧) . ولكن مع ذلك فإننا نتوقع منطقياً وقياساً ان يشير إسم « مسكن بعل » إلى منطقة يكون بها المركز الرئيسي لعبادة هذا ألإله كما كانت مدينة « عين شمس» أو « هيليوبوليس » **Héliopolis** (وهي ترجمة يونانية للمكان نفسه تحت اسم « مدينة الشمس ») تعني المركز الأساسي لعبادة «رع » إله الشمس في مصر القديمة . ومن ثم فاحتمال أن تكون الحجاز ، أو منطقة تقع على حدودها الشمالية ، هي منطقة جوربعل يبقى في خير الأحوال احتمالاً ضعيفاً . هذا ، بالإضافة إلى أن منطقة الحجاز تظل منطقة بعيدة عن المنطقة التي دار فيها الحدث المذكور ومن ثم يظل احتمال المصلحة المباشرة التي تدعو أهلها إلى أن يكونوا طرفاً في المعركة احتمالاً بعيداً . كذلك ذهب باحث آخر إلى أن جوربعل قد تشير إلى صخرة بعل ، ومن ثم فتكون مدينة بترا **Petra** (البتراء) ومعناها في اليونانية« الصخرة »هي المدينة المرشحة لأن تكون جور بعل (٣٨)ـ وهذا الاحتمال يبقى وارداً ولكن دون تأكيد وإنما كل ما نستطيع أن نصل إليه في هذا الصدد هو أن نقول إن منطقة جوربعل هي منطقة قريبة من حدود مملكة يهوذا حتى تكون لها مصلحة مباشرة تجعلنا نفهم فهماً مقبولاً أن تكون طرفاً في المعركة مع ملك يهوذا ـ أي أنها في أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية .

أمّا عن المعونيين . فيكاد يكون من الأرجح أنهم المعينيون ، ولكنهم من المنطلق ذاته . ليسوا دولة معين التي كانت موجودة باليمن ، وإنما هم جماعة منهم كانوا قد أسسوا مستوطنة أو مستوطنات في الشمال (على نمط السبئيين) واستقروا في منطقة ديدان (العلا الحالية في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية) وأقاموا هناك مملكة معينية شمالية . وأمّا عمّون التي يبدو أنها اشتركت في الحلف ولكنها لم تشترك في المعركة الفعلية ومن ثم اكتفى

---

(٣٧) Alois Musil : Northen Hegaz ، ص ٢٧٤ .

(٣٨) Montgomery : Arabia ، ص ٣٠ .

ملك يهوذا بأن يفرض جزية عليها دون تهديمها ، فهي ربّة عمون التي كانت تقع جنوبي عمان الحالية بمسافة قصيرة على الخط التجاري[٣٩] .

وإذن فنحن أمام حلف قوامه الفلسطينيون والقبائل العربية المجاورة لهم وعمّان والمعينيون الشماليّون . ومن مواقع المشتركين في هذا الحلف نستطيع أن نتعرف على هوية التحالف بينهم . إن للفلسطينيين موانىء على ساحل البحر المتوسط حيث تصبّ نهايات الخط التجاري الآتي من جنوبي شبه الجزيرة العربية ، والقبائل العربية في جور بعل تمر بها نهايات هذا الخط التجاري التي توصّل في أشواطها الأخيرة إلى الموانىء الفلسطينية . وعمّون تقع في طريق هذه القوافل . أما المعونيون (وهم المعينيون كما رأينا) ، وموقعهم إلى الجنوب قليلاً . فبأرضهم يمرّ الخط التجاري المذكور ، بالإضافة إلى ميناء تجارية لهم على البحر الأحمر هي ميناء إجرا (الحجر) أو الوجه حالياً . وهذا الحلف تجمعه مصلحة مشتركة هي المصلحة التجارية . ونحن نستطيع أن ندرك الحجم الحقيقي لهذا التحالف التجاري الحربي إذا عرفنا من التوراة أن عزيّا ملك يهوذا استولى على المدن والموانىء الفلسطينية وأعاد بناء إحدى هذه الموانىء على الأقل وهي ميناء اشدود . وأنّه أراد أن يحدث تغييراً جذرياً في الخطوط التجارية البرية التي كانت تصل إلى الموانىء الفلسطينية وذلك بعد أن استعاد ميناء إيلات (على رأس خليج العقبة) [٤٠] وهو أمر يستطيع من خلاله أن

---

(٣٩) عن موقع عمون على الطريق التجارية بين بصرى والبتراء راجع : René Dussaud : La Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam (Paris ١٩٥٥) ، ص ١٥٤ . راجع كذلك خريطة رقم ٢ في : Krammer : Petra et la Nabatène (Paris ١٩٢٩) عن استقرار المعينيين حول منطقة العلا الحالية في شمالي غربي شبه الجزيرة راجع ، Dussaud : ذاته ، ص ٤٨ .

(٤٠) اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٢٦ : ٢ و ٦ ــ ٨ . ويجدر بنا في هذا الصدد ان نشير الى ان العرب كانوا قد بدأوا قبل هذه الفترة ينضمون الى تحالفات في هذه المنطقة ضد بعض القوات التي تريد اجتياحها والسيطرة عليها وذلك ، حسبما تشير الملابسات وموقع المنطقة حرصا على مصلحة تجارية تتأثر بهذه التحركات ، كما حدث على سبيل المثل حين =

يجعل هذه الميناء نهاية الطريق التجارية الآتية من البحر الأحمر وبداية لطرق التجارية إلى موانىء الشاطىء الفلسطيني وهكذا تصبح ميناء إيلات منافساً خطيراً لميناء الحجر المذكور والتي كان المعينيون يعتمدون عليها في تجارتهم البحرية إلى جانب اعتمادهم على خط القوافل في تجارتهم البرّية .

أما المثال الثالث الذي سأقدّمه من التوراة كمصدر من مصادر التعرف على العلاقات بين عرب شبه الجزيرة (أو بالأحرى أطرافها الشمالية الغربية) وبين العبرانيين . وفيه يتعادل الفريقان بشكل أو بآخر ، فهو يرجع إلى فترة ما بعد عودة العبرانيين من السبي البابلي ، وفيها نجد نحميا اليهودي يطلب من ارتَحشَتا الإمبراطور الفارسي (٤٦٤ - ٤٢٤ ق . م .) أن يسمح له ببناء سور حول القدس . وهنا تذكر التوراة أن نحميا وجد معارضة من عدد من زعماء المنطقة من بينهم طوبيا العموني وجشم العربي . ولكن هذه المعارضة لا تتمخّض عن مواجهة عسكرية كما رأينا في المناسبتين السابقتين وإنما تقتصر على مؤامرات وحيل من الطرفين تنتهي بنجاح نحميا في بناء السور الذي يريده [٤١] . ونحن نستطيع أن نفهم ما جاء في التوراة إذا نظرنا إلى الوضع السياسي الذي كانت تمرّ به المنطقة بأكملها ، وهو أنّها قد أصبحت في ذلك الوقت جزءاً من الإمبراطورية الفارسية التي شملت كل بلاد الشرق الأدنى ومن ثم لم يكن هناك مجال لمواجهة عسكرية وإنما لمؤمرات داخلية لا تصل إلى حدّ هذا النوع من المواجهة . وبخاصة إذا كان الإمبراطور الفارسي هو الذي أعطى الإذن ببناء السور .

ولا تقتصر التوراة كمصدر تاريخي على التعريف بعلاقات العرب والعبرانيين

= انضم جندبو، وهو زعيم عربي بقوة عسكرية من راكبي الجمال الى الحلف المؤلف من ملك دمشق وحماه وارواد ومدن سورية اخرى ضد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م.) في السنة السادسة من حكمه . راجع النص في ANET ص ٢٧٩ ، عن مناقشته راجع الباب الخاص بالوضع السياسي في مجتمع شبه الجزيرة في القسم الثالث من هذه الدراسة .

(٤١) نبوءة نحميا ، اصحاح ٤ : ٧ - ٢١ ، و ٦ : ٢ - ١٦ .

في مجال الاحتكاكات الحربية والمؤامرات السلمية ، وإنما تتعدّاها لتحدثنا عن علاقات تجارية تدخل فيها السياسة أو عن علاقات تجارية عادية . ونحن نجد في هذا المجال إشارة إلى أن السبئيين في العربية الجنوبية كانوا يشترون العبيد من خارج البلاد كأيدي عاملة ربما للعمل في مزارعهم أو كعمال أو للخدمة في بيوت الطبقة التجارية الأرستقراطية التي كانت تسيطر على البلاد. فالتوراة تورد تهديداً من جانب يَهْوه (اسم الله عند العبرانيين) يتوعّد فيه صور وصيدون وجميع بقاع فلسطين بأن يبيع بنيهم وبناتهم بأيدي يهـوذا للسبئيين ، لأمة بعيدة (وهذا يعني أن هؤلاء لم يكونوا من سبأ الشمالية القريبة من العبرانيين ، إنما من تجار مملكة سبأ التي كانت موجودة في اليمن) ، وذلك رداً على ما فعلوه حين باعوا « بني يهوذا وبني أورشليم لبني الياوانيين » وهم اليونان [٤٢] . كذلك نجد تجار سبأ (الجنوبية أو الشمالية) يتجرون مع العبرانيين بالطيوب والذهب والأحجار الكريمة و « بالأنسجة الفاخرة » وتشير التوراة كذلك إلى أهل وَدَان (العلا) الذين كانوا يتجرون مع العبرانيين « بالنمارق للركوب » وربما يقصد بذلك بوع من الأثاث ، بينما تشير إلى العرب (القبائل البدوية) على أن تجارتهم مع العبرانيين كانت في الماعز والأغنام [٤٣] . كما نجد مثلاً مرجحاً من أمثلة العلاقة التجارية بين العبرانيين والعرب في عهد سليمان إذ تذكر لنا التوراة أنّ سليمان في محاولته لتقوية مملكته وإشاعة الرخاء في أرجائها قد وجه عنايته إلى النشاط التجاري البحري فأنشأ أسطولاً تجارياً في عصيون جابر [٤٤] على خليج العقبة (غربي

(٤٢) نبوءة يوئيل ، اصحاح ٣ : ٦ ـ ٨ .

(٤٣) سفر الملوك الاول ، اصحاح ١٠ : ١٠ ، ١٤ وما بعدها ، اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٩ : ١٣ وما بعدها . ويجدر بنا ان نشير هنا الى ان المقصود بملوك العرب هو على الارجح رؤساء او شيوخ القبائل العربية .

(٤٤) سفر الملوك الاول ، اصحاح ٩ : ٢٦ وما بعدها ، ١٠ : ١١ . اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٩ : ١٠ ؛ آراء الذين تناولوا الموضوع ، وهم Dunbow, Hastings Glaser ، معروضة في جواد علي : ذاته ، ج ١ ، صفحات ٦٣٨ ـ ٦٣٩ . السبب المرجح لهذه الآراء هو ورود اسم اوفير في التوراة (سفر التكوين ، اصحاح ١٠ : ٢٦ـ٢٩) على انه اسم احد ابناء يقطان (قحطان في العربية) ونظراً لان مواطن اليقطانيين هي من ميشا وانت آت (الاصحاح ذاته : ٣٠) وحيث ان « ميشا » يرجح ان تكون ميسان الحالية على راس الخليج العربي و«سفار» يرجح انها تشير الى =

إيلات) ، قام برحلات تجارية إلى عدد من الأماكن من بينها « أوفير » التي أتى منها هذا الأسطول بكميات وفيرة من الذهب . والرأي الراجح بين الباحثين استناداً إلى بعض ما جاء في التوراة من أسماء الأقوام أو الأماكن وتحديد موقعها ، واستناداً إلى مصادر أخرى أن « أوفير » تقع في شبه الجزيرة العربية على السواحل الشرقية أو الجنوبية . وأودّ أن أويد هذا الترجيح بما ذكره هيرودوتوس Herodotus شيخ المؤرخين اليونان الذي كتب في أواسط القرن الخامس ق .م. وبما أورده سترابون Strabo الجغرافي اليوناني (أواخر القرن الأول ق . م . وأوائل القرن الأول م .) عن وجود الذهب في شكله الخالص في شبه الجزيرة العربية (٤٥) .

وأخيراً فإن التلمود، وهو الكتاب المكمّل للتوراة، يتحدث عن عدد من جوانب الحياة عند العرب وإن كان على الباحث أن يستنتج ذلك بشكل غير مباشر في أغلب الأحوال من حديث كتاب التلمود عن المسائل الفقهية والتشريعية - وهي الموضوع الأساسي لهذا الكتاب - والتي تتطرق إلى ما يجوز وما لا يجوز العمل به في المعاملات بين العبرانيين والعرب . كذلك يجب أن ندخل في اعتبارنا ونحن بصدد الاعتماد على التلمود أن عدداً من الأمثلة التي يوردها وهو بسبيل الحديث عن هذه المعاملات تشير إلى عرب سيناء وليس إلى سكان شبه الجزيرة العربية . كما أن هذا الكتاب يشير إلى العرب كثيراً تحت اسم

= ظفار الحالية على مقربة من وسط الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية فتكون اوفير على الساحل في مكان ما بين الموقعين . كذلك يرى جواد علي : ذاته ، ص ٦٣٩ امكانية تطابق اسم أوفير مع موضع « الحفير » الذي ذكره الهمداني في « صفة جزيرة العرب » تحت عنوان معادلة اليمامة عندما قال ان بهذا الموضع معدن ذهب غزير ، وبما ان « الحفير » تكون بموضعها هذا بعيدة عن ساحل البحر فيقترح جواد علي ، تخطيا للتناقض ، ان يكون بحارة اسطول سليمان التجاري قد اشتروا ذهب اوفير من احد الموانىء العربية الجنوبية وظن كتاب التوراة ان اوفير تقع على الساحل .

(٤٥) راجع الباب الثامن الخاص بالوضع الاقتصادي في القسم الثالث من هذه الدراسة .

« طيبعه » و « طيافه » والنسبة في هذه الأشكال هي إلى قبيلة « طيّ » العربية المعروفة التي يذهب أحد الباحثين إلى أنها كانت قد أصبحت في وقت تدوين التلمود من أشهر القبائل العربية وأعظمها قوّة بحيث غلب اسمها على بقية أسماء القبائل العربية فأصبح هذا الاسم يطلق على بقية هذه القبائل المجاورة [٤٦] .

وأختم الحديث بعرض أمثلة سريعة من حديث التلمود عن العرب وحياتهم وعاداتهم . ففي مجال العقائد والعبادات يذكر هذا الكتاب أن العرب كان لهم معبود هو « نشرا » ونحن نجد ذكر هذا المعبود يرد كذلك في القرآن الكريم على نحو ما أشرت في مناسبة سابقة ، وأن مواسم حج الأعراب لم تكن ثابتة وإنما كانت تتغيّر من حين لآخر حسب ما يجدّ في مواسم السنة . ويشير التلمود إلى حياة الأعراب فيذكر أنهم كانوا دائمي التنقّل في البادية . وأما عن عاداتهم فيذكر أن رجال العرب كانوا يعمدون إلى وضع اللثام على وجوههم في أثناء السفر على سبيل الوقاية من الزوابع الرملية ، كما كان نساء العرب يغطين وجوههن عند الخروج إلى الأماكن العامّة ، وهي عادة يرى أحد الباحثين أنها ربما كانت تخصّ نساء العرب المقيمين في المدن . كما أنّ بين ما أشار إليه التلمود من صفات العرب هو قدرتهم الخارقة على التعرف على مواضع الماء في الصحراء بمجرّد شمّ الرمال [٤٧]، وهذه دون شك من نوع الحاسّة السادسة التي أوجدتها عند العرب ظروف الجفاف التي سيطرت على شبه الجزيرة والتي اكسبت العرب بالضرورة هذا النوع من الخبرة التي لا يمكن الاستغناء عنها تحت هذه الظروف .

---

(٤٦) قارن ذلك بظهور اسم الطائيين تحت اسم طاويني Taveni عند الكاتب الروماني بلينيوس في اواسط القرن الاول الميلادي Plinius : N. H., VI, 32 : 157

(٤٧) عن ورود اسم نشرا وعن تغيير مواسم الحج راجع ، عبودة زاره : ١١ ب ، عن التنقل الدائم راجع ، هلوت ، ٢٨ : ١٠ ، عن تلثم الرجال ، موعيد قطان : ٢٤ ، عن تحجب النساء العربيات راجع ، شبت ، ٦ : ٦ ، عن ربط هذه العادة الاخيرة بنساء المدن راجع ، جواد علي : ذاته ، ص ٦٥٣ ، عن التعرف على مواضع الماء في الرمال راجع ، بابا بترا : ٢٧٣ .

الباب السادس

المصادر الكتابية

بعد أن تعرفنا على المصادر الدينية لتاريخ شبه الجزيرة العربية في العصور السابقة لظهور الدعوة الإسلامية . وهي مصادر وصلتنا في صورة مدوّنة ، أنقل الحديث إلى القسم الثاني من هذه المصادر المدوّنة ، وأقصد به الكتابات التي تركها لنا الأقدمون من المؤرخين والجغرافيين والرحّالة وكتاب الموسوعات العلمية وغيرهم من أصحاب القلم . وهذا القسم الثاني من المصادر المدوّنة نستطيع أن نميّز فيه بين مجموعتين من الكتابات : الأولى هي ما حرّره الكتاب الكلاسيكيون أو الكتاب اليونان والرومان (الذين كتبوا باليونانية واللاتينية) ، وتستمد كتاباتهم قيمتها من معاصرة هؤلاء الكتاب لمجتمعات شبه الجزيرة العربية في الفترات السابقة لظهور الإسلام ، ومن التزامهم بدرجات متفاوتة ، ولكنها ملموسة في كل الأحوال ، بالتحقيق العلمي والعملي لما كتبوا عنه – وهو تحقيق كانوا يملكون في الواقع مادته الرئيسية (حتى إذا صرفنا النظر عن أية ظروف ومقومات أخرى) بحكم معاصرتهم هذه للأحداث والأحوال والمواقف التي تخص المنطقة التي يكتبون عنها . أما المجموعة الثانية من الكتابات فهي الكتابات العربية التي تركها لنا كتاب العصر الإسلامي ، وهذه يعوزها بالضرورة عنصر المعاصرة (الذي يتميّز به هؤلاء الكتاب حين يكتبون عن تاريخ العصر الإسلامي ذاته) ومن ثم فهي تعتمد على ذكر

الروايات والتصوّرات الشائعة ، أثناء فترة تدوينها ، عن مرحلة تاريخية سابقة لهذا التدوين بقرون عديدة .

١ ــ الكتاب الكلاسيكيون :

أ ــ كتاب المرحلة المبكرة

وتبدأ الكتابات الكلاسيكية عن أحوال شبه الجزيرة العربية بشكل أساسي في أواسط القرن الخامس ق . م . وإن كانت هناك إشارات عن العرب فيما تركه لنا اليونان الأوائل ، على أن هذه الإشارات ضئيلة ولا تتعدّى في الواقع خمس إشارات : اثنتان منها تردان في ملحمة الأوديسية المنسوبة إلى هوميروس Homeros الذي يعتمد في شعره على تراث يوناني ينتهي عند أواسط القرن التاسع ق . م . وواحدة في أشعار هزيودوس Hesiodos ،وهي أشعار ترجع إلى ما بعد هذه الفترة بما يقرب من قرن . واثنتان في مسرحيتين للشاعر المسرحي إيسخيلوس Aeschylos. وترجعان إلى العقود الأولى من القرن الخامس ق . م . ولكن هذه الإشارات جميعاً ، فوق أنها مبتورة تأتي كل منها في لفظة واحدة . فإنّ اثنتان من بينها دلالتهما غير محدّدة ، وواحدة غير ثابتة . ولكن مع ذلك . فإنّ هذه الضآلة في عدد الإشارات أو في نوعيتها لها دلالة تاريخية فيما يخصّ شبه الجزيرة العربية . وهذه الدلالة هي أنّ مجتمع شبه الجزيرة لم يكن بينها وبين اليونان آنذاك اتصال مباشر ، ومن ثم كان الحديث عنهم في كتابات اليونان في تلك الفترة حديثاً غامضاً أو شبه أسطوري[1].

(١) عن تحديد نهاية عصر هوميروس راجع ، لطفي عبد الوهاب يحيى : هوميروس ، تاريخ حياة عصر ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، صفحات ٣٥ ــ ٤٠ ، الاشارة الاولى عند هوميروس في الاوديسية : Od., IV, 84 ترد فيها لفظة Eremboi لتصف قوما . ويعتقد سترابون الجغرافي XVI, 4 : 27 ، بناء على اجتهاده الشخصي وعلى آراء اثنين من سابقيه تعرضا للمسألة وهما زينون Zenon وبوسيدونيوس Poseidonius ، ان اللفظة تشير الى العرب ، =

على أن أول ذكر مفصل ومطوّل عن العرب وشبه الجزيرة العربية عند

= ومن الممكن ان يكون هذا واردا وبخاصة اذا عرفنا ان النصوص الآشورية ترد فيها تسميات للعرب قريبة من تسمية هوميروس . وقد وصل الآشوريون في توسعهم حتى الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط ومن ثم فقد كانوا احد المصادر التي عرف اليونان عن العرب من خلالها ، وقد كان اللقاء بينهم وبين اليونان (المهاجرين الى قبرص والشواطىء الشرقية للبحر المتوسط) من الناحية الزمنية مطابقا أو قريبا من العصر الهومري . وفي هذه النصوص الآشورية يرد العرب كقوم تحت تسميات عديدة متقاربة من بينها Aribi ، راجع Araber في Erich Ebeling : Reallexiton der Assyriologie (١٩٢٨) الاشارة الثانية عند هوميروس في الاوديسية كذلك: Od. XV, 426 ترد فيها لفظة Arbas او Arybas كاسم علم لرجل ، وهي قريبة من لفظة Arubu التي ترد في نص آشوري (٧٠٣ ق. م.) من عهد سنحريب (راجع Ebeling المرجع ذاته ، المكان ذاته) ، كصفة أو نسبة بمعنى عربي ، وقياسا على ما هو شائع في التسميات العربية فان اللفظة الدالة على الصفة أو النسبة من الممكن ان تستخدم للدلالة على اسم العلم، ولكن تبقى نقطة وهي أن لفظة هوميروس جاءت اسما لوالد امرأة فينيقية من صيدون .

عن توقيت اشعار هوميروس راجع : Lutfi A — W. Yehya : From Homer to Hesiod, Arch. & Hist Studies, 4, The Arch. Soc. of Alexandria (١٩٧١) ، صفحات ٣ — ٧ . عند هزيودوس ترد لفظة Arabaios في : Katalogoi Gynaikon. Eoiai, 15 ، ولكن في مجال اسطوري غير محدد .

عند ايسخيلوس (٥٢٥/٤ — ٤٥٦ ق.م.) الاشارة الاولى وهي Arabos ترد كاسم علم لرجل في مسرحية Persae (عرضت في ٤٧٢ ق.م.) ، سطر ٣١٨ . ورغم أن العرب كانوا يشكلون وحدة في جيش الامبراطور الفارسي احشويرش Xerxes (راجع : Herodotos : VII, 69, 86) الذي تدور المسرحية حول مهاجمته لليونان في موقعة سلاميس،ومن ثم تصبح اللفظة واردة ، الا ان ايسخيلوس يعقبها بوصف « الماجى » Magos ، والماجيون فئة (دينية على الارجح) عن ميدية في بلاد فارس ، راجع : Herod. : I, 110, VII, 19, 37, 43, 113 اما الاشارة الثانية وهي Arabia ، فهي ترد في مسرحية Prométhees سطر ٤٢٠ ولكنها غير ثابتة في المخطوطات الاصلية للمسرحية ، وحتى مع ترجيح ثبوتها فان العبارة التي تردفيها (وهي : ان زهرة شباب Arabia يحمون بأسلحتهم الحصن المنيع على حدود القوقاز) سطور ٤٢٠ — ٤٢٥ تتركنا في حيرة مما يعنيه الشاعر : هل هؤلاء الشباب العرب يشكلون وحدة =

الكلاسيكيين يرجع ، كما أسلفت ، إلى أواسط القرن الخامس ق . م . ، ونجده عند المؤرخ اليوناني هيرودوتوس **Herodotus** ، الملقب بأبي التاريخ أو شيخ التاريخ [٢] . وهيرودوتوس لا يقصر تسمية بلاد العرب **Arabia** ، على شبه الجزيرة العربية ، ولكنه يطلقها ، إلى جانب شبه الجزيرة ، على كل القسم الداخلي من سورية (بادية الشام) وعلى شبه جزيرة سيناء وصحراء مصر الشرقية التي تقع بين النيل والسواحل الغربية للبحر الأحمر والتي تعرف أحياناً باسم صحراء العرب [٣] . ولكن ليس من العسير على الباحث أن يدرك أنّ هذا المؤرخ يتحدث عن شبه الجزيرة حين ينصبّ حديثه عليها بالتخصيص وهو أمر ندركه حين يقول ، على سبيل المثال ، إن بلاد العرب هي أقصى البلاد المعمورة في العالم نحو الجنوب [٤] أو حين يقول ، على سبيل مثال آخر ، إن أريج الطيوب يملأ جوّ هذه البلاد [٥] . كذلك فإن حديثه عن

= في الجيش الفارسي تحتل موقعا خارج بلاد العرب ام ان الشاعر لا يعرف بوضوح أين تقع بلاد العرب ومن ثم يضعها بشكل تقريبي على حدود القوقاز طالما ان المنطقتين تقعان الى الشرق من بلاد اليونان .

(٢) كان هذا اول مؤشر لاهتمام الغرب بالمنطقة بعد اول احتكاك كبير بين اليونان والعالم الشرقي ممثلا في الصدام مع الامبراطورية الفارسية في ٤٩٠ و٤٨٠ ق.م. وهو صدام اعتبره اليونان مسألة بقاء او فناء بالنسبة لهم ، (وقد ظهرت فيه وحدات عسكرية عربية ضمن القوات الفارسية) ثم في اواسط القرن في ٤٥٩ و ٤٤٨ ق.م. ولا بد ان يكون هذا قد أثار اليونانيين وبخاصة المثقفين منهم (وقد شهدت فترة اواسط القرن الخامس تزايدا كبيرا في هذه الفئة) رغبة واضحة في التعرف على هذا العالم الشرقي واستكناه هويته ــ وهو معنى يؤكد عليه هيرودوتس سواء في العنوان الذي اعطاه لدراسته والذي اختار له لفظة « تحقيقات » **Historiae** أو في السطور الاولى التي استهل بها هذه الدراسة .

(٣) بلاد العرب بمعنى سيناء **Historiae II, 11** بمعنى الصحراء الشرقية **II, 75** ، بمعنى بادية الشام **III, 5, 7, 9** ، بمعنى المنطقة بين وادي الرافدين وخليج السويس **II, 39**

(٤) **III, 107**

(٥) III, 113

العرب أو عن شبه الجزيرة العربية ليس متصلاً دائماً ، وإنما يأتي متناثراً في أغلب الأحوال حسبما يقتضي سياق الموضوع من استطرادات ومقارنات مع الشعوب والمناطق الأخرى ، كما أنه لا يخلو من مبالغات قد تجنح إلى الخيال في بعض الأحيان ، وهو أمر يأتي كنتيجة طبيعية لاعتماد هيرودوتوس على الرواية في كثير من المواضع في وقت لم تكن قد توفّرت فيه بعد أسباب الرواية عن المتخصّصين (٦) .

ولكن رغم ذلك ، فإن هيرودوتوس قد أورد الكثير من المعلومات التي ثبتت صحّتها ، وهو قد تعرض للكثير منها في استفاضة ، كما أنّه تطرّق في كتابته إلى كلّ أبعاد شبه الجزيرة وأحوال سكانها تقريباً . فهو يتحدث عن موقع البلاد وتربتها وعن عادات العرب وتقاليدهم وعقائدهم الدينية وملابسهم وسلاحهم وطرقهم في الحرب . كذلك فهو يقدم لنا مقتطفات من تاريخهم وعلاقاتهم الخارجية مع الآشوريين والفرس ، كما يفيض في الحديث عن منتجات شبه الجزيرة أو ما يعتقد أنّه من منتجاتها ، من اللبان **libanos** والمرّ **smyrna** والقصيعة **kassia** والقرفة **kinnamon** واللادن أو المستكة **ladanon** ، ويذكر لنا بشكل عام أنّ العرب يتاجرون في هذه الطيوب والتوابل مع البلاد الأخرى . وإذا كان لا يتحدث عن الطرق التي تسلكها القوافل التجارية ، فنحن نستنتج من أكثر من موضع في حديث هيرودوتوس أنّ الفينيقيين في هذه الفترة كانوا لا يزالون هم الوسطاء في تجارة الطيوب والتوابل بين شبه الجزيرة العربية والعالم اليوناني — إلى الموانىء الفينيقية تصل هذه السلع ،

---

(٦) عن جنوح الرواية الى الخيال احيانا الاشارة الى ثعابين مجنحة تحرس اشجار اللبان III, 107 ؛ طريقة الحصول على القرفة III, 111 انواع من الغنم لها ذيول غير عادية الطول تحفظ بطريقة غير عادية III, 113

ومن هذه الموانىء يحملها التجار الفينيقيون أو اليونان إلى الموانىء اليونانية [٧] .

كذلك فإنّ هيرودوتوس إذا كان قد اعتمد في قسم من المعلومات على الروايات التي سمعها من مصدر أو آخر سواء من أبناء البلاد أو المتصلين بهم أو من غير هاتين الفئتين ، فإنّ قسماً من هذه المعلومات كان نتيجة لملاحظته الشخصية في الأماكن التي مرّ بها في رحلته التي شملت قسماً لا بأس به من بلاد الشرق الأدنى في سبيل تدوين تاريخه وهي أماكن تضمّ فيما بينها الأطراف الشمالية لشبه جزيرة العرب ، هذا إلى جانب أن حديثه عن البخور والطيوب الآتية من جنوبي شبه الجزيرة (سواء أكانت هذه من منتجات شبه الجزيرة جلبها العرب من مناطق أخرى ثم نقلوها في قوافلهم إلى الشواطىء السورية حيث ينقلها آخرون بحراً بعد ذلك إلى الموانىء اليونانية) كان يستند إلى ممارسة شخصية في المجتمع اليوناني الذي كان هذا المؤرخ أحد أبنائه ، وهو مجتمع كان يستهلك قدراً لا بأس به من البخور والطيوب وكان بالضرورة على علم بمصدر هذه السلع أو على الأقل بمن كانوا يتاجرون فيها [٨] .

---

(٧) عن موقع البلاد راجع حاشية ٤ أعلاه ، عن التربة II, 12 عن العادات والتقاليد I, 199, III, 8 عن العقائد الدينية I, 131, III, 108 عن الملابس والاسلحة VII, 69 عن الاسلحة وطرق الحرب VII, 86 عن علاقاتهم مع الآشوريين II, 141 عن علاقاتهم من الفرس III, 97, VII, 69 عن المنتجات من الطيوب والتوابل III, 107, III - 13 عن تجارتهم بشكل عام من البلاد الاخرى III, 111 وساطة التجار الفينيقيين بين الطيوب والتوابل العربية وبين بلاد اليونان نستنتجها من III, 107, 111 .

(٨) كان استهلاك الطيوب والبخور في بلاد اليونان ضرورة يومية في المنزل والمعبد والاعياد والاجتماعات السياسية والاحتفالات الرياضية (وهي احتفالات كانت لها اهمية كبرى في بلاد اليونان وترعاها الدولة) والمناسبات الاجتماعية . وقد تزايد استهلاك الطيوب والبخور مع تزايد الرخاء الذي واكب الازدياد الكبير في حجم تجارة الامبراطورية الاثينية في القسم الشرقي للبحر المتوسط وبخاصة بعد الضربة التي تلقاها النشاط التجاري الفينيقي في المنطقة عقب الهزيمة التي حاقت بالاسطول الاثيني على شواطىء قبرص في ٤٤٩ ق.م. ، راجع عن مظاهر هذا الرخاء في اثينة J. B. Bury : A History of Greece ط ٢ ، ١٩٤٥ ، صفحات ٣٦٧ — ٣٧٨ .

على أنّ حديث هيرودوتوس ، إذا كان يعطينا أول معلومات جادة عن شبه الجزيرة العربية وأبعاد الحياة فيها . فإنّ هذا الحديث ، رغم كل ما يلقيه من ضوء على هذه المنطقة ، يبقى حديثاً موسوعياً يعنى بالقضايا العامة التي تقترب من المعرفة المجرّدة بقدر ما تبتعد عن المعلومات التفصيلية المحدّدة التي تعرّف القارىء بالأماكن والقبائل والطرق والمسافات والاتجاهات . وعلينا أن ننتظر حتى العقود الأخيرة من القرن الرابع ق . م . لنشهد مرحلة جديدة في الكتابات الكلاسيكية تنتقل فيها شئون شبه الجزيرة من حديث التعميم والتجريد إلى حديث التخصيص والتحديد – وهو اتجاه ساعدت عليه حركة التخصص العلمي التي بلغت ذروتها عند المفكرين والكتاب اليونان في تلك الفترة . كما واكب وعكس انتقال شبه الجزيرة من حافة الاهتمام الدولي إلى داخل دائرة هذا الاهتمام بعد أن أقدم الاسكندر الأكبر على توسّعه الامبراطوري في الشرق واتجه بتفكيره إلى غزو شبه الجزيرة العربية [٩] .

ورغم أن هذا الغزو لم يخرج إلى حيز التنفيذ بسبب الموت المفاجىء للاسكندر في ٣٢٣ ق . م . إلاّ أن الاستعدادات التي اتخذها لتحقيق هذا الهدف تضمّنت إرسال عدد من قادته وأعوانه للتعرّف المبدئي على شبه الجزيرة فيما يخصّ مساحتها وسواحلها وبعض الجوانب الأخرى التي تتصل بها [١٠] . وقد سجّل المعلومات التي حصل عليها هؤلاء اثنان من الكتاب الكلاسيكيين : أحدهما متخصص في الأمور العسكرية وهو بطلميوس **Ptolemaios** بن لاجوس ، أحد رفاق الاسكندر وقواده البارزين . والثاني ، وهو أرستوبولوس **Aristoboulos** ، رجل عسكري آخر من ثقات الاسكندر ، ولكنه متخصص

---

(٩) كان ابرز معالم حركة التخصص العلمي آنذاك هو معهد اللوقيون الذي اسسه أرسطو وكان اول رئيس له . عن الدوافع وراء تفكير الاسكندر المقدوني في غزو شبه الجزيرة العربية راجع الحديث عن العلاقات الخارجية لشبه الجزيرة العربية في القسم الثالث من هذه الدراسة .

(١٠) Arrianos : Anabasis, VII, 20 : 8-10, Strabo : XVI, 4 : 4

في الكتابة عن المسائل الجغرافيه والقضايا المتعلقة بالتاريخ الطبيعي . وقد وصلتنا دراسات هذين الكاتبين عن طريق كاتب كلاسيكي لاحق هو أريانوس **Arrianos**، كما وصلت أجزاء منها ومن بقية المعلومات المتعلقة باستعدادات الحملة عن طريق كاتب كلاسيكي آخر هو سترابون (١١) .

ومن هذه الكتابات نعرف تقويم هؤلاء المتخصصين لشبه الجزيرة العربية آنذاك : فمساحتها (حسب تقديرهم) تقارب مساحة الهند ، وساحلها المطل على البحر الأحمر يبلغ طوله من رأس الخليج أيله (خليج العقبة حالياً) شمالاً إلى مدخل البحر الأحمر عند طرفه الجنوبي ١٤ ألف ستاديون (حوالى ٢٥٩٠ كيلومتراً) ، وسواحلها تصلح لإقامة المدن وإنشاء المرافق ، هذا إلى جانب معلومات من الأماكن التي توصل إليها قادة الاسكندر على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية ، والجزر الصغيرة الغريبة من هذا الساحل ، وسكانه وعاداتهم ومواردهم وأهم هذه الموارد — وهو الطيوب والتوابل — ونوعية الأماكن التي تنبت بها (١٢) .

وإذا كان اهتمام هذين الكاتبين قد عكس اهتمام الاسكندر ، فسجلا أول تفاصيل عن مساحة شبه الجزيرة وسواحلها ، فإن كاتباً متخصصاً ثالثاً ينتمي إلى الفترة ذاتها ، وهو ثيوفراستوس **Theophrastos** ، وكان أخصائياً في التاريخ الطبيعي وأحد تلاميذ أرسطو وخليفة هذا المفكر في رئاسة معهد اللوقيون **Lykeon** ، كان أول من ذكر السبئيين وتكلم بشكل تشريحي عن اللبان والمر الذي تستنتجه منطقتهم ، كما أعطانا معلومات عن تجارتهم

---

(١١) Arrianos : ذات المرجع ، المقدمة ، وفيها يذكر اريانوس ان كلا من هذين الكاتبين قد كتب دراسة عن الاسكندر ، كما يذكر اسباب اعتماده في دراسته على ما كتباه ، Strabo : XVI, 1 : 11, 3 : 2, 3, 5, 7

(١٢) Arrianos : VII, 19 : 6,20 راجع كذلك الحاشية السابقة .

وسفنهم [١٣] . ويبدو من حديثه أنه اعتمد ، في كثير من المعلومات التي أوردها ، على تشريح العيّنات التي كان أعوان الاسكندر يرسلونها إلى معهد اللوقيون حتى بعد وفاة القائد المقدوني [١٤] .

ب ـ كتاب العصر المتاغرق

وقد كان هذا الاهتمام العلمي المتخصّص بشئون شبه الجزيرة العربية بداية لاهتمام مكثف من جانب الكلاسيكيين بهذه المنطقة في العصر المتأغرق (وهو العصر الذي امتدّ عبر ثلاثة قرون بعد الاسكندر حتى قيام الإمبراطورية الرومانية قبل الميلاد بثلاثة عقود) . وقد برز هذا الاهتمام المكثف بين هؤلاء الكتّاب في ضوء اهتمام اقتصادي كبير من جانب دولتين من الدول المتأغرقة التي قامت على أثر تقسيم إمبراطورية الاسكندر (وهما دولة البطالمة في مصر ودولة السلوقيين في سورية) بالعلاقات التجارية مع شبه الجزيرة والخطوط التجارية الموصلة إليها . وربما كان من الحقائق التي لا تخلو من مغزى أنّ أبرز ثلاثة من هؤلاء الكتّاب كانوا يرتبطون بشكل أو بآخر بالاسكندرية ، عاصمة البطالمة وأكبر وأنشط ميناء للتجارة الواردة من شبه الجزيرة إلى شرقي البحر المتوسط والتي كانت ، في الوقت ذاته ، تشغل المركز الرئيسي للحركة العلمية التي كان يقوم عليها علماء جامعة الاسكندرية ومكتبتها آنذاك .

وقد كان أحد أمناء هذه المكتبة ، وهو إراتوسثنيس (إراتسطين عند العرب) **Eratosthenes** الجغرافي (٢٧٥–١٩٤ ق . م) أول هؤلاء الكتاب . وتتخذ المعلومات التي يقدمها عن شبه الجزيرة العربية في كتاباته أبعاداً جديدة تعكس بشكل علمي جدّيّة الاهتمام الاقتصادي بالمنطقة . فلاول مرّة نجد في

---

(١٣) Theophrastos : Peri Phyton Historias, IX, 4

(١٤) G. Sarton : A History of Science (١٩٥٣) ص ٥٥٤ .

الكتابات الكلاسيكية تقسيماً لشبه الجزيرة بشكل دقيق على أكثر من صعيد . فهي تنقسم في المقام الأول إلى بلاد العرب الصحراوية **Arabia Eremon** وبلاد العرب الميمونة **Arabia Eudaemon** يفصل بينهما خط يبدأ عند هيروي **Heroe** (قرب ميناء السويس الحالية) ويتجه نحو الشرق ماراً بعدد من الأقوام قبل أن يصل إلى نهايته عند بابل (١٥) . والكاتب يحدّد طول هذا الخطّ والمسافة بينه وبين السواحل الجنوبية كما يعطينا طول ساحل شبه الجزيرة المطلّ على البحر الأحمر كذلك يقسم الكاتب المنطقة من الشمال إلى الجنوب حسب نوع الحياة الاقتصادية التي يمارسها السكان مبتدئاً بالفلاحين ثم البدو أو سكان الخيام **Skenitae** ومنتهياً بالزراعة المكثفــة التي تتم مرتين في العام في الجنوب حيث توجد أنهار (ربما يقصد الوديان التي كانت تملؤها السيول نتيجة للأمطار في المواسم المطيرة) تغذي السهول والبحيرات بالماء . وينهي الكاتب حديثه بذكر الأقوام الأربع الرئيسية التي كانت توجد بجنوبي شبه الجزيرة وهم المعينيون **Minaioi** والسبئيون **Sabaioi** والقتبانيون **Katabaneis** والحضارمة **Chatramotitae** محدّداً المكان الذي يشغل كل قوم منهم وعواصمها والحياة السياسية التي يمارسونها . كذلك يتحدث بالتخصيص والتفصيل عن مواردهم الاقتصادية ويعطينا للمرّة الأولى هيكلاً عاماً للخطوط التجارية البرية والبحرية التي تصل المنطقة بميناء أيلة (على خليج العقبة) شمالاً وجرها على الخليج في الشمال الشرقي (١٦) .

والكاتب الثاني الذي تطرق لشئون شبه الجزيرة في الفترة التي امتدّ عبرها العصر المتأغرق هو أجاثارخيديس **Agatharchides** ، وهو يوناني سكندري كان على صلة بالبيت المالك البطلي . والكتاب ، الذي ظهر في الثلث الأخير من القرن الثاني ق . م . عرف باسم « الطواف حول البحر الأريثري والذي يصف

(١٥) Strabo : XVI, 4 : 2

(١٦) ذاته : XVI, 4 : 2, 3, 4

فيه الكاتب الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية ضمن وصفه لسواحل البحر ، هو نوع من الكتب التي كان يطلق عليها كتب الطواف **Periploi** والتي كانت تظهر من حين لآخر في العصر اليوناني الروماني كدليل للملاحين والتجار ، يعرّفهم بالمدن التي يمرون بها أو يرسون في موانئها . وظهور هذا الكتاب يدلّ على مدى النشاط التجاري بين الدول المتأغرقة وبين الجزيرة العربية بالدرجة التي جعلت هذا الظهور أمراً وارداً . والجديد الذي يقدّمه هذا الكتاب في مجال الاهتمام بشئون شبه الجزيرة هو التفصيل الذي يعمد إليه الكاتب في وصف مناطق الطيوب والتوابل ، وبخاصّة منطقة سبأ التي يسهب في وصف مواردها وثروتها وحياة البذخ التي كان يمارسها سكانها ، أو بالأحرى التي كانت تمارسها الطبقة الأرستقراطية من هؤلاء السكّان (١٧) .

أمّا الكاتب الثالث الذي يمثل هذه المرحلة فهو أرتميدوروس **Artemidoros** (اشتهر بين ١٠٤ و ١٠١ ق . م) الذي أقام بعض الوقت في الاسكندرية وحرّر فيها عدداً من الكتابات تناول في بعضها شئون شبه الجزيرة العربية بصورة تهدف إلى تعريف الرجل المثقف بشئون المنطقة . وهو ينقل كثيراً عن أجاثارخيدس ويتبع طريقته في تفصيل المعلومات عن أقسام شبه الجزيرة ، ولكنه يزيد عليها قدراً لا بأس به من التفاصيل والمعلومات الجديدة . ففيما

---

(١٧) عن الفترة التي يمثلها الكاتب ، يرجح أن أجاثارخيدس كان حوالي ١١٦ ق.م. مربيا لاحد البطالمة ، لعله بطلميوس سوتر الثاني (١٤١–٨١ ق.م.) راجع : E. H. Warmington : Agatharchides OCD وعلى أي الاحوال فهو سابق لسترابون (٦٤/٦٣ ق.م – ٢١م على الاقل) طالما ان سترابون ينقل عنه . الكتاب صدر تحت عنوان Peri tes Erythras Thalasses راجع : C. Mueller : Geographici Graeci Minores ج ١ صفحات ١٨٦ وما بعدها . عن كتب الطواف في العصر اليوناني الروماني راجع : F. Gisinger : Periplus, RE وصف البذخ في مناطق الطيوب والتوابل في الباب الخامس من كتاب اجاثارخيدس . هذا الوصف وصلنا منقولا في Diodoros : III, 46-7 في Artemidoros منقولا بدوره في Strabo : XVI, 4 : 19

يخص الساحل الغربي لشبه الجريزة (الذي يهم البطالمة في مصر بوجه خاص) يعد أرتميدوروس نحو ١٣ موقعاً،كما يتحدث عن ثمانية أقوام عربية كبيرةفي المنطقة، ثم هو لا يكتفي بنقل الحديث العام عن الطرق التجارية البرّية التي تتبعها القوافل بين سبأ من جهة وكلا من وادي الرافدين وأرض الأنباط من جهة أخرى ، وإنما يلقى ضوءاً على طريقه انتقال التجارة على طول هذه الطرق ، فيذكر أنها تنتقل من قبيلة إلى القبيلة المجاورة (بهدف ضمان الحماية دون شك) حتى تصل إلى الأماكن المقصودة . كذلك نجـــد هذا الكاتب يفصّل الحديث في فكرة إراتوسثينس إلى ذكرها بشكل عام وهي طريقة الحكم في منطقة من أهم مناطق شبه الجزيرة وهي سبأ ، كما يبدي عدداً من الملاحظات عن العلاقات بين عدد من أقوام شبه الجزيرة ، وهي الأقوام المجاورة لشواطىء البحر الأحمر ، وعن العلاقات بين أحد هذه الأقوام وهم الأنباط . والقوى الخارجية (١٨) .

ج ـ كتاب العصر الروماني

وقد استمر اهتمام الكتاب الكلاسيكيين بشئون شبه الجزيرة العربية في العصر الإمبراطوري الروماني(الذي بدأ في ٢٧ ق . م)، وكان استمرار هذا الاهتمام وتزايده يشكل انعكاساً واقعياً لاهتمام رومه بشبه الجزيرة العربية لأكثر من سبب ، من بينها إطلال الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية على مشارف شبه الجزيرة ، واهتمام الرومان بتأمين الخط الملاحي البحري من الشرق بعد أن أصبح الخط التجاري البرّي مع الشرق الأقصى مروراً بآسيه الصغرى والوسطى مهدّداً من حين لآخر من قبل الفرثيين في إيران ، وتزايد استهلاك الطيوب في عاصمة الإمبراطورية . ومن هنا فقد تناول كتاب العصر الروماني شبه الجزيرة العربية من عدة منطلقات أو زوايا تمثل تعدّد

---

(١٨) منقول في Strabo : XVI, 4 : 18-19

جوانب الاهتمام الذي ظهر في هذه المرحلة بشئون شبه الجزيرة [١٩] .

وأول الكتاب الذين ينتمون إلى هذه المرحلة ، وهو الجغرافي سترابون Strabo ، لا يسعى إلى التعريف بكلّ الأماكن الموجودة في شبه الجزيرة أو التفصيل في الحديث عن كلّ جوانب الحياة فيها ، كما كان يحاول من سبقه من كتاب العصر المتأغرق . وربما كان ذلك نتيجة لتصوّره المعلومات الجغرافية على أنها من لوازم رجل السياسة في معالجته للشئون العامّة ، وهو تصوّر أعرب عنه بصراحة في الكتاب الأول من دراسته الجغرافية الكبيرة[٢٠]. ويبدو أن هذا التصوّر كان وراء انتقائه أو استبعاده لهذا الجانب أو ذاك في جمعه لمعلوماته عن شبه الجزيرة العربية ، بحيث جاءت في محصلتها النهائية أقرب إلى أن تكون دليلاً جغرافياً سياسياً عن المنطقة لرجل السياسة المثقف .

ومن هذا المنطلق فهو لا يذكر (أو ينقل عن سابقيه) من الأماكن الواقعة على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة أو الواقعة قرب هذا الساحل سوى مدينتين وجزيرتين من جزر الخليج رأى فيها مواقع ذات أهمية تجارية [٢١] . كذلك نجده يهتمّ بالحديث عن التغيير الذي عاصره في مسار الخطوط التجارية البحرية والبرية من موانىء وطرق الجانب الشرقي للبحر الأحمر إلى موانىء وطرق الجانب الغربي لهذا البحر محدّداً بدايات الخطوط ونهاياتها والمواقع التي تمرّ بها قبل التغيير وبعده [٢٢] . وهو يتعرّض لنظام الحكم الذي كان يسود بعض المناطق العربية التي يبدو أنها كانت ، في تقديره ، على قدر من الأهمية السياسية أو الاقتصادية أو بسبب موقعها واتصالاتها الخارجية ، كما يتعرّض للعلاقات

---

(١٩) راجع الجزء الخاص بالعلاقات الخارجية لشبه الجزيرة في القسم الثالث من هذه الدراسة .

(٢٠) Strabo : XVI, I, 1 : 16-18

(٢١) ذاته XVI, 3 : 2-4

(٢٢) ذاته : XVI, 4 . 24

بين أقوام المنطقة وغيرهم مضيفاً معلومات جديدة إلى ما ذكره سابقوه من الكتّاب في هذا الصدد [٢٣] .

على أنّ أهم ما قدمه استرابون هو وصفه للحملة الرومانية على الجزيرة العربية ، وهي الحملة التي قادها إيليوس جالوس **Aelius Gallus** ، أول والٍ روماني على مصر . وقيمة حديثه عن هذه الحملة هو أنّه كان معاصراً لها كما كان صديقاً شخصياً لقائدها ، ومن ثم كان في مقدوره الحصول على معلومات قد لا تتيسّر لغيره . وهو يفيض في الحديث عن هذه الحملة ، فيحدثنا عن الأسباب التي دفعت أغسطس (أول إمبراطور روماني) إلى التفكير فيها ، ثم يتحدث عن الاستعدادات التي سبقتها والطريق التي سلكتها ، كما يعطي تصوّره عن الأخطاء التي وقع فيها قائدها إيليوس جالوس وينهي حديثه في هذا المجال بما قامت به رومه من تحقيق في مسار هذه الحملة ونتيجتها وتصرفها إزاء المسئولين عن هذه النتيجة [٢٤] .

ولكن الكتابة التي تقدم المعلومات بهدف تثقيف المشتغلين بالأمور السياسية لم تمثل إلاّ جانباً واحداً من اهتمامات الكتاب في العصر الروماني بشئون شبه الجزيرة ، فقد ظهر عدد من بين هؤلاء هدفوا من كتاباتهم إلى تقديم كلّ ما يمكن تقديمه من معلومات عن شبه الجزيرة على أساس استقصائي علمي أو قريب من العلمي بقدر المستطاع ، بحيث تكون هذه الكتابات مرجعاً لمن يريد التعرّف على المنطقة لسبب أو لآخر ، سواء من السياسيين أو من غير السياسيين . وأحد هؤلاء هو جايوس بلينيوس سيكوندوس **Gaius Plinius Secundus** المعروف

---

(٢٣) ذاته : XVI, 4 : 21, 25-8

(٢٤) ذاته : XVI, 4 : 22-24 هذا ويرى بعض الباحثين ان سترابون رافق الحملة ، ولكني ارى في حديثه XVI, 4, 24 ما ينفي هذا الزعم بشكل حاسم .

باسم بلينيوس الأكبر (٢٤/٢٣ – ٧٩ م) . وقد تناول شئون شبه الجزيرة بتفصيل كبير في قسمين من دراسته المستفيضة « التاريخ الطبيعي » **Historia Naturalis** ، التي نستطيع أن نصفها بأنها دراسة تهدف إلى الثقافة العلمية الموسوعية .

وفي أحد هذين القسمين يتحدث بلينيوس بشكل موسوعي عن كافة الأمور المتعلقة بشبه الجزيرة فيما يخصّ مساحتها وثرواتها وما فيها من المدن والمواقع والرؤوس والخلجان والجبال والقبائل والأقوام وأسمائها والطرق المتعددة لنطق هذه الأسماء والأوضاع الاقتصادية لهذه القبائل والأقوام والمناطق التي تقطنها وبعض الأحداث التاريخية التي مرت بها وطرق التجارة في شبه الجزيرة والمسافات بين بعض المراكز التجارية . وهو يقدم كل ذلك في قدر كبير من التفصيل والتدقيق لا يفوته أن ينوّه به بين الحين والآخر (٢٥) . أما القسم الآخر من حديث بلينيوس عن شبه الجزيرة فهو ما يتميّز به هذا الكاتب . وفي هذا القسم يقدم بلينيوس تحقيقاً علمياً عن طيوب شبه الجزيرة وتوابلها لا نجد ه‍عند من سبقه من الكتاب ، سواء منهم المؤرخون أو الجغرافيون أو علماء التاريخ الطبيعي . فاللبان ، مثلاً ، لا يوجد في غير الجزيرة العربية وهو لا ينتج إلاّ في حضرموت بالذات ، والمرّ والمستكة وصمغ اللادن وعدد آخر من الأخشاب العطرية تشترك شبه الجزيرة في إنتاجها مع عدد من البلاد الأخرى التي يحدّدها الكاتب . أما القرفة والقصيعة فهي لا تنتج في شبه الجزيرة ولكن يحصل عليها التجار العرب من بلاد أخرى ويعيدون تصديرها . وهو يحدثنا حديثاً مفصّلاً عن أشجار كل من هذه الطيوب والتوابل ومواسم المحصول وطريقة استخراجه وجمعه ، واحتكار بعض الأسر لتجارة بعض أنواعه ، والأماكن التي تشتهر بكلّ نوع وطرق التمييز بين النقي منه والمغشوش ووسائل

---

(٢٥) Plinius : HN, VI, 147-162 . تنويه بلينيوس بتصحيح او تدقيق معلومات سابقيه يرد في ، ذاته : الباب ذاته ، فقرات 139, 156, 160

غشّه ثم طرق نقله إلى شواطىء البحر المتوسط . وهو في حديثه عن أثمان هذه الطيوب يلقي أضواء هامّة على بعض جوانب الحياة في شبه الجزيرة ، من بينها الشعائر الدينية التي تواكب معالجة لحاء الأشجار لاستخراج اللبان على سبيل المثال ، وتكاليف هذه الشعائر ، والأثمان النهائية لأنواع اللبان بعدما تم كلّ المعاملات وتحصيل الضرائب عليه وهكذا (٢٦) .

والنوع الثالث من الكتابات التي ظهرت عن شبه الجزيرة العربية في العصر الروماني ، فهي استمرار لكتب الرّحالة أو كتب الطواف **Periploi** التي مرّ بنا ذكرها ، ولكن في تفصيل أكثر دقّة مما كان معروفاً من قبل . وقد وصل إلينا كتاب أو دليل من هذا النوع لكاتب غير معروف الاسم ولكن يبدو أنه كان تاجراً يونانياً من مصر . وقد وصل الكتاب إلينا تحت العنوان الشائع « الطواف حول البحر الإريتري » ، وفيه يصف الكاتب الطرق التجارية بين مصر والهند ، مروراً بشواطىء شبه الجزيرة . والكتاب يحوي معلومات كثيرة من ذلك النوع الذي يحتاج إلى معرفته الملاّحون والتجّار ، سواء في ذلك ما يتصل بالملاحة والأسواق أو ما يتصل بالمعلومات العامّة عن البلاد التي تقع على السواحل العربية أو على مقربة منها . فهو يتحدث مثلاً عن خطورة الملاحة حول سواحل شبه الجزيرة حيث الموانىء نادرة والمراسي عسرة المسلك، كما يقدم وصفاً لسوق موزا **Muza** (مخا الحالية) وهو يذكر شيئاً عن الأنباط وعن اسم ملكهم الذي كان معاصراً للوقت الذي كتب فيه . كذلك أشار هذا الكاتب إلى علاقة الإمبراطورية الرومانية بشبه الجزيرة العربية في جملة قصيرة مفادها أن « قيصر » أخضع عدن قبل وقته بسنوات قليلة ، دون أن يحدّد اسم هذا القيصر — ممّا أدّى إلى جدل طويل بين الباحثين في الوقت

---

(٢٦) ذاته : XII, 51-99 .

الحاضر حول كنه هذا الحدث الذي أشار إليه وحول توقيته (٢٧) .

أما النوع الرابع من الكتابات العلمية التي ظهرت في العصر الروماني والتي تعرّضت ، فيما تعرّضت إليه ، إلى شبه الجزيرة العربية ، هو تلك الدراسات التي كتبت للمثقفين على مستوى التخصّص . وقد تمثل هذا النوع من الكتابة في الدراسة الجغرافية التي قام بها كلاوديوس بطلميوس **Claudius Ptolemaius** الذي عرفه العرب تحت اسم بطلميوس القلوذي أو بطلميوس الجغرافي ، وهو يوناني من مدينة بطلمية **Ptolemais** في صعيد مصر ، قام بأبحاثه خلال النصف الأول من القرن الثاني الميلادي (١٢١ – ١٥١ م) . والدراسة التي قدمها تحت اسم الدليل الجغرافي **Geographike Hyphegesis**، والتي يعتقد أنه قام بها تصحيحاً لما قام به جغرافي سابق هو مارينوس **Marinus** الذي ينتسب إلى مدينة صور (١٢٠ م ؟) تعتبر أشمل ما ظهر حتى ذلك الوقت ، كما تعتبر الخريطة التي أرفقها بها أدقّ خريطة وضعت في العصر القديم ، ومن ثمّ ظلّت الخريطة المعمول بها حتى بدايات العصر الحديث .

وأهم ما يسترعي النظر في دراسة بطلميوس عن شبه الجزيرة العربية هو محاولته لضبط الحدود والتقسيمات والأماكن عن طريق خطوط الطول والعرض . ورغم أن خطوط الطول التي قدمها لا تتفق مع نظائرها بسبب خطأ عنده وبسبب التحريف الذي طرأ على درجاتها على يد النساخ المتعاقبين لهذه

---

(٢٧) الكتاب محرر باليونانية وان كان قد عرف تحت عنوانه المترجم الى اللاتينية **Periplus Maris Erythraei** عن تاريخ ظهوره هناك من يقول بأن ذلك كان في القرن الاول الميلادي ، راجع : Anderson : CAH ، ج ١٠ ، صفحات ٨٨١ – ٨٨٣ . بينما يذهب آخرون الى ان الكتاب ظهر في القرن الثالث الميلادي مثل :
Jacqueline Pirènne : La Date de Periplée de la mer Erythrée (TA) (١٩١٦) ، صفحات ٤٤ وما بعدها . الاشارة الى اخضاع قيصر لعدن تـرد فـي Periplus : 26 .

الخريطة ، ورغم أنه يترك بعض المناطق ، مثل الركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة بين خطّي عرض ٣٣ و ٣٥,٥ شمالاً دون أن يسجّل فيه مكاناً واحداً ، بينما يكدّس في القسم الجنوبي الشرقي منها عدداً كبيراً من الأسماء لا ينتمي بعضها إلى المنطقة – بالرغم من كل هذا فالدراسة والخريطة لا تفقدان ما أسلفت الإشارة إليه من قيمتها كأدقّ ما وصل إلينا عن المنطقة من العصر القديم .

وقد قسم بطلميوس شبه الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام : العربية الصحراوية **Arabia Erema** والعربية الصخرية والحجرية **Arabia Petraea** والعربية الميمونة **Arabia Eudaemon** . والحدود التي وضعها لهذه الأقسام هي أول حدود لا تعطى بشكل عام تقريبي كما كان الحال مع سابقيه (٢٨) ، فهو يعطينا أسماء المواقع وخطوط الطول والعرض التي تحدّد هذه الأقسام . ونحن إذا أدخلنا في اعتبارنا الخطأ الذي وقع فيه بطلميوس في خطوط الطول والعرض ، وجدنا هذا التحديد يتفق مع التضاريس الطبيعية للمنطقة . وتبقى هنالك ملاحظة على الخريطة المذكورة وهي أننا نستنتج من حديث بطلميوس أنه يضع الطرف الشمالي للخليج في مكان قريب من مدينة النجف الحالية ، ولكنّا نستطيع أن نفهم السبب الذي حدا به إلى ذلك إذا تذكّرنا أن الكتاب الكلاسيكيين كانوا يعتبرون مستنقعات ، الأهوار الواقعة في جنوبي وادي الرافدين والتي تبدأ قريباً من موقع مدينة النجف الحالية امتداداً للخليج وهو رأي يظهر واضحاً من تعريف بطلميوس للحدود الجانبية لوادي الرافدين (٢٩) .

---

(٢٨) من بين هؤلاء ، على سبيل المثال ، Didorus : II, 54, Strabo : XVI, 1 : 3, 3, 2 : 2 كذلك اراتوستنيس في Strabo : XVI, 4 : 2 .

(٢٩) Ptolemaios : Gegr. : V, 14 : 5, 18-19 الساحل الشمالي للخليج الفارسي عند بطلميوس ، ذاته ، ١٩ : VI, 7 : 19 راجع حديث بلينيوس عن تراجع الخليج امام الطمي الذي يحمله النهران Plinius : HN, VI, 139-40 – الامر الذي يجعلنا نفهم الى حد ما اعتبار بطلميوس لبداية منطقة الاهوار على انها بداية للخليج .

د ـ كتاب المرحلة المتأخرة

وأخيراً نأتي في مجال الحديث عن الكتابات الكلاسيكية إلى طائفة من الكتّاب ، لم يكتبوا عن العرب أو شبه جزيرة العرب بشكل مباشر أو تحقيقي كما رأينا حتى الآن ، وإنما بشكل عرضي ضمن كتاباتهم عن أمور أخرى . ومن بين هؤلاء يوسيبيوس Eusebius (حوالى ٢٦٠ – ٣٤٠ م) الذي أصبح أسقفاً لقيصرية Caesarea في ٣١١ م وألف كتاباً عن أحداث تاريخ اليونان والرومان تحت اسم الحوليات Chronika جاءت فيه إشارات إلى العرب في بعض المواضع ، وأميانوس ماركلينوس الذي عاش في القرن الرابع الميلادي وألف كتاباً أرخ فيه لأحوال الإمبراطورية الرومانية وأحداثها فقدت أقسامه الأولى ولم يتبق منه إلاّ الأقسام التي تغطّي الأحداث الواقعة بين ٣٥٣ و ٣٧٨ م ، ثم بروكوبيوس Prokopios الذي ولد في فلسطين وكان أحد رجال الحاشية في عهد يوستنيايوس الأول وأصبح أميناً للقائد البيزنطي بليزاريوس Belisarios في ٥٢٧ م . وقد زار في رحلاته عدداً من الأماكن الآسيوية وألف عدة كتب عن المباني Ktismata أشار في بعض مواضعها إلى العرب ، وإن كانت إشاراته لا تفرّق بين عرب شبه الجزيرة وغيرهم ، كما نلمس ، على سبيل المثال ، من حديثه وهو بصدد وصفه لإحدى الكنائس في سيناء عن تعزيز هذه الكنيسة بحامية عسكرية تخوفاً من العرب الذين قد يقتحمون المكان ويتخذونه قاعدة للتسلل نحو الأماكن القريبة من فلسطين » . [٣٠] وواضح أنه يعني بإشارته هذه قبائل الأعراب في صحراء سيناء .

وربما كان أهم هؤلاء أميانوس ماركلينوس . وهو وإن كان يشير إلى العرب بشكل عرضي ضمن وصفه لبعض الأحداث إلاّ أن إشاراته تستمدّ قيمتها من معاصرته للأحداث وفي بعض الأحيان من رؤيته لها في أثناء الحملات

---

(٣٠) Prokopios : Krisamata, V, 8 : 7-9

التي اشترك فيها كرجل عسكري ، ومن بينها حملات رومه ضدّ الإمبراطورية الفارسية في الشرق . كذلك يزيد من قيمة هذه الإشارات اهتمامه بملامح الشخصية الجماعية لمن يتعرّض لوصفهم ، وطريقته الموضوعية في الكتابة ، وهي الطريقة التي أدت بالمؤرخ الحديث جيبون Gibbon إلى أن يقول عنه إنّه « يكتب بلا أحكام مسبّقة وبلا انفعال وهما صفتان عادة ما تؤثّران على من يكتب عن مواقف يعاصرها » ، وإن كان لا يحول دون خطأ أو التباس أو مبالغة في بعض الملاحظات التي يبديها عن العرب في بعض الأحيان .

ولعلّ في ذكر بعض إشاراته عن العرب وشبه الجزيرة العربية ما يعطينا فكرة عن بقية هذه الإشارات وعن طريقة تقديمه لها . وأولى هذه الإشارات تصف موقفاً في عام ٣٧٨ م . ففي ذلك العام قامت قوة كبيرة من البرابرة مكونة من مجموعات من القوط والألان والهون بالزحف على القسطنطينية بعد أن هزموا الرومان في أدريانوبوليس ، وقد سقط في المعركة عدد من القواد الرومان والإمبراطور نفسه وأصبح الموقف حرجاً ، وفي هذا الشوط تقدمت الفصائل العربية التي كانت تحارب ضمن القوات الرومانية لمهاجمة البرابرة الغربيين ، وهنا يقول أميانوس عن هذه الفصائل التي يسميها فصائل السراكيني Saraceni إنهم « أخذوا المبادرة على أثر حادثة غريبة لم يشهدها أحد من قبل ، ذلك أن واحداً من بينهم ، وهو رجل ذو شعر طويل وعارٍ إلاّ من قطعة قماش تغطّي عورته أخذ يطلق صيحات خشنة مخيفة ، اندفع بسيفه القصير في وسط القوطيين . وبعد أن قتل أحد رجالهم ألصق شفتيه بزور الرجل المقتول وأخذ يمصّ الدم الذي كان يتدفق منه بغزارة . وعند ذلك أصيب البرابرة بالرعب من هذا المنظر الغريب الوحشي ، وبعدها فقد هؤلاء ثقتهم المعتادة بأنفسهم ولم يعودوا يتقدّمون إلاّ بخطى متردّدة كلّما أقدموا على أية حركة » (٣١) .

---

(٣١) Ammianus Marcellinus : Historiae, XXXI, 16 : 6

وفي موضع آخر يصف بعض عادات العرب (يقصد أهل البادية منهم) فيقول « إن حياتهم في تنقّل مستمرّ ، وهم يتخذون زوجات بشكل مؤقت بموجب عقد مؤقت . ولكي يكون هناك مظهر من الحياة الزوجية ، فإنّ الزوجة تقدم لزوجها . . . رمحاً وخيمة على سبيل المهر على أن يكون لها الحقّ في أن تتركه بعد مدّة يتفق عليها بينهما ، إذا أرادت ذلك » [٣٢] ، ثم يتحدث أميانوس ماركلينوس في موضع ثالث عن شبه جزيرة العرب فيقول « إن الفرثيين (الفرس) جيران . . . للعرب الميامين (أي السعداء أو المحظوظين) Arabes Beati وقد أطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم أثرياء سواء فيما يخصّ ثمار الحقول أو قطعان الماشية أو التمر أو أنواع الطيوب المختلفة . ويطل قسم كبير من حدودهم على البحر الأحمر من ناحية اليمين (بالنسبة للناظر نحو الجنوب) بينما يحدّهم البحر الفارسي من اليسار . والناس (في هذه البلاد) يعرفون كيف يحصلون على كلّ الميزات من هذين العنصرين (البحرين) . وعلى هذين الساحلين توجد مواضع كثيرة لرسوّ السفن وموانىء آمنة كثيرة ومدن تجارية مستمرة في خط لا ينقطع ، وقصور ملكية على قدر كبير من الفخامة والزخرف ، وعيون من المياه الحارّة بطبيعتها التي تهب الصحّة للمرء ، وعدد كبير من الأنهار والجداول (ربما يقصد الوديان حين تملؤها مياه الأمطار) . وأخيراً فإن الجوّ هناك صحّي لدرجة أنهم ، في نظر أيّ شخص له حكم صائب ، لا ينقصهم شيء من مقوّمات السعادة الغامرة . كذلك فهناك عدد كبير من المدن سواء على الساحل أو في الداخل ذات سهول ووديان غنية » [٣٣] .

---

(٣٢) ذاته : المرجع ذاته ، XIV, 4 : 4 .

(٣٣) ذاته : المرجع ذاته ، XIII, 4 : 45-7 .

٢ ـ الكتابات العربية في العصر الاسلامي :

أ ـ صعوبات امام الاعتماد على هذه الكتابات

وانتقل الآن إلى الحديث عن الكتابات العربية التي ظهرت في العصر الإسلامي والتي تناولت ، فيما تناولته ، ذكر أحوال شبه الجزيرة العربية ومجتمعاتها قبل ظهور الإسلام . وهنا تعترض الباحث عدة صعوبات . وأول هذه الصعوبات هي عدم معاصرة أصحاب هذه الكتابات لما كانوا يكتبون عنه ، وعدم المعاصرة هذا يمتد ، فيما يخص الحديث عن بعض أخبار العرب وأحوالهم ، عبر سبعة عشر قرناً ، فالعرب بدءوا يظهرون على مسرح التاريخ كمجموعة بشرية لها هويتها الجماعية ونظمها وعلاقاتها الخارجية منذ القرن العاشر ق . م . على أقل تقدير . فعلاقات مملكة سبأ بسليمان ملك اليهودية ترجع ، كما ترويها التوراة وكما حققها المؤرخون إلى القرن العاشر ق . م . والنصوص الآشورية التي تسجل علاقات الملوك الآشوريين بالعرب يرجع أولها إلى العام السادس من عهد شلمنصر الثالث (٨٥٨ — ٨٢٤ق . م) أي إلى أواسط القرن التاسع ق . م . ويبدأ الحديث المفصل عن العرب وشبه جزيرة العرب عند أول الكتّاب الكلاسيكيين (اليونان والرومان) في أواسط القرن الخامس ق . م . هذا بينما يبدأ أول تدوين لأخبار العرب السابقين للإسلام على عهد معاوية بن أبي سفيان في أواسط القرن الأول الهجري أي في أواخر القرن السابع الميلادي (٣٤) . ومثل هذه المسافة الزمنية الطويلة بين وقوع الأحداث وتدوينها أمر يضعف بالضرورة من قيمة هذه الكتابات ، وبخاصة

---

(٣٤) راجع عن ظهور العرب في المصادر الآشورية ، الباب الرابع من هذه الدراسة ، عن ظهورهم في التوراة الباب الخامس ، عن بداية ظهورهم في المصادر الكلاسيكية القسم الاول من هذا الباب . اول تدوين في العصر الاسلامي عن اخبار الجزيرة في عصر ما قبل الاسلام هو عند عبيد بن شرية ، فقد ذكر ابن النديم : الفهرست ، ص ٨٩ ان معاوية امر عبيد بن شرية ان يدوّن اخبار العرب والعجم . وقد توفي معاوية في ٦٠ هـ .

إذا أضفنا إلى ذلك أن كتّاب العرب في العصر الإسلامي لم يقتصروا على التاريخ للعرب منذ ظهورهم على مسرح الأحداث التاريخية كقوم لهم هويتهم الخاصة في القرن العاشر ق . م . بل تخطّوا ذلك إيغالاً في الماضي ليتحدثوا عن العرب منذ عهد سام بن نوح الذي ذكروا أن العرب ينتسبون إليه ، أي أنهم دفعوا بالحديث في أغوار الماضي إلى عهود أقل ما توصف به أنّ من يتناولها لا يعرف في الحقيقة شيئاً عنها . وهذه المحاولة من جانب كتاب العصر الإسلامي لا تنحصر في كاتب أو كاتبين ، بل نجدها عندهم جميعاً ، ابتداء من عبيد بن شريّه في أواسط القرن الأول الهجري (أواخر القرن السابع الميلادي) إلى ابن خلدون الذي توفي في أوائل القرن التاسع الهجري (اوائل القرن الخامس عشر الميلادي) .

وفي الواقع فإن هذا الكاتب الأخير ، الذي اشتهر بمذهبه النقدي ، يبدي شيئاً من التردّد في قبول هذا الاتجاه عند المؤرخين الإسلاميين . وبخاصّة فيما يتعلّق بتتبع أنساب العرب من جيل إلى الجيل الذي يسبقه ، توصلاً في النهاية إلى بدايات ضاربة في أعماق الماضي ، لتشككه في إمكان التوصّل في معرفة الأنساب القديمة ، كما يبدي تشككه كذلك في صحّة الأخبار المتعلقة بالعصور العربية الأولى كما رواها من سبقة من الكتاب . ولكنه رغم ذلك يلخّص كل ما ورد من هذه الأخبار القديمة ويحاول أن يرجّح بعضها على بعض ، كما يقدّم لنا تنسيباً مفصّلاً للعرب يرتفع بأحد شقيهم إلى قحطان ويرتفع بالآخر إلى عدنان (٣٥) . وهكذا لا يستطيع ابن خلدون ، رغم مذهبه النقدي ، أن يتخلّص من وطأة الاتجاه الذي تصدّى له فتنغمر ملاحظاته ، حسب تعبير باحث معاصر «وسط سيل الأخبار المتضاربة ، ويظهر تأريخه

---

(٣٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ج ٢ ، عن تشككه في الانساب صفحات ٣ ـ ٤ ، عن تشككه في الروايات القديمة ص ٨ ؛ عن انساب العرب عنده رغم ذلك ص ٤٩ وص ٣٠٤ .

لهذه الأجيال من العرب وكأنه تاريخ تقليدي لا يختلف كثيراً عن تواريخ سابقيه » (٣٦) .

والملاحظة العامة الثانية على الكتابات العربية التي ظهرت في العصر الإسلامي فيما يتعلق بتاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، تخصّ مسألة المصادر التي اعتمدوا عليها ، أو كان من المفترض أن يعتمدوا عليها طالما أنهم لم يعاصروا الفترة التي يكتبون عنها . وأذكر هذا وفي ذهني ما عمد إليه بعض الكتاب الكلاسيكيين الذين كتبوا عن أحوال شبه الجزيرة في أوقات سابقة لزمنهم فحرصوا على أن يذكروا مصادرهم من الكتاب السابقين الذين كانوا معاصرين لما كتبوا عنه ، كما هو الحال عند سترابون الجغرافي اليوناني الذي حرص حرصاً كاملاً على أن يذكر لنا كلّما تطرّق إلى فترة سابقة لعصره أن يردّ ما ذكره إلى إراتوستنيس أو أريستوبولوس أو أرتميدوروس أو غيرهم ممن عاصروا ما كتبوا عنه بل عاينوه على الطبيعة في أغلب الأحوال إن لم يكن في كل الأحوال (٣٧) ، أمّا فيما يخصّ مسألة المصادر عن كتاب العصر الإسلامي فهم إمّا لا يذكرونها على الإطلاق وهو الأمر السائد في كتاباتهم ، أو أنهم يذكرون بعض المصادر الفارسية أو البيزنطية ، ولكن في مجال الحديث عن ملوك الفرس والبيزنطيين وليس عن أحوال شبه الجزيرة ، كما فعل حمزه الأصفهاني الذي دوّن تأريخه في أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، أو أن يتخذوا مصدراً لهم الأخباريين الأول مثل عبيد بن شريّة أو ابن الكلبي من كتاب صدر الإسلام وهؤلاء لم يعاصروا ما كتبوا عنه (٣٨) .

---

(٣٦) سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت، ١٩٧٥ ، ص ٥٩ .

(٣٧) راجع القسم الاول من هذا الباب .

(٣٨) كان حمزه الاصفهاني ايرانيا ومن ثم على دراية باللغة الفارسية ، كما كان يلجأ الى من يترجم له الكتب البيزنطية (المكتوبة باللغة اليونانية الوسيطة) . عن حرصه على الرجوع الى هذه المراجع (وان كان فيما =

وفي هذا الصدد يجب أن نتوقف عند اثنين من أصحاب الكتابات العربية ذكروا لنا شيئاً عن مصادر كتاباتهم ، وأول هذين هو وهب بن منبّه (توفي في ١١٠ هـ — ٧٢٨ م) وهو يهودي الأصل ومن ثم فربما كان على علم بالمصادر العبرانية المعاصرة لأحوال وأحداث شبه الجزيرة في الفترة السابقة للإسلام ، وهو أمر يجعلنا نتوقف قليلاً عند هذه الحقيقة . ولكنّا لا نلبث أن نتردّد في قبول ما يذكره لنا من أخبار العرب القدامى حين نجده يقول « قرأت ثلاثة وتسعين كتاباً ممّا أنزل الله على الأنبياء » (٣٩) ، وهو تقرير غير صادق بالضرورة ومن ثم يصبح الاعتماد على الأخبار المبنية عليه أمراً غير وارد . أما الكاتب الثاني فهو الهمداني (توفي بعد ٣٤٠ هـ — ٩٥١ م) صاحب كتاب الإكليل ، الذي يبدو من بعض ما ورد في كتابه أن كان على معرفته بالخط المسند ومن ثم كان بمقدوره، افتراضاً أن يقرأ النقوش الموجودة على الآثار القائمة باليمن على عصره ، وهو يورد فعلاً بعض هذه النقوش في لغة عربية فصيحة مسجوعة . ولنا بشكل مبدئي ، أن نأخذ ما يورده على أنه الترجمة العربية الفصيحة للنص المكتوب باللغة أو اللهجة الحميرية أو المعينية الجنوبية ، ولكن اعتمادنا على مصادره يبدأ في الاهتزاز عندما يذكر لنا عن أحد القصور ، وهو قصر شحرار ، « وفي بعض مساندها هذان البيتان بحرف المسند :

شحرار قصر العلا المنيف ... أسه تبـع ينـوف
يسكنه القيل ذي معاهر ... تخرّ قدامه الأنوف » (٤٠)

= يخص تاريخ الفرس والبيزنطيين) راجع ، سعد زغلول عبد الحميد : المرجع ذاته ، صفحات ٤٧ — ٤٨ . رجوع المؤرخين الاسلاميين الى الاخباريين الاول كمصدر ، نجده ، على سبيل المثال ، عند الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، وعند المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

(٣٩) وهب بن منبه : كتاب التيجان في ملوك حمير ، حيدراباد الدكن، ١٣٤٧ هـ ، ص ٢ .

(٤٠) الهمداني ، كتاب الاكليل ، ج ٨ ، ط برنستن ١٩٤٠ . النقش الذي يورده في لغة عربية مسجوعة ص ٤٢ . النقش الذي يورده شعرا في ص ٥٣ .

وسبب تردّدنا في الثقة بمصادره هو أنّ أعداداً كبيرة من النصوص العربية الجنوبية تزيد على أربعة آلاف نصّ قسم قد تم العثور عليها وقراءتها حتّى الآن، ولكن ليس بينها نصّ واحد مكتوب باللغة العربية الفصيحة وليس بينها نصّ واحد مكتوب بالشعر . وحقيقة إنّ اللغة العربية الشمالية ربما كانت معروفة في الجنوب في الفترة الجاهلية القريبة من ظهور الإسلام كلغة عامّة في المعاملات التجارية والمباريات الشعرية التي يشترك فيها أشخاص من مختلف أنحاء شبه الجزيرة إلى أشخاص اللغات أو اللهجات المحليّة [41] ، ولكن ليس هناك ما يدعو إلى استخدام هذه اللغة العامّة في كتابة نقش رسميّ محلي مثل النصّ الذي نتحدث عنه . ويبقى أمامنا في هذا الصدد افتراضات : فإمّا ألاّ يكون الهمداني على معرفة بالخط المسند وأنّه كان يعرف هذه النقوش ممّا يسمعه عنها فحسب ، أو أنه كان يعرف الخط المسند ثم يتصرّف في ترجمته تصرّفاً يجعله يصوغ هذه الترجمة نثراً مسجوعاً أو شعراً في بعض الأحيان ، بما يستتبعه هذا بالضرورة من الابتعاد ، بنسب متفاوتة ، عن المضمون الأساسي للنصّ ، ومن ثم يضعف من قيمته كمصدر تاريخي .

وفي الواقع فإنّ القارىء لأخبار العرب الجاهليين في كتابات العصر الإسلامي ، وبخاصّة الأخبار التي تروى أحداثاً أو مواقف تسبق ظهور الإسلام بفترة طويلة ، لا بدّ أن يسترعي انتباهه أسلوب القصص الشعبي الذي يسود هذه الكتابات ، وهو أسلوب يصل إلى نغمة الحديث الأسطوري كلمّا أوغل هؤلاء الكتاب في الحديث عن الماضي حتّى وصلوا إلى آدم عليه السلام ، أبي الإنسانية . وهذا الأسلوب القصصي يعترف به ضمناً عبيد بن شرية ، أول الأخباريين العرب ، في روايته عن أخباره التي كان يسامر بها معاوية بن أبي سفيان كلّ ليلة ، إذ يبدو أن الصفة الأساسية لهذه الأخبار هي أن تكون

---

(٤١) راجع الباب السابع الخاص بالشعر الجاهلي (كمصدر لتاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام) في هذه الدراسة .

« عجيبة » ، كما نجد الخليفة يطلب إلى سميره أن يدعمها بأشعار ، فيجيبه عبيد إلى طلبه بأشعار يضعها على لسان عماد أو ثمود أو غيرهم من القبائل العربية البائدة بلسان عربي فصيح،وهو أمر لا يمكننا أن نقبله أو نعتمد عليه، فقوم عاد لم تصلنا أية آثار أدبية عنهم شعراً أو نثراً ، وثمود وصلتنا نقوش كثيرة بلهجتهم ، أو بالأحرى بلهجاتهم المختلفة وكلّها لهجات غير اللغة العربية الفصيحة (٤٢) .

ويبدو أن هذا الأسلوب الذي يميل إلى صفة القصص الشعبي في رواية أخبار العرب في العصر السابق للإسلام (وفي الواقع أخبار غير العرب كذلك) قد بدأ يشعر به كتاب الفترة المتأخرة (زمنياً) في العصر الإسلامي (رغم أنهم لم يتجنبوه) . فالطبري مثلاً يبدي هذا الشعور « فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه ، أو لا يستسيغه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحّة . ولا معنى في الحقيقة ، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قِبَلنا ، وإنما أتى من قِبَل بعض ناقليه إلينا ،

---

(٤٢) عن طبيعة السمر التي اتخذتها هذه الاخبار راجع عبيد بن شرية: اخبار اليمن واشعارها وانسابها (ملحق لكتاب التيجان في ملوك حمير لوهب بن منبه) ص ٣١٢ : « فاذا كان (معاوية) في وقت السمر فهو (عبيد بن شرية) سميره في خاصته من اهل بيته . وكان يقص عليه ليله ويذهب عنه همومه ، وأنساه كل سمير كان قبله ، ولم يخطر على قلبه شيء الا وجد عنده شيئا وفرحا ومرحا » كذلك ص ٣١٥ حيث نجد معاوية يقول له « عزمت عليك الاّ حدثتني عما أسألك عنه » . قارن المسعودي : ذاته ، ج ٣ ، ص ٤٠ ، حيث يذكر ان عبيد بن شرية كان يسمع معاوية كل ليلة شيئا من اخبار العرب وايامها واخبار العجم وملوكها وسياستها لرعيتها . عن صفة الغرابة او العجب التي كانت تجذب الخليفة الى هذه الاخبار وعن طلبه تدعيمها بالشعر ، راجع عبيد بن شرية : ذاته ، ص ٢ و ٣ ، حيث يقول معاوية لعبيد « وابيك لقد اتيت وذكرت عجبا من حديثك عن عاد ، وقد علمت ان الشعر ديوان العرب والدليل على احاديثها وافعالها ، والحكم بينهم في الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول : ان من الشعر لحكما » .

وأنّا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدّى إلينا » [٤٣] . أما ابن خلدون فيعلن صراحة عن هذه الكتابات أن أصحابها «نحوا فيها منحى القصّاص، وجروا على أساليبهم ، ولم يلتزموا فيها الصحّة ولا ضمنوا لنا الوثوق بها ، فلا ينبغي التعوّل عليها ، وتترك وشأنها » [٤٤] .

وتأسيساً على ذلك أصل إلى رأي مؤداه أن الكتابات العربية التي ظهرت في العصر الإسلامي بقدر ما تعتبر المصدر الأول والأساسي فيما يتعلّق بالعصر الإسلامي ذاته ، وهو الذي يمثل الفترة المعاصرة التي عايشها أصحاب هذه الكتابات ، بقدر ما تفقد، في عمومها القيمة التاريخية اللازمة للاعتماد عليها كمصدر من مصادر التعرف على أحوال شبه الجزيرة في العصور السابقة للإسلام ، وذلك لسببين : الأول هو معالجة الكتابة عن هذه الفترة بأسلوب الأساطير أو بأسلوب القصص الشعبي الذي لا يدخل في نطاق الكتابة العلمية .

ب ـ استثناءات ممكنة من هذا التعميم

على أن هناك استثناءات لهذا التعميم ، يمكن الاعتماد فيها ، بدرجات متفاوتة ، على بعض ما جاء في هذه الأخبار . ومن بين هذه ما ذكره عبيد بن شريّة عن بعض ملوك الحيرة والغساسنة القريبين من ظهور الإسلام ، وعن الحملة التي أرسلت من اليمن في عهد السيادة الحبشية إلى الحجاز بهدف تهديم الكعبة (يوم الفيل) وعن سنوات القحط والجفاف وأيام العرب وعدد من الأصنام والطقوس العربية الجاهلية . وذلك لأنّ عبيد بن شريّة كان مخضرماً

---

(٤٣) الطبري : كتاب الرسل والملوك (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٠)، ج ١ ، ص ٨ .

(٤٤) ابن خلدون : المرجع ذاته ، ج ٢ ص ٨ .

أدرك الجاهلية والإسلام ، ومن ثم فقد كان معاصراً لهذه الأحداث أو على الأقل قريباً منها .

كذلك من بين ما يمكن أن نعتمد عليه في هذه الكتابات ما جاء في « كتاب الأصنام » لابن الكلبي [٤٥] (توفي ٢٠٤ هـ – ٨١٩ م) عن عبادات العرب في الجاهلية والمعلومات التي أوردها في هذا الصدد عن الأحجار المقدّسة والأصنام والأنصاب والأوثان ، وعن بيوت العبادات التي كانت تحظى بتعظيم العرب مثل الكعبة وكعبة نجران . وعن طقوس العبادة والحجّ القديم ، وعن اليهودية والنصرانية والحنيفية (وهي بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام) التي كانت منتشرة في بعض أقسام شبه الجزيرة . واعتمادنا على « كتاب الأصنام » في هذا المجال هو اعتماد قائم لأنّ آثار بيوت العبادة السابقة لظهور الإسلام ظلت قائمة في الفترة الإسلامية (وفي الواقع فإنها ظلّت قائمة حتى اكتشفها ودرسها علماء الآثار والتاريخ في الوقت الحاضر ، مثل معبد المقة ، إله القمر عند السبئيين ، الذي كان لا يزال يعرف باسم محرم بلقيس على نحو ما فصلت في مناسبة سابقة) ، ومن ثم فإنّ الحديث عن الشعائر والطقوس التي كانت متصلة بها كان أمراً وارداً . والشيء ذاته يقال عن الجزء الثامن من كتاب « الإكليل » للهمداني [٤٦] (وهو أحد أجزاء أربع وصلتنا من هذا الكتاب هي الأجزاء الأول والثاني والثامن والعاشر) وفيه ذكر لآثار اليمن : قصورها ومدنها وسدودها وحصونها وهياكلها . فإلى جانب أن هذه الآثار التي وصفها كانت لا تزال عندما كتب عنها ، فإنّ الكاتب نفسه رجل يمنيّ لديه فرصة معاينة هذه الأبنية وفحصها على الطبيعة وفرصة فهمها والتعرّف الواسع بها وبما يحيط بها من أجواء ربّما أكثر من غيره من الكتّاب .

ومن بين ما يدخل ضمن هذه المصادر العربية التي يمكن أن نستقي منها

---

(٤٥) طبعة بولاق ١٣٣٢ هـ ، تصوير الدار القومية ١٩٦٥ .
(٤٦) تحقيق نبيه امين فارس ، برنستن ، ١٩٤٠ .

قسماً من أحوال شبه الجزيرة العربية في عصر ما قبل الإسلام ، المعلومات ذات الطابع الجغرافي . مثل المعلومات التي وردت عند عبيد بن شريّة عن بعض مناطق شبه الجزيرة مثل الأحقاف والحجر ووادي القرى واليمامة . ومن بينها كذلك كتاب « صفة جزيرة العرب » للهمداني [٤٧] (ولعلّه أهم ما كتب في هذا المجال) إذ نجد فيه ، إلى جانب حديث الكاتب عن الآثار ، وصفاً جغرافياً لمناطق شبه الجزيرة وأسمائها التي عرفت في وقت ذكر الكاتب لها ، وهي أسماء كانت هذه الأماكن تعرف بها في الجاهلية دون شكّ ، وتحديد لمواقع هذه الأماكن يساعد الباحث في التعرف عليها سواء بالمقارنة مع ما جاء في كتب الكلاسيكيين التي كانت معاصرة لعصر ما قبل الإسلام أو بالمواقع الأثرية التي لا يفتأ المنقبون الأثريون يكشفون عنها بين وقت وآخر .

---

(٤٧) طبعة القاهرة ١٩٥٣ (نشر محمد بن عبد الله بن بليهيد النجدي).

البَابُ السَّابع

الشعر الجاهلي

١ ـ الشعر كمصدر تاريخي :

الحديث عن العلاقة بين التاريخ والشعر ينسحب في الواقع على العلاقة بين التاريخ وكل ألوان الأدب . سواء أكانت هذه قصة أو رواية أو مسرحية أو أيّ عمل أدبي آخر . وإنما قصرت الحديث هنا على الشعر فحسب لسبب بسيط هو أنّ الشعر يشكّل اللّون الأدبي الغالب . أو لعلّة اللون الوحيد الذي تبقى لنا بشكل واضح ومباشر . من ألوان الأدب العربي في الفترة السابقة لظهور الإسلام . والسؤال الذي يطرح نفسه . بالضرورة في بداية الحديث هو : كيف نعتمد على الشعر كمصدر من مصادر التاريخ ؟ وهو سؤال منطقي . فالتاريخ في جوهره هو الكشف عن حقائق الماضي تمهيداً لتحليلها وتفسيرها وتقويمها (أعني تقييمها حسب الخطأ الشائع في صياغة الكلمة) والأسلوب الذي يصطنعه المؤرخ في الكشف عن هذه الحقائق هو تمحيص أو تحقيق المادة التي يحصل عليها من مصدر أو آخر من المصادر المتاحة له سواء أكانت هذه المادة تتعلّق بأحداث أو مواقف أو اتجاهات أو تيارات. وهذا يبدو لأول وهلة مختلفاً ، إن لم يكن مناقضاً لطبيعة الشعر «(والأدب بوجه عام) ، وهي

طبيعة تدخل فيها بالضرورة عوامل العاطفة والانفعال والتصوّر والخيال والانطباع الفرديّ الذي يختلف من شاعر أو أديب لشاعر أو أديب آخر بدرجات متفاوتة قد تصل إلى التعارض إذ حتى إلى التناقض في بعض الأحيان .

وتكمن الإجابة على هذا السؤال في أنّ دراسة التاريخ الآن قد أصبحت في المقام الأول دراسة مجتمعات ولم تعد تقتصر على التعرف على حياة الأفراد في ذاتهم لتتخذ من هذه الحياة محوراً أو هدفاً أساسياً . سواء أكان هؤلاء الأفراد حكاماً أو زعماء أو قواداً أو مصلحين أو مفكّرين أو متآمرين أو كانت لهم أية صفة أخرى . فالأفراد وحدهم . إذا جاز لنا أن نتصوّرهم بمعزل عن المجتمع والعصر الذي يوجدون فيه (وهو تصوّر مستحيل) لا يستطيعون أن يسيّروا أو يغيّروا مجتمعاً . مهما كانت شخصيتهم أو قدراتهم الذاتية ، وإنما يتمّ هذا التسيير أو التغيير عندما يتجاوبون . تأثّراً وتأثيراً . مع ظروف المجتمعات التي يعيشون فيها بما تضمّه من موارد وأفكار وتقاليد وترسّبات وتفاعلات وطبقات وتناقضات . ومع ظروف العصر الذي يعيشون فيه بما في ذلك من تيارات واتجاهات وتطوّرات .

وما دام الأمر كذلك فلا بدّ أن تدور الدراسة التاريخية في نطاق المجتمع وأن تتناول كلّ جوانبه : ظروفه الاقتصادية . تكويناته الطبقية . فئاته الاجتماعية . القيم التي تسوده . معتقداته . مثله العليا . علاقاته الداخلية فيما بين طبقاته وفئاته . مواقفه الخارجية من المجتمعات الأخرى . بل أكثر من هذا يصبح من واجبنا أن نتعرف على هذا المجتمع في حياته اليومية في حلّه وترحاله . بيئته الجغرافية بتضاريسها ومناخها . الجفاف الذي يعاني منه والمطر الذي ينتظره . النباتات التي تقدمها أرضه أو التي يقوم بزراعتها في هذه الأرض . الدواب التي يعتمد عليها والدروب التي يسلكها . وحتى الملابس التي يرتديها وأدوات العمل والقتال والزينة التي يستخدمها . فهذه كلّها احتياجات تؤثّر

على مسلك أفراد هذا المجتمع . وهم في سبيل تأمينها أو الحصول عليها ينهجون هذا النهج أو ذاك ويتصلون بهذا الشعب أو ذاك . وقد يكون اتصالهم هذا وديّاً سلميّاً . وقد يكون عنيفاً يتخذ درجات متفاوتة من التصادم قد تصل إلى الحرب السافرة . كذلك فإنّ هويّة المجتمع أو شخصيته تصبح ، في هذا الصدد . قسماً من أقسام الدراسة التاريخية لا يمكن تجاهله . متى بدأ هذا المجتمع في الظهور . فكرته عن الأصل الذي انحدر منه ، الأساطير التي تحيط بهذا الأصل ومدى اقتناعه بها . تطلعاته وتصوراته وقدرته على المواءمة بينها وبين العالم الذي يعيش فيه ويحتك به . ومن ثم مدى استعداده لاستيعاب الحركة التاريخية والتطورات الحضارية أومسايرتها أو حتى التخلف عنها.

وإذن فالباحث أمام وضع لا يجوز له فيه أن يقتصر على السجلات الحكومية التي تعبّر عن أحوال فرد أو أفراد أو فئة أو طبقة حاكمة وما اختارت أن تسجّله بطريقة أو بأخرى عن أعمالها وعلاقاتها ، وإنما لا بدّ له أن يضمّ إلى هذا المصدر مصادر أخرى من نوع آخر . وما دمنا نتحدث عن ذلك فليس أمامنا إلاّ ما تركه المجتمع بكلّ أفراده وطبقاته وطوائفه ليعبّر به ، في شكل أو في آخر . عن كلّ هذه الصور والظروف والمعاملات والعلاقات — وهنا يبرز دور الأدب كواحد من هذه المصادر الرئيسية . فمن خلاله يستطيع الفرد الذي أوتي مقدرة التعبير الأدبي . أن يرسم ملامح المجتمع الذي يحيط به . ومواقفه ومعاناته وآماله في صورة أو أخرى من الصور العديدة التي يتخذها الأدب لنفسه — وقد كان الشعر هو الصورة البارزة التي اتخذها الأدب العربي في عصر ما قبل الإسلام .

ولا يجوز لنا في هذا الصدد أن ننظر إلى تعبير الشاعر على أنّه تعبير ذاتي فرديّ ، مهما كانت الاعتبارات التي تغرينا . للوهلة الأولى ، بهذه النظرة . فالشاعر جزء من المجتمع بكلّ ظروفه وتفاعلاته . وإذا كان التعبير الشعري

يصل إلينا من خلال الانطباع الذاتي أو المعاناة الشخصية للشاعر . فإنّ هذا الانطباع أو هذه المعاناة تمّ في إطار التجربة التي يعيشها ويمارسها المجتمع الذي يوجد فيه الشاعر . ولا يملك الشاعر في هذه الحال إلاّ أن يكون جزءاً منها مهما اختلفت طريقة التعبير عنها من شاعر لآخر . على أننا ، ونحن بصدد التأريخ للمجتمع . لا نأخذ . ولا ينبغي أن نأخذ . الشعر كما هو على أنّه حقائق تاريخية أو حضارية . فالشاعر قد يبالغ وقد يتخيل وهو حتى إذا تحدث عن حقائق فهو يبرزها لنا من خلال انفعاله الخاص بها . ولكن رغم ذلك فهناك عدد من الحقائق الثابتة نستطيع أن نستخلصه من الشعر عن أحوال المجتمع . إذا تخطينا المبالغات والتخيلات والانفعالات الخاصة .

ومن بين هذه الحقائق . الاتجاهات العامة التي تسود المجتمع مثل القيم التي تحكمه وطبيعة تصوّره لها ومن ثم الدوافع التي تعيننا على تفسير عدد من تصرّفات هذا المجتمع . وفي هذا المجال فنحن قد لا نفهم عدداً من العلاقات القبلية قبل الإسلام أو على الأقل لا نفهم كلّ الأبعاد التي وصلت إليها دون أن نعرف تصوّر مجتمع ما قبل الإسلام لمعنى الشرف أو لرابطة العصبيّة أو لممارسة الثأر — وكلّها معاني تبرز في وضوح من خلال الشعر الجاهلي . كذلك نستطيع أن نفهم اضطرار عرب البادية إلى الارتحال المستمرّ نتيجة لظروف الجفاف التي سيطرت على شبه الجزيرة العربية من خلال وصف الأطلال والبكاء عليها والحنين إلى العلاقات التي تمت في ظل ما كان بها من جوار ولقاءات يجد البدويّ نفسه مضطراً إلى التضحية بها أمام واقع الوضع الاقتصادي الذي يدفعه إلى السعي وراء الكلأ وانتجاعه حيثما كان . كذلك نحن نستطيع أن ندرك في وضوح كثير مدى ما تتركه ندرة المطر في شبه الجزيرة على تصرفات القبائل وعلاقاتها فيما بينها إذا عرفنا أن شاعراً مثل عمرو بن كلثوم يجد من بين دواعي فخره أن قبيلته ترد عين الماء أولا فتنعم بالماء الصافي ولا تترك لغيرها من القبائل إلاّ ما تبقّى من الكدر والطين وهكذا .

وليست الاتجاهات العامّة هي كلّ ما نستخلصه من الشعر ، وإنما نعرف منه إلى جانب ذلك أشياء أخرى لا يملك الشاعر أن يغيّر فيها شيئاً ولا يوجد ما يدعوه إلى ذلك لأنها من صميم بيئته ، مثل الحيوانات التي يعتمد عليها في تنقله رعياً أو تجارة أو حرباً . ومثل الملابس التي يتخذها الرجال والنساء ومثل البيوت (أو الخيام) وطريقة بنائها أو إقامتها ، ومثل الآلهة والمعتقدات والشعائر والطقوس . ومثل أسماء الأماكن التي يقيمون فيها أو يرتحلون إليها ، سواء أكانت مدناً أو قرى أو مواضع . ومثل الطرق التي كانوا يسلكونها في تنقلاتهم والمعالم التي تحيط بها أو تطلّ عليها . ومثل الأسواق التي كانوا يلتقون فيها لقضاء معاملاتهم ، ومثل المواقع أو الأيام التي تركت أثراً في حياتهم . وفيض آخر إلى جانب كلّ هذا عن تفاصيل حياتهم وممارستهم اليومية تعيننا مرّة أخرى على تفهّم تصرّفاتهم وعلاقاتهم .

هذه هي قيمة الشعر كمصدر أساسي من مصادر التاريخ . نترك منه ما يشوبه الخيال . وما يعبّر من خلاله الشاعر عن الانفعال المؤقت أو عن الانطباع الشخصي . أو ما نرى فيه شيئاً من المبالغة التي تنتج عن المثالية والميل الطبيعي نحو البطولة وهو ميل من الطبيعي أن ننتظره في الشعر ، ونستطيع أن نتحقّق منه عن طريق المقارنة بما تصل إليه أيدينا من مصادر أخرى مثل النقوش والآثار وكتابات المؤرخين والرحالة والجغرافيين حتّى نصل إلى أقرب نقطة ممكنة من الحقيقة التاريخية . وفي هذا المجال ، فإنّه تصوير أحوال شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام اعتماداً على ما تركه لنا شعراء الجاهلية ، ليس بدعاً أو أمراً غير عاديّ . فقد اعتمد مؤرخو الحضارة اليونانية وتاريخها على ما جاء في ملحمتي الإلياذة والأوديسية المنسوبتين إلى الشاعر اليوناني هوميروس **Homeros** بعد تمحيصه ومقارنته بالمصادر الأثرية والتاريخية

الأخرى (١) . بل لعلّ الشعر الجاهلي كان أوفر حظّاً من شعر هوميروس فيما يخصّ إمكانات التمحيص عن طريق المقارنة ، فلم يكن هناك في العصر الذي تغطّيه أشعار هوميروس في العصر المبكّر من ظهور المجتمع اليوناني مؤرخون معاصرون يمكن الاعتماد في المقارنة على ما تركوه لنا من كتابات ، وما وجد من نقوش قليلة لم يمكن التوصّل إلى مدلول حروفها إلاّ خلال السنوات القليلة الماضية وبشكل غير مستقرّ (٢) . وهكذا لم يكن أمام مؤرخي الحضارة اليونانية إلاّ الاعتماد على الآثار بشكل أساسي في هذه المقارنة . أما الشعر الجاهلي فلدينا للتحقّق مما أشار إليه أو جاء فيه مصادر أخرى إلى جانب الآثار ، من بينها النقوش وكتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة والموسوعيين اليونان والرومان ومن بينها القرآن الكريم والحديث الشريف والتوراة والتلمود على سبيل المثال . وكلّها تعيننا على تمحيص هذا الشعر وتحقيقه والتأكد من المعلومات التي يقدمها لنا .

---

(١) شعر او اشعار هوميروس تسمية تطلق على مجموعة من الاشعار اليونانية قيلت عبر فترة تزيد على ثلاثة قرون تمتد من الربع الاول للقرن الثاني عشر ق.م. الى اواسط القرن التاسع ق.م. وقد جمع هذه الاشعار في هذا التاريخ الاخير شاعر يحيط به الغموض (وربما شاعران) (حسبما تدلنا مجموعة قرائن تاريخية وأثرية) وصاغها في صورة ملحمتين هما الالياذة التي تروي قصة هجوم على مدينة اليون بمنطقة طروادة في القسم الشمالي الغربي من آسيا الصغرى،والاوديسية التي تروي مغامرات احد القادة اليونانيين (وهو أوديسيوس) خلال عودته من طروادة الى مدينة اثاكه على الشاطىء الغربي لبلاد اليونان . ولكن اليونان القدامى درجوا على ان ينسبوا هذه الاشعار الى شاعر اطلقوا عليه اسم هوميروس . وبهذا المفهوم ستكون اشاراتي الى اشعار هوميروس في هذا الحديث . راجع : لطفي عبد الوهاب يحيى : هوميروس ، تاريخ حياة عصر ، الاسكندرية ، ١٩٦٨ ، صفحات ١ ــ ٤٠ .

(٢) تعرف هذه الكتابة باسم Linear B وهي الكتابة التي عرفتها بعض مناطق العالم اليوناني في الفترة المبكرة قبل ان يتعرفوا في اواسط القرن التاسع ق.م. بشكل ضيق على الكتابة الجديدة التي بدات تشيع تدريجيا ابتداء من القرن التالي لتصبح فيما بعد هي الكتابة المستخدمة في العصر الكلاسيكي .

ورغم ما بين شعر هوميروس ، وبين الشعر الجاهلي من مواطن الخلاف في التركيب أو التكوين الفنّي ، إلاّ أنّ أوجه الشبه كثيرة إذا ما نظرنا إلى كلّ منهما على أنّه مصدر تاريخي وحضاري . فالإلياذة والأوديسية مكوّنة من أناشيد ومقطوعات شعرية تماثل المقطوعات التي يمكن أن نقسّم إليها المعلّقات أو القصائد الجاهلية من حيث أن كلاّ منها يرسم منظراً أو موقفاً يصور جانباً من جوانب الحياة في المجتمع الذي ينتمي إليه . فوصف هوميروس في النشيد الثامن عشر من ملحمة الإلياذة لعدد من الثيران وبعض كلاب الرعي وقطيع من الغنم في أحد المناظر المرسومة على درع اخيليوس **Achileus** ، يقابله وصف الحصان وسرب من بقر الوحش في معلقة امرىء القيس أو وصف الناقة في معلقة طرفة بن العبد . والمنظر الذي يتعلّق بدفع الديّة لأهل القتيل في النشيد نفسه من الإلياذة يقابله وصف لدفع الديّة بين بني عبس وبني ذبيان في معلقة زهير بن أبي سلمي (٣) . وإلى جانب هذه المناظر المتقابلة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بين شعر هوميروس والشعر الجاهلي توجد عشرات من المناظر تصوّر طريقة كلّ من المجتمع اليوناني المبكّر والمجتمع اليوناني في شتّى مناحي الحياة وممارساتها .

٢ ــ اعتراضات على الشعر الجاهلي كمصدر تاريخي :

الشعر إذن ، في حدّ ذاته ، مصدر من مصادر الكتابة التاريخية لا يقلّ شأناً عن غيره من المصادر . فإذا كانت السجلات الحكومية هي وثيقة الطبقة

---

(٣) منظر قطيع الغنم والثيران وكلاب الرعي عند هوميروس في الالياذة : نشيد ١٨ ، سطور ٥٤١ ــ ٥٧٨ . وصف امرىء القيس وسرب بقر الوحش في ، شيخو والبستاني : المجاني الحديثة (بيروت ١٩٦٠) ، امرؤ القيس ، المعلقة ، ابيات ٥١ ــ ٦٥ . وصف الناقة عند طرفة في شيخو والبستاني : ذاته ، المعلقة ، ابيات ١٨ ــ ٣٨ . وصف منظر الدية عند هوميروس في الالياذة : نشيد ١٨ ، سطور ٤٩٧ ــ ٥٠٦ . وصف دفع الدية عند زهير في شيخو والبستاني : ذاته ، المعلقة ، ابيات ٢٠ ــ ٢٥ .

الحاكمة ، فإنّ الشعر هو وثيقة الشعب والمجتمع بأكمله . على أن الشعر الجاهلي تعرّض لقضية ينبغي أن نتوقف عندها لأنها تمسّه من الأساس وتتعرّض لقيمته كمصدر لمعرفة أحوال شبه الجزيرة العربية في الفترة السابقة للإسلام . فقد أثار بعض الباحثين اعتراضاً مؤداه أن أغلب هذا الشعر ، إن لم يكن كلّه ، لا ينتمي إلى العصر الجاهلي بحال ، وإنما هو موضوع أو منحول ، نحله الرّواة في القرنين الثاني والثالث الهجريّين ثم نسبوه إلى الشعراء الجاهليين ، وقد دار حول هذه القضيّة جدل طويل ، أخذاً ورداً ، امتدّ على القسم الأكبر من النصف الأول للقرن الحالي ، وكان أوّل من أثار الاعتراض منذ أوائل القرن هو المستشرق د . س . مارجوليوث « **D. S. Margoliouth** .

والدعوى التي يقدمها مارجوليوث هي أنّ الشعر بالصورة التي عرفها العرب بعد ظهور الإسلام لم يكن معروفاً في الجاهلية ، وحقيقة إنّ أشخاصاً وجدوا في الجاهلية وأطلق عليهم اسم « الشعراء » وقد جاءت في القرآن الكريم . سورة كاملة بهذا الاسم ، ولكن الإشارات القرآنية إلى هذه الفئة تفيد أن هؤلاء كانوا فئة من الكهّان يتنبأون بالغيب ويعبّرون عن ذلك بألفاظ مبهمة ، ومن ثم يصبح المقصود بالشعر هو هذه الصفة أو المهنة الدينية وليس الموهبة أو الصنعة الفنيّة التي تدخل ضمن أبواب الأدب . ويقدّم المستشرق لتأكيد دعواه هذه مجموعتين من الأدلّة (٤) .

---

(٤) عرض هذه الآراء في مقالة Margoliouth : The Origins of Arabic Poetry, JRAS July, 1925 ، صفحات ٤١٧ ــ ٤٤٩ . الاشارة الى اقتران الكهانة بالشعر في العصر الجاهلي في صفحات ٤١٧ ــ ٤٢٠ من المقالة الاشارة القرآنية الى اقتران الشعر بالكهانة وابهام القول الذي يعادل الجنون في سورة الطور : ٢٩ــ٣٠ ، سورة الصافات : ٣٦ ، سورة الحاقة : ٤٠ ــ ٤٢ . راجع عرضا بالعربية لآراء المستشرق عند ، ناصر الدين الاسد: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، صفحات ٣٥٢ ــ ٣٦٧ .

وقد تعرّض في المجموعة الأولى من هذه الأدلّة إلىالطرق التي يفترض أن الشعر الجاهلي انتقل من خلالها إلى علماء العرب من الإخباريين والرواة في القرنين الثاني والثالث للهجرة . كما تعرّض لهؤلاء الإخباريين والرواة أنفسهم . ففيما يخصّ طرق انتقال الشعر الجاهلي يذكر أنّ هذا لا يكون إلاّ بالكتابة أو بالرواية . أمّا الكتابة فهو يشكّ فيها . فالقرآن الكريم يذكر أن الجاهليين لم يكن لهم كتاب (سماويّ) يقرءونه كما كان الحال عند اليهود والنصارى . ولو كان الشعر الجاهلي مكتوباً لكان لهم كتاب أو أكثر من الكتب السماويّة . وأما الرواية فهناك أكثر من سبب يؤدي إلى الشكّ فيها . فالشعر الجاهلي فيه عدد كبير من القصائد الطويلة . ومثل هذه القصائد تفترض وجود رواة محترفين حتّى يستوعبوها ويعوها في ذاكرتهم وينقلها جيل منهم إلى الجيل الذي يليه — وليس هناك ما يثبت وجود هؤلاء الرواة المحترفين . كذلك فإنّ موقف القرآن الكريم الذي اتّسم بالقسوة على الشعراء واتّهام أتباعهم بالغواية واتّهامهم هم أنفسهم بالكذب من حيث أنهم يقولون ما لا يفعلون — كل هذا يدعو إلى نسيان الشعر الجاهلي حتّى إذا افترضنا وجود مثل هذا الشعر. وأخيراً فإنّ الشعر الجاهلي (المفترض في رأي مارجوليوث) يخلّد الروح القبليّة بما يضمّه من قصائد تفتخر فيها القبائل بانتصاراتها على غيرها . ومن ثمّ فإن الإسلام الذي كان يدعو إلى الوحدة ويعمل على تحقيقها بكافة الوسائل لا يمكن أن يشجّع التغنّي بهذا الشعر أو العمل على إبقائه متداولاً في المجتمع الإسلامي الأول . وهذا سبب آخر يدعو إلى نسيانه أو الإعراض عنه (٥) .

---

(٥) Margoliouth : المرجع ذاته ، صفحات ٤٢٣ ــ ٤٢٦ . الآيات القرآنية التي يستشهد بها عن عدم معرفة الجاهليين بالكتابة ، يستنتجها من ، سورة القلم : ٣٧ و٤٧ ، عن عدم نزول كتب سماوية على الجاهليين مثل كتب اليهود والنصارى ، سورة السجدة : ٣٠ ، القصص : ٤٦ ، الانعام : ١٥٦ . عن القسوة فيالقرآن الكريم علىالشعراء ، سورة الشعراء : ٢٢٤ ، الصافات : ٣٦ .

أما عن علماء العرب في القرنين الثاني والثالث الهجريين ممّن ذكروا الشعر الجاهلي أو قاموا على روايته فهم إما الإخباريون وهؤلاء لايعتمد على ما ذكروه من شعر ، إذ أنّ بعضهم أورد شعراً لآدم بينما عزا البعض الآخر شعراً غنائياً لإسماعيل وكلا الأمرين غير معقول ، وإمّا الرواة من أمثال حمّاد وجناد وخلف الأحمر وأبو عمرو بن العلاء والأصمعي وأبو عمرو الشيباني وابن إسحق (صاحب السيرة) والمبرّد ، وهؤلاء لا يطمئن المستشرق إليهم لسببين رئيسيين : أولهما أنّ هؤلاء العلماء كان بعضهم يشكك في أمانة البعض الآخر في الرواية . ومثل هذه الاتّهامات لا تجعلنا نعرف أين الشعر المنحول وأين الشعر الصحيح (إذا كان ثمة شعر جاهلي) . والسبب الثاني هو أنّه على فرض أن بعض ما رواه هؤلاء الرواة شعر صحيح أو يعتقدون أنه شعر صحيح فأين مصدره ؟ لقد كان الإسلام متشدّداً مع الوثنية تشدّداً لا يعرف التهاون أو الكلل وقد ناصبها العداء بشكل انتهى إلى حروب أهلية سافرة سواء في أثناء الدعوة (غزوات الرسول — ص) أو بعد الدعوة (حرب الرّدّة) داخل شبه الجزيرة ، فمن المعقول أن يشجّع الشعر الجاهلي الذي يتغنّى بأمجاد المجتمع الوثني . كذلك فإنّ أعداداً كبيرة من سكان شبه الجزيرة قد تركوها في فترة الفتوح الإسلامية ليستقروا في مواطن جديدة أدخلتهم في أجواء جديدة استوعبت اهتماماتهم وانشغلوا بالمواءمة بين أنفسهم وبين ظروفها — الأمر الذي يشجّع اندثار ما كان قد علق بأذهانهم من الشعر الجاهلي على افتراض وجوده أصلاً[٦] .

أما المجموعة الثانية من الأدلّة فيتعرض فيها المستشر ق إلى الشعر الجاهلي على أكثر من صعيد . فعلى صعيد الوزن الذي نجده فيما بين أيدينا من الشعر

(٦) المرجع ذاته : صفحات ٤٢٨—٤٣٤ . الاشارة الى شعر قاله آدم عليه السلام في المسعودي : مروج الذهب المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٤٨، ج١ ص ٦٥ ، الاشارة الى شعر قاله اسماعيل عليه السلام في الاغاني ، ط دار الكتب ، ج ١٣ ، ص ١٠٤ .

المنسوب إلى الجاهلية . فإنّ هذا الوزن يفترض مقدماً أن يكون الشعر الجاهلي تالياً لنزول القرآن وليس سابقاً له كما يجب أن يكون . والسبب في ذلك أنّ تطوّر الفنّ الأدبي يسير من غير المنتظم إلى المنتظم ، أي يسير من النثر العادي . إلى نثر يظهر فيه السجع وشيء من الوزن ثم إلى الشعر الموزون وزناً كاملاً . ونحن نرى أنّ القرآن الكريم فيه كثير من السجع وفيه قدر ظاهر من الوزن ، ولكنه لا يصل إلى مرحلة الوزن الكامل ، ومن هنا يصبح في افتراض وجود شعر جاهلي قبل نزول القرآن الكريم تناقضاً مع تطوّر الفنّ الأدبي . ويدعّم المستشرق دليله هذا بدليل آخر من حيث أن الوزن يمثل الموسيقى الشعرية فيذكر أن القرآن لم يذكر الموسيقى من مستحدثات العصر الأموي . ومن ثم فمن الصعب أن نتصوّر وجود شعر جاهلي بهذا الانتظام والتنوع في إيقاعه الموسيقي الذي يمثله وزن الشعر (٧) .

وعلى صعيد المعاني التي تناولها الشعر الجاهلي . فإن في بعض قصائده إشارات إلى القصص الديني مثل وصف نوح بالأمانة ، واستعمالات لغوية إسلامية مثل الحياة الدنيا ويوم القيامة ويوم الحشر والركوع والسجود ومثل هذه الإشارات لم تكن معروفة بين الجاهليين ، كما أن مثل هذه الاستعمالات لم تكن شائعة أو ربما لم يكن بعضها معروفاً في مجتمعهم . كذلك لا توجد في أشعار المسيحيين من شعراء الجاهلية أو من كانوا على صلة ببلاط الملوك المسيحيين (مثل ملوك الغساسنة) إشارات إلى الكتاب المقدّس عند المسيحيين أو إلى تعاليم المسيحية إلاّ فيما ندر . وأخيراً فإن القَسَم الذي يرد في هذه الأشعار هو دائماً بالله على نمط ما جاء في القرآن الكريم ، كما أن ترديد أيّ صدى من جانب هؤلاء الشعراء لكتاب مقدس . إنما هو ترديد لصدى القرآن

---

(٧) المرجع ذاته : ٤٢٦ و ٤٤٦ ــ ٤٤٧ .

الكريم ، وليس مصدراً آخر غيره ، وإذن فهو شعر وضع بعد الإسلام وليس شعراً قيل قبل الإسلام (٨) .

أمّا على صعيد اللغة الّتي صيغ بها الشعر الذي يفترض أن يكون جاهليّاً . فإنّ مارجوليوث يذكر أن الشعر الجاهلي كلّه ورد بلغة واحدة هي لغة القرآن الكريم وهو يجد صعوبة في التوفيق بين هذه الظاهرة وبين ظاهرة أخرى وهي الاختلاف بين لغة القبائل الشمالية في مجموعها وبين اللغة الحِمْيَريّة في الجنوب ، ثم الاختلاف بين لهجات القبائل فيما بينها . كذلك يجد من الصعب أن نتصوّر وجود لغة واحدة مشتركة بين العرب في الجاهلية . فظهور الإسلام ونزول كتابه باللهجة الّتي نزل بها من لهجات الشمال العربي هو الذي وحّد العرب وكان أحد مظاهر هذه الوحدة هو الالتفاف حول لغة القرآن الكريم ويدعم المستشرق دعواه في هذا المجال فيقول إنّه لو كنّا نبحث في وثائق نثرية (وليس في قصائد شعر) جاءت بلغة عربية واحدة (رغم اختلاف اللغات واللهجات في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام) لقلنا إنها إمّا ترجمت إلى اللغة الجديدة الموحّدة أو إنّها تدرّجت من طور إلى طور آخر . ولكن الشعر فيه من الوزن والصنعة الفنيّة المعقدة ما يجعل ترجمته إلى لغة جديدة أو انتقاله من طور لغوي إلى طور آخر ، مع محافظته وعلى وزنه على صنعته الفنية ، أمراً مستحيلاً (٩) .

هذه هي الدلائل الّتي ساقها مارجوليوث في كتاباته ليخلص منها إلى أنّ الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا لا ينتمي في الحقيقة إلى العصر الجاهلي وإنما نحله الرواة في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة ثم نسبوه إلى أسماء جاهلية . وقد عضّد هذا الافتراض عالم عربي هو الدكتور طه حسين في كتابه « في

---

(٨) المرجع ذاته : صفحات ٤٣٤ ـ ٤٣٧ ، عن الاشارة القرآنية الى امانة نوح عليه السلام راجع حاشية ٢٣ ادناه .
(٩) المرجع ذاته : ٤٤٠ ـ ٤٤٢ .

الشعر الجاهلي » الذي أعاد طبعه تحت عنوان « في الأدب الجاهلي » . ويوافق الدكتور طه حسين على ما قدّمه الأستاذ مارجوليوث من أدلة واستنتاجات ويساندها بمزيد من التفصيلات ثم يضيف إليها شواهد جديدة تدعّم شكّه في وجود شعر جاهلي ، وهو شكّ يكاد يصل عنده إلى نفي وجود هذا الشعر الجاهلي .

وأهم هذه الشواهد الجديدة أن الشعر الجاهلي (المفترض في رأيه) لا يمثل الحياة الدينية أو العقلية أو السياسية أو الاقتصادية عند عرب الجاهلية . فمن الناحية الدينية يلاحظ الكاتب الكبير أن الشعر الجاهلي لا يكاد يتطرق إلى حياة دينية تبيّن عقائد الجاهليين واعتزازهم أو تمسكهم بها . ومع ذلك فالقرآن الكريم يشير إلى حياة دينية قوية عند هؤلاء القوم ، وهي حياة يتشبثون بها ، ويدعوهم تشبثهم هذا ، حسبما نقرأ في عديد من الآيات القرآنية ، إلى أن يجادلوا عنها ، فإذا لم يغنهم الجدل لجأوا إلى الكيد للرسول (ص) وأتباعه ثم إلى اضطهادهم ، وقريش لا يمكن أن تفعل هذا بأبنائها لو لم يكن لها من الدين إلاّ ما يمثله هذا الشعر الذي ينسب إلى الجاهليين [10] .

كذلك فإنّ هذا الجدل ذاته التي تفننت فيه قريش إبرازاً لحججها وتحدياتها الفكرية يمثل ذكاء وحياة عقلية متقدّمة لا يمكن أن توجد لديهم إذا كانوا على ما يظهره لنا الشعر الجاهلي من غلظة وجفاء [11] . والتناقض ذاته نجده فيما يتّصل بالحياة السياسية عند الجاهليين . لقد كانت العلاقات الدولية بين الفرس والبيزنطيين (الروم) تحيط بهم وتؤثّر عليهم ويهمّهم تتبّعها فيما يتعلق بتجارتهم مع بلاد الشام التي كانت تحت حكم البيزنطيين ومن ثم كان

---

(١٠) طه حسين : في الادب الجاهلي ، ط. دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ص ٨٠ .
(١١) المرجع ذاته : ص ٨١ .

انتصار أو انكسار واحدة أو الأخرى من هاتين القوتين أمراً له قيمة في حياة قريش . وقد جاءت في القرآن إشارات تفيد هذا المعنى وتشير إلى العلاقة بين الفرس والروم وإلى رحلة الشتاء والصيف . وإحدى هاتين الرحلتين كانت إلى الشام حيث الروم والأخرى إلى اليمن حيث الحبش ، ومع ذلك فإن شيئاً من هذه الحياة التي يظهر فيها الاهتمام بمجريات الأمور السياسية لا يظهر في الشعر الجاهلي (١٢) .

أما عن الحياة الاقتصادية فيلاحظ الدكتور طه أن القرآن يقسم عرب الجاهلية إلى قسمين : هما الأثرياء المتعنتون الذين روّجوا الربا ومنعوا الصدقة جشعاً وبخلاً . والمعدمون المستضعفون الذين لا يملكون أمام هؤلاء شيئاً . والصراع بين هاتين الطبقتين يصبح من ثم شيئاً وارداً أو على الأقل تصبح المعاناة من الطبقة المعدمة تصبح ظاهرة محسوسة، ومع ذلك فالشعر الجاهلي يقف من كلّ هذا موقفاً صامتاً مع أنّ المعاناة التي يتمخّض عنها مثل هذا الصراع هي موضوع الشاعر في المقام الأول . ومع ذلك فإننا لا نرى شيئاً من هذا في الشعر الجاهلي (١٣) . بل لا نرى إلاّ حديثاً عن الكرم لدرجة التبذير مع أن البخل كان موجوداً وهو وارد على الأقلّ إلى جانب الكرم . وأخيراً فموقف الشعر الجاهلي يكرّر نفسه فيما يتعلّق بالحياة الاجتماعية للعرب في الجاهلية . وهنا يلاحظ الكاتب أنّ هذا الشعر لا يعنى إلاّ بحياة البادية وعلاقاتها ولا يكاد يذكر حياة البحر . فإذا ذكرها فهو ذكر الجاهل الذي لا يكاد يعرف عنها شيئاً . ومع ذلك فإنّ القرآن يمنّ على العرب بأن سخّر لهم البحر وجعل لهم فيه منافع كثيرة (١٤) .

وهكذا يؤكد طه حسين أن الشعر الجاهلي لم يكن له وجود وأنّه من

---

(١٢) المرجع ذاته : صفحات ٨٢ ـ ٨٣ .
(١٣) المرجع ذاته : صفحات ٨٤ ـ ٨٥ .
(١٤) المرجع ذاته : ص ٨٧ .

وضع الرواة أو من نقل عنهم الرواة في القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة . ثم يقدّم السبب الذي يعتقد أنه دفع هؤلاء الرواة إلى ما أقدموا عليه . فيردّ ذلك إلى حركة الشعوبية التي ظهرت آنذاك وهي حركة حاول فيها الشعوبيون أن يحطّوا من شأن العرب والعروبة فنحلوا شعراً يصف العرب بالبداوة والغلظة والتخلّف نسبوه إلى العصر الجاهلي . وقابل ذلك أنصار العروبة بأن نحلوا بدورهم شعراً يمجّد العرب وصفاتهم ونسبوه هم الآخرون إلى الجاهليين وهكذا تكوّن رصيد الشعر الجاهلي (١٥) .

٣ ـ ردود على هذه الاعتراضات :

هذه هي جملة الآراء التي يحاول أصحابها أن ينكروا وجود شعر لدى العرب في العصر الجاهلي . وأن يثبتوا أن ما وصل إلينا عن طريق الرواة في هذا الصدد لم يكن شعراً جاهلياً وإنما كان شعراً منحولاً وضعه هؤلاء الرواة أو من نقل عنهم هؤلاء الرواة في عصر لاحق للعصر الجاهلي بعدّة قرون . على أن الأدلة والشواهد التي ساقوها هي أدلة مردود عليها سواء فيما يتّصل باللغة التي قيل بها الشعر الجاهلي أو بالشعر نفسه أو بالطريقة التي انتقل بها إلى الرواة من علماء القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة أو بهؤلاء العلماء الرواة أنفسهم . ولكن قبل مناقشة هذه الأدلة والشواهد أجد من اللازم أن أشير إلى بديهية مؤداها أن أية مجموعة من الشعر في أي مجتمع وفي أيّ عصر . حتى في العصور التي أصبحت فيها الكتابة هي الوسيلة الأساسية لجمع الآثار الأدبية وحفظها . معرّضة بسبب التداول لقدر من التغيير في بعض الكلمات أو العبارات أو الأبيات . بل إلى النقصان والزيادة ليس في أبيات فحسب وإنما في قصائد كاملة . وهذا التغيير أو النقصان أو الزيادة يكون وارداً بشكل أكثر في العصور التي تعتمد أساساً على الرواية الشفهية في نقل الشعر من جيل

---

(١٥) المرجع ذاته : ١٧٨ و ١٧٦ .

لجيل . أو التي تطغى فيها الرواية على التدوين الكتابي للشعر ، أو حتى إذا سارت جنباً إلى جنب مع هذا التدوين .

وأسوق على هذا مثالين أحدهما هو الإلياذة والأوديسيّة المنسوبتين إلى هوميروس وهما ترجعان إلى أواسط القرن التاسع ق . م . ومع ذلك فقد انتقلتا عن طريق الرواية عبر ما يقرب من قرنين أو ربما أكثر من ذلك قبل أن يتمّ تدوينهما بصورة نهائية . بل إن الملحمتين ذاتهما حين تمت صياغتهما في أواسط القرن التاسع ق . م . كانت هذه الصياغة لا تزيد كثيراً عن إعطاء حبكة فنّية وأدبية لمقطوعات شعرية قيلت على مدى ثلاثة قرون أخرى قبل ذلك (١٦) . أمّا المثل الثاني فهو قصائد شيكسبير التي لا تزال نسبة عدد ممّا تضمّنه من مقطوعات وقصائد إلى الشاعر موضع نقاش حتى الآن ، رغم أنّ الفترة التي كتب فيها شيكسبير (الشطر الأخير من القرن السادس عشر وأوائل القرن الذي يليه) كان التسجيل الكتابي هو الوسيلة الأساسية للتدوين دون منازع .

وأنتقل الآن إلى مناقشة الأدلة والشواهد التي ينكر أصحابها وجود الشعر الجاهلي مبتدئاً بتلك التي تتعلّق باللغة من حيث أنّه كان في الجزيرة العربية قبل الإسلام لغتان أساسيتان هما لغة القبائل الشمالية بلهجاتها في الشمال واللغة الحِمْيَرِيّة في الجنوب وهو أمر يستغرب معه ورود الشعر الجاهلي بلغة قبائل

---

(١٦) تمت صياغة الملحمتين في اواسط القرن التاسع ق.م. ولم تنتشر الكتابة في بلاد اليونان بشكل مبدئي الا في اواسط القرن الذي يليه ، راجع حاشيتي ١ و ٢ اعلاه ، ولنا ان نفترض مرور قرن آخر قبل ان نتصور انتشارا في الكتابة واهتماما بالقراءة يسوّغ تدوين الملحمتين . راجع مسالة تدوينهما في اواسط القرن السادس ق.م. على عهد الطاغية الاثيني بيزستراتوس في ، J. B. Bury : A History of Greece ، لندن ، ١٩٤٥ ، ط ٢ ، ص ١٩٨ . عن صياغة الملحمتين من مقطوعات شعرية تدوولت شفاها عبر ثلاثة قرون سابقة لذلك ، راجع حاشية ١ اعلاه .

الشمال فحسب ، بل بلهجة واحدة من لهجاتها هي التي نزل بها القرآن الكريم . وفي الرد على هذا يقول أحد الباحثين إن توحّد اللغتين . القحطانية أو الحميرية في الجنوب ، والعدنانية في الشمال — بعد ظهور الإسلام ببضع عشرات من السنين لا يمكن أن يتيسّر في الحقيقة إلاّ إذا كان هناك تقارب شديد بين اللغتين في الفترة السابقة للإسلام كان أحد مظاهره وجود لغة أدبية مشتركة بين شعراء الجزيرة العربية في العصر الجاهلي (١٧) .

وأود أن أدعم هذا الرأي بشاهدين يجعلان وجود مثل هذه اللغة المشتركة أمراً وارداً إلى حد كبير . والشاهد الأول هو أنّ الاتصال المباشر كان اتصالاً نشطاً وكثيفاً بين أقسام شبه الجزيرة العربية وبخاصة بين شماليها وجنوبيها عن طريق القوافل التجارية المستمرة على مدار السّنة . وقد كانت مكة بالذات هي الموقع الذي تلتقي عنده أهم طريقين من هذه الطرق التجارية ، وهما الطريق المؤدية من اليمن في الجنوب إلى سورية في الشمال ، والطريق التي تبدأ من مكة وتتجه اتجاهاً شرقياً وشمالياً شرقياً لتصل إلى رأس الخليج ومن ثم إلى وادي الرافدين . وقد كانت أولى هاتين الطريقين بالذات ، وهي الطريق القادمة من الجنوب ، على نشاط غير عاديّ . فهي لا تقتصر على حمل البخور (أهم سلعة في ذلك العصر) إلى سورية وإلى موانئها على البحر المتوسط ومن ثم إلى الشواطىء الأوروبية لهذا البحر ، بل كانت تزيد على ذلك حمل السلع الآتية من الهند إلى هذه الشواطىء والتي كانت تصل إلى عدن بحراً ثم يُنقل قسم قليل منها بهذه الطريق البرية إلى الشمال (١٨) . ومثل هذا النشاط التجاري الكثيف المستمرّ كان معناه اتصالاً دائماً بين التجّار وتجمعاً حول لغة وسيطة مشتركة للتعامل والتفاهم ، وفي هذا الصدد تكون لهجة قريش في مكة هي

---

(١٧) محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، القاهرة، صفحات ٧٠ ـ ٧١ ، ١٠٠ .

(١٨) راجع الجزء الخاص بالحياة الاقتصادية في شبه جزيرة العرب في القسم الثالث من هذه الدراسة .

المرشحة لأن تكون هذه اللغة طالما أن مكّة هي نقطة التوقف والمحطّ التجاري الأساسي للقوافل الآتية من الشمال والجنوب والشرق وهي التي تمّ فيها الصفقات والمعاملات والخدمات وما يستتبعه كلّ هذا من بعض الشعائر الدينية أو الابتهالات أو التضحيات التي يقوم بهـا هؤلاء التجار تقرباً من معبوداتهم والتماساً لمباركة هذه الآلهة عند الكعبة التي كانت تقوم بساحة هذه المدينة لا تفرق بين واحد أو آخر من هذه المعبودات .

أما الشاهد الثاني ، فهو أن انتشار لغة عن طريق التجارة أمر له سابقة قوية في تاريخ منطقة الشرق الأدنى ، وأشير هنا إلى اللغة الآرامية التي حملها التجار الآراميون من دمشق منذ أواسط القرن الثامن الميلاديّ لتنتشر حتّى تصبح اللغة السائدة في منطقة الهلال الخصيب . لقد دخلت هذه اللغة منطقة آشور ليصبح المتحدثون بها من الآشوريين أكثر من المتحدثين باللغة الآشورية نفسها ، واستمرت كذلك بعد سقوط الدولة الآشورية (٦١٢ ق.م)وقيام الدولة البابلية الحديثة على أنقاضها . كذلك بلغ من انتشار هذه اللغة في منطقة الهلال الخصيب أن اتخذها الفرس لغة رسمية للمعاملات الإدارية أثناء سيطرة الإمبراطورية الفارسية على هذه المنطقة ابتداء من أوائل القرن السادس ق . م (٥٣٠ ق . م . وما بعدها) . بل لقد بلغت كثافة هذا الانتشار أن حلّت بين العبرانيين كلغة للتداول والتفاهم محلّ لغتهم العبرية . ويكفي دليلاً على ذلك أنها كانت اللغة التي اتخذها السيد المسيح للتبشير بدعوته بين قومه من العبرانيين [١٩] . وقد كان أحد الأسباب الرئيسية في انتشار اللغة الآرامية بين شعوب منطقة الهلال الخصيب أنّ لغات هذه الشعوب كانت ساميّة ومن ثمّ من فصيلة هذه اللغة . فإذا كان الأمر كذلك ، فإنّه يصبح وارداً بشكل أكثر وأقوى أن يطغى قسم من اللغة العربية على قسم آخر من اللغة نفسها إذا توفّر

---

(١٩) J. H. Breasted : Ancient Times ، بوستن ، ١٩٣٥ ، صفحات ١٨٦ - ٢٠٥ - ٢٠٧ - ٢٣٤ ، ٢٦٥ ، ٧٨٨ .

العنصر أو العامل التجاري النشط كما كانت الحال عند الآراميين الذين انتشرت لغتهم نتيجة لنشاطهم التجاري فحسب رغم أن السيادة العسكرية والسياسية كانت في أيدي حكومات لشعوب أخرى سواء من الآشوريين أو البابليين أو الفرس .

وأنقل الحديث الآن إلى مناقشة المنكرين لوجود الشعر الجاهلي فيما يخص الشعر ذاته . وأول نقطة في هذا الصدد تتصل بالرأي القائل إن الشعر العربي لا يمكن أن يسبق نزول القرآن الكريم بل لا بدّ أن يكون لاحقاً له طالما أنّ القرآن قد تضمنت بعض عباراته شيئاً من الإيقاع أو الوزن . بينما الشعر كلّه موزون . وذلك تمشياً مع افتراض مؤداه أن تطوّر الفن الأدبي يسير من غير المنتظم إلى المنتظم . والردّ الذي أقدّمه هو أنّ هذا الافتراض لا يتمشى مع الظواهر الأدبية أو الاجتماعية المؤكّدة. فمن ناحية الظواهر الأدبيّة نجد أن الشعر أسبق في الظهور في المجتمعات من النثر . ودليلنا على ذلك هو ملحمتا الإلياذة والأوديسية التي أسلفت الإشارة إليهما ، فقد كانت هذه الأشعار هي أول بادرة في أدب اليونان . وكانت ثاني هذه البوادر ملحمتان شعريتان أخريان هما « الأعمال والأيام » و « سلالة الآلهة » للشاعر هزيودوس [٢٠] . ولم ينضج النثر الفنّي عنداليونان إلاّ بعدذلك بعدّة قرون. والسبب في سبق الشعر على النثر هو أنّ الشعر . بوزنه (أوإيقاعه) وقافيته أقرب إلى الالتصاق بالذاكرة من النثر إذ هو يساعدها على استيعابه أكثر مما يفعل الكلام المنثور . والسبب الثاني هو أن الإيقاع أقرب إلى الفطرة . ودليلنا الإجتماعي على ذلك هو أنّ المجتمعات البدائية كانت ولا تزال تعبّر عن نفسها برقصات إيقاعية . والإيقاع الذي تمثّله الدقّة والحركة في الرقص هو ذات الإيقاع الذي يمثله الوزن في الشعر .

---

(٢٠) يعود نظم ملحمتي هزيودوس الى ما بعد ملحمتي هوميروس بنحو قرن على الاكثر ، راجع حاشية ١ في الباب السادس من هذه الدراسة .

أما النقطة الثانية في هذا المجال فهي ما أورده المنكرون للشعر الجاهلي من أنّ به بعض المعاني أو الألفاظ والإشارات الدينية التي وردت في القرآن الكريم ومثل هذه المعاني والألفاظ أو الإشارات تفترض في رأيهم أن يكون ما وصلنا من الشعر الجاهلي قد وضع في فترة لاحقة لنزول القرآن الكريم . وفي هذا المجال ردّ أحد الباحثين على ورود بعض المعاني القرآنية في الشعر الجاهلي بأنّه من الجائز أن ينطق العرب بحكمة ثم يأتي القرآن بهذه الحكمة ويبرزها على وجه أبلغ وأرقى (٢١) . وهو أمر أراه وارداً فالقرآن الكريم نزل إصلاحاً للمجتمع بما فيه من أفكار وممارسات ، وإذا كان من الطبيعي أن يقف في وجه الفكرة أو الممارسة الخاطئة . فمن الطبيعي كذلك أن يدعم الفكرة أو الممارسة السليمة . وأودّ أن أضيف هنا ، فيما يخصّ ورود بعض استعمالات الألفاظ القرآنية مثل الركوع والسجود وغيرها في الشعر الجاهلي أن القرآن الكريم نزل لكي يفهمه ويقتنع به الجاهليون ، ومن ثم لا بدّ أن يستخدم ألفاظاً يعرفون ويمارسون استعمالها ومضمونها ومن غير الوارد أن ينزل بألفاظ غريبة عليهم ، وفي هذا المجال فإنّ القرآن يحرص في مناسبات عديدة على أن يذكّر بهذه الحقيقة وهي أنه نزل بلسان عربي يعقله أو يفهمه سامعوه أو أنّه نزل بلسان عربي « مبين » . أي أن هدفه هو الإيضاح والإبانة ، وما كان لهذا الإيضاح أن يتمّ لو كانت ألفاظ القرآن غريبة على الجاهليين (٢٢) وأمّا عن إشارة مثل وصف نوح بالأمانة التي وردت في شعر النابغة فإن النابغة إن لم يكن نصرانياً فقد كان على صلة دائمة ببلاط الغساسنة في قصص ديني

---

(٢١) محمد الخضر حسين : المرجع ذاته ، ص ٢١٢ .
(٢٢) من الآيات القرآنية التي أشارت الى ذلك ، سورة النحل : ١٠٣ ، سورة الشعراء : ١٩٥ ، يوسف ٢١ ، طه : ١١٣ ، الزمر ٢٨ ، فصلت : ٣ ، الشورى : ٧ . الزخرف : ٣ ، الاحقاف : ١٢ .

ذكر لنوح ووصف له بالأمانة (٢٣) . والشيء ذاته يقال عن بقية الإشارات الدينية التي يوردها أصحاب هذا الرأي .

ثم انتقل إلى نقطة ثالثة فيما يخصّ مضمون الشعر الجاهلي الذي رأى منكرو الشعر الجاهلي أنّه لا يصوّر الحياة في المجتمع الجاهلي في جوانبها المتعددة . وكان أول هذه الجوانب أنّه لا يعقل أن يكون الشعر الجاهلي خالياً من الإشارة إلى الممارسات الدينية الوثنية بينما نعرف من القرآن أن أهل قريش

---

(٢٣) بيت النابغة الذي يشير اليه المستشرق مارجوليوث : المرجع ذاته، ص ٤٣٦ ، هو :

فألفيتَ الامانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

واشارة وصف نوح بالامانة ترد في سورة الشعراء : ١٠٧ . ولكن اضفاء صفة الامانة على اي شخص يثق فيه قومه كان امرا واردا ولا غرابة فيه ، فاللفظة عربية ، والصفة واردة في التعامل اليومي ، وقد وصف محمد (ص) بالامين ، من قبل قريش ، وهو لا يزال صبيا اثناء حادثة الحجر الاسود عند ترميم الكعبة ، قبل ان ينزل القرآن الكريم . ولا ارى في الواقع وجها للغرابة في ان يوصف رسول بالامانة ، فالصفة الاساسية لحامل الرسالة هي الامانة في تأديتها او تبليغها سواء قبل نزول القرآن الكريم او في آياته . والقرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي كي يعقله ويفهمه العرب يستخدم هذه الصفة لعدد آخر من الانبياء والرسل في سورة الشعراء : النبي هود في آية ١٢٥ ، صالح ، ١٤٣ ، لوط ، ١٦٢ ، شعيب ، ١٧٨ ، وواضح ان صفة الامانة التي تتردد مع الرسل في سورة الشعراء هي مقابلة مع صفة عدم الامانة التي يوصف بها الشعراء في السورة ذاتها : ٢٢٦ (وانهم يقولون ما لا يفعلون) . وفيما يخص ما يرى مارجوليوث انه عدم معرفة من جانب مجتمع الجاهلية لنوح وامانته ، يستشهد المستشرق بعدم معرفة محمد (ص) وقومه بذلك كما يظهر من سورة هود : ٤٩ (تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) . ولكن الاشارة هنا هي الى محمد (ص) وقريش او على اوسع تقدير الى الجاهليين من غير اهل الكتاب ، ولكنها ليست اشارة الى اليهود والنصارى من اهل الكتاب كما هو واضح من الآية . وقد كان وصف نوح في التوراة التي تعرفها هاتان الطائفتان الدينيتان بأنه رجل بار وهو وصف يحمل معنى الامانة ، راجع ، التوراة ، سفر التكوين، اصحاح ٦ : ٩ واصحاح ٧ : ١ .

جادلوا عن عقيدتهم ووصلوا بتشبثهم بها إلى درجة الكيد للرسول (ص) ثم إلى اضطهاده هو وأتباعه [٢٤] . وأود أن أشير بشكل مبدئي هنا إلى أن الموقف المتعنت المتصلب الذي وقفته قريش من الرسول (ص) قد لا يكون سببه التشبث بعقيدتهم الدينية بقدر ما كان الخوف على نظامهم الاجتماعي والاقتصادي الذي يسمح بقيام طبقة أرستقراطية (تجارية) متجبرة على سائر طبقات المجتمع ، وهو نظام رأوا فيما بشر به الرسول خطراً جدياً عليه ، ومن ثم فمن الطبيعي أن يدافعوا عن هذا النظام إلى آخر ما في جعبتهم. أما عن عدم الإشارة إلى العقائد الوثنية فيما وصلنا من الشعر الجاهلي فربما كان مرده إلى موقف الإسلام المتشدد إزاء كل ما يتصل بالوثنية أو يذكر بها أو يغري بالعودة إليها ، ومن بين ذلك مواضع الشعر التي تمجد الوثنية وتتغنى بها ، وهو موقف يمكن أن نجد له شبيهاً في ابتعاد الفن العربي في العصر الإسلامي عن النحت خشية أن تذكر التماثيل المنحوتة بأوثان الجاهلية مع أن هذا الفن كان موجوداً ومزدهراً في عدد من أقسام شبه الجزيرة العربية لفترات طويلة في المرحلة السابقة للإسلام .

والجانب الثاني الذي أفتقده منكرو الشعر الجاهلي في هذا الشعر هو الحياة العقلية وهو يتناقض ، حسبما ذكروا ، مع قدرة الجاهليين على مجادلة الرسول (ص) في شيء كثير من الوعي والذكاء . وهنا يرد أحد الباحثين بأن الشعر الجاهلي ليس خلواً من هذه الحياة العقلية [٢٥] . ونحن في الواقع نجد في عدد

---

(٢٤) اشارة المعارضين للشعر الجاهلي صادقة في عمومها ، وان كان هذا لا يمنع ورود بيت من حين لآخر يشير الى عبادة احد المعبودات الجاهلية مثل الاشارة الى ذي دوار عند امرىء القيس (شيخو والبستاني: المجاني ، المعلقة ، بيت ٦٢) :

فعن لنا سرب كأن نعاجه — عذارى دوار في ملاء مذيل

وعند عامر بن الطفيل (ذات المرجع ، قصيدة يوم فيف الريح ، بيت ٩) :

وقد علموا اني اكر عليهم — عشية فيف الريح كر المدور

(٢٥) محمد الخضر حسين : المرجع ذاته : ص ٥١ .

من مواضع الشعر الجاهلي ما يؤكد هذا الردّ ، ويكفي أن ننظر ، على سبيل المثال ، في الأبيات الأخيرة من معلّقة زهير بن أبي سلمى أو في بعض الأبيات الّتي جاءت في قصيدة النابغة الذبياني الّتي يتحدث فيها عن وشاية ضدّه لدى النعمان بن المنذر أمير الحيرة لكي نتأكد من هذا الردّ (٢٦) . كما أضيف إلى هذا التأييد أننا يجب ألاّ ننتظر من الشعر أن يغلب عليه الطابع العقلاني وإلاّ نكون قد أخرجناه عن طبيعته .

والحديث عن الجوانب الأخرى للحياة في العصر الجاهلي ، وهي الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وهو ما ينكر المعارضون وجوده ، أو على الأقل وجوده بشكل واع . هو الآخر حديث مردود عليه . ففي الجانب السياسي نجد العلاقة مع الروم (البيزنطيين) واضحة ومفصلة في شعر امرىء القيس وهو يصف رحلته إلى بلاد الروم ليلتقي بالقيصر . ويعرّفنا بالسبب الذي دعاه إلى هذه الرحلة ويصف لنا الطريق الّتي قطعها إلى هناك عبر سورية ويحدّد لنا الأماكن الّتي مرّ بها على هذه الطريق . وما الذي ينتظره من قيصر بل يزيد على ذلك ليذكر احتمال نجاحه أو فشله بعد هذه الرحلة . والأعشى يحدثنا عن جانب آخر من علاقات شبه جزيرة العرب بالقوى الدولية الموجودة آنذاك . فيشير . على سبيل المثال ، إلى الصراع بين الحبشة والإمبراطورية الفارسية على اليمن وهكذا (٢٧) .

والشيء ذاته يقال عن الجانب الاقتصادي من الحياة الجاهلية ، فالشعر الجاهلي لم يقتصر على تصوير الجود والكرم والإسراف الذي يشير إلى الثروة ، ولم يتجاهل المعاناة من الحرمان والتعبير عن هذا المعاناة وعن الهوّة السحيقة الّتي

(٢٦) ابيات زهير في ، شيخو والبستاني : ذاته ، المعلقة ، ابيات ٤٩ ــ ٦٤ ، ابيات النابغه ، ذاته ، قصيدة اعتذار ، ابيات ٥ ــ ٧ ، ١١ .
(٢٧) ابيات امرىء القيس ، ذاتـه : قصيدة في طريق بيزنطه ، ابيات ٢٩ ــ ٣٥ . الاعشى ، ذاته ، المعلقة ، بيت ٢٩ .

تفصل بين الطبقات ، وأمامنا في هذا المجال مجموعة من الشعر الجاهلي الذي يعرف بشعر الصعاليك وفيها تظهر المرارة التي أحستها هذه الطبقة المحرومة في شعر الشنْفَرى أحد هؤلاء الشعراء . وفيها كذلك ما كان يلجأ إليه أفراد هذه الطبقة من ممارسات من بينها السرقة من أجل سدّ الرمق ، واللجوء للحيلة لتحقيق الهرب من ملاحقة الطبقة المسيطرة التي لم تكن تتورّع عن التصفية الجسدية في سبيل إحكام سيطرتها على موارد الإنتاج ، وهو موقف يصوّره تأبّط شرّاً (شاعر آخر من شعراء الصعاليك) تصويراً يعبّر ، رغم ما يشيع فيه من روح مرحة ساخرة ، عن هذه الهوّة الساحقة بين طبقات المجتمع الجاهلي [٢٨] .

ولا يقصّر شعر الجاهليين في تصوير الحياة الاجتماعية إلى جانب النواحي الأخرى من حياة المجتمع الجاهلي . فرغم أن الأغلبية الساحقة من الصور التي يقدّمها لنا هذا السفر هي عن حياة البادية ، إلاّ أنّ حياة البحر تظهر في عدد من الصور ، وإن كان هذا العدد ضئيلاً . ولا غرابة في هذا الإقلال من صور الحياة البحرية في الشعر الجاهلي ، فابتداء من القرن السادس الميلادي ، وهو القرن الذي ترجع إليه أغلب قصائد الشعراء الجاهليين كان هناك ركود في النشاط البحري لعرب شبه الجزيرة ، أمام سيطرة اليونان على الخطوط الملاحية بين البحر المتوسط والمحيط الهندي [٢٩] . ومع هذه الظروف التي أدت إلى الإقلال من الشعر البحري ، فإنّ ما قدّمه لنا هذا الشعر من الصور لا يكتفي بالنظرة العامّة أو التشبيه العابر ، ولكنه يتجاوز ذلك إلى عدد من التفاصيل

---

(٢٨) عن الشنفري ، ذاته : لامية العرب ، ١ ــ ٢٨ . عن تأبط شرا ، ذاته : قصيدة غار العسل ، ١ ــ ٩ .

(٢٩) كان هذا احد جوانب التدهور الاقتصادي في العربية الجنوبية في القرن السادس الميلادي . ونلاحظ انه في خلال هذا القرن بدأ التدهور السياسي الذي اتخذ مظهر احتلال قوات غير عربية لهذه المنطقة ابتداء من ٥٢٤/٥٢٥ م. راجع القسم الثالث من هذه الدراسة .

نجدها في شعر طرفة بن العبد والمثقّب العبدي ، وهي تفاصيل تتناول أسماء بعض أجزاء السفينة وطريقة سيرها وتحديد الطرق المائية التي تتخذها والمرافىء التي تتوقف عندها أو تمرّ بها . بل نحن نجد إسماً لأحد الملاحين العرب . يبدو أنه كان مشهوراً آنذاك ، ضمن هذه التفاصيل [٣٠] .

ثم أنقل الحديث الآن إلى مناقشة ما أورده أصحاب الرأي المعارض لوجود الشعر الجاهلي فيما يخص صحّة روايته ومدى أمانة العلماء من رواة القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة . وفي هذا الصدد أشير إلى ما أسلفت ذكره من أنّ الرواية قد تؤدي إلى تغيير أو تحوير أو زيادة أو نقصان ، ولكنّها لا تصل إلى أن يندثر الشعر اندثاراً كاملاً ، بل لا تصل إلى أن تتغيّر الأفكار أو المواضيع الأساسية للشعر تغيّراً كاملاً . وقد رأينا أن الإلياذة والأوديسية قد تداولها اليونان على هيئة مقطوعات وأناشيد متفرقة منذ القرن الثاني عشر ق . م قبل أن يتم إخراجها في صورة معلقتين في أواسط القرن التاسع ق . م . ثم ظلت تنتقل بالرواية الشفهية حتى دونت بعـد ذلك بقرنين أو أكثر ومع ذلك فلم تندثر ولم تتغيّر مواضيعها أو أفكارها . وأزيد هنا أن كل كشف أثري قام بها المنقبون الأثريون منذ القرن الماضي حتى الآن كان يؤكد جانباً أو آخر ممّا جاء في هاتين الملحمتين ، بل إن كشوفاً أثرية أخرى في مناطق غير يونانية وتخصّ حضارات غير يونانية لا تفتأ تؤكد علاقات بين اليونان وبين هذه الحضارات أشارت إليها بعض مقطوعات الملحمتين — وهكذا يبقى الشعر اليوناني الذي ضمّته الملحمتان حتى الآن مصدراً أساسياً لحياة اليونان في العصر الذي يمتدّ عبره هذا الشعر [٣١] .

---

(٣٠) شيخو والبستاني : ذاته ، معلقة طرفه بن العبد ، ابيات ٣ـ٥ . ابيات المثقب العبدي في ، ذاته : قصيدة مـدح عمـرو بن هند ، ابيـات ٣١ ـ ٣٢ .

(٣١) مثال ذلك آثار قصر اجاممنون (قائد الحملة اليونانية الى طروادة في ملحمة الالياذة) في مدينة ميكيني بمنطقـة ارجوس في شبه جزيرة =

والشيء ذاته ينطبق ، بالقياس ، على الشعر الجاهلي الذي لم تستمرّ روايته مدّة تضاهي في طولها المدّة التي استمرّت فيها رواية أشعار الملحمتين اليونانيتين – قد يتغير فيه شيء من هنا أو يزاد عليه أو ينقص منه شيء من هناك ولكن يظلّ محوره كما هو وتظلّ خطوطه الأساسية كما هي دون تغيير . ونحن إذا نظرنا في الواقع إلى عدد من القصائد الجاهلية ولتكن بعض القصائد الطوال التي اشتهرت باسم المعلقات سنجد فيها مصداقاً لهذا الحكم ، فكلّ منها تظهر فيها شخصية الشاعر الخاصّة به ، المستقلّة عن غيره ، بكلّ محورها وملامحها . فرغم أن أغلب الشعراء اشتركوا في بكاء الأطلال والتغزل في المحبوبة ، ووصف البادية والناقة والفرس ، إلاّ أن كل شاعر كانت له نقطة اهتمامه واتجاهه الذي يميّزه عن الآخرين . فامرؤ القيس هو شاعر اللهو والسعي وراء مُلْك يريد أن يحصل عليه ولكنه لا يعطي ذلك من الجدّ ما هو جدير به ويكاد يقدّم اليأس من تحقيق بغيته على الإصرار على الوصول إليها . والنابغة هو شاعر البلاط والاعتذاريات الذي ينتقل من بلاط إلى البلاط الذي يناصبه العداء ، ثم يعود إلى أمير البلاط الأول ليعتذر ويقدّم خضوعه وولاءه من جديد ، وعمرو بن كلثوم هو شاعر الانفعال الغاضب والعصبيّة القبلية التي لا تعرف للآخرين حقوقاً ، وزهير بن أبي سلمى هو شاعر التعقل والسلام والمصالحة بين المتحاربين (من عبس وذبيان) والتحذير من الحقد ومن ويلات الحرب وأهوالها والحكمة المتأنية الهادئة . والحارث بن حلزة هو شاعر المهاترة والتشهير بخصومه والتزلف إلى صاحب السلطان والدسّ لديه ضدّ القبيلة المعادية لقبيلته . ونستطيع أن نذكر الشيء ذاته عن الفرق بين الشعراء الذين

= البلوبونيسوس (المورة) في جنوبي بلاد اليونان ، وآثار قصر نسطور ، (احد قواد الحملة ذاتها) في مدينة بيلوس كذلك في جنوبي بلاد اليونان ، وآثار مدينةاليون (بمنطقة طروادة) عند تل حصارلك تتركيه، ونقوش على جدران معبد الكرنك تتفق وما جاء في الاوديسية، راجع عن هذه النقوش : Breasted : Ancient Egyptian Records المجلد الثالث ، فقرة ٥٨٨ .

كانوا يتغنّون بالإسراف والإفراط في الشراب مثل طرفه وزهير والشعراء الصعاليك الذين كانوا يئنون من شظف العيش ويفضّلون صحبة وحوش البادية على بني قومهم مثل الشنفرى وتأبط شراً ، وهكذا (٣٢) .

كذلك فيما يخصّ الحديث عن رواية العصر الجاهلي فإن هناك أكثر من سبب يدعونا إلى تصديقها في جملتها بغضّ النظر عن أية تفصيلات جانبية فيها . فالقبائل العربية في العصر الجاهلي كانت حريصة كلّ الحرص على القصائد التي تسجّل انتصاراتها وكانت تعتبرها أغلى ما تملك وترويها جيلاً بعد جيل. بل لقد كان لكلّ قبيلة راويتها الذي يعنى بالاحتفاظ في ذاكرته بهذه القصائد وبخاصّة في البادية التي لم يكن شيوع الكتابة فيها بمثل ما كان عليه في الحضر . ونحن نستطيع في الواقع أن نرى أثر ما تميّزت به رواية الشعر الجاهلي من قوة واستمرار فيما نراه من أشعار القرن الأول الهجري مثل جرير والفرزدق وذي الرمّة . لقد استخدم هؤلاء ذخيرة الشعراء الجاهليين مراراً متكررة متناولين الموضوعات ذاتها والأسلوب ذاته . حقيقة إنهم قد يقدمون على تحوير هنا أو تحسين هناك . ولكن يبقى التزامهم بهذه التقاليد الشعرية الجاهلية دون تغيير . وقد كان هذا في الواقع منتظراً . إذ لم توجد فجوة زمنية بين شعراء الجاهلية وشعراء القرن الأول الهجري. وما دمنا قد وصلنا إلى شعراء القرن الأوّل ورواية الشعر الجاهلي على قوّتها . فقد أصبحنا إذن على عتبة القرن الثاني ، وهو عصر العلماء الرواة الذين وصل إلينا عن طريقهم الشعر الجاهلي (٣٣) .

ومع ذلك فإنّ الدلائل تشير إلى أن الرواية لم تكن وحدها هي وسيلة

---

(٣٢) عن طرفه ، شيخو والبستاني ، ذاته ، المعلقة ، أبيات ٤٧–٥٣ و ٦٢–٧٠ . عن زهير ، ذاته : قصيدة هجر آل حصن ، ابيات ١–٤ .

(٣٣) Charles James Lyall : مقدمة ديوان عبيد بن الابرص ، ط دار المعارف ، القاهرة ، صفحات ١٧ – ١٩ .

حفظ الشعر ، فقد عرف الجاهليون الكتابة . ولا أشير هنا إلى النقوش التي اكتشفت في شبه الجزيرة العربية والتي كتبت بخط مغاير للخط العربي الذي استمرت الكتابة به بعد ظهور الإسلام ، وهي نقوش موغلة في القدم بعض الشيء . وإنما أشير إلى النقوش التي كتبت بهذا الخط الأخير الذي أخذ يتدرج في شكله ابتداء من القرن الثالث الميلادي حيث نجد بعض كلمات هذه النقوش مماثلة للخط العربي المعروف في العصر الإسلامي ، ومروراً بالقرن الرابع حيث تزيد نسبة هذه الكلمات بشكل غالب ، إلى القرن السادس حيث يطغى استعمال هذا الخط على النقوش لكي يظهر بعد ذلك وحده في النقوش التي ترجع إلى عهد الرسول (ص) (٣٤) .

وقد يوجد من يقول إنّ النقوش وحدها لا تنهض دليلاً على انتشار الكتابة في ما قبل الإسلام على نطاق واسع أو حتى على نطاق محسوس . فالنقوش التي عثر عليها تشير كلّها تقريباً إلى ملوك (قد لا تعني كلمة ملك هنا أكثر من رئيس قبيلة) وقد نفذت لتخليد مناسبات هامّة ، ومن ثم فهي لا تشير إلى ممارسة يوميّة على المستوى الشعبي . وفي الواقع فقد أشار القرآن الكريم إلى العرب إشارة مباشرة على أنهم أمّيين (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . وقد شاع معنى الأمّيّة منذ العصر الإسلامي على أنّه عدم الإلمام بالقراءة والكتابة ومن ثم أصبح التصاق هذا الوصف بعرب الجاهلية أمراً وارداً (٣٥) . ومع ذلك فالأميّة التي تذكرها الآية الكريمة لا تعني الجهل بالقراءة والكتابة

---

(٣٤) ناصر الدين الاسد : المرجع ذاته ، صفحات ٢٣ ــ ٣٣ .

(٣٥) الآية في سورة الجمعة : ٢ . من كتاب العصر الاسلامي الذين وصفوا عرب الجاهلية بعدم معرفة الكتابة ، الجاحظ : البيان والتبيين ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ج ٣ ، ص ٢٨ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ ، ابن قتيبة : مختلط الحديث ، القاهرة ، ١٣٢٦هـ صفحات ٣٦٥ ــ ٣٦٦ .

وإنما تعني الجهل بما جاء في الكتب السماوية من قيم روحية وأخلاقية واجتماعية. والنصف الثاني من الآية يشير إلى هذا المعنى بشكل واضح ، وهو معنى يؤكّده القرآن في ثلاث آيات أخرى يفرّق فيها بين أهل الكتاب وبين الأميّين ، وفي إحدى هذه الآيات يزيد على هذه التفرقة إشارة مباشرة إلى أنّ بعض هؤلاء « الأميّين » كانوا يكتبون (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلاّ أمانيَّ وإن هم إلاّ يظنون . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم ممّا يكسبون) . (٣٦)

وفي الواقع فإنّ ممارسة الكتابة في المجتمع الجاهلي أمر يؤكّده القرآن بشكل متكرر متواتر ، والقرآن الكريم إلى جانب وصفه ككتاب من عند الله لا يرقى الشكّ إلى ما جاء فيه ، هو كذلك وثيقة ظهرت في هذا المجتمع الجاهلي وكانت آياته تدوّن في عهد الرسول أي في وقت نزولها كما جمعت هذه الآيات المدوّنة في عهد الخليفة عثمان بن عفان بعد سنوات من موت الرسول (ص) . ولا يقتصر القرآن على الإشارة إلى الكتابة ولكنه يشير إلى الكتب والكتّاب وما كانوا يتخذونه من أدوات الكتابة . وفي هذا الصدد يرد ذكر الكتابة ٥١ مرّة ، وسطور الكتابة ثلاث مرات ، والكتاب ٢٦١ مرّة ، والكتّاب مرتين . والقلم ثلاث مرات منها مرّة يقسم فيها به وتسمّى سورة باسمه . والصحف ثماني مرات والرقّ الذي يكتب عليه مرّة واحدة (٣٧) .

وأبادر هنا فأقول إننا لا نستطيع أن نقول إنّ هذه الممارسة للكتابة في العصر الجاهلي كانت أمراً شائعاً في كلّ أقسام المجتمع . ففي مجال المعاملات التجارية يذكر القرآن (وليكتب بينكم كاتب بالعدل) وهي إشارة تدل

(٣٦) سورة البقرة : ٧٨-٧٩ ، والآيتان الاخريان في سورة آل عمران : ٢٠ و ٧٥ .

(٣٧) راجع بعض هذه الاشارات في الباب الخاص بالمصادر الدينية من هذه الدراسة ، وحاشية ٢٢ من الباب ذاته .

على أنّ قلة من القوم هم الذين كانوا يعرفون الكتابة . وهو قول تؤكّده آية أخرى (وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة) [٣٨] وهي إشارة تفيد كذلك أن الكتابة كانت منتشرة بين أهل الحضر في المدن حيث يقيم التجّار أكثر منها في البادية التي تمرّ بها القوافل التجاريّة أثناء سفرها . ولكن مع ذلك تبقى ممارسة الكتابة في المجتمع الجاهلي قائمة ويبقى عدد الذين يعرفون الكتابة كافياً لتدوين العقود والديون وبقية المعاملات بين التجار في مجتمع كانت التجارة تشغل فيه حيّزاً أساسياً بين الموارد الاقتصادية .

وهنا أعود إلى حفظ الشعر عن طريق الكتابة فأقول إنّه إذا كان العرب حريصون على تسجيل معاملاتهم التجارية عن طريق الكتابة . فإن حرصهم لن يقل عن ذلك، إن لم يزد عليه في الواقع ، على تدوين أشعارهم . فالقبائل ، كما أسلفت . كانت تنظر إلى القصائد التي تعدد أمجادها على أنها سجلّ لتخليد هذه الأمجاد. وهو أمر يتّضح لنا من فخر القبائل بانتصاراتها وتمييز الأيام التي حدثت فيها هذه الانتصارات على غيرها من الأيام على أنها أيّام مشهودة ومشهورة يعرفها الجميع دون حاجة إلى استيضاح أو تفصيل [٣٩] ، وما دام الكتّاب أو من يعرفون الكتابة موجودين فيبدو أمراً طبيعياً ومنطقياً أن تلجأ إليهم هذه القبائل لتسجّل القصائد التي يرد فيها ذكر هذه الانتصارات — وهو أمر يصبح وارداً بشكل أكثر إذا أدخلنا في اعتبارنا أنّ بعض هذه القصائد كان يكتب على امتداد أكثر من مناسبة كما هو واضح . على سبيل المثال . في معلّقة عمرو بن كلثوم . وما دام الأمر كذلك فإنّه يصبح طبيعيّاً أن

---

(٣٨) الآيتان بالترتيب في ، البقرة : ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٣٩) راجع الابيات في ، شيخو والبستاني : المرجع ذاته ، على سبيل المثال ، يوم الجفار بين تميم وبكر ، شعر النابغة ، قصيدة الرد على عيينه، بيت ١٦ ، يوم بارق بين شيبان وتغلب ، شعر الاسود بن يعفر ، قصيدة ذكرى ، بيت ٩ ، كذلك يوم فطيمة بين هاتين القبيلتين ، شعر الاعشى ، المعلقة ، بيت ٦٠ .

يحرص الشعراء الكبار ، على الأقلّ ، على تدوين قصائدهم التي نجدها مليئة بما يفخرون به من فروسية وبطولة وكرم وإباء، يتشبثون بذكر ذلك كلّه بمناسبة وبغير مناسبة ويصلون في حرصهم هذا إلى قدر كبير من المبالغة كأنما يريدون أن يسمعوا كلّ قبائل العرب بهذه الأمجاد .

ويبقى الحديث في نهاية هذا الموضوع عن الرواة من علماء القرنين الثاني والثالث بعد الهجرة وما دار بينهم من اتّهامات يشكّك من خلالها كلّ فريق في رواية الفريق الآخر . وعلى سبيل مثال واحد من هذه الاتّهامات فقد نُسب إلى المفضّل بن محمد الضبّي ، صاحب « المفضّليات » أنّه قال عن حماد الراوية إنّه « رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم . فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ثم يدخله في شعره . ويحمل ذلك عنه في الآفاق . فتختلط أشعار القدماء ولا يتميّز الصحيح منها إلاّ عند عالم ناقد ، وأين ذلك ! » . ويردّد أحد النّقاد من المستشرقين وهو تشارلز لايال Charles Lyail . على هذا الحديث المنسوب إلى المفضل ، أنّه على افتراض أن المفضّل قال ذلك فعلاً (حسبما يروي صاحب الأغاني) : وحتى لو سلّمنا بأن حمّاداً كان ينحل الشعر فيشبه شعر الشاعر الحقيقي بحيث يستحيل التمييز بين الأصيل والمنحول . فكيف أمكن أن يُعرف أنّه منحول إذا لم يكن هناك من يعرف القصيدة في صورتها الأولى من غير ما أضيف إليها من زيادات موضوعة . فإذا أدخلنا في اعتبارنا أن المفضّل كان من أعلم الناس بالشعر وأقدرهم على تمييز صحيحه من منحوله يصبح الاستنتاج السليم هو أن المفضّل نفسه كان يعرف الشعر الصحيح . ثم يستطرد المستشرق في رده ليقول إنّ حمّاداً إذا كان يحاكي الشعر القديم فإنّ ذلك يدلّ على وجود أصل يحاكيه حمّاد ، فإذا قلنا إنّ ما بين أيدينا ليس سوى الصور المنحولة وإنه لم يتبقّ شيء من الأصل نفسه فإنّ ذلك أمر لا يقرّه الفهم السليم للأمور [٤٠] .

---

(٤٠) اتهام الضبي لحماد يرد في الاغاني ، طبعة دار الكتب ، القاهرة ، ج ٦ ، ص ٨٩ الدفاع عن الرواة في المفضليات ، تحقيق ليال ، ج ٢ ، المقدمة ، صفحات ١٩ ــ ٢١ .

وممّا يمكن أن نضيفه في هذا الصدد إلى رأي المستشرق ، رأي نادي به أحد العلماء العرب وهو ابن جنّي في كتابه « الخصائص » يشير فيه إلى الخصومة بين العلماء الرواة من أهل البصرة وأهل الكوفة ، وهي الخصومة التي أدت إلى تبادل قدر كبير من الاتهامات فيما بينهم ، ومؤدّى هذا الرأي هو أنّ هذه الاتهامات المتبادلة في حدّ ذاتها أمر يدعو إلى حرص هؤلاء العلماء والرواة على تحرّي الدقّة فيما ينسبونه إلى الشعراء من شعر . والسبب في ذلك هو أنّه « إذا سبق إلى أحدهم ظِنّه ، أو توجّهت نحوه شبهة سُبَّ بها وبُرِىء إلى الله منه لمكانها » (٤١) .

وفي الواقع فإنه لا ينبغي لنا أن نبالغ في صحّة هذه الاتهامات المتبادلة بين العلماء الرواة من أهل الكوفة وأهل البصرة . فإنّ سبب هذه الاتهامات يمكن أن نفهمه بسهولة إذ عرفنا أنّ علماء كلّ من المدينتين كانوا يشكلون منهجاً أو مذهباً خاصاً بهم في معالجتهم لرواية الشعر ومن ثم لقبول بعض القصائد واستبعاد البعض الآخر . فمنهج علماء البصرة كان فيه اتجاه نحو استخراج القواعد والقوانين التي يرون أنها تصلح قاعدة تقاس عليها صحّة الشعر أو زيفه ومن ثمّ كانوا ميالين بالضرورة إلى التضييق في اختيارهم . التزاماً بما وضعوه من قواعد لا يمكن الخروج عنها . أمّا الكوفيون فقد كان منهجهم قائماً على فهم روح اللغة واستبطان طبيعتها . ومن ثم فقد كانوا يقبلون صحّة القصيدة طالما لم تخالف هذه الروح أو تغاير هذه الطبيعة دون التقيّد بقواعد تعليمية مقنّنة . ومن هنا فقد كانوا يميلون نحو التوسيع . وطبيعي أن يؤدّي هذا الاختلاف العلمي بين المدرستين الفكريتين إلى شيء من الاتهامات المتبادلة من حين إلى حين (٤٢) .

---

(٤١) ابن جني : الخصائص ، ط دار الهلال ، القاهرة ، ١٩١٣ ، باب « في صدق النقلة وثقة الرواة والحملة » مقتبس في ناصر الدين الاسد : المرجع ذاته ، صفحات ٤٦٤ ـ ٤٦٥ .
(٤٢) ناصر الدين الاسد : المرجع ذاته ، ص ٤٣٦ .

وفي ضوء هذا الاعتبار . وفي ضوء ما أسلفت الإشارة إليه من أن تدوين الشعر الجاهلي أو تدوين بعض منه على الأقل ، ومن أنّ الرواية (أو الرواية والتدوين) كانت مستمرة بين العصر الجاهلي والقرن الأول الهجري كما سبق أن رأينا ذلك لدى شعراء هذا القرن الذين أسلموه إلى العلماء والرواة ابتداء من القرن الثاني ، فإنّي أويّد ما ذهب إليه أحد الباحثين العرب المعاصرين المتخصّصين في الشعر الجاهلي من « أن بعض . . . المدونات الشعرية الأولى قد وصلت إلى علماء الطبقة الأولى من الرواة . وأنهم اعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم لهذه الدواوين التي رواها عنهم تلاميذهم . وأن هؤلاء العلماء الرواة في القرن الثاني الهجري كانوا يعتمدون — هم وتلاميذهم —نسخاً مكتوبة من هذه الدواوين في مجالس علمهم وحلقات دروسهم . وأن الشيخ منهم كان يقرأ شعر الشاعر من نسخته . أو يقرأها أحد تلاميذه . ثم يعقّب الشيخ على الشعر بالشرح والنقد والتحقيق والتمحيص »[٤٣] .

ويستطرد الباحث ليذكر أنّه إلى جانب هذه المدوّنات كانت هناك الرواية بطبيعة الحال ، يحصل عليها العالم من شعراء من قبيلة الشاعر تناقلوها جيلاً بعد جيل ، كما كان هناك تداول العلماء الرواة فيما بينهم يعرف الواحد منهم من الآخر ما قد يكون عل علم به من قصائد أخرى أو يعرف منه أنّ شعراً قد نسب إلى أحد الشعراء خطأأو نُحِلَه هذا الشاعر عمداً . ثم يقرأ هذا على تلاميذه ويتناقشون فيه وينتهي إلى أن يزيد أو يُنقص في مدّونته من شعر في ضوء كلّ هذا . « ثم جاء علماء الطبقة الثالثة ومن تلاهم من العلماء — بين منتصف القرن الثالث ونهاية القرن الخامس الهجري—فوجدوا بين أيديهم نسخاً متعدّدة لديوان واحد ، رويت كلّ نسخة عن واحد من علماء الطبقة الأولى في البصرة أو الكوفة . فصنع هؤلاء العلماء المتأخرون نسخاً جديدة أفرغوا فيها جميع روايات العلماء السابقين . وأشاروا في مواطن كثيرة إلى أن

(٤٣) المؤلف ذاته : المرجع ذاته ، ص ٤٨٢ .

هذه القصيدة من رواية فلان أو فلان ، أو أن هذه الأبيات لم يروها فلان ، أو أن فلاناً قال إنّ هذه القصيدة أو تلك الأبيات ليست لهذا الشاعر وتنسب إلى شاعر غيره يسمّيه » (٤٤).

٤ ـ حول مجالات الشعر الجاهلي :

وأختم هذا الحديث بكلمة سريعة أضمّنها بعض الملاحظات التي ينبغي أن ندخلها في اعتبارنا ونحن بصدد الاعتماد على الشعر الجاهلي كمصدر من المصادر التاريخية التي نتعرف خلالها على أحوال شبه جزيرة العرب في العصر السابق للإسلام . ثم بعض المجالات التي نستطيع أن نتعرف من خلالها على حياة هذا المجتمع الجاهلي في جوانبه المختلفة . وأولى الملاحظات في هذ الصدد هي أنّ الشعر الجاهلي لا يغطّي إلاّ فترة قصيرة من عصر ما قبل الإسلام . فبينما ظهر العرب في علاقاتهم الخارجية كمجموعة بشرية لها هويتها أو شخصيتها الجماعية منذ القرن العاشر ق . م . على الأقلّ . أي قبل ظهور الدعوة الإسلامية بستة عشر قرناً أو يزيد . نجد ما وصلنا من هذا الشعر لا يتخطّى بدايات القرن السادس الميلادي أي أنه يغطّي قرناً واحداً قبل العصر الإسلامي . ومن ثم فالإشارات التي ترد فيه عن أحوال مجتمع شبه الجزيرة قبل الإسلام يجب أن نتعامل معها وفي ذهننا هذا الاعتبار .

وهنا أودّ أن أشير إلى نوع هذا التعامل . فإذا كانت الإشارة إلى حدث . مثل يوم أو آخر من أيام العرب التي تغنّوا بها في مواضع عديدة من هذا الشعر فإنّ قدراً كبيراً من التدقيق يصبح وارداً لتحديد المسافة الزمنية التي وقع فيها هذا الحدث . وفي هذا المجال تصبح الاستعانة بمصادر أخرى (كلّما أمكن ذلك) أمراً واجباً . سواء كانت هذه المصادر نقوشاً أو نصوصاً أو آثاراً تعطينا قرينة أو ملابسة تساعدنا على هذا التحديد . كما هو الحال . على سبيل

(٤٤) المؤلف ذاته : المرجع ذاته . ص ٤٨٣ .

المثال . في إشارة امرىء القيس إلى رحلته إلى بيزنطة [٤٥] التي يمكن أن نتعرف على تاريخها بصورة يمكن أن تكون محددة بقدر لا بأس به إذا تعرّفنا على التيارات السياسية التي كانت تحيط بشبه الجزيرة في النصف الأول من القرن السادس الميلادي . والشيء ذاته ينطبق على الخلاف الذي نشب بين بكر وتغلب وتحاكمت فيه القبيلتان إلى عمرو بن هند أمير الحيرة . وهو الخلاف الذي كان فيه عمرو بن كلثوم متكلماً باسم تغلب والحرث بن حلزة اليشكري متكلماً باسم قبيلة بكر . والذي فتك فيه عمرو بن كلثوم بالأمير .

أمّا إذا كانت الإشارة الواردة في إحدى القصائد تتعلّق بعادة أو تقليد أو عبادة أو نوع من الثياب أو الأدوات أو السلاح . فإنّ التقيّد بحدود القرن السادس الميلادي يصبح أمراً غير ضروري في هذا الصدد . فهذه المجالات وإن كانت تتغيّر من زمن إلى زمن . إلاّ أنّ تغيّرها يكون أمراً يساعد الباحث في أن يتعرّف على مدى التغيير أو التطوّر الذي حدث . وهنا نجد في المصادر الكلاسيكية شيئاً كثيراً عن العادات والتقاليد والنظم السياسية أو الاجتماعية التي كانت سائدة في عدد كبير من أقسام شبه الجزيرة يمكن من خلاله أن نسبر غور أي تطوّر في مجال أو آخر من هذه المجالات . اعتماداً على معرفتنا بالوقت الذي كتبت فيه هذه المصادر الكلاسيكية . هذا علماً بأن هذا التعرف يمكن أن يتمّ كذلك عن طريق ما يمكن أن نستنتجه من الآثار أو من بعض النقوش أو من المصادر الدينية . كما أشير في ختام هذه الملاحظة إلى أنّ التغيير أو التطوّر لا يتمّ بالضرورة بنفس السرعة أو البطء في كلّ المجالات . فالعصبية القبلية ، على سبيل المثال . أمر لا يكاد يتغيّر عبر العصور حيث أنها ركيزة حيوية من الشام أو من العراق [٤٦] في فترة من الفترات التي تكون فيها

(٤٥) شيخو والبستاني : ذاته ، عن رحلة بيزنطة ، قصيدة في طريق بيزنطية ابيات ٢٩ وما بعدها .

(٤٦) الابيات التي تشير الى هذه الثياب ، ذاته : قصيدة امرىءالقيس، لدى ام جندب ، بيت ١٠ ، قصيدة الشاعر ذاته ، يوم صيد ، بيت ٣ .

الخطوط التجارية نشطة بين هاتين المنطقتين ومن ثم يصبح استيراد مثل هذه الثياب أمراً وارداً وهكذا .

والملاحظة الثانية التي أودّ أن أوردها في مجال الأعتماد على الشعر الجاهلي كمصدر لأحوال شبه الجزيرة في العصر السابق للإسلام ، هي أنّ رغم كلّ ما ثبت لنا من أنّ الشعر الجاهلي وجد وازدهر ولم يكن منحولاً في فترة لاحقة للعصر الجاهلي . إلاّ أنّ هذا لا يعني أن كلّ قصيدة وردت في هذا الشعر هي قصيدة أصيلة . أو أنّ كل بيت من أبيات هذه القصائد هو بيت أصيل بالضرورة . فاحتمال التغيير أو الزيادة في الأبيات أو في القصائد يظلّ أمراً محتملاً . ومن ثم يجب أن يدخل الاعتبار والسبيل المعقولة التي نقترب بها من الاطمئنان في هذا الصدد هي مقارنة هذا الشعر ببعضه حتى يكتسب الباحث تصوّراً عاماً للمجتمع الجاهلي تتواتر فيه إشارات أو أبعاد معينة فيصبح ما يتواءم معها أصيلاً وما لا يتواءم معها دخيلاً أو منحولاً أو على الأقل يجب التوقف عنده تحقيقاً وتمحيصاً .

أما الملاحظة الثالثة فهي تخص ما سبق أن أشرت إليه في بداية الحديث من المبالغة المتنتظرة في الشعر سواء أكان هذا شعراً يخص المجتمع العربي الجاهلي أو في الواقع أيّ مجتمع آخر . وأودّ هنا أن أضيف كلمة أو كلمتين تخصّ معنى المبالغة . ففي بعض الأحيان تكون هذه المبالغة من النوع العادي الذي يسهل إدراكه بشيء من الاحتراس . كما هو الحال . مثلاً . في قول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا

بينما نعرف أن القرن السادس الميلادي الذي ظهر فيه عمرو بن كلثوم كزعيم لقبيلته تغلب لم يكن في الواقع فترة ازدهار بالنسبة للنشاط البحري

العربي مثل بعض الفترات التي سبقته (٤٧) . ولكن في أحيان أخرى قد تتخذ هذه المبالغة شكلاً آخر . فقد نجد شاعراً يسمعنا صوت العقل والتروّي والحكمة التي قد تصوّر موقفه بعد الحدث ، أو تصوّر ما كان يودّ أن يكون عليه موقفه ، بينما ما حدث فعلاً قد يكون أقل تعقلاً أو رويّة أو حكمة في بعض الأحيان أو حتى في أغلبها . كذلك يجدر بالباحث الذي يريد تصوير حياة المجتمع العربي الجاهلي من خلال الشعر الجاهلي أن يتوقف قليلاً قبل أن يعطي بعض الصفات التي تظهر في هذا الشعر أبعادها الحقيقية . فصفة الكرم التي تتردد كثيراً في الشعر الجاهلي هي صفة حقيقية ، بل إنها صفة تدعو إليها طبيعة شبه الجزيرة فعلاً . وهي طبيعة قد تقسو على المتنقّل في الصحراء لسبب أو لآخر بحيث تنقطع عنه موارده أحياناً . ومن ثمّ يصبح اعتماده على كرم الآخرين في بعض الحالات أمراً حيوياً . ومن ثم فإن احتمال ورود هذا الموقف يجعل هناك نوعاً من التفاهم الجماعي ، حتى ولو كان صامتاً . على أن الكرم أو قرى الضيف دعامة أساسية في هذا المجتمع الذي قد يكون فيه أيّ فرد مهما كان مركزه عرضة لهذا الموقف . ولكن مع ذلك ففي بعض الأحيان قد يكون الكرم أقرب إلى البذخ الطبقي منه إلى هذا النوع من الكرم الحقيقي . وهو تصوّر يستطيع الباحث أن يستنتجه إذا ما سمع من الطرف الآخر بعض ما تركه لنا صعاليك العرب من شعر يئنون فيه أنيناً مسموعاً من الضيق الذي يعيشون فيه ومن تقاعس الطبقة الثرية القادرة عن مدّ يد المعونة إليهم (٤٨) .

أمّا المجالات التي يمكن أن نعتمد فيها على الشعر الجاهلي ، في حدود هذه الملاحظات ، فإنها تشمل كلّ جانب من جوانب الحياة في المجتمع العربي

---

(٤٧) راجع الحياة الاقتصادية في شبه الجزيرة في القسم الثالث من هذه الدراسة .

(٤٨) راجع ما جاء عن شعر الشنفري وتأبط شرا في حاشية ٨ ، اعلاه.

قبل الإسلام ، ومن الممكن أن نتعرف منه على تصوّر متكامل أو قريب من المتكامل لهذا المجتمع . فنحن نسمع في هذا الشعر عن قدر كبير من الأسماء ، من بينهم ملوك أو أمراء وروساء قبائل وأشخاص ينتمون إلى كلّ طبقة أو فئة من طبقات المجتمع الجاهلي وفئاته . وقد لا يفيدنا التعرف على بعض هذه الأسماء في بعض الإحيان . ولكن عدداً منها يمكن أن نعتمد عليه ، إذا أخذناه مع الملابسات التي تحيط به . في تكوين صورة عن العلاقات التي ضمّها هذا المجتمع . كذلك فإنّ أسماء الرهوط والقبائل تساعدنا في تصور التكوين القبلي والعشائري الذي يشكل المقوم الأساسي من مقوّمات الحياة في شبه الجزيرة في الفترة السابقة لظهور الدعوة الإسلامية ، وهو في الواقع مقوّم ظلّ وارداً حتى بعد ظهور هذه الدعوة وظهور الدولة الموحّدة عند استتبابها .

كذلك فنحن نتعرف من هذا الشعر على قدر كبير من الأماكن والبلدان والمحالّ والآبار ، بل أكثر من ذلك في تعرفنا على عدد من الأماكن نلمس اهتمام سكان شبه الجزيرة بالتكوينات التي يتسم بها سطح المنطقة . الأماكن المرتفعة والمنخفضة والدارات والحرّات والبطون والكثبان . وهو اهتمام له ما يبرره . إذ هو الذي يحدّد المناطق الصالحة للسكنى أو لمضارب الخيام . كما يحدّد مسار القوافل وأماكن الرعي . وهو من ثم يساعد الباحث التاريخي على التعرف على مناطق العمران وتوزيعها ، وعلى اتجاه الطرق التجارية أو المسالك بين قسم وآخر أو قبيلة أو أخرى في شبه الجزيرة — الأمر الذي يساعد في إعطاء تصوّر كامل لحركة المجتمع الذي كان يقطن المنطقة في الفترة السابقة للإسلام .

وإلى جانب هذا ، فهناك الايام والمعارك التي سجلها الشعر الجاهلي في عديد من قصائده التي وصلت إلينا مثل حرب السباق (حرب داحس والغبراء) ويوم بارق بين شيبان وتغلب ويوم الجفار بين تميم وبكر ويوم حليمة بين

الغساسنة والمناذرة ويوم خزازى بين نزار واليمن ويوم عراعر بين عبس وكلب ويوم ذي قار بين شيبان والفرس وغيرهـــا . كذلك هنـــاك الأسلحة التي نستطيع أن نتعرف على أنواعها ممّا جاء في الشعر الجاهلي مثل البيضة والترس والدرع وتفاصيلها وأنواعها مثل البدن والحلق والدلاص والزّعف والقدّ واللأمة والماذية ، والأسماء التي أعطاها عرب الجاهلية للرمح مثل الأسل والأسنة والخطي . وتلك التي أعطوها للسيف مثل الأبيض والباتك والحسام المهند والعضب والفيصل والقضيب والمشرفيّ واليماني والهندواني . إلى آخر هذه الأوصاف التي يلقى عدد منها ضوءاً على المناطق التي كانت تصنع فيها أو تستورد منها وعلى الطرز التي كانت تتبع في صناعتها .

ولا أريد أن أستطرد في ذكر كلّ الجوانب التي تطرق إليها الشعر الجاهلي ، كمرآة لحياة المجتمع . يتطرق في الواقع إلى كلّ جوانب الحياة في هذا المجتمع وإنما أشير إلى ما تبقى منها مجرّد إشارة في نهاية هذا الحديث . فبعضها يخصّ أنواع المعبودات والمعتقدات والتقاليد والعادات . وبعضها يخصّ الكواكب والأبراج . وقد كان العلم بها أو تصوّرها بشكل أو بآخر أمراً هاماً بالنسبة لمجتمع شبه الجزيرة التي كانت مراقبة النجوم في سمائه الصافية أمراً أساسياً لتحديد الاتجاه في الامتدادات الصحراوية المتشابهة في كثير من الأحيان ، بينما كانت قراءة الطالع ممارسة متعارف عليها للتنبؤ بأحداث المستقبل حتى التصوّر السائد في هذا المجتمع . وأخيراً فهناك أنواع النبات والحيوان التي عرفها مجتمع شبه الجزيرة في العصر الجاهلي والتي لا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده . وهنا يستطيع الباحث أن يعرف مدى أهمية بعض هذه الحيوانات بالنسبة لابن المجتمع العربي الجاهلي بتتبعه مدى الترداد في ذكر هذا الحيوان أو ذاك أو التفصيل في ذكر أحواله وأنواعه وحركاته ومراحل نموّه وألوانه وهكذا . كما هو الحال . على سبيل المثال ، فيما يخصّ الإبل والخيل والظباء .

القسم الثالث

المجتمع

الباب الثامن : الموارد الاقتصادية

الباب التاسع : الاوضاع الداخلية

الباب العاشر : العلاقات الخارجية

الباب الثامن

الوضع الاقتصادي

الوضع الاقتصادي في شبه جزيرة العرب في العصور السابقة لظهور الإسلام تبرز فيه ظاهرة واضحة هي تنوع الموارد . وهذه الظاهرة جاءت نتيجة لعاملين : الأول هو تنوع طبيعة الأرض والمناخ التي انعكست في تدرج تظهر فيه المناطق الصحراوية التي لا تصلح إلاّ للرعي المتنقل حيث تصل الطبيعة إلى أقساها سواء في قلة الخصوبة أو في ندرة المطر ويصبح بقاء أهل البادية في منطقة معينة لموسم معين رهن بظهور بعض العشب من حين لآخر . وتظهر فيه مناطق أخرى أقل قسوة في طبيعتها من هذه ؛ فيكثر العشب لفترات طويلة نسبيّاً ومن ثم يقترب أهل البادية من الرعاة إلى صفة الإقامة الثابتة في المناطق التي توجد فيها مراعيهم . مثل المناطق التي توجد على حافة الهلال الخصيب مجاورة لوادي الرافدين من جهة وللمنطقة السورية من جهة أخرى . كذلك تظهر في هذا التدرج الطبيعي بعض الواحات أو مجموعات الواحات التي يوجد فيها عدد من العيون أو الينابيع التي تمكّن من قدر لا بأس به من الزراعة ، مثل بعض الواحات الموجودة في نجد أو الحجاز أو القسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة . كما تظهر أخيراً المناطق التي تحظى بتربة خصبة وتغزر فيها الأمطار الموسميّة مثل القسم الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة حيث تجود

الزراعة في أكثر من موسم وتوجد الغابات الطبيعية أو المزروعة من أشجار الطيوب والبخور في منطقة اليمن ، ثم كان هناك ، إلى جانب هذا التدرج النباتي ، بعض المعادن التي وجدت في مناطق متفرقة في أرض شبه الجزيرة .

أما العامل الثاني الذي أضاف إلى هذا التنوع في الموارد فهو الموقع الجغرافي الذي تحتله شبه جزيرة العرب براً وبحراً بين مناطق الشرقين الأوسط والأقصى في الشرق من جهة ، وبين المناطق المطلّة على البحر المتوسط في الغرب من جهة أخرى ، وهكذا كانت المعبر الطبيعي ، وفي بعض الأحيان المنطلق الطبيعي ، لقوافل التجارة البرية والبحرية بين المنطقتين . وقد زاد من قيمة المورد التجاري الناتج عن هذا الوضع البري والبحري الوسيط ، عنصر تاريخي يتصل ببعض الأوضاع التي كانت سائدة في العصر القديم . ففي ذلك العصر كانت الطيوب والبخور تشكل سلعة أساسية لا غنى عنها في الحياة اليومية سواء في التزيّن أو في الطقوس والشعائر الدينية في المنزل والمعبد والصفقات التجارية والاجتماعية السياسية والمباريات الرياضية واحتفالات الزواج والمراسم الجنائزية ، وفي الواقع كلّ ما يقدم عليه الأفراد أو المجتمع من ممارسات . وقد كانت شبه جزيرة العرب إمّا منتجة لهذه الطيوب وإمّا وسيطاً تجارياً يستوردها ، هي وغيرها من السلع ، من جهة ليصدّرها إلى الجهة الأخرى .

١ ـ الرعي :

أ ـ الرعي والرعاة

ولنبدأ بالحديث عن الرعي الذي كان يشكل بنوعيه ، الثابت والمتنقل ، المورد الاقتصادي ، أو مورد الإنتاج الرئيسي في القسم الأكبر من شبه الجزيرة العربية بحكم الطبيعة الجغرافية للمنطقة . وفي هذا الصدد كان رعي الإبل هو النوع الأساسي من الرعي في الأماكن التي يقل فيها العشب في المناطق الموغلة في الصحراء حيث يندر الماء ومن ثمّ يصبح التنقل وراء مناطق العشب ضرورة

أساسية في حياة الرعاة . فالجمل ، كما مرّ بنا في حديث سابق [1] ، له صفات تلائم هذه الطبيعة الجغرافية أكثر من غيره . أهمها الصبر على العطش لأيام طويلة . وثانيتها قدرته على السير في المناطق الرملية بسبب طبيعة التكوين الاسفنجي التي تتميز بها أخفافه ممّا يعطيه ميزة في هذا المجال على غيره من الدواب . وثالثة هذه الصفات قدرته الفائقة على نقل قدر من الأحمال تعجز عن نقلها هذه الدواب الأخرى — وهكذا كانت الإبل الحليف الأول لرعاة البادية في تنقلهم ، ومن حليبها ولحمها . وإلى جانب ما يحصلون عليه من تمر من هنـــا وهناك كان غذاوهم الرئيسي . أمّا الأماكن الغنية بالعشب القريبة من الماء والواقعة على حواف السهول الزراعية . سواء على تخوم وادي الرافدين أو المنطقة السورية أو اليمن . فكانت يكثر فيها رعي الغنم أساساً ، والخيول والماشية في بعض الأحيان . بسبب افتقار هذه الدواب لميزات الإبل ، سواء فيما يخصّ تحمل العطش أو القدرة على السير في المناطق الرملية لمسافات طويلة أو على نقل أحمال ثقيلة .

وقد كانت أرض المراعي مشاعاً بين القبيلة حيثما تستقر في مناطق العشب لفترة تطول أو تقصر . وهو أمر أملته ظروف الطبيعة والتعايش معها . وهكذا أصبح قانوناً ملازماً لرعاة البادية سواء في العصور السابقة الإسلام أو حتى بعد ظهور الإسلام حيث تجده ينعكس في حديث للرسول (ص) يقول فيه : « الناس شركاء في ثلاث : الماء والنار والكلأ ». ولكن هذه الملكية العامّة أو المشاع لم تمنع من وجود أراضي بداخلها تدخل في نطاق الملكية الخاصّة (طوال الفترة التي توجد فيها القبيلة في منطقة أو أخرى من مناطق العشب) ، هذه الأراضي هي « الأحماء » التي كان الانتفاع بها قاصراً على بعض أفراد أو مجموعات القبيلة . كلّ حمى منها يدخل في نفوذ زعيم أو آخر هو وأتباعه من زعماء القبيلة . ترعى إبله فيه وحدها ، إلى جانب الانتفاع بأراضي الرعي

---

(١) راجع الباب الثالث من هذه الدراسة ، الخاص بالملامح الجغرافية.

المشاع التي ترعى فيها إبل القبيلة بأكملها . ولنا أن نتصور أن هذا الحق كان يتمتع به رئيس القبيلة أو من كان لهم . لسبب أو لآخر . نوع من البأس أو السطوة أو النفوذ فيها . ولكن على أيّ الأحوال فإنّ ملكية أراضي المراعي ، سواء في ذلك الأرض المشاع أو الأحماء الخاصّة كانت بالضرورة ملكية مؤقتة . فهي ملكية تستمر طالما وجد عشب في المنطقة ، فإذا تركت القبيلة أرضها إنتجاعاً لعشب في منطقة أخرى وحلت محلّها قبيلة أخرى صارت الأرض ملكاً لهذه القبيلة الجديدة . والوضع ذاته يقال إذا ضعفت قبيلة وتمكنت قبيلة أخرى من إجلائها عن أرضها فتصبح الأرض ملكاً للقبيلة الغالبة [٢] .

ب ـ الموارد المكملة لحياة الرعاة

على أنّ الرعي . إذا كان يشكل المورد الأساسي لرعاة البادية العربية . فإنّه لم يكن بأية حال هو موردهم الوحيد . وإنما كان هناك إلى جانب ما يمكن أن نسميه موارد مساعدة : فرعاة البادية كانوا يحومون في كثير من الأحيان حول الواحات التي تقع بالقرب من الأراضي التي يرعون فيها ويحصلون بطريقة أو بأخرى على جزء من محصول التمر الذي ينتجه النخيل في الواحات ، إمّا عن طريق القوّة الساخرة بشقّ غارات على هذه الواحات ونهب جزء من محصولها أو عن طريق القوّة المقنعة بفرض نسبة يحصلون عليها من هذا التمر لقاء عدم تعرّضهم لسكان هذه الواحات أو لحمايتهم من أيّ مغيرين آخرين.[٣] كذلك كانت قبائل البادية تنتفع بمرور القوافل التجارية في أرضها فتحصل القبيلة على أجر معلوم من هذه القوافل لقاء إرشادها وتوقفها وتقويم ما تحتاج إليه من خدمات على طول الطرق التي تقع عبر أرضها ولقاء حمايتها أثناء

---

(٢) جواد علي : ذاته . ط ١ . ج ٧ (بيروت ١٩٧١) ، ص ٩٧ .

(٣) Henri Lammens : Le Berceau de l'Islam (Romae ١٩١٤) ص ٨٥ .
كذلك Hitti : ذاته . ص ٢٥

مرورها في هذه الطرق . وفي هذا الصدد يذكر لنا الكاتب اليوناني أرتميدوروس في أوائل القرن الأول ق . م . مشيراً إلى قوافل البخور والطيوب الآتية من جنوبي شبه الجزيرة أن « سكان كلّ منطقة كانوا يسلّمونها لسكان المنطقة التي تليهم حتى تصل (هذه القوافل) إلى سوريه » (٤) — وواضح أنّ حديث الكاتب يشير إلى إرشاد هذه القوافل وخدمتها وحمايتها أثناء عبورها في أرض كل قبيلة لقاء مقابل مادّي لذلك .

أمّا الدور الثالث الذي كان يقوم بها رعاة البادية كمورد مساعد لموردهم الاقتصادي الأساسي (وهو الرعي) فقد كان الوساطة بين البادية والحضر ، وهو دور كان يتطوّر في بعض الأحيان ليصل إلى حجم أكبر بكثير من الحجم الذي ابتدأ به . وقد كان الرعاة الذين يقومون بهذه الوساطة هم أهل البوادي التي تتاخم المناطق السهلية الواسعة الخصبة أو التي على قدر من الخصوبة والتي كانت تقوم بها الدول المتاخمة للصحراء سواء في وادي الرافدين أو المنطقة السورية . حقيقة إن حكومات هذه الدول كانت تحترس من غارات أهل البادية بإقامة مناطق للحراسة ، ولكن كان يسمح لهؤلاء البدو بالقيام بنوع من التبادل التجاري مع المدن الواقعة عند الحدود . يحملون إليها بعض نتاج البادية من الأغنام أو وبر الجمال الذي يصلح لبعض أنواع النسيج ليبادلوا بها بعض السلع التي يحتاج إليها أهل البادية . وفي بعض الأحيان يتطوّر هذا التعامل . على نحو ما أشرت في حديث سابق . فيحصل هؤلاء البدو على نوع من الإقامة في بعض الأراضي الواقعة على حدود الدولة . وقد يزاولون الزراعة أو بعض المهن في هذه الأراضي ، كما قد ينخرطون كجند مرتزقة في قوات هذه الدولة (٥) . وقد وصل حجم هذه الوساطة إلى ذروته حين كانت الدول

---

(٤) منقول في Strabo : XVI, 4 : 19 وقد اشتهر ارتميدوروس بين ١٠٤ و١٠١ ق.م .

(٥) راجع الباب الثاني من هذه الدراسة . الخاص بالساميين وشبه الجزيرة والعرب .

المتاخمة لشبه الجزيرة العربية تعتمد على مناطق البادية المتاخمة لها فتتخذ منها مناطق تابعة تصدّ عنها أية غارات خارجية . سواء أجاءت هذه الغارات من القبائل البدوية أو دول أخرى . ومثل هذا حدث في حالة الإمبراطورية الفارسية التي كانت تسيطر على منطقة وادي الرافدين وفي حالة الدولة البيزنطية التي كانت تسيطر على المنطقة السورية . لقد حولت كلّ من الإمبراطوريتين المنطقة البـــدوية المتاخمة لها إلى إمارة تابعة لها — الإمبراطورية تساعدها وتساندها ماديّاً وفي مقابل ذلك تقوم هذه الإمارة بالتصدّي لأية غارات من الجانب الآخر (أو من بدو الصحراء) على حدودها . وهكذا قامت إمارة المناذرة على الحدود الغربية لوادي الرافدين ، وإمارة الغساسنة على الحدود الشرقية للمنطقة السورية . في حدود هذا المفهوم الذي أشرت إليه .

٢ — الزراعة والمحاصيل الطبيعية :

أ — المورد الزراعي

المورد الثاني من الموارد الاقتصادية أو موارد الإنتاج في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام هو الزراعة . وفي هذا المجال فهناك تصور سائد مؤداه أن الزراعة كانت مورداً متدنّياً في العصر السابق للإسلام . ونحن نجد في الواقع ما يؤيد هذا التاريخ في الشعر الجاهلي . بل إن شاعراً جاهلياً ليس أقل من الأعشى الكبير . أحد شعراء المعلقات الذين تباهى العرب بشعرهم . يصف لنا مدى ازدرائه للزراعة والذين يعملون فيها حين يعبّر بني إياد بأنهم يعيشون على هذه المهنة المتدنّية (في نظره) ويصور لنا هؤلاء القوم وقد أخذوا ينتظرون موسم الحصاد وهم لا يجدون من عمل يقومون به سوى الجلوس خلف أبواب

موصدة يعالجون القمل وتشدّهم إلى الأرض قيود لا يملكون معها فكاكاً [٦] .

وربما كان أحد الأسباب الكامنة وراء هذا التصوّر هو أن الزراعة (وبخاصة زراعة الحبوب) دخلت بعض أقسام شبه الجزيرة العربية من مناطق أخرى، ومن ثم اعتبرت مهنة دخيلة بينما ظلّ الرعي دائماً هو المورد الأساسي والعمل به هو المهنة الأصيلة . ونحن نجد في الواقع ما قد يؤيّد مثل هذا التصوّر في وجود بعض ألفاظ عربية من أصل آرامي في مجال الزراعة. فلفظة « حارث » العربية مأخوذة من « آرس » الآرامية . و « بيدر » مأخوذة من « إدّر » و « أكّار » وهو العامل الذي يعمل في الحقل هي ذاتها اللفظة الآرامية ، ولفظة « نير » مأخوذة من « نيدرا » . ولفظة « ناطور » وهو الحارس الذي يحرس الكروم هو « ناطورا » في الآرامية . ولفظة « قمح » مأخوذة من « قمحو » . هذا بينما ريّ « البعل » في العربية هو الريّ الذي يعتمد على ماء المطر (الذي يرسله بعل . إله الآراميين) [٧] .

ولكنّا إذا تتبّعنا هذا التصوّر نجد أنه كان في حقيقة الأمر قاصراً على البدو وحدهم وأن الزراع لم يكونوا يعتنقون هذا التصوّر . وفي هذا الصدد فنحن نجد بين النصوص العربية الجنوبية القديمة التي عثر عليها المنقبون الأثريون

---

(٦) ابيات الاعشى في ازدراء الزراعة هي :

لسنا كمن جعلت اياد دارها تكريت تنظر حبها ان يحصدا
قوما يعالج قملا ابناؤهم وسلاسلا اجدا وبابا موصدا

ثم يستمر ليذكر ان الغزو والغارات اكرم كوسيلة للحياة فيقول :

جعل الاله طعامنا في مالنا رزقا تضمنه لنا لن ينفدا
مثل الهضاب جزارة لسيوفنا فاذا تراع فانها لن تطردا

راجع : ديوان الاعشى الكبير ، تحقيق محمد حسين ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٣٤ .

(٧) عن الاصل الآرامي لري البعل راجع Hitti : ذاته ، ص ٢٠. عن أصل لفظة قمح ، جواد علي : ذاته ، ج ٧ ، ص ٥٨ . عن أصل الكلمات الباقية راجع: Ign. Guidi : L'Arabie Antéislamique (Paris, ١٩٢١) ص ٥٠ .

في اليمن ألفاظاً كثيرة تشير إلى المحصولات الزراعية أو إلى منتجاتها والمعاملات الخاصّة بها . فلفظة « قمح » تقابلها لفظة « بُر » ولفظة « طحين » تقابلها لفظة « دققم » أي الدقيق . كما ترد في هذه النصوص لفظة « دق » بمعنى الحب الذي يتبقّى في الأرض بعد التذرية . ولفظة « علص » بمعنى دَرس الحبوب أو بمعنى الحقل أو المزرعة . هذا بينما نجد ألفاظاً أخرى عديدة غير منقولة عن الآرامية أو غيرها من لغات المناطق الواقعة خارج شبه الجزيرة . تشير إلى أنواع أخرى من الثمار أو المحاصيل أو إلى عقود لتأجير الأرض بغرض الزراعة وهكذا [٨] . وهذه النصوص بما فيها من تسميات ومعاملات تشير جميعاً إلى أن الحياة الزراعية في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة كانت حياة طبيعية أصيلة لا ترد الألفاظ الدالة عليها من خارج البلاد وإنما تشكل مورداً أصلياً من موارد الإنتاج ليس فيه مجال لأن يتعالى أحد عليه أو يحط من شأنه أو شأن المشتغلين به .

كذلك ربما يتبادر إلى الذهن أن هذه النصوص العربية الجنوبية قد تشير إلى أن وجود الحياة الزراعية كمورد اقتصادي أساسي أمر قاصر على القسم الجنوبي من شبه الجزيرة . ولكن شهادة الكتاب الكلاسيكيين في أواخر القرن الثالث ق . م . وأوائل القرن الذي يليه . ثم شهادة القرآن الكريم في أوائل القرن السابع الميلادي . أي بعد ذلك بعشر قرون كاملة . ما يثبت أن تصوّر الحياة الزراعية كمورد اقتصادي أساسي في شبه الجزيرة العربية كلها كان تصوراً قائماً وراسخاً . وفي هذا المجال نجد الجغرافي اليوناني إراتوسثينس (إراتسطين الجغرافي عند العرب) يصف شبه الجزيرة في الفترة التي اشتهر

---

(٨) عن لفظتي « بر » و « دققم » . راجع نص CIH, 241 عن لفظة « دق » راجع نص RES, VII, 285 عن الالفاظ الخاصة بالتاجير والمعاملات الزراعية الاخرى راجع نص CIH, 99 ونصي Halévy, 49, 147 كذلك راجع ادناه في هذا الباب عن زراعات اخرى بالعربية الجنوبية راجع . جواد علي : ذاته . ج ٧ ، ص ٥٩ .

وكتب خلالها (٢٧٥ — ١٩٤ ق . م) فيذكر عن بلاد العرب الميمونة » (وهي شبه الجزيرة . اتجاهاً نحو الجنوب . فيما يلي رأس خليج العقبة « أيلة » غرباً . ورأس الخليج العربي « الفارسي » شرقاً) أن « أول قوم يقطنون بلاد العرب الميمونة . فيما يلي السوريين وأهل يهودية . هم قوم يعملون بالفلاحة . وبعد هؤلاء نجد الأرض رملية جرداء تنتج قليلاً من أشجار النخيل وبعض الأشجار الشوكية وأشجار الطرفاء **Myrike** . ويعمد أهلها إلى حفر الآبار ليحصلوا على مياه الري . . . أما المناطق التي تقع في أقصى الجنوب في المنطقة المقابلة للحبشة فترويها أمطار الصيف وتبذر أرضها مرتين كل عام ». (٩) وهو حديث كما نرى ، يشير إلى درجات متفاوتة من الزراعة . مبتدئاً بالزراعة العادية في الشمال . ومثنياً بالخفيفة في الوسط . ومنتهياً بالزراعة المكثفة في الجنوب .

أما آيات القرآن الكريم . الذي يشير إلى أحوال شبه الجزيرة العربية في أواخر العصر الجاهلي . فهي تتواتر لتثبت لنا أن الزراعة كانت مورداً أساسياً ومرموقاً في الوقت نفسه بين الموارد الاقتصادية لشبه الجزيرة العربيه بأكملها وقد عبرت الآيات القرآنية عن ذلك بأكثر من طريقة . فمن جهة نجد القرآن الكريم يتحدث عن الأطوار المتعددة التي يمر بها الزرع . ابتداء بإعداد الأرض وانتهاء بنضج المحصول ، فهو يشير إلى حرث الأرض بداية ثم نمو الحبوب في باطن الأرض ثم الري واستواء الزرع على سيقانه ثم تركيب السنابل ثم الحصاد . كذلك يشير بوجه عام إلى الزرع واختلاف أنواعه ، ثم يعدد بشكل مفصل بعض هذه الأنواع مثل الحب والنخيل والأعناب وعدد من الفواكه الأخرى . كذلك يشير في عدد كبير من الآيات إلى قيمة الزراعة كمورد اقتصادي أساسي مرموق . فنجد إبراهيم (عليه السلام) يحس بوطأة المكان الذي اتخذه لذريته — وهو مكان غير ذي زرع — ويبتهل إلى الله أن يرزق

---

(٩) منقول في . Strabo : XVI, 4 : 2 .

هذه الذرية قدراً من الثمرات تعينهم على ممارسة حياتهم ، كما نجد الآيات القرآنية تشبه العمل الصالح بالحبوب التي تنبت كل منها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وتقدم لنا مثلاً لشخصين يتباهى أحدهما على الآخر بأنه يملك جنتين من نخيل وأعناب ، بل إن بعض الآيات تقدم مثل هذه الجنات كأمنية لأي شخص له أسرة أو ذرية يسعى إلى تحقيق هذه الأمنية ويحافظ عليها ويخشى أن تتعرض لما يتعرض له الزرع والثمر من عوامل الطبيعة التي قد تعصف بها أو تحرقها . كما نجد في آية أخرى هذا الزرع وقد وضع موضع رضا وإعجاب بالنسبة لأصحابه من المؤمنين ومصدر غيظ بالنسبة لمن وقف في سبيلهم أو تصدى لهم من غير المؤمنين [١٠] .

كذلك تظهر لنا الزراعة كمورد اقتصادي أساسي من موارد الإنتاج في شبه الجزيرة حين نعرف شيئاً عن الأنواع العديدة من المعاملات التي اتصلت بالزرع والزراعة . وهي معاملات كانت على جانب كبير من التنظيم والتقنين . ومن بين هذه المعاملات ، على سبيل المثال ، المحاقلة ، أي استئجار الأرض بالحنطة أو الذهب أو أي شيء آخر يقوم مقامهما ، والمزارعة وهي الاتفاق على أن يزرع شخص أرض شخص آخر لقاء نسبة معلومة من الثمر أو الحصاد يتفق عليه ، على أن تكون البذور من مالك الأرض ، والمخابرة وهي على نمط المزارعة ولكن تكون البذور على الزارع . وفي بعض أنواع الإيجار المتعلق

---

(١٠) الحرث ، سورة الواقعة : ٦٤ . الحب في باطن الارض ، الانعام : ٥٩ . الري ، السجدة : ٤٧ ، النبأ ١٥ . الحصاد ق : ٩ . تركيب السنابل ، البقرة : ٢٦١ ، الحب ، الانعام : ٩٥ ، ٩٩ ، ق : ٩ ، الرحمن ١٢ ، يس : ٣٢ ، النبأ ١٥ . النخيل والاعناب ، الاسراء : ٩١ ، عبس : ٢٨ ، البقرة : ٢٦٦ ، الانعام : ٩٩ ، الرعد : ٤ ، النحل : ١١ ، ٦٧ ، الكهف : ٣٢ . المؤمنون : ١٩ ، يس : ٢٤ ، النبأ ٣٢ . الزرع بوجه عام ، الواقعة : ٦٤ . اختلاف المزروعات : الانعام : ١٤١ . موقف ابراهيم ، ابراهيم : ٣٧ . تشبيه العمل الصالح بالسنابل ، البقرة : ٢٦١ . التباهي بالزرع ، الكهف : ٣٢ . الزرع موضع رضا واعجاب ، الفتح : ٢٩ .

بالأرض المزروعة لمدّة معينة تكون هناك شروط من بينها مثلاً أن يكون للمالك حق إبطال العقد إذا أظهر المستأجر تباطؤ أو تكاسلاً أو إهمالاً في استغلال الأرض ، إذ يصبح معنى هذا . في حالة الاتفاق على نسبة يؤديها المستأجر إلى المؤجّر ، أن يكون هذا التباطؤ أو الإهمال سبباً في نقص المحصول ومن ثم في قلة نصيب صاحب الأرض من هذا المحصول(١١) .

كذلك كانت هناك المعاملة على القصارة وهي ما تبقى في السنابل من الحَبّ بعد التذرية فيكون هناك اتفاق يجعل هذه القصارة من نصيب الذاري أحياناً ومن نصيب صاحب الزرع في أحيان أخرى . وهناك معاملة المساقاة وهي الاتفاق بين طرفين على قيام أحدهما بتوصيل الماء إلى أرض الآخر سواء أكان صاحب هذه الأرض أو ملتزما لها . مقابل تعهد يقدمه الطرف المستفيد من الماء إلى صاحب الماء بجزء من المحصول أو أيّ شيء آخر . وهناك كذلك المحاينة وهي الحصاد لقاء أجر . والمخاضرة وهي بيع الثمار قبل أن تنضج ربما للتخلّص من معاملات جني الثمر أو حراسته أو حمله إلى الأسواق وما يحيط بذلك أو يتصل به من معاملات تستلزم كثيراً من الجهد أو العناء . وقد كانت المخاضرة في كثير من الأحيان مثاراً لعدد من الخلافات والمنازعات بين الأطراف المتعاقدة بسبب ما قد يصيب المحصول من تلف قبل أن يتم نضجه ممّا يفقد المبتاع لهذا المحصول ربحه أو جزء من هذا الربح ، فيطلب استرجاع ما دفعه كلّه أو بعضه . وقد أدّى تواتر هذه الخصومات إلى أن نهى الرسول (ص) عن بيع المحصول قبل أن ينضج إلاّ بعد أن يتبيّن صلاح

(١١) راجع النص عن المحاقلة في Rodokanakis : Katabanische Texte, I, 84 ونصوص عن الايجار بشرط يمكّن المالك من ابطال العقد في CIH, 99, 290, 1064, 1572 . عن نصوص تخص استخدام الملاك لاجراء يزرعون الارض مقابل اجر (أجرم في النصوص الجنوبية) يدفع لهم راجع، Jamme : South Arabian Inscriptions ، صفحات ٧٦ ـ ٧٧ . عن بقية المعاملات وعن المعاملات بوجه عام راجع ، جواد علي : ذاته ، ج ٧ ، صفحات ٢١٦ ـ ٢٢٤ .

هذا المحصول ، وعندئذ لا يحقّ لمبتاع أن يتذمّر من شرائه . وأخيراً ، وليس آخراً ، في هذا الصدد ، فإن النصوص العربية الجنوبية تعرّفنا ، إلى جانب عدد من المعاملات الزراعية ، بنوع من الجمعيات الزراعية التعاونية لكلّ منها مجلس يتألف من ثمانية أشخاص يقوم على إدارة شئون الاقطاع الزراعي من تهيئة البذور والإشراف على العمل وإدارته ودفع حصّة المعبد من المحصول ، وحصّة الحكومة (أي الضريبة المستحقة لها) وبيع المحصول أو توزيعه وهكذا.[١٢]

أما عن أنواع المحاصيل فكانت متعددة . وتشير النقوش العربية الجنوبية والقرآن الكريم إلى عدد لا بأس به ، سواء في ذلك الفواكه أو الحبوب أو الخضراوات ، ولكن تبرز هذه بين المحاصيل والثمار ثلاثة أنواع بوجه خاصّ هي النخيل والأعناب والحبوب . ويحظى النخيل وما ينتجه من تمر بالأهمية الأولى في شبه الجزيرة . وقد كانت وفرة النخيل بسبب ملاءمة مناخ شبه الجزيرة لنموّه ، هي دون شكّ التي دفعت به إلى المقدّمة لكي يصبح العنصر الغذائي الأساسي لسكان هذه المنطقة . يتخذه البدوي طعاماً ، كما مرّ بنا في مناسبة سابقة ، إلى جانب شيء من حليب النوق وفي بعض المناسبات القليلة شيء من لحم الإبل ، ويصنع من نواه المدقوق أقراصاً يعطيها لإبله علفاً ، ويتخذه الحضري طعاماً إلى جانب أنواع أخرى لا يتيسّر للبدوي . ويبدو إهتمام سكان شبه الجزيرة قبل الإسلام بالنخيل من طريقة ذكره في أشعارهم ومن ورود ذكره عند مختلف الطبقات الاجتماعية التي ينتمي إليها هؤلاء الشعراء .

وفي هذا المجال نجد أمرأ القيس ، وهو ملك ينتمي إلى أعلى طبقة اجتماعية يصف في معلقته مطراً عنيفاً في غزارته فلا ينسى أن يذكر ما سبّبه هذا المطر

---

(١٢) عن الجمعيات الزراعية وادارتها راجع النص في Halévy : 147 عن المعاملات الاخرى ، جواد علي : ذات الصفحات في الحاشية السابقة .

من دمار كان بين أبرز آثاره أنه لم يترك جذع نخلة في مدينة تيماء (في شمالي غربي شبه الجزيرة) إلاّ اقتلعها ، وفي هذا إشارة متضمّنة إلى شهرة هذه المدينة بوفرة أشجار النخيل بها . كذلك نجد هذا الملك في قصيدة أخرى يصف بعض حسان الطبقة الاجتماعية الموسرة وقد ارتدين ثياباً ملونة من قماش موشّى جاء من أنطاكية . فلا يجد ما يشبّه به لونها وجمالها سوى لون التمر الذي لم يكتمل نضجه . ولبيد بن ربيعة وهو من سادة بني ربيعة ، يفخر في معلقته بفرسه فيشبّهها . إذا رفعت عنقها . بنخلة طويلة لا يكاد يصل إلى قمتها من يريد قطف ثمارها . ثم يصف الشاعر نعمة الله على الأبرار فيذكر أنّ الله يرزق هؤلاء أشجار نخيل طويلة كثيرة الحمل من التمر (١٣) . وربما كانت إحدى الملاحظات اللغوية التي قدمها باحث حديث عن النخل والتمر من بين الملاحظات التي لا تخلو من مغزى في هذا الصدد . إذ يشير هذا الباحث إلى أن لفظة « نخل » مصدر يفيد معنى استخلاص الشيء الطيب من غيره من الشوائب (من فعل نَخَلَ) . فهذه الشجرة . إذن . هي خلاصة الشجر جميعاً . كذلك لفظة « تمر » التي هي نطق آخر للفظة « ثمر » وكأنما المقصود هو أن الثمر إذا ذكر وحده فلا بد أن يكون تمر النخيل أولاً وقبل كل شيء ؛ فإذا كان المقصود ثمراً آخر فلا بدّ أن يحدّد نوعه . هذا إلى ما نراه في المخربشات التي تركها سكان شبه الجزيرة في العصر السابق للإسلام في مواضع

---

(١٣) بيت امرىء القيس عن نخل تيماء في، شيخو والبستاني : المجاني، المعلقة ، بيت ٧٥

وتيماء لم يترك بها جذع نخلة ولا أطما الا مشيدا بجندل

وبيته عن تشبيه ثياب الحسان في ؛ ذاته ، قصيدة لدى ام جندب، بيت ١٠

علـون بانطاكية فوق عقمـة كجرمة نخل او كجنة يثـرب

بيت لبيد في وصف فرسه ، المرجع ذاته ، المعلقة ، بيت ٦٦

اسهلت وانتصبت كجذع منيفة جرداء يحصر دونها جرامها

بيته في رزق الاتقياء ، ذاته ، قصيدة الى الله القرار ، بيت ٤

يـوم ارزاق من يفضل عم موسقـات وحفـل ابكـار

عديدة من آثارهم والتي يظهر فيها رسم النخلة بشكل ظاهر (١٤) .

أما في القرآن الكريم الذي تشير آياته إلى أحوال شبه الجزيرة في الفترة الأخيرة من العصر الجاهلي فتبرز فيه شجرة النخيل لتحتلّ ، مع الأعناب ، المكان الأول بين الأشجار التي يشير إليها وإلى أهميتها في مجتمع تلك الفترة على نحو ما أسلفت (١٥) . وفي الواقع فإنّ الإشارة إلى الأعناب متواترة في الشعر الجاهلي ، أحياناً بوصفها أعناباً فحسب ، وأحياناً أخرى بوصفها الفاكهة التي تصنع الخمر من عصارتها ، وأحياناً ثالثة في وصف مطوّل مفصّل للخمر وما تبعثه في النفس ، وهو وصف لا نكاد نرى شاعراً جاهلياً إلاّ وعرّج عليه في قصيدة على الأقل من قصائده ، فيما عدا استثناءات قليلة ، بل إن بعض شعراء العصر الجاهلي جعلوا من إفراطهم في شرب الخمر وحرصهم على ذلك نقطة فخر بالنسبة لهم في عديد من المناسبات . وقد يفيد في إعطائنا صورة من هذا الفخر وهذا الحرص أن أشير ، كمثال من بين أمثلة عديدة ، إلى موضعين في شعر طرفه بن العبد ، يساوي في موضع منهما بين مبادرته إلى الشراب قبل الآخرين ، وبين مبادرته لنجده من يلجأ إليه ، كاثنتين من لذات الحياة التي يسعى إليها ، بينما يفخر في الموضع الآخر بأن قومه لا تعزّ الخمر عليهم ولو دفعوا خير إبلهم ثمناً لها (١٦) .

---

(١٤) الملاحظة اللغويـة عن النخل والتمـر في ، Lammens : ذاتـه ، ص ٨٥ ، عن المخربشات راجع ملحق اللوحات : لوحة ٢٠ ب .

(١٥) راجع حاشية ١٠ اعلاه .

(١٦) الموضع الاول في ، شيخو والبستاني : ذاتـه ، المعلقة ، ابيـات ٥٧ ـ ٥٩ :

فلولا ثلاث هن من لذة الفتى، وجدّك ، لم احفل متى قام عوّدي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت ، متـى ما تعـل بالماء تزبد
وكرّي ـ اذا نادى المضاف ـ محنبا كسيد الفضاء ، نبهته ، المتـورد

الموضع الثاني في المرجع ذاته ، قصيدة غزل وفخر ، بيت ٤٢ :

لا تعز الخمر ، أن طافوا بها بسباء الشَّول والكوم البكر

من النصوص العربيـة الجنوبيـة التي ورد فيها لفظ عنبم ، اي عنـب ، نصـا Halévy : 360, 362 .

وقد انتشرت زراعة الأعناب في عدد من أماكن شبه الجزيرة العربية في العصر السابق للإسلام فالنصوص العربية الجنوبية تشير في مواضع عديدة إلى معاملات تتعلق بهذه الزراعة أو بالزبيب الناتج عن تجفيف ثمارها في اليمن ومن بين هذه نصّ يشير إلى توزيع أبرهة (حاكم اليمن من قبل نجاشي الحبشة في أواسط القرن السادس الميلادي) لحصص من الزبيب (فصمم أو فصم في اللهجات العربية الجنوبية) بمناسبة إسهامهم في بناء سدّ مأرب. كذلك تظهر صور أغصان العنب وعناقيده محفورة على الآثار اليمنية سواء في الأحجار أو على الأخشاب أو الألواح المسوّاة من الجصّ. حتّى صار هذا النوع من الزخرف إحدى خصائص الفنّ اليمني. كما نجد الأعشى الكبير يشيد بأعناب «أثافت»، إحدى مدن نجران، وقت قطافها وعصرها. في إحدى قصائده عن الخمر. والأعشى هو شاعر الخمر وشاعر الترحال والأسفار الذي يستطيع أن يقارن بين بلد وبلد وبين ما تنتجه هذه أو تلك من الأعناب. كذلك اشتهرت بعض الأماكن في الحجاز. مثل الطائف. بالأعناب والزبيب الذي يجفف منها، فعمرو بن العاص. وهو مخضرم أدرك الجاهلية. كان له بوهط من الطائف كرم كثير بلغ عدد شجره ألف ألف عود [١٧]. وفي الواقع فإنّ الأعناب وما يجفف منها من زبيب كانت تمثل عنصراً أساسياً من عناصر ثروة الطائف الاقتصادية.

أمّا عن النوع الثالث من الزراعة فهو الحبوب، ومن بينها الشعير الذي كانت زراعته منتشرة بعض الشيء ثم الحنطة أو البُرّ (القمح) الذي يبدو أن

---

(١٧) عن نص ابرهة، جواد علي: مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٤، ج ١، ص ٢١٨، سطر ١٢٨. كذلك جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ط ١، ١٩٧١، ج ٧، ص ٧٣. بيت الاعشى في شيخو والبستاني: ذاته، من قصيدة في مدح سادة نجران، بيت ٢٥:

احب اثافت يوم القطاف ووقت عصارة اعنابها

عن وهط عمرو بن العاص راجع، معجم ياقوت: مادة وهط، ج ٥، ص ٣٨٦.

زراعته كانت على مستوى ضيق ربما بسبب عدم ملاءمة المناخ أو التربة إلاّ في بعض المناطق القليلة ، وهو تصوّر ينطبق بشكل خاصّ على النصف الشمالي من شبه الجزيرة . ويبدو أن هذا الوضع كان سبباً في ارتفاع أثمان الحنطة وهو أمر نستنتجه من اقتصار استخدام الخبز المصنوع من الحنطة على طبقة السادة أو الطبقة الموسرة بين عرب الجاهلية كما نراه في بيت للمتنخّل الهذلي يفخر فيه بأنه يقدّم (خبز) البرّ إلى النازلين بضيافته ، ولا ينسى أن يشير ، في نغمة مباهاة ظاهرة ، إلى أن لديه مقادير مخزونة من هذا البرّ — الأمر الذي يظهر ما كانت عليه هذه السلعة من ندرة وما كان عليه ثمنها من ارتفاع . وكانت الطائف ، مثل اشتهارها بالأعناب والزبيب ، مشهورة كذلك بهذا المحصول المرموق ، فكانت القوافل تقبل منها وهي تحمل ، فيما تحمل ، الحنطة إلى مكّة (١٨) .

ب — المحاصيل الطبيعية

وإلى جانب الزراعة ، وربما أهم منها من الناحية الاقتصادية ، يوجد في القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية موردطبيعي في أغلبه هو نباتات التوابل والطيوب . ومن بين هذه اللبان أو البخور والمرّ والقصيعة والقرفة واللادن أو المستكة (١٩) . وقد مرّ بنا في مناسبة سابقة أنّ العصر القديم كان عصر استهلاك مكثف للبخور والطيوب بوجه خاصّ . ومن هنا كان الاهتمام الزائد للكتّاب الكلاسيكيين في التعرّف على كلّ المعلومات التي تتّصل بهذه النباتات العربية التي حظي بها القسم الجنوبي من شبه الجزيرة ، كما اتجهت

---

(١٨) بيت المتنخل في تاج العروس ، مادة بر :

لا در دري ان اطعمت نازلكم قرف الحتي وعندي البر مكنوز

راجع كذلك ، جواد علي : ذاته ، ج ٧ ، ص ٥٧ .

(١٩) على سبيل المثال Herodotos : Historiae, III, 107 . راجع كذلك : الحديث عن المصادر الكلاسيكية في الباب السادس الخاص بالمصادر الكتابية من هذه الدراسة .

أنظار الدول الكبرى في العصر القديم إلى الحصول على نصيب منها ، سواء في شكل هدايا أو ضرائب أو محاولة احتلال المنطقة العربية المنتجة لها ـ (٢٠) وهذه كلها شواهد على القيمة الكبيرة لهذا المورد الاقتصادي .

ولعل في ذكر بعض الحقائق التي أوردها الكاتب الموسوعي الروماني وهو بلينيوس **Plinius** ، عن أحد هذه المنتجات وهو اللبان أو البخور . ما يعطينا فكرة عن حجم هذا المورد والأهمية التي ارتبطت به . إن الغابات التي تنمو بها أشجار اللبان في منطقة سبأ تصل مساحتها إلى ٢٠ سخوينوس **Schoenus** طولاً ونصف ذلك عرضاً . فإذا عرفنا أن طول هذا المقياس هو ٥ أميال ظهرت لنا المساحة الهائلة لهذه الغابات . وهي ١٠٠ ميل طولاً و ٥٠ ميلاً عرضاً تنتشر على التلال المرتفعة من قمتها إلى سفحها في منطقة تدعى سربية **Sariba** وهي . حسبما يدعي اليونان . كلمة تعني « السرّ الخفي » وتقع ضمن أرض السبئيين على مسيرة ثمانية أيام من العاصمة شبوه . أما الأسر التي تملك هذه الغابات فتعدّ نحو ثلثمائة أسرة ويدعى أفرادها بالمقدّسين . كما أن العمل الذي يقوم به هؤلاء الأفراد ، وهو شقّ لحاء الأشجار لاستخراج العصارة الصمغية القوام التي يتكون منها اللبان . يحيط به قدر كبير من القدسية التي تشير إلى مدى الأهمية التي أعطاها أصحاب هذه الغابات لهذا المورد الاقتصادي الهام . ففي الموسم المذكور لا يجوز لهم أن « يفقدوا طهارتهم » بلقاء النساء أو الاشتراك في مواكب الجنازات (ويبدو أن هذا الاشتراك كان يفقد الطهارة في نظرهم لسبب أو لآخر) . ويبدو أن عدداً من الشعائر الدينية كانت تحيط بهذا الموسم إذ أنّ بلينيوس يذكر لنا في هذا الصدد أن ارتفاع ثمن هذه السلعة

---

(٢٠) عن الهدايا والضرائب Herodotos III, 97 . عن محاولات الاحتلال ، راجع الباب العاشر الخاص بالسياسة الخارجية في هذه الدراسة .

يرجع في أحد أسبابه إلى التكاليف التي تستتبعها الدقّة الصارمة في اتباع هذه الشعائر .

ثم يذكر لنا الكاتب أنّه في الزمن السابق لوقته (عاش الكاتب في أواسط القرن الثاني الميلادي) ، حين كانت فرصة تسويق اللبان أقل منها في وقته . كانت العادة أن يجمع اللبان مرّة واحدة في العام . اما في وقته فإنّ الطلب الكبير على هذه السلعة أدّى إلى جمعها مرتين في العام ، إحداهما في الربيع . والأخرى حين تصل حرارة الصيف إلى أشدّها . أما بعد أن يجمع المحصول من الغابات فإنه يحمل على الجمال إلى العاصمة شبوه **Sabota** ويفتح أحد أبواب المدينة لتدخل منه هذه القوافل المحمّلة باللبان . وقد حرص ملوك سبأ على أن تلتزم هذه القوافل الطريق العام الممتد بين الغابات والعاصمة واعتبروا أن الانحراف عنه يشكل جريمة أساسية يعاقب مرتكبها (وهو أمر يدلّنا على حرص هؤلاء الملوك على ألاّ يكون هناك أيّ تلاعب في المحصول وهو في طريقه إلى المدينة) . فإذا ما دخلت القوافل إلى شبوه أخذ الكهنة عشر المقدار تقدمة إلى إله المدينة . قبل أن يسمحوا لأحمال اللبان أن تعرض في السوق — وينفق هذا العشر في مآدب دينية عامّة تقام باسم هذا الإله [٢١] .

٣ — التجارة :

وأتحدث الآن عن مورد اقتصادي آخر . لعلّه كان أهم الموارد التي لعبت دوراً أساسياً في تشكيل الحياة الاقتصادية بما لها من تداخلات أخرى (اجتماعية وسياسية ودينية) في مجتمع شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام — وهذا المورد هو التجارة . أما المقومان الرئيسيان لهذا المورد فقد كان أحدهما هو الطيوب والتوابل التي تنبت في جنوبي شبه الجزيرة لتجد طريقها براً وبحراً إلى مصر

---

(٢١) Plinius : HN, XII, 51, 54

وسورية ثم من الشواطىء السورية عبر المتوسط إلى الشواطىء الأوروبية في بلاد اليونان والرومان ، بينما كان المفهوم الآخر هو الموقع الأوسط الذي تحتله شبه الجزيرة العربية بين الشرق والغرب لتمر بها الخطوط التجارية التي تربط بينهما ، سواء في ذلك الخطوط البرية التي تخترق شمالي شبه الجزيرة متجهة إلى الشاطىء السوري ، أو الخطوط البحرية التي تأتي من المحيط الهندي إلى البحر الأحمر مارة بمداخله عند عدن لتكمل طريقها إمّا براً عبر شبه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال ، أو بحراً بطول البحر الأحمر حتى موانئه الشمالية أو متنقلة بين الطريق البري والطريق البحري .

أ ـ أهمية هذا المورد ومظاهر ذلك

وقد كان هذا الموقع الوسط وما ترتب عليه من مرور التجارة من الشرق إلى الغرب بشبه الجزيرة العربية ظاهرة استرعت اهتمام الكتاب الكلاسيكيين في العصرين اليوناني والروماني بدرجة تعطينا صورة مجسّمة على حجم هذا المورد وأثره في تنمية اقتصاديات شبه الجزيرة في ذلك العصر الذي وصل فيه استهلاك الطيوب والتوابل إلى قدر كان مجال تعليق لهؤلاء الكتاب . فإلى جانب التفاصيل التي أفاضوا فيها عن طيوب شبه الجزيرة وتوابلها ووصولها إلى العالم الغربي . وهو أمر بدأ يتنبه هؤلاء الكتاب إليه منذ عهد المؤرخ اليوناني هيرودوتس في أواسط القرن الخامس ق . م . (وإن كان هذا لا يعني ، بطبيعة الحال . أنّ هذه التجارة لم تكن موجودة قبل ذلك) . ومن الكتابات التي تركها لنا هؤلاء نعرف أن عرب شبه الجزيرة لم يكونوا يقتصرون على تصدير طيوبهم وتوابلهم إلى الغرب وإنما كانوا يصدرون كذلك ما يستوردونه من هذه السلع من الهند ومن الحبشة وبعض مناطق السودان **Aethiopia** ومن الصومال **Trogloditikae** . ويشير بلينيوس إلى الحجم الهائل لما كانت تستورده رومه من شبه جزيرة العرب ضمن حديثه عن مستوردات رومه من بعض

هذه المناطق في أواسط القرن الأول الميلادي حين يذكر في مجال الحديث عن هذه السلع أن «الهند والصين وشبه جزيرة العرب تأخذ منّا كلّ عام ١٠٠ مليون سسترکه **Sesterces** (عملة رومانية)» . ونعرف أن هذا المبلغ كان شيئاً كثيراً ، حتى بالنسبة إلى الإمبراطورية الرومانية آنذاك ، من العبارة التي ينهي بها حديثه في هذا الموضع حيث يقول في تعجب ظاهر «وهذا هو ما يكلّفنا ترفنا ونساؤنا» [٢٢] .

وقد عاد هذا المورد التجاري على عدد من مناطق شبه الجزيرة بقدر كبير من الثروة (بغضّ النظر عن نصيب الطبقات المختلفة في المجتمع من المشاركة في هذه الثروة) . ويتحدث الجغرافي اليوناني سترابون **Strabo** عن غنى المنطقة الجنوبية الغربية في مجال وصفه لأسباب الحملة الرومانية التي جرّدها أغسطس ، أول الأباطرة الرومان ، على هذه المنطقة في ٢٤ ق . م . فيذكر أن الحافز الذي دفع الإمبراطور الروماني إلى محاولة احتلالها هو ما سمعه عن ثروة سكانها ومن ثم كان هدفه هو «التعامل معهم كأصدقاء أثرياء أو السيطرة عليهم كأعداء أثرياء» [٢٣] . وبصرف النظر عن مدى ما في هذا التعليل من دقة أو تطابق مع أهداف أغسطس من الحملة فان الإشارة واضحة إلى ثروة المنطقة . كذلك يتحدث الكاتب الموسوعي الروماني بلينيوس **Plinius** عن العرب فيذكر أنهم «في عمومهم ، أغنى أجناس العالم ، لأنّ ثروات واسعة تتجمّع في أيديهم من رومه وبلاد فارس لقاء ما يبيعونه لهذين البلدين سواء من نتاج البحر (يقصد اللآلىء) أو من غاباتهم (يقصد غابات الطيوب) .

---

(٢٢) تعامل في طيوب الهند قي Strabo : 4 : 25 ، وطيوب الحبشة في Artemidoros ، منقول في Strabo : XVI, 4 : 19 ، وطيوب الصومال في Plinius : HN, XII, 66 . عن حجم المستوردات الرومانية من شبه جزيرة العرب (ضمن مناطق اخرى) Plinius, HN, XIII, 84 .

(٢٣) Strabo : XVI, 4 : 22 .

دون أن يشتروا منهما شيئاً في مقابل ذلك » (٢٤) . وربما كان بلينيوس مبالغاً بعض الشيء فيما وصف به العرب من عدم استيراد أيّ شيء ، ولكن يبدو فعلاً أن وارداتهم لم تكن كثيرة ، فنحن لا نسمع شيئاً كثيراً عنها في علاقاتهم مع الآشوريين أو البابليين أو الفرس ، أو في العصر اليوناني الروماني ، وحين نبدأ نسمع شيئاً عن ذلك في الشعر الجاهلي في القرن السادس الميلادي فهو لا يزيد كثيراً عن بعض السيوف من الهند أو بعض الأقمشة الثمينة أو الموشاة من العراق والشام (٢٥) . وربما كانت هناك كماليات أخرى مماثلة لم يرد إلينا ذكرها . ولكن تبقى في النهاية حقيقة ثابتة هي أن صادرات العرب كانت أكثر بكثير من وارداتهم . فالسلعتان الأساسيتان في العالم القديم وهما الحبوب والطيوب كانت إحداهما وهي الطيوب متوفّرة لديهم ، وكانت الأخرى وهي الحبوب متوفرة في منطقة اليمن وبعض الواحات ، بينما لم يكن باقي سكان شبه الجزيرة يعتمدونها كمادة غذائية أساسية كما مرّ بنا في مناسبة سابقة .

وفي الواقع فإن الثروة التي عرفتها بعض مناطق شبه الجزيرة العربية قد أدّت ببعض الكتّاب الكلاسيكيين إلى قدر من المبالغة في تقدير مظاهر هذه الثروة، كما فعل أجاثارخيدس **Agatharchides** في وصفه المسهب لحياة البذخ عند السبئيين. وكما فعل أرتميدوروس **Artemidoros** حين ذكر أن الجرهائيين (أهل جرهاء على شاطىء الخليج) والسبئيين « قد أصبحوا ، بسبب تجارتهم ،

---

(٢٤) Plinius : HN, VI, 162

(٢٥) الاقمشة العراقية ترد، على سبيل المثال، في بيت لامرىء القيس، راجع شيخو والبستاني ، ذاته ، قصيدة « يوم صيد » ، بيت ٣ :

جعلن حوايا واقتعدن قعائدا وحفّفن من حوك العراق المنمق

عن الاقمشة السورية الموشاة الآتية من انطاكيــة . كذلك امرؤ القيس ، راجع البيت الثاني من حاشية ١٣ اعلاه .

عن السيوف اليمانية ، على سبيل المثـال : بيت للشاعر تأبط شرا (القرن السادس الميلادي) في شيخو والبستاني : ذاته ، قصيدة الشاعر والغول ، بيت ٤ :

فشدت شدة نحوي فأهوى لها كفيّ بمصقول يماني

أغنى الجميع (يقصد سكان شبه الجزيرة العربية) فلديهم قدر كبير من الأدوات المصنوعة من الذهب والفضّة مثل النمارق والكراسي والأوعية وكؤوس الشراب ، كما تتصف منازلهم بالبذخ إذ أن أبوابها وجدرانها وسقوفها مطعمة بالعاج والذهب والفضة ومرصعة بالأحجار الكريمة » (٢٦) .

ولكن إذا كانت مظاهر الثروة في بعض مناطق شبه الجزيرة قد ذكرت في المصادر الكتابية بشكل مبالغ فيه في بعض الجوانب فإن الحديث عنها ليس خالياً من أساس حقيقي . يدعم ذلك عدد من الأدلة الأثرية في أكثر من منطقة . ففي سبأ ، على سبيل المثال ، لا تزال هناك بقايا من أسوار المدن والأبراج والمعابد مثل معبد المقة إله القمر . والقصور ومجموعات الأعمدة والتماثيل ، وسدّ مأرب الذي كان يحجز وراءه كميات هائلة من المياه تمرّر من خلال أنفاق في جسم السدّ لها أبواب تفتح عند اللزوم لأغراض الريّ . وكل هذا دليل على موارد هائلة من الثروة كانت تتمتع بها المنطقة . كما تؤكد ذلك مجموعات العملة التي ترجع إلى عهد الملوك السبئيين والملوك السبئيين الحميريين . وهي عملة كانت تضرب منذ القرن الثالث ق . م . على خط العملة الأثينية التي وجدت طريقها إلى المنطقة مع القوافل التجارية الآتية من غزة . كما كانت تتبع الوزن البابلي الشائع (٢٧) — وهي إشارات تدل على مدى نشاط تجارة هذه المنطقة من الجزيرة العربية . سواء مع وادي الرافدين أو مع شواطىء البحر المتوسط . ومن ثم الرخاء والثروة المترتبين على ذلك .

وفي الأقسام الأخرى من شبه الجزيرة تجد في المنطقة التي كانت فيها إمارة الأنباط الأضرحة المنحوتة في الصخر في مدائن صالح (في شمال غربي السعودية) والبتراء (بالأردن) في مهارة فنية فائقة وبشكل يشير في مجموعه

---

(٢٦) منقول في سترابون ، Strabo : XVI, 4 : 19 .

(٢٧) J. G. C. Andersen : CAH ج ١٠ ، ص ٢٤٩ . انظر كذلك عن سد مأرب وعن احد التماثيل ملحق اللوحات ، لوحتي ٤ أ ، ٩ أ .

وفي تفاصيله إلى قدر كبير من الثراء الذي يصل إلى حد البذخ في مواضع عديدة ، كما نجد في مدينة جرش (بالأردن حالياً) الساحة الكبيرة Forum التي تحيط بها الأعمدة الشاهقة على النمط الروماني ، وبقايا الشوارع المتقاطعة المرصوفة بالأحجار العريضة والتي لا يزال عدد كبير من الأعمدة التي تحف بها قائمة حتى الآن . هذا إلى جانب المسرح الحجري المدرّج الذي بقي حتى الوقت الحاضر محتفظاً بحالته القديمة في أغلب مقوماته مثل ساحة الجوقة ومدرجات المشاهدين . أمّا تدمر . هذه المدينة الفريدة التي كانت تقع في قلب الصحراء في شمالي شبه الجزيرة عند نقطة التوازن القوية بين أملاك الرومان في الغرب وأملاك الفرس في الشرق . والتي عرفها اليونان والرومان باسم « مدينة النخيل » Palmyra . فلا تزال آثارها الباقية حتى الآن تنطق بما كانت تتمتع به من ثروة كبيرة . ومن بين هذه الآثار العديدة طريق الأعمدة التي تنتهي بقوس النصر . وكانت هذه هي الطريق الرئيسية في المدينة . يحف بها صفان من الأعمدة بطولها من اليمين واليسار لا يزال باقياً منها حتى الآن ١٥٠ عموداً ضخماً من أصل ٣٧٥ عموداً ، ومعبد بعل ومعبد بعل شمين (ربّ السماوات) وعدد من الأبراج الجنائزية المربعة الشكل التي كانت تستخدم كمقابر للدفن وعدد من المناظر المنحوتة على طريقة النحت البارز التي كانت تزين واجهات المعابد والمباني الأخرى (٢٨) .

ونحن نستطيع في الواقع أن ندرك . من زاوية أخرى ، مقدار ما كان يمكن أن تجنيه بعض مناطق شبه الجزيرة من ثروة من هذا المورد الاقتصادي التجاريّ إذا ألقينا نظرة سريعة على بعض المؤشرات التي نستنتج منها حجم النشاط التجاري والمعاملات التجارية في شبه الجزيرة العربية ، ومن بين هذه المؤشرات . على سبيل المثال ، ما نجده في النقوش التي عثر عليها المنقبون

---

(٢٨) راجع ملحق اللوحات : لوحات ٥ أ - ٢٣ وما بعدها .

الأثريون في العربية الجنوبية من وفرة في الألفاظ ذات المعاني التجارية التي تتصل بالبيع والشراء والامتلاك والعقود والأوامر التي كان الملوك يصدرونها لتنظيم جباية المكوس (الضرائب الجمركية) على السلع التي تباع في الأسواق وما يترتب على مخالفتها أو التهرب منها من عقوبات . أو لتنظيم المعاملات التجارية بجوانبها المختلفة مثل الشروط التي تتصل بحقوق الأغراب في ممارسة التجارة بالمنطقة أو بممارسة أهل المنطقة للتجارة في الخارج .

وعلى سبيل المثال فنحن نجد من بين هذه النقوش نقشاً يشكل مرسوماً ملكياً موجهاً من الملك « شهر هلل (أو هلال) بن يدع اب » إلى تجار قتبان . سواء منهم أبناء المنطقة أو الأغراب القادمين إليها بقصد الاتجار . ومن بين ما ورد في هذا النقش أن « من يتجر تجارة في تمنع (عاصمة قتبان) أو بخارج تمنع فعليه أن يقدم عربوناً إلى تمنع وأن يكون مقيماً بشمّر (إحدى المدن) . وان آثر قتبان محلاً لاتجاره . وأراد أن يتجوّل ليشتري . فعليه أن يشتري من شمّر »[٢٩] والجملة تشير . كما هو واضح . إلى الشروط التي يجب أن يلتزم بها التجار الأغراب الوافدون إلى قتبان للاتجار فيها سواء من حيث مكان إقامتهم أو مكان مشترواتهم أو مكان ممارستهم لتجارتهم . أو الرسوم المطلوب تأديتها إلى الإدارة المختصة بالعاصمة .

والشيء ذاته نجده في منطقة الحجاز حيث ظهر أكثر من مركز تجاري من بينها مكة ويثرب والطائف . وفي مكة . على سبيل المثال . نرى قبيلة قريش وقد نشطت نشاطاً ملحوظاً ومستمراً في المعاملات التجارية سواء فيما بين القرشيين وبعضهم أو مع الشعوب الأخرى مثل البيزنطيين والفرس والحبش . بحيث أصبح لديهم من تجاربهم في هذا المجال عدداً من القواعد والأصول التي شكلت عرفاً تجارياً متبعاً جعل باحثاً معاصراً يرى فيه ما يمكن

(٢٩) الجملة وردت في النص رقم RES 4337 . الترجمة لجواد علي : ذاته ، ج ٧ ، ص ٢٣١ .

أن نسميه « قانون التجارة » بالنسبة لأهل تلك المدينة [٣٠] . كما نجد قريشاً تعقد عدداً من المعاهدات أو الاتفاقات التجارية لتأمين تجارتها سواء في خارج شبه جزيرة العرب أو في داخلها مثل المعاهدتين التي عقدت إحداها مع حكومة الإمبراطورية البيزنطية في بيزنطة والأخرى مع حكومة الإمبراطورية الفارسية في طيسفون Ctesiphon (المدائن في العصر الإسلامي) . ومثل الاتفاق الذي تم مع الرسول (ص) والمسلمين بعد أن أخذ المسلمون يقطعون على قريش الطريق التي تمرّ بها قوافلها التجارية . وهو الاتفاق الذي تضمّنه صلح الحديبية [٣١] .

وقد كان هناك عدد من الطرق البرية والبحرية التي تنقل هذه التجارة النشطة . وبعض هذه الطرق كان يبدأ من المنطقة الجنوبية الغربية في شبه الجزيرة متخذاً طريقه إلى وادي الرافدين أو إلى سورية . والبعض الآخر كان يخترق شبه الجزيرة في اتجاه عرضي بين وادي الرافدين وسورية . ثم كانت هناك الطرق التي تحمل التجارة من المحيط الهندي ثم بطول البحر الأحمر حتى موانئه الشمالية . ويحدثنا الكتاب الكلاسيكيون عن هذه الطرق وتقسيماتها وتفريعاتها وما حدث فيها من تغيير أو إضافات بين عصر وعصر والخدمات التي كانت تتم على طول بعض هذه الطرق بشيء غير قليل من التفصيل الذي يعطينا فكرة واضحة في عمومها عن النشاط التجاري الكثيف لشبه الجزيرة العربية .

---

(٣٠) جواد علي : ذاته . ج ٧ ، ص ٢٣٠ .

(٣١) عن اتفاقات قريش مع المناطق المجاورة لها راجع Lammens : La Mecque à la Veille de l'Hegire ، ص ٢٦ ، عن المعاهدتين مع بيزنطة وفارس ، ذاته ، ص ٣٢ ، عن صلح الحديبية راجع القرآن الكريم ، سورة الفتح : ٢٤ عن تفاصيل الصلح راجع البلاذري : أنساب الاشراف ، صفحات ٣٥٠ – ٣٥١ . عن تحليل للصلح راجع M. Rodinson : Mohammed (London ١٩٧١) : صفحات ٢٥٠ – ٢٥٣ .

ب – طرق التجارة البرية

ومن خلال هذه التفاصيل ومن عدد من النقوش والمصادر الأخرى نستطيع أن نميز عدة اتجاهات رئيسية للطرق البرية . والاتجاه الأول كانت تتبعه طريق موازية تقريباً للبحر الأحمر من أقصى جنوب شبه الجزيرة إلى المنطقة السورية وشواطئها في الشمال . هذه الطريق كانت تبدأ من مناطق قتبان في الركن الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة وحضرموت الواقعة إلى شرقيها وسبأ المتاخمة لهما من ناحية الشمال . ويبدو أن اتفاقاً ما كان قائماً في أواسط القرن الثاني الميلادي(وربما كان قائماً قبل ذلك التاريخ وربما استمر قائماً بعده) بين اثنتين من هذه المناطق الثلاثة على الأقل. وهما سبأ وقتبان . تتجمع بمقتضاه أحمال الطيوب في تمنع (Thomna عند الكاتب الموسوعي الروماني بلينيوس Plinius) عاصمة قتبان . ولعلّ التضاريس الجغرافية هي التي قضت بهذا الاتفاق . ومن تمنع تبدأ طريق القوافل الرئيسية نحو الشمال مخترقة الحدود الشمالية لمنطقة سبأ لتتخذ بعد ذلك شكل ممرّ طويل ضيق يقع في أرض المعينيين ثم تصل بعد ذلك إلى مكّة التي نراها قبل ظهور الإسلام مركزاً تجارياً نشطاً يعقد الصفقات ويبرم الاتفاقات سواء منها الداخلية أو التي تتم مع الدول المتاخمة لشبه الجزيرة . ثم تستمر الطريق شمالاً إلى ديدان (العلا الحالية) ثم إلى مدين (مغاور شعيب حالياً) حيث لا تزال الآثار التي تنم عن ثروة هاتين المدينتين تشير إلى الثروة التجارية التي كانتا تتمتعان بها ثم إلى أيله (العقبة حالياً) ثم بعد ذلك إلى البتراء (Petra عند الكتّاب الكلاسيكيين) عاصمة الأنباط . ثم تتفرع الطريق هنا إلى فرعين . أحدهما إلى تدمر (Palmyra عند الكتاب الكلاسيكيين) في الشمال والآخر يتجه إلى الغرب مع ميل طفيف إلى الشمال الغربي حتى يصل إلى غزة ورينوكولورا Rhinokoloura على الشاطىء الفلسطيني . هذا وقد زيد على هذين الفرعين فرع ثالث في عهد الإمبراطور تراجان (ترايانوس Trajanus) يصل بين أيله (العقبة) وتدمر

ثم شقه في ١١٠–١١١ م ماراً بالبتراء وآريوبوليس **Areopolis** (ربة عمون) وفيلادلفيه **Philadelphia** (عمان) وبصرى **Bostra** ومنتهياً إلى تدمر (٣٢).

هذه هي الطريق البرية الطولية التي كانت تصل بين جنوبي شبه الجزيرة العربية وشماليها، اتجاهاً إلى المنطقة السورية. ويذكر لنا أراتوسثنيس الجغرافي اليوناني (٢٧٥ – ١٩٤ ق. م) أن القوافل التجارية كانت تقطع الجزء الواقع من هذه الطريق بين جنوبي شبه الجزيرة وأيله (العقبة) في الشمال في ٧٠ يوماً (٣٣)، كما يذكر بلينيوس (٢٣/٢٤ – ٧٥ م) أن رحلة القوافل من تمنع (عاصمة قتبان) إلى غزة كانت مقسمة إلى ٦٥ شوطاً (تمثل بالضرورة ٦٥ يوماً) في كل شوط منها مواقف للجمال، وأن أصحاب القوافل كان عليهم أن يدفعوا في كل شوط من هذه الأشواط ثمن الحصول على الماء أو الحشائش والعلف للجمال أو أجر النزل الخاصة بالمبيت أو رسوماً لقاء السماح بالمرور أو الحماية وهكذا (٣٤).

---

(٣٢) الطريق التجارية بين حضرموت وقتبان الى أيله (العقبة) يذكره اراتوسثنيس، منقول في Strabo : XVI, 4 : 4 . بين سبأ وسورية يذكره ارتميدوروس، منقول في Strabo : XVI, 4 : 19 . الطريق من تمنع الى غزة في Plinius : XII, 64 . اتفاق مرور تجارة سبأ من تمنع في Plinius : XII, 64 . احتكار مرور القرفة من تمنع، ذاته : XXI, 93 المرور في ارض المعينيين، ذاته : XII, 54 . المرور بمكة، سورة قريش : ١ – ٢ والمعاهدات المشار اليها في الحاشية السابقة. عن المرور في العلا (ديدان) راجع :
René Dussaud : La Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam (Paris ١٩٥٥) ص ٤٨ . عن الطريق بين البتراء وغزه راجع : Plinius : VI, 145 عن طريق البتراء دمشق راجع Dussaud : ذاته، ص ٢٤ . عن الفرع بين ايلة (العقبة) وتدمر راجع Dussaud : ذاته، ص ٢٤ وصفحات ١٥٤ – ١٥٥ .

(٣٣) منقول في Strabo : XVI, 4 : 4

(٣٤) Plinius : XII, 65

ونحن نجد ، إلى جانب هذا التعميم ، مثالاً محدّداً لما كان يحدث في تمنع في بداية الطريق ، حيث كان ملك قتبان يجبي ضريبة على كل الطيوب المارة بمنطقته ، كما كانت حصص من الطيوب تعطي لرجال الدين ولأمناء الملك وحرسه وحاشيته وخدمه ولحراس البوابات مما كان يرتفع كثيراً بثمن هذه الطيوب قبل أن تصل إلى نهاية طريقها على شواطىء المتوسط [٣٥] . أما الطريق بين أيلة وتدمر . وهي الطريق التي شقّت في عهد الإمبراطور تراجان فقد لقيت عناية مستمرة من جانب الولاة الرومان الذي أقاموا عليها مراكز شرطة للحراسة عند محاطّ القوافل التجارية التي كانت تمرّ بها . أقاموا عدداً آخر من هذه المراكز على امتداد هذه الطريق في الطريق الرئيسية جنوباً حتى الحدود التي كانت تفصل بين سورية والحجاز . أيّ إلى منطقة ديدان (العلا حالياً) وإجرا (الحجر في القرآن الكريم والوجه حالياً) [٣٦] .

أما عن الطرق التي كانت تخترق شبه الجزيرة عرضاً فقد عرفت المنطقة أربعة منها على الأقل في العصور السابقة للإسلام . وأولى هذه الطرق جنوباً يشير إليها إراتوسثنيس(اراتسطين)الجغرافي حين يذكر أنطريقاً كانت تمتد من المناطق المنتجة للمرّ في الغرب ،متخذة اتجاهاً شرقياً بطول الساحل المتعرج لشبه الجزيرة حتى تصل إلى المنطقة المنتجة للقرفة بعد ٥٠٠٠ ستاديون (حوالي ٦٠٠ ميلاً) . ولكن يبدو أن هذه الطريق لم تكن توصّل إلى ميناء على شاطىء المحيط الهندي أو الخليج الفارسي (الخليج العربي الآن) . إذ يذكر لنا هذا الكاتب أنّ أحداً لم يكن قد وصل بعد في عصره (٢٧٥ — ١٩٤ ق . م) إلى أبعد من منطقة القرفة التي يتحدث عنها . كما يزيد على ذلك أنّه لا توجد مدن كثيرة على الشاطىء بينما يوجد في الداخل عدد من المدن الجميلة وهي

---

(٣٥) الكاتب ذاته : الموضع ذاته .
(٣٦) Dussaud : المرجع ذاته ، ص ٥٥ .

إشارة لنا أن نستنتج منها عدم وجود موانىء على الشاطىء [٣٧] . وهكذا يبدو لنا أن نعتبر أن هذه الطريق كانت مهمتها الأساسية . وربما الوحيدة . أن تتبعها قوافل القرفة (سواء أكانت هذه القوافل لتجار من منطقة القرفة . أو لتجار أتوا إليها من الغرب وعادوا بأحمال القرفة) متجهة نحو الغرب حتى تتجمع في تمنع (عاصمة قتبان) عند بداية خط القوافل المتجهة شمالاً . وهو استنتاج يؤيده ما يذكره لنا الكاتب الموسوعي بلينيوس الذي نعرف منه أن ملك قتبان كان الوحيد الذي يتحكم في تجارة القرفة [٣٨] .

والطريق الثانية تنطلق كذلك من القسم الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة ، متخذة اتجاهاً شمالياً إلى جرهاء Gerrha وهي مدينة من المرجح أن موقعها كان على مقربة من ميناء العقير الحالية (شمال شرقي الهفوف) في وسط ساحل شبه الجزيرة المطلّ على الخليج . ويبدو أن نشاط هذا الخط التجاري كان مكثفاً إلى حد كبير . فجرهاء كانت إحدى المنطقتين التي أفاض الكتّاب الكلاسيكيون في وصف سكانهما بالثراء الذي يصل إلى حدّ البذخ ، كما يبدو أن هذا النشاط التجاري يرجع إلى فترات زمنية موغلة في القدم ، كما تدلّ على ذلك آثار الأماكن القريبة منها في الدوسرية وجزيرة تاروت وأبقيق وكلّها تشير إلى علاقة حضارية قوية مع حضارة عصر العُبيد (بضمّ العين) التي سادت وادي الرافدين في أواسط الألف الرابعة ق . م . أما عن نشاط هذه الطريق في العصر المتأغرق (عصر ما بعد الاسكندر الأكبر خلال القرون الثلاث الأخيرة ق . م) ، فتدل عليه ، إلى جانب ما ذكره الكتاب الكلاسيكيون ، الآثار التي وجدت في منطقة الفاو بوادي الدواسر في منطقة نجد والتي ترجع إلى حوالي ٣٠٠ ق . م . وهي منطقة يشير موقعها أنها كانت إحدى المحطات

---

(٣٧) منقول في Strabo : XVI, 4 : 4 .
(٣٨) Plinius : XII, 93

على الطريق التي نحن بصدد الحديث عنها . وقد سبق أن رأينا من بين ما عثر عليه من آثار هذا الموقع سوقاً تجارية كاملة تضم مخازن تجارية وطرقاً ونزلاً لمبيت التجار ، كذلك تدلّ بعض هذه الآثار . ومنها مقابض أبواب من البرونز على شكل رأس أسد . على قدر من الثراء والترف يصلح مؤشراً إلى مدى النشاط الاقتصادي على هذه الطريق التجارية التي كانت تحمل طيوب العربية الجنوبية إلى وادي الرافدين . هذا وحين كانت أحمال الطيوب تصل إلى جرهاء كانت تنقل بعد ذلك إلى وادي الرافدين إمّا برّاً . وإمّا في قوارب تبحر في الخليج حتى تصل إلى نهر الفرات ومن هناك تستأنف رحلتها البرية إلى حيثما توجد أسواق المنطقة (٣٩) .

والطريق البرية الثالثة التي تخترق شبه الجزيرة عرضاً تبدأ من مكة وتنتهي إلى وادي الرافدين . ودليلنا التاريخي على ذلك هو إبرام القرشيين لاتفاق مع الإمبراطور الفارسي كما أشرت في مناسبة سابقة . وهو اتفاق كان هدفه تأمين تجارة القرشيين في المناطق الواقعة تحت سيطرة الفرس . ومن ثم يشير إلى وجود مثل هذه الطريق . وفي الواقع فإنّ هناك آثاراً لا تزال باقية حتى

---

(٣٩) عن الطريق من سبأ الى وادي الرافدين Mesopotamia وربط جرهاء كنقطة الانطلاق الرئيسية الى واديالرافدين، ارتميدوروس، منقول في ١٩ : Strabo : XVI, 4 : 19 ، كذلك سترابون XVI, 3 : 3 عن ثروة الجرهائيين وبذخهم . ارتميدوروس : الموضع ذاته المنقول في سترابون . تحديد موقع جرها قرب ميناء العقير وصلت اليه البعثة الدنمركية التي قامت بحفائر في منطقة الاحساء والقطيف في عام ١٩٦٨ . عن هذا وعن الآثار التي تدل على قدم المدينة راجع الباب الرابع الخاص بالآثار والنقوش في هذه الدراسة ، راجع كذلك : مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية (ادارة الآثار والمتاحف ، وزارة المعارف ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٧٥) صفحات ٣٧ـ٣٨ ؛ واللوحات الموجودة في صفحات ٤٣ـ٤٥ ، ٥٢ راجع كذلك ملحق اللوحات في هذه الدراسة ، لوحات ١٧ أ ، ١٤ أ . عن السوق التجارية في مدينة الفاو راجع الفصل الرابع في هذه الدراسة ، كذلك مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ص ١٨ واللوحات على صفحتي ٢٠ و ٢١ . كذلك ملحق اللوحات في هذه الدراسة .

الآن لطريق بين مكّة ووادي الرافدين . وعند حائل في وسط المسافة تقريباً تتفرع الطريق إلى فرعين في هذا الاتجاه . أحدهما يصل إلى مصبّ الفرات ماراً بموقع « بُرَيْنْده » والآخر يصل إلى بابل ماراً بعدد من المواقع أو بقربها مثل « السّفن » ، و « فيد » . وقد أصبح هذا الفرع الأخير طريقاً رئيسية للحج والتجارة في العصر الإسلامي تحت اسم « درب زبيده » (الذي كان يصل إلى المتحف بجوار بابل) . ولكن يبدو مؤكداً أنه كان موجوداً ومستخدماً قبل ظهور الإسلام . ففي « فيد » توجد آثار يطلق عليها الآن اسم « خرائب قصر جراش » يعتقد أنها تشكل موقع مدينة كانت قائمة في عصر ما قبل الإسلام . وأما « السّفن » (بكسر وتشديد السين) فهي تقع في وادٍ صغير (في سفح جبل أجا إلى الشمال الشرقي من حائل) وقد اكتشفت بها آثار أحواض وقنوات مائية قديمة كانت تستخدم لتصريف مياه الوادي وسقي المزارع . ويستدل من النقوش الموجودة على جبل أجا (الذي تقع عند سفحه) على أنّ الموقع يعود تاريخه إلى القرن الخامس ق . م . ومثل هذا الوادي بمزارعه وأحواضه وقنواته دليل استقرار يشير إلى أنّه موقع صالح لأن يكون محطّاً من محاطّ طرق القوافل في العصر القديم [٤٠] .

ويبدو أن طريق مكّة – وادي الرافدين لم تكن طريقاً قديمة لها من الشهرة ما كان للطرق الأخرى التي اهتم بها روّاد المنطقة أو الذين كتبوا عنها من الجغرافيين والكتاب الكلاسيكيين الأوائل . فنحن لا نسمع عنها حتّى عهد بلينيوس الذي كتب في أواسط القرن الأول الميلادي بينما نسمع عن الطريق الجنوبية الشمالية الموصلة بين قتبان وسبأ وحضرموت من جهة وأيلة وغزه من جهة أخرى . وعن الطريق الموصلة بين هذه المناطق وجرهاء . ولكنّا نبدأ في التعرّف عليها في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي حين نراها

---

(٤٠) مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ص ٦٥ .

على خريطة الجغرافي اليوناني بطلميوس كلاوديوس (كتب بين ١٢١ و ١٥١ م وهو الذي عرفه الكتاب المسلمون فيما بعد باسم القلوذي أو الجغرافي) ، وهي تظهر في خريطته تحت اسم مكارابو **Makarabu** . ونحن إذا تأملنا الاسم نجد أن طريقة نطقه ونهايته لها مسحة أكدية واضحة [٤١] (واللغة الأكدية تطلق على اللهجتين الساميتين : البابلية والآشورية . وهذا يشير إلى حقيقة ظاهرة هي الاتصال القويّ بين مكة وبين وادي الرافدين عن طريق القوافل التجارية بحيث أصبح الشكل الأكدي لاسم مكة هو الشكل السائد الذي تعرف به عند الشعوب الأخرى والكتّاب الذين ينتمون إلى هذه الشعوب مثل بطلميوس الجغرافي ، وهو يوناني من مصر . كذلك نستطيع أن نستنتج من ورود اسم مكّة في خريطة هذا الجغرافي مع عدم ورودها في الكتابات الجغرافية أو الموسوعية أو النصوص السابقة أن أهميتها قبل عهد بطلميوس الجغرافي كانت محلية ومحدودة . وأنها لم تبدأ تظهر على أي مستوى له قيمته في مجال التجارة الدولية إلاّ في الوقت الذي كتب فيه هذا الجغرافي أو قبل ذلك بقليل . ربما في أواخر القرن الأول الميلادي (الذي كتب بلينيوس في وسطه ولم يذكرها . على كثرة ما ذكر من أماكن ومناطق في وصفه لشبه الجزيرة العربية وعلى حرصه على ذلك) .

أما الطريق العرضية الرابعة ، فكانت تتفرع من الطريق الطولية الجنوبية الشمالية بعد مسافة شمالي يثرب (**Iatribu** في النصوص الأكّدية والمدينة المنورة منذ هجرة الرسول (ص) إليها) في اتجاه شمالي شرقي مارة بعدد من الأماكن أهمّها تيماء(**Tema**

---

(٤١) راجع خريطة بطلميوس الجغرافي ، رقم ٤ في ملحق الخرائط بهذه الدراسة . عن المسحة الاكدية لاسم مكة كما ورد عند بطلميوس قارن على سبيل المثال اسماء المدن ياتريبو (يثرب) ، ياداكو (فدك) دادانو (ددان) . وقد وردت في :

C. G. Gadd : The Harran Inscription of Nabonidus (Anatolian Studies)

الجزء الثامن ، ١٩٥٨ ، صفحات ٣٥ وما بعدها .

في النصوص الأكدية) ثم دومة الجندل (Adumatu في النصوص الأكدية. والجوف حالياً) ثم تنتهي إلى وادي الرافدين عند بابل على نهر الفرات . وهذه الطريق من الطرق التجارية الهامة القديمة . فنحن نجد الإشارة إلى تيماء . في أكثر من نصّ من النصوص الأكدية أولها يرجع إلى عهد تجلات بيليسر الثالث (٧٢٧ — ٧٤٤ ق . م) فنجده يستولي عليها في حملة شنها على سورية بعد العام التاسع من حكمه . ثم تظهر في نص آخر غير محدّد التاريخ ولكنه يعود إلى حكم الملك ذاته . ثم يتواتر ذكرها عدة مرات في عهد الملك البابلي نابونائيد (٥٥٥ — ٥٣٩ ق . م) الذي يقيم بها نحو عشر سنوات من سني حكمه . والمدينة تقع ضمن واحة كانت على قدر كبير من الازدهار في العصور القديمة . نعرف ذلك من أحد النقوش المتعلقة بالملك نابونائيد الذي يشير إلى المدينة وإلى الريف المحيط بها . وهو ريف يبدو أن كان غنياً ببساتين النخيل التي ظلّت سمة هذه الواحة عبر القرون إلى أن نجد إشارة واضحة إليها في شعر امرىء القيس في القرن السادس الميلادي بعد ١٢ قرناً من عهد الملك نابونائيد (ولا يزال في الواقع حتى الآن . كما يستطيع الزائر للمنطقة أن يراه وبخاصة حول بئر الهداج التي يحتمل أن يعود تاريخ بنائها إلى القرن الثالث ق . م .) كذلك يشير النص إلى قصر اتخذه نابونائيد بتيماء وإلى حامية عسكرية من جنوده اتخذت مراكز هناك لحماية المدينة . وفي الواقع فإنّ الآثار المتبقّية حتى الآن من هذه المدينة تشير بشكل واضح إلى أهميتها التي كانت ذات طابع اقتصادي في المقام الأول . فلا يزال هناك جزء من سورها الضخم يرجع إلى حوالى القرن الخامس ق . م . وبقايا من قصر الرضم الذي يرجع إلى القرن الثالث ق . م. والذي شيدت دعامات سوره من الحجر المصقول ، كما لا تزال هناك بعض قواعد الأعمدة التي كانت تشكل جزءاً من قصر السموأل بن عادياء (القرن السادس الميلادي) المسمّى بقصر الأبلق والذي نجد إشارة إليه في أكثر من

موضع من شعر الأعشى الكبير الذي عاصر نهاية العصر الجاهلي وبداية العصر الإسلامي [٤٢] .

أما عن دومة الجندل فهي لا تقلّ في قدمها وأهميتها عن تيماء فقد ورد ذكرها في نص أكدي كإحدى المدن التي استولى عليها سنخريب الملك الآشوري (٧٠٤ — ٦٨١) . كذلك كانت هذه المنطقة (ولا تزال) واحة تجعل منها محطاً تجارياً من الطراز الأول ، يزيد من أهمية وقوعه في نقطة الوسط على الطريق بين وادي الرافدين والخط التجاري الطولي الذي يمتد بإزاء الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة . ونحن نستطيع أن نعرف شيئاً عن الأهمية التجارية لهذه المدينة باستقراء الآثار التي لا تزال باقية بها حتى الآن . ومن بين هذه قصر مارد أو قصر الأكيدر الذي يرجع بناؤه إلى القرن الثالث ق . م . كما نستنتج من دراسة هذا الأثر أنّ فترات بناء متعددة قد تعاقبت عليه بعد ذلك ، ممّا يدلّ على أهمية موقعه . وإلى جانب هذا فقد عثر في الموقع على عدد من النقوش المتباينة في لهجاتها ، بين معينيةوثمودية ولحيانية ونبطية [٤٣] . وهي ظاهرة تدلّ على قوافل تجارية لأقوام متعدّدة كانت تمرّ بهذه المنطقة .

---

(٤٢) النصان عن تيماء في عهد تجلات بيليسر في ANET ، صفحات ٢٨٣ — ٢٨٤ ، في عهد نابونائيد النصوص في ANET ، صفحات ٣٠٦ ، ٣١٣ . وصفها كمكان كان مليئا بالنخيل في شعر امرىء القيس ، البيت الاول في حاشية ١٣ اعلاه . بئر الهداج ونخيل تيماء حاليا في مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، لوحة ص ٢٠ ، سور تيماء ملحق اللوحات في هذه الدراسة ، لوحة ٣ ب ، بقايا قصر الرضم وقصر الابلق في نهاية ملحق اللوحات . الاشارات الى قصرالابلق في شعر الاعشى في شيخو والبستاني : ذاته ، قصيدة قصة السموال ، بيت ٧ :

بالابلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار

وكذلك في المجموعة ذاتها ، قصيدة « مدح المحلق » :

ولا عاديا لم يمنع الموت ماله ... وحصن بتيماء اليهودي ابلق

(٤٣) دومة الجندل في نص سنخريب تحت تسمية Adumatu في ANET ص ٢٩١ ، عن قصر الاكيدر راجع : مقدمة آثار السعودية ، ص٦٥ ولوحة على ص ٨٠ ، عن النقوش المتعددة اللهجات، ذاته : ص٦٥ .

وتبقى في نهاية الحديث عن الطرق البرية العرضية طريق خامسة ، هي الطريق التي تقع إلى أقصى الشمال في شبه الجزيرة العربية . وقد كانت هذه الطريق تشكل في الواقع امتداد صحراوياً لطريق تجارية تبدأ من الرمادي (على نهر الفرات إلى شمالي غربي بغداد) وتسير بمحاذاة النهر حتى ماري **Mari** (قرب أبو كمال الحالية على القسم الشمالي من نهر الفرات من ناحية الصحراء) ثم تمتد غرباً إلى تدمر ، ومن تدمر تمتد غرباً بميل طفيف إلى الشمال الغربي إلى حمص . ومن هناك تتفرع إلى عدة فروع تصل بين حمص من جهة والموانىء الفينيقية ودمشق وفلسطين من الناحية الأخرى . وفي الواقع فإنّ هذه الطريق كانت حلقة الوصل فيها هي مدينة تدمر ، هذه الواحة الغنية بالنخيل التي تقبع في وسط الصحراء . أمّا بقية الطريق الواقعة إلى شرقي تدمر أو غربيها ، فكانت ، رغم قصرها (فهي لا تزيد كثيراً عن ٣٠٠ ميل) معرضة لغارات القبائل البدوية المتنقلة بالمنطقة المحيطة بها [(٤٤)] . ولكن مع ذلك فقد احتفظت هذه الطريق القديمة بأهميتها . كما احتفظت بالأهمية ذاتها كل الطرق الأخرى التي شقت بعد ذلك واتخذت من تدمر نقطة ارتكاز لها في الوصل بين طرفي الصحراء عند حدود كل من وادي الرافدين وسورية وأهمها طريق دقلديانوس **Strata Diocletiana** التي شقت في عهد هذا الإمبراطور (٢٨٤–٣٠٥ م) بين دمشق في الجنوب الغربي وسرجيوبوليس **Sergiopolis** (الرصافة) في الشمال الشرقي على مقربة من الفرات ، بعد تدمير مدينة تدمر (٢٧٣ م) . أما السبب الذي أدّى إلى أهمية هذه الطريق فله صفة سياسية ، إلى جانب صفته التجارية . فالمنطقة . كما أسلفت ، كانت تقطنها قبائل بدوية متنقلة تسبب كثيراً من القلق على الحدود السورية أو حدود وادي الرافدين . ومن ثمّ فقد كان موقع تدمر كنقطة تأمين للطريق ومن ثم إقرار للأمور أمراً وارداً لأي من القوتين في شرقي الصحراء أو غربيها . وهكذا انتهى الأمر دائماً بتأمين الطريق لهذا

---

(٤٤) G-Roux : Ancient Iraq : ص ٢٩ .

الهدف السياسي وتبع ذلك ازدهار النشاط التجاري عليه . وهكذا . على سبيل المثال ، اعتنت حكومة الإمبراطورية الرومانية ببناء عدد من الحصون على طول طريق دقلديانوس التي سبقت الإشارة إليها . وقد تم اكتشاف بقايا عدد من هذه الحصون قائمة في أماكن عديدة على طول هذه الطريق حتى الآن (٤٥) . هذا ، إلى أن التوتر السياسي والعسكري الدائم بين الرومان والفرس ودأب الفرس على قطع الطريق التجارية على التجار الرومان . أفسح المجال أمام مدينة تدمر على أن تلعب دور الوساطة التجارية كمنطقة شبه محايدة . وإن كانت داخلة ضمن النفوذ الروماني ، طالما أنها لم تكن من الناحية الرسمية، وهكذا تضمن رومه الحصول على السلع اللازمة لها من الشرق الأوسط والأقصى .

ج — النشاط التجاري البحري

وأنتقل بالحديث الآن إلى الشق الآخر من النشاط التجاري لشبه الجزيرة ، وهو النشاط التجاري البحري . وأول ما نلاحظه في هذا الصدد هو أن الموقع الجغرافي والتاريخي لشبه الجزيرة العربية كان موقعاً يتيح لها إمكانات واسعة في مجال التجارة البحرية . فهي تشغل . كما سبق أن رأينا في مناسبة سابقة ، موقعاً وسطاً بين بحرين هما البحر الأحمر من الغرب والخليج من الشرق وبينهما يمتد المحيط الهندي ليستمر بعد ذلك شرقاً . كذلك فإن الرياح الموسمية التي تسود المنطقة أثبتت أنها عامل مساعد للملاحين إلى حد كبير . هذا . إلى أن نهري دجلة والفرات في شمال الخليج . ونهر النيل عبر البحر الأحمر . بإمكاناتهما في مجال النقل يشكلان امتدادين لهذا الموقع التجاري الوسيط . أما من الناحية التاريخية فشبه الجزيرة كان يحيط بها دائماً قوتان حضاريتان كبيرتان

---

(٤٥) راجع Dussaud : ذاته ، ص ٨٠ — ٨١ .

إمّا حضارة الآشوريين والبابليين أو الفرس في الشرق . وإمّا المصريون أو البطالمة أو الرومان في الغرب .

ولكن وقفت في الجانب الآخر عدة صعاب لم تمكن عرب شبه الجزيرة في الحقبة الأولى من العصور القديمة من الانتفاع بهذه الإمكانات المتاحة لها من حيث الموقع . فالبحر الأحمر شواطئه ليست آمنة تماماً ، بل إن أغلب هذه الشواطىء ، وبخاصة في القسم الشمالي من هذا البحر عبارة عن شعب مرجانية لا تسمح بوجود موانىء ترسو عليها السفن في شيء من الأمان . أما فيما يخصّ الخليج فإن سواحله الشرقية لا تطلّ على أماكن يوجد فيها قدر كاف من الماء اللازم لمساعدة القائمين بأيّ نوع من النشاط التجاري في الفترات الموغلة في القدم. كذلك فإنّ شبه الجزيرة لا تنتج أيّ نوع من الأخشاب الصلبة الطويلة التي تصلح لبناء السفن . ومن هنا. فرغم أننا نسمع عن نشاط بحري في الحقبة الأولى من العصور القديمة في البحر الأحمر من جانب المصريين ، أو لفترة وجيزة من جانب العبرانيين (على عهد سليمان) يعاونهم الفينيقيون (على عهد حيرام ملك صور) . وفي الخليج الفارسي من جانب الآشوريين والفرس، إلاّ أننا لا نسمع عن نشاط بحري عربي من جانب شبه الجزيرة في هذه الحقبة على الإطلاق (٤٦) .

وفي الواقع فإن علينا أن ننتظر إلى العصر المتأغرق (القرون الثلاث الأخيرة ق . م) والعصر الروماني الذي بدأ بعده مباشرة قبل أن نسمع عن ظهور النشاط التجاري البحري لسكان شبه الجزيرة وعن تطور هذا النشاط . وقد كان العصر المتأغرق في الواقع عصر نشاط اقتصادي من الطراز الأول

---

(٤٦) George Hourani : Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times (Khayat's Reprints, Beirut, ١٩٦٣) ; صفحات ٤ — ١١ .

وبخاصة في مجال التجارة ، وعلى وجه التحديد في مجال التجارة البحرية ، وهو نشاط أشار الإسكندر الأكبر إلى اتجاهه حين أرسل عدداً من معاونيه البحريين ليتعرّفوا على شواطىء شبه الجزيرة سواء من ناحية الخليج أو من ناحية البحر الأحمر (٤٧) . وحين أسس مدينة الاسكندرية على الشاطىء المصري لتصبح بعد موته أنشط ثغر بحري في مجال الاتصالات التجارية بين الشرق والغرب . ومن ثم يدخل البحر الأحمر والخليج في دائرة التصوّر الكامل لهذه الاتصالات .

وهكـــذا نسمع عن مدن من شبه الجزيرة العربية لها نشاط تجاري بعد ذلك بقليل . ففي أواسط القرن الثالث ق . م . أو قبل ذلك ، يبدأ الجرهائيون (أهل مدينة جرهاء) قرب الشاطىء العربي للخليج يقومون بنشاط تجاري كبير . وحقيقة إنّ أغلب هذا النشاط كان برياً في اتجاه القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة . ولكن جزءاً منه كان بحرياً يمرّ بمياه الخليج ثم يسير شمالاً في نهر الفرات حتى مدينة سليوقية Seleukeia التي أقامها السلوقيون على النهر (في المكان الذي أصبح بغداد فيما بعد) (٤٨) . كذلك نجد حوليات العهد المبكّر من حكم أسرة « هان » في الصين . في مجال الحديث عن علاقات هذه الأسرة الصينية الحاكمة مع منطقتي الشرق الأوسط والأدنى . تشير إلى نشاط بحري في المنطقة في فترة ترجع إلى ما بعد ١٤٠ ق . م . فتذكر أنّ الرحلة البحرية بين «تياو شيه» T'iao-chih (التي أمكن التعرّف على أنها القسم الجنوبي المطلّ على الخليج من وادي الرافدين) «وأرض الشمس الغاربة» (ربما يقصد شمالي البحر الأحمر) تستغرق مائة يوم (٤٩) . والإشارة إلى هذه السفرة البحرية تشير إلى نشاط بحري من إحدى موانىء المنطقة دون شكّ .

---

(٤٧) Arrianos : Anabasis, VII, 20 : 8-10

(٤٨) Eratosthenes منقـول في سترابون Aristobolous. Strabo : XVI, 1 : 9 . كذلك Agatharchides : XX منقول في سترابون Strabo : XVI, 3 : 3 (راجـع GGM ، ج ١ ، صفحات ١٨٦ وما بعدها) .

(٤٩) النص مقتبس في G. Hourani : ذاته ، ص ١٥ من ترجمة الـى الانجليزية في F. Hirth : China and the Roman Orient (Leipzig, ١٨٨٥)

وأرجّح أن تكون هذه الميناء هي خاراكس Charax (ميسان الحالية) التي تقع على رأس الخليج في جنوبي وادي الرافدين . وكان الاسكندر قد أسّسها وجعل لها ميناء في المنطقة ، ثم ذوت أهميتها بعض الشيء . ولكن أنطيوخوس Antiochos ، خامس الحكام السلوقيين (الذين خلفوا الاسكندر على حكم سورية ووادي الرافدين) اعتنى بها وأعاد إليها أهميتها . ثم أعاد إنشاءها ملك (أو زعيم) لمنطقة عربية مجاورة هو سباوسينيس Spaosenes (٥٠) (لعل النطق العربي للاسم شباس أو سباس ؟) .

كذلك فإن هذه الحوليات الصينية تذكر في أواخر القرن الأول الميلادي (٩٧ م) أنّ أحد سفرائها من أواسط آسيه . و كان – ينج Kan-ying الذي وصل إلى تياو – تشيه (التي سبق ذكرها) في طريقه إلى تاتسن Ta-t'sin (سورية) استفسر عن هذه الرحلة فذكر له سكان تياو – تشيه (الشواطىء الجنوبية لوادي الرافدين) أنّ « البحر كبير وواسع . وأنه إذا كانت الرياح مواتية فمن الممكن الوصول في ثلاثة أشهر . أمّا إذا لم تكن مواتية فمن الممكن أن تستمر السفرة سنتين . ولهذا فإنّ الذين يركبون البحر يأخذون معهم زاداً يكفيهم لثلاث سنوات . فإنّ في البحر شيء يحرك في الإنسان الحنين إلى بلده . وقد فقد الكثيرون حياتهم بسبب ذلك » (٥١) . والنصّ . يشير . كما هو واضح . إلى معرفة بالبحر ومن ثم بالتجارة البحرية . ولكن يبدو أن شيئاً من التخوف كان يحيط بالرحلات البحرية بين الخليج من جهة والبحر الأحمر من جهة أخرى . ربما لأن تجارة الشاطىء العربي المطلّ على الخليج كانت موجّهة حتى ذلك الوقت أساساً إلى الشرق أو على أكثر تقدير إلى الشواطىء الجنوبية لشبه الجزيرة . إذا اتجهت غرباً .

(٥٠) Plinius : HN, VI, 139

(٥١) مقتبس في G. Hourani : ذاته ، ص ١٦ .

وربما نستطيع أن نستنتج مثل هذا التصوّر إذا عرفنا أن تجار خاراكس (ميسان حالياً) كانوا يمارسون تجارة نشطة مع باريجازه **Barygaza**، على خليج كامباي **Cambay** - في الهند - تحمل سفنهم السلع العربية إليها، ثم تعود منها محملة بالنحاس والعاج وأنواع مختلفة من الأخشاب. ولعل استيراد هذه السلعة الأخيرة يشير إلى نوع من النشاط في بناء السفن التي كانت الأخشاب الصالحة لبنائها لا توجد في شبه الجزيرة العربية على نحو ما رأينا آنفاً. كذلك كانت سفن خاراكس تحمل السلع إلى الشواطىء الجنوبية العربية لشبه الجزيرة (٥٢). كما يذكر لنا بيلينيوس ثلاث مدن وموانىء أخرى ذات نشاط تجاري بحري، هي جرهاء وأكيله **Acila** (قرب رأس الخيمة الحالية) وهمنه**Homna** وأطانه **Attana** كموانىء على الجانب الشرقي لشبه الجزيرة العربية، ويذكر واحدة منها على الأقل - وهي أكيلة - في صدد العلاقات التجارية مع الهند (٥٣).

هذا عن النشاط التجاري العربي انطلاقاً من منطقة الخليج. أما عن النشاط المماثل في البحر الأحمر. فنحن نجد اهتمام الاسكندر الأكبر بالتعرّف على هذا البحر قد استمر في عهد حكام أسرة البطالمة الذين أسسوا دولة في مصر على أثر وفاته وكان هذا الاهتمام دافعاً كبيراً وراء النشاط التجاري في هذا البحر. وحقيقة إن التجار والملاحين اليونانيين قد استأثروا بالقسم الأكبر من من هذا النشاط. ولكن النشاط التجاري العربي ظهر هنا في صور مختلفة منذ بداية هذا العهد وطوال العصر المتأغرق والقسم الأكبر من عصر الإمبراطورية الرومانية الذي ابتدأ في فجر العهد الميلادي.

وفي هذا الصدد أعود إلى نقش أسلفت الإشارة إليه يرجع إلى النصف

---

(٥٢) Hourani : ذاته، ص ١٦ وحاشية ١٦.

(٥٣) Plinius : HN, VI, 51

الأول من القرن الثالث ق . م . وفيه نجد تاجراً معيّناً هو زيد إيل بن زيد ، وقد التحق بخدمة المعابد المصرية ضمن رجال الدين وكان يستورد المرّ والقليمة لهذه المعابد لقاء سلع من الأقمشة المصرية الفاخرة المصنوعة من الكتان ويقوم بهذا النشاط « في سفينته الخاصة »[٥٤] . ومعنى هذا أن عرباً من شبه الجزيرة كانوا يمارسون التجارة في البحر الأحمر وأن الملاحة في هذا البحر كانت آمنة آنذاك من غارات القراصنة الذين كانوا ينشطون فيه من حين لآخر . كذلك نجد في القرن الثاني في جزيرة ديلوس **Delos** في بحرايجة (بين آسيه الصغرى وشبه جزيرة البلقان) نقوشاً عربية معينية وسبئية مقدمة إلى آلهة عربية جنوبية من تجار عرب[٥٥] . وفي هذا إشارة واضحة إلى المدى الذي وصل إليه هؤلاء التجار الذين نستطيع أن نرجح أنهم كانوا ينقلون تجارتهم في البحر الأحمر إلى مصر ثم إلى الاسكندرية ومنها إلى جزيرة ديلوس فقد كانت تجارة الاسكندرية نشطة مع هذه الجزيرة في خلال العصر البطلمي . كما كانت تجارة العرب الجنوبيين مع مصر واردة كما يثبت ذلك نص زيد إيل التاجر المعيني السابق الذكر .

على أن النشاط التجاري العربي في البحر الأحمر يبدو أن تراجع في القرن الأول ق . م . فلا يوجد لدينا خلال هذا القرن من الكتابات أو النقوش ما يشير إليه . وربما كان هناك سببان وراء هذا التراجع : السبب الأول هو تكثيف البطالمة في مصر لنشاطهم التجاري في البحر الأحمر والمحيط الهندي وإحكام سيطرتهم الاقتصادية على هذين الامتدادين المائيين .فقد عثر في مصر على أربع نقوش ترجع إلى الفترة بين عامي ١١٠ و ٥١ ق . م . تشير إلى موظفين في حكومة البطالمة « مسئولين عن شئون البحر الأحمر والمحيط

---

(٥٤) راجع النص في القسم الخاص بالنقوش في الباب الرابع من هذه الدراسة .

(٥٥) Rostovtzeff : Social and Economic History of the Hellenistic World
ج ٢ ، ص ٧٠٢ وحاشية ١٢٤ .

الهندي (*) ». ومثل هذا التكثيف التجاري من جانب البطالمة بإمكاناتهم الاقتصادية القوية من المنطقي أن يؤدي إلى التراجع الذي أصاب التجارة البحرية من الجزيرة العربية ، على الأقل في خارج دائرة النشاط البحري المحلي . أمّا العامل الآخر الذي أدّى إلى هذا التراجع فهو اكتشاف بحار يوناني اسمه هبالوس **Hippalos** لقيمةالرياح الموسمية في تسهيل رحلات السفن عبر المحيط الهندي إذا أحكم توقيت هذه الرحلات بحيث تمّ في شهور معينة من السنة . وقد أدّى هذا الاكتشاف لقيمة الرياح الموسمية إلى تكثيف أكثر للتجارة المباشرة بين البحر الأحمر والمحيط الهندي (٥٦) . وهي تجارة كان لا يمكن للتجار العرب أن ينافسوا فيها التجار اليونان الذين يملكون السفن الكبيرة التي تستخدم فيها المسامير لتوصيل ألواحها ببعضها، بينما كانت السفن العربية من النوع الصغير الذي تستخدم فيه الألياف لربط الألواح ببعضها (٥٧) .

على أننا لا نلبث أن نسمع عن عودة للنشاط العربي في التجارة البحرية مع العصر الإمبراطوري الروماني الذي ابتدأ في فجر القرن الأول الميلادي . ففي أواسط هذا القرن يصف لنا صاحب كتاب «الطواف حول البحر الأريتري » (وهو كاتب يوناني) ميناء ليوكي كومي **Leuke Kome** (القرية البيضاء) في القسم الشمالي من ساحل شبه الجزيرة . المطلّ على البحر الأحمر . بأنها سوق نبطية (أي في منطقة الأنباط) للسفن العربية المحلية . كما يتعرض هذا الكاتب لميناء موزا **Muza** (عند أو قرب مخا حالياً) فيصفها بأنها

(*) Rostovtzeff : ذاته ، ج ٢ ، صفحات ٩٢٣ ـ ٩٢٩ وحواشي ٢٠٣ ـ ٢٠٧ . كذلك في W. Otto & H. Bengtson : Zur Geschichte des Niederganges des Ptolemaierreiches (Muenchen ١٩٣٨) صفحات ١٩٤ وما بعدها .

(٥٦) Plinius : HN. VI, 100, 104, 106

(٥٧) G. Hourani : ذاته ، ص ٢٨ .

سوق بحكم القانون ترسو عندها السفن . وعندها نجد المكان « وقد اكتظ بالعرب سواء من أصحاب السفن أو التجـــارة وهم منشغلون بأمورهم التجارية . إذ أنهم كانوا يمارسون التجارة مع الساحل البعيد (الساحل الإفريقي) ومع باريجازه (في الهند) » ثم ينتقل الكاتب في حديثه إلى « كانه » **Kane** (حصن الغراب حالياً) التي تقع في شرقي العربية الميمونة **Arabia Eudaemon** فيذكر أن أحمال اللبان والبخور كانت تصل إليها وأن هذه المدينة التي كانت سوقاً « تتاجر كذلك مع مدن السوق الموجودة في الجانب البعيد (الجانب الإفريقي) كذلك . كما كانت تتاجر مع باريجازه وسكيثية (وادي السند) وأومانه **Omana** (ربما لم تكن عمان الحالية ؟) وبرسيس **Persis** المجاورة لها » . هذا بينما نجد جزيرة سقطري (جنوبي شبه الجزيرة العربية) « التي تتبع ملك أرض اللبان» (يقصد ملك العربية الجنوبية) وقد أقام على شواطئها الشمالية تجار عرب وهنود ويونان » (٥٨) .

أما عن الساحل الإفريقي فنحن نجد التجار العرب في كل مكان تقريباً حتى ميناء رابطة **Rhapta** جنوباً (قرب الزنجبار – جزء من تانزانية حالياً) . وعن هذه المنطقة يقول صاحب كتاب الطواف« إن رئيسها (الذي كان من أصل عربي جنوبي) يحكمها بمقتضى حقّ قديم يجعلها خاضعة لسيادة المدينة التي تصل إليها أول ما تصل إلى ساحل العربية (يقصد مدينة موزا) . وأهل مورا . . . يرسلون الآن سفناً يجعلون عليها غالباً بحارة ووكلاء من العرب . على معرفة بأهل البلاد . يتزاوجون معهم ويعرفون الشاطىء ولغة المنطقة » (٥٩) .

وحين يأتي القرن الثاني الميلادي لا يختفي النشاط التجاري البحري لعرب شبه الجزيرة رغم ازدياد نشاط التجارة اليونانية الرومانية في هذا القرن . وفي

---

(٥٨) Periplos : XXI, XXVII
(٥٩) ذاته : 7-10, 14, 16

هذا الصدد عثر المنقبون الأثريون في مصر على نقش من عهد الإمبراطور الروماني هادريانوس (١١٧ – ١٣٨ م) يذكر نقابة مزدهرة ومعترفا بها من الإمبراطور لربابنة من مدينة «تدمر» يعملون في البحر الأحمر (٦٠) . وهو نقش يدعو في الحقيقة إلى التأمّل ، إذ أن أهل هذه المدينة قد اعتادوا ممارسة التجارة البرية في منطقة صحراوية ، ومن ثمّ فانتقالهم إلى التجارة البحرية ، إلى جانب إشارته إلى مقدرتهم ، يثير في الحقيقة أكثر من تساؤل حول تغيير محتمل في ميزان الأهمية النسبية لكلّ من التجارة البرية وتجارة البحر .

ويبدو أن هذا القرن شهد الازدهار الأخير لنشاط التجارة البحرية العربية قبل الإسلام . ففي القرن الثالث الميلادي لا نسمع شيئاً عن هذا النشاط ، وفي الحقيقة لقد شهد هذا القرن عصر التدهور الاقتصادي للإمبراطورية الرومانية كما هبط فيه النشاط التجاري اليوناني في البحر . أما القرون الثلاثة التالية(بين القرن الرابع وظهور الدعوة الإسلاميةفي القرنالسابع الميلادي)وهي الفترة التي عاصرت الامبراطوريةالبيزنطية في الغرب والإمبراطوريةالساسانيةفي الشرق فنحن لا نسمع فيها شيئاً عن النشاط العربي التجاري في البحر الأحمر .

لقد أصبحت جزيرة سيلان في تلك الفترة هي همزة الوصل بين تجارة الصين وتجارة الشرق الأدنى . إليها يصل التجار الصينيون ليفرغوا تجارتهم ، ومنها يبحر بهذه التجارة تجار من فارس والحبشة Axum . وقد عادت التجارة اليونانية إلى النشاط بعض الشيء . فكانت تصل من شمالي البحر الأحمر حتى أدوليسAdulis (عدول ؟) على شاطىء الحبشة شمالي باب المندب . وربما عبرت باب المندب في بعض الأحيان . أمّا عن التجارة العربية البحرية وأمّا

---

(٦٠) Années d'Epigraphie ، ١٩١٢ ، نص رقم ١٧١ .

عن التجار العرب فلا يرد ذكر لها سواء في نقوش أو كتابات هذه الفترة (٦١) .
بل نحن نجد شاهداً على تدهور النشاط البحري العربي عموماً فيما حدث في عام ٥٢٤ — ٥٢٥ م حين أرسل أتزبيهه Atzbeha ملك الحبشة (أكسوم) حملة من أدوليس عبرت البحر الأحمر ورست على شواطىء اليمن . ورغم أن هذه الحملة لقيت بعض المقاومة على هذا الشاطىء إلاّ أن حاكم المنطقة الحميري « ذانواس » لم يكن لديه أسطول وانتهى الأمر باحتلال القوات الحبشية للمنطقة (٦٢) . ولكن إذا كان النشاط التجاري البحري لغرب شبه الجزيرة لم يصل إلينا شيء عنه في ذلك العصر . فإنّ هذا لا يعني بالضرورة انه اختفى نهائياً . وربما يكون الاستنتاج المعقول ، حسبما يرى باحث معاصر ، هو أنه « لم يعد يلعب دوراً جديراً بالملاحظة في البحار الكبيرة » (٦٣) بل أصبح يدور في نطاق محلّي . وقد كان هذا طبيعياً في إطار التدهور الاقتصادي والسياسي الذي لحق بالعربية الجنوبية في القرن السادس الميلادي . وأضيف . تأييداً لهذا الرأي . أن الإشارة إلى نشاط بحري تجاري عربي ترد في القرن السادس مرتين على الأقل . إحداهما عند طرفة بن العبد والأخرى عند المثقب العبدي . كما ترد الإشارة إلى هذا النشاط في القرن السابع في عدد من آيات القرآن الكريم (٦٤) .

٤ — التعدين والصناعة :

وتبقى في نهاية الحديث كلمة عن مورد آخر من الموارد التي شكلت في مجموعها وفيما كان يتصل بها من معاملات . صورة الوضع الاقتصادي لشبه

(٦١) J. B. Bury : History of the Later Roman Empire (London ١٩٢٣) ، ج ٢ ، صفحات ٣١٦ — ٣٣٣ .
(٦٢) Bury : المرجع ذاته ، ج ٢ ، صفحات ٣٢٢ وما بعدها .
(٦٣) Hou rani : ذاته ، ص ٤٣ .
(٦٤) عن الاشارة الى السفن في الشعر الجاهلي ، راجع الباب السابع الخاص بالشعر الجاهلي في هذه الدراسة ، عن ذكر البحر والملاحة في القرآن الكريم راجع سور : الانعام : ٩٧ ، يونس : ٢٢ ، النحل : ١٤ .

الجزيرة العربية في العصور السابقة لظهور الإسلام — وهذا المورد هو التعدين والصناعة . وفي صدد الحديث عن هذا المورد يسترعي الانتباه عدد من الملاحظات أو الظواهر العامة سواء بصدد توزيعه على أقسام شبه الجزيرة أو في مدى معرفة سكان المنطقة به أو في مدى اعتمادهم عليه أو نظرتهم إليه . وفيما يخص الظاهرة الأولى وهي توزيع هذا المورد فإن المصادر تشير إلى وجود المعادن . على سبيل المثال . في مناطق دون مناطق أخرى ، فالمناطق التي توجد فيها هذه المعادن هي الحجاز واليمن والساحل الشرقي المطل على الخليج والمحيط الهندي ، أمّا بقية المناطق فلا تشير إليها هذه المصادر .

ومن الطبيعي أنّ أقساماً من شبه الجزيرة لا توجد فيها معادن . كذلك من الطبيعي أنه إذا وجدت بعض المعادن في أماكن لا يوجد فيها عمران فإنها تبقى مطمورة دون أن يعرف أحد عن وجودها . ولكن مع ذلك فلنا أن نتصوّر أن بعض المناطق المعمورة (بنسب متفاوتة) لم يكن سكانها يهتمون بهذا المورد . فالمناطق التي كانت تعيش على الرعي . حيث البدو الرحّل . لم يكن لدى سكانها مثل هذا الاهتمام أو الإمكانات التي تشجّع عليه . كذلك فإنّ القسم الأكبر من سكان الواحات . وبخاصة الواحات المتناثرة في قلب البادية . يصدق عليها هذا الحكم . وإلى جانب هذا فالمناطق الموجودة في القسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة . مثل مملكة معين الشمالية ومملكة الأنباط حيث وجد قدر ظاهر من الثروة والاستقرار (كما يظهر من الآثار المتبقية في المنطقة) يبدو أنها جنت خيراً كثيراً من المورد التجاري ومن ثم انصرفت إلى الحفاظ عليه والذود عنه ضدّ كل من يحاول التأثير عليه بالمنافسة أو بأي نوع آخر من النشاط بحيث أنها لم تهتم بأي مورد آخر غيره .

أما عن الظاهرة الثانية وهي مدى معرفة سكان شبه الجزيرة بالمعادن والتعدين فتدلّ على ذلك عدد من شواهد : والشاهد الأول يأتي من القرآن الكريم (القرن السابع م) حيث نجد فيه إشارة مباشرة وصريحة إلى معرفة بفوائد

الحديد وإلى خبرة بصهر المعادن وصناعة الحليّ والأدوات منها . والشاهد الثاني نجده فيما تركه لنا الكتّاب الكلاسيكيون من وصف لموارد شبه الجزيرة حيث يشير أرتميدوروس (أوائل القرن الثاني ق . م) إلى وجود الذهب في المنطقة القريبة من الساحل الغربي لشبة الجزيرة شمالي سبأ (الحجاز أو نجران) سواء في صورة تراب الذهب أو في صورة معدن على هيئة قطع يصلون إليها عن طريق التعدين . كما يشير إلى أن سكان المنطقة يبادلون به الفضّة والنحاس من الأماكن المجاورة لهم ، ولنا أن نرجح أن الإشارة هنا هي إلى المناطق الموجودة في اليمن . كذلك يشير الكاتب الروماني بلينيوس (أواسط القرن الأول الميلادي) إلى وجود الذهب في بعض الأماكن على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة [٦٥] .

---

(٦٥) اشارات الكتاب الكلاسيكيين الى وجود الذهب والفضة والنحاس في Strabo : XVI, 4 : 18; Plinius : HN, VI, 150 . الاشارة الى وجود الحديد وفوائده في القرآن الكريم ، سورة الحديد : ٢٥ والى صهر المعادن وصناعة الحلي وغيرها في سورة الرعد : ١٧ . كذلك هناك آية قرآنية في الشعراء قد تشير الى الصناعة في سورة الشعراء : ١٢٩ حيث يلوم هود عليه السلام قومه عاد (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) ، ولكن تبقى لفظة ، مصانع ، هنا حائرة بين المصنع بمعنى القرية والمصنع بمعنى مكان الصناعة . كذلك تجد في التوراة : سفر اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٩ : ١٠ ، ان عبيد سليمان قد احضروا له ذهبا من اوفير . وقد كثر النقاش حول اوفير ، ومن بين الآراء التي ظهرت في هذا الصدد ان اوفير يجب ان تكون موجودة في الهند ، لان الموضع المشار اليه في التوراة يجعل من بين السلع المستوردة الى جانب الذهب ، خشب الصندل وهو غير موجود في شبه الجزيرة العربية ، راجع : A. Hourani : Arab Seafaring ، ص ٩ . ولكن الرأي يمكن ان يكون مردودا عليه اذ ان هذه السفن التي ارسلها سليمان قد تكون وصلت الى الهند حيث جلبت شجر الصندل ، ولكنها وهي في طريقها جلبت ذهبا من احد موانىء الساحل الشرقي لشبه الجزيرة حيث يذكر الكاتب الروماني بلينيوس ان الذهب كان موجودا بها (راجع بداية هذه الحاشية) . ولكن الراي الغالب هو ان اوفير ، موجودة فعلا على الشاطىء الشرقي لشبه جزيرة العرب وذلك اعتمادا على ما جاء في التوراة من ان =

كذلك من بين هذه الشواهد الألفاظ العديدة التي استعملها كتّاب العصر الإسلامي كأسماء للذهب في حالاته المختلفة مثل « التبر » وهو الذهب الذي لم يعالج بعد . و« العسجد » وهو اسم يبدو أنه كان عاماً يطلق على الذهب والجواهر كالدّرّ والياقوت . و« السّحاله » وهي تراب الذهب و « الإبريز » و « العقيان » وهو الذهب الخالص . وهذا التعدّد في الأسماء نجده كذلك فيما يخصّ بعض المعادن الأخرى مثل الفضّة التي كانت تعرف كذلك باسم « اللجين » كما كانت تعرف باسم « الصريف » في حالتها الخالصة و « الرضراض » في حالتها المتفوقة كما كانت تعرف سبيكتها أو القطعة المجلوّة منها باسم « الوذيلة » . ومثل الرصاص الذي عرف سكان اليمن نوعين منه ، الأبيض وكانوا يسمونه « الأسرب » أو « الأبار » والأسود وكانوا يسمّونه « الصرفان » أو « القلعي » ، وهكذا . وإلى جانب ذلك فنحن نجد لدى كتّاب العصر الإسلامي كذلك ذكر لأماكن عديدة كانت توجد بها المناجم (أو المعادن حسبما كانوا يسمّونها . جمع معدن وهو المنجم أو مكان التعدين) . التي كانوا يستخرجون منها المعادن التي أشاروا إليها في كتاباتهم (٦٦) . وطبيعي أن تعدّد الأسماء التي كانت تطلق على كل

= اوفير ، هو احد ابناء يقطان (اي قحطان ــ والتوراة تمزج بين اسماء الاشخاص والاماكن) ، وقد ذكر ان موطن اليقطانيين هو ما بين اسماء وانت آت نحو سفار جبل المشرق ، (سفر التكوين ، اصحاح ١٠ : ٢٦ وما بعدها) وحيث ان ميشا هي في اغلب الظن ميسان عند الطرف الشمالي للخليج وان سفار هي ظفار ، فتكون الاشارة الى شرقي شبه الجزيرة . هذا ويدعم جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ، صفحات ٦٣٩ ــ ٦٤٠) هذا الترجيح بما ذكره الهمداني (صفة جزيرة العرب) عن معدن (منجم) من معان اليمامة اسمه « حفير » ويجد في هذا الاسم اقترابا من اوفير . ورغم ان اليمامة بعيدة عن الساحل إلا ان الكاتب يرى ان ذهب « الحفير » كان ينقل الى الساحل لبيعه في احد الموانيء ، وان ملاحي سليمان اشتروه من هناك ، ولما كان معروفا بذهب حفير فقد ذكرت التوراة ان الذهب من اوفير التي يرى الكاتب انها هي حفير .

(٦٦) عن بعض اسماء المعادن راجع تاج العروس ، مواد : ذهب ، عسجد، عقي، سحل ــ عن الذهب ــ ومواد : صرف ، لجن، وذل ــ عن =

معدن في حالاتها المختلفة ووفرة عدد الأماكن التي كانت تستخرج منها المعادن شاهدان يدلان على المعرفة المفصّلة بالمعادن والتعدين . وهو أمر لا يمكن أن يكون قد ظهر فجأة في العصر الإسلامي وإنما كان موجوداً . على الأقل في نسبة منه ، في عصور ما قبل الإسلام .

أما الشاهد الأخير في هذا الصدد فهو الآثار التي خلفها لنا سكان شبه الجزيرة في الفترة السابقة للإسلام . وفي هذا المجال فقد عثرت شركة التعدين السعودية العربية في منجم « مهد الذهب » الذي يقع إلى شمالي المدينة ، على أدوات ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام كانت تستخدم لاستخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه من بينها رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح ، كما وجدوا آثاراً تدلّ على قيام عمال بالحفر في هذا المنجم لاستخراج الذهب منه . كما كما عثر المنقبون الأثريون على بقايا من الرصاص في المباني الأثرية باليمن تشير إلى أنّ أهل المنطقة كانوا يصبّون الرصاص المصهور في أسس الأعمدة لتثبيتها وبين مواضع اتصال الحجارة لتشدّها إلى بعضها (٦٧) .

ولم تقتصر معرفة المجتمع العربي قبل الإسلام على هذه المعادن وعلى معالجتها وحدها . فقد عرف عرب شبه الجزيرة في تلك الفترة معادن أخرى مثل الملح والعقيق والزمرّد وغيرها . كما عرف أهل اليمن قدراً متقدّماً من صناعة النسيج والحياكة . وقد ورد ذكر هذه الصناعة الأخيرة في النصوص العربية الجنوبية كما ورد في أشعار الجاهليين ما يشير إلى المستوى المرموق

= الفضة . ومواد : رص، صرف، قلع ـ عن الرصاص. راجع عن تصنيف واف لهذه المعادن ولمعادن اخرى ، جواد علي : ذاته ، ج ٧ ، صفحات ٥١٢ وما بعدها .

(٦٧) جواد علي : ذاته ، ج ٧ ، صفحات ٥١٤ ـ ٥١٦ .

سواء للنسيج اليماني أو للمهارة في هذه الصناعة [٦٨] .

ويبقى في نهاية الحديث عن الصناعة وما يتصل ببعض جوانبها من تعدين تساؤل هو : إلى أيّ حدّ نظر سكان شبه الجزيرة العربية إلى هذا المورد بعين الاهتمام وإلى أيّ حدّ كان استغلالهم له . وهل وصل هذا الاستغلال للقدر الذي يجعل المصنوعات سلعاً للتصدير تسهم في زيادة دخل المجتمع أو المجتمعات التي وجدت في شبه الجزيرة ؟ إنّ الإجابة على هذا التساؤل لا يمكن إلاّ أن تكون مختلطة ومتداخلة . فالشواهد التي عرضت طرفاً منها تدل على قدر غير قليل من الاهتمام بهذا المورد وباستغلاله . وقد وصل هذا الاستغلال في بعض الأحيان إلى تصدير بعض السلع على الأقل من منطقة إلى أخرى . في داخل شبه الجزيرة العربية : مثل السيوف اليمانية والنسيج اليماني . وهما سلعتان يبدو من أشعار الجاهليين أنهما كانتا تصلان من اليمن إلى بقية مناطق شبه الجزيرة .

كذلك فنحن نجد أن نشاط التعدين أو الصناعة لم تكن على نفس المستوى في الأقسام المختلفة من شبه الجزيرة . وفي هذا الصدد يذكر لنا الكاتب اليوناني أرتميدوروس في وصفه لسكان المنطقة التي تقع إلى شمالي سبأ أن بعض هؤلاء السكان يحصلون على الذهب في هيئة كتل أو كرات صغيرات عن طريق الحفر (يقصد التعدين بالضرورة) وهم إمّا أن يأخذوا هذه الكرات كما هي

(٦٨) عن بقية المعادن ، راجع حاشية ٦٦ اعلاه . عن الاشارة الى النسيج في النقوش العربية الجنوبية راجع نص Glaser 1000 A عن الاشادة بالنسيج اليماني راجع بيتا لطرفه في ، شيخو والبستاني ، ص ٧٦ ، بيت ٢ ، وهو :

وبالسفح آيات كأن رسومها   يمان وشتها ريدة وسحول

وعن صناعة النسيج ذاتها راجع بيت ذي الرمة في تاج العروس ، مادة : حاك . والبيت هو :

كأن عليها سحق لفق تأنقت   به حضرميات الاكف الحوائك

ولا يصنعون فيها شيئاً أكثر من ثقبها لكي يصنعوا منها عقوداً وأساور ، أو أنهم يبيعونها « بسعر رخيص إلى جيرانهم ... بسبب عدم مقدرتهم على صياغة الذهب » (٦٩) . وفي هذا دليل واضح على أن جيرانهم هؤلاء ، وفي ترجيحي أنهم السبئيون أنفسهم حسبما يشير سياق الكلام عند هذا الكاتب ، أكثر منهم مقدرة على هذه الصياغة .

وفي الواقع فإننا نجد من الشواهد التي أسلفت الإشارة إليها أنّ أغلب نشاط التعدين والنشاط الصناعي عموماً يكاد يكون مركزاً في اليمن حيث توجد منطقة سبأ والمناطق الأخرى المجاورة لها . وتفسير ذلك في رأيي أن هذه المناطق كانت أكثر استقراراً من غيرها . ففي اليمن كانت ظروف التربة الخصبة والأمطار الموسمية المنتظمة تساعد على اقتصاد زراعي وافر وثابت . كذلك كانت مواردها الطبيعية من الطيوب مادة أولية ثابتة ومستمرة للتجارة ، كما كان موقعها عند بدء الخطوط التجارية البرية إلى سورية ووادي الرافدين ، وعند مفترق الطريق التجاري البحري بين البحر الأحمر والمحيط الهندي (ومن ثم بين تجارة الشرق والغرب) ما يجعلها في مأمن ممّا قد يصيب تجارة العبور من هزات تسببها الظروف الطارئة . وطبيعي أن مثل هذا الاستقرار يجعل في إمكان المجتمع الموجود بالمنطقة أن يقبل على النشاط الصناعي .

ولكن مع ذلك فيبدو أنّ الحجم الحقيقي للمصنوعات لم يكن بالقدر الذي قد ننتظره لأوّل وهلة . فرغم أن اليمن ، على سبيل المثال ، قد صدّرت السيوف اليمانية وبعض أنواع النسيج إلى عدد من أقسام شبه الجزيرة ، إلاّ أن تصدير هاتين السلعتين أو غيرهما من السلع المصنّعة ظلّ قاصراً على هذا الإطار المحلّي ولم يعرف طريقه إلى الخارج ، إذ لا نصادف في المصادر التي بين أيدينا ما يشير إلى ذلك . بل أكثر من هذا ، فرغم الإشارات المتواترة إلى

---

(٦٩) منقول في Strabo : XVI, 4 : 18

وجود الذهب ومعادنه (مناجمه) في اليمن وإلى وجود صناعة نسيج قوية بها ، إلاّ أننا نجد أحد الكتاب اليونان يذكر لنا أنّ ميناء أبولوجوس (أُبُلّه) الفارسية كانت تصدر إلى اليمن عدداً من السلع من بينها الأقمشة والذهب [٧٠] (وأغلب الظنّ أن هذا لم يكن ذهباً خاماً ، ولكنه ذهب قد تمت صياغته).

أما عن تفسير هذا التناقض فأغلب الظنّ أنّه يكمن في النظرة الّتي كان ينظر بها العرب إلى العمل اليدوي . فرغم أنهم كانوا بحاجة إلى السلع المصنوعة ذاتّها ، ورغم تغنّيهم بها في أشعارهم ، إلاّ أنهم كانوا يعتبرون ممارسة العمل في صنع هذه السلع أمراً متدنياً في قيمته كمهنة يحترفونها إذ « لا يليق بالعربي الشريف الحرّ » على حد تعبير باحث معاصر « أن يكون صانعاً لأنّ الصناعة من حرف العبيد والخدم والأعاجم والمستضعفين من الناس » — وهي نظرة يبدو أنها استمرت بين عرب شبه الجزيرة في العصر الإسلامي إذ نجد أحد الكتاب المسلمين في هذا العصر يذكر لنا عن أحد المعادن (المناجم) أن به ألوفاً من المجوس الذين يعملون المعدن حتى أنه كان لهم بيتا نار للعبادة في ذلك المكان » [٧١].

---

(٧٠) الاشـارة في .Periplos Maris Erythraei : 35-36 . وهـذا الاسـم (الطواف حول البحر الاريتري) هو العنوان اللاتيني لكتاب كتبه في اواسط القرن الاول الميلادي كاتب يوناني لم يصل الينا اسمه .

(٧١) التعبير لجواد علي : ذاته ، ج ٧ ، ص ٥٠٦ . عن عمل المجوس في المناجم (المعادن) انظر : الهمداني : صفة جزيرة العرب ، ص ١٤٩ .

الباب التاسع

الأوضاع الداخلية

بعد الحديث عن الموارد الاقتصادية لشبه جزيرة العرب يصبح في مقدورنا أن نتحدث عن الإطار العام للأوضاع الداخلية في هذه المنطقة بجوانبها الثلاث : السياسية والاجتماعية والدينية . فقد كانت هذه الأوضاع نتيجة منطقية لهذه الموارد من جهة ثم لتفاعل هذه الموارد مع الموقع والظرف التاريخي الذي أحاط بأقسام شبه الجزيرة من جهة أخرى . لقد رأينا أن الموارد الاقتصادية تدور بصفة أساسية حول محاور ثلاث : الرعي بنوعيه . المتنقل الضارب في قلب البادية والمستقر أو شبه المستقر على حدود الهلال الخصيب بدوله أو إمبراطورياته المستقرّة . ثم الزراعة بنوعيها الخفيف والمكثّف ، ثم التجارة بخطوطها التجارية التي تربط بين شبه الجزيرة والمناطق المحيطة بها إلى الشمال الشرقي من جهة وإلى الشمال الغربي من جهة أخرى . كذلك كانت تحدق بالمنطقة دول أو إمبراطوريات في هاتين الجهتين وكان بين هذه الدول أو الإمبراطوريات صراع شبه مستمر لا يهدأ إلاّ لكي يثور من جديد . وكانت كل هذه العوامل تتداخل وتتفاعل في حركة تاريخية يبرز جانب منها حيناً ويبرز أكثر من جانب في أحيان أخرى . وكان لا بدّ لهذا كلّه أن يترك أثره

على الأوضاع التي سادت شبه الجزيرة بشكل يظهر في كلّ قسم من أقسامها حسب موارده الاقتصادية ومدى تفاعلها مع الظرف التاريخي في مرحلة أو أخرى من مراحله .

١ ـ الوضع السياسي :

وفيما يخصّ الوضع السياسي فقد ظهر هذا الاختلاف من قسم إلى قسم فيما يخصّ التكوين العام من جهة . وأعني بذلك الشكل السياسي الذي برز في كلّ قسم . سواء أكان ذلك تكويناً صغيراً أو كبيراً . أو كان تكويناً مستقلاً أو تابعاً أو يقف في نقطة توازن متحركة بين الاستقلال والتبعية . ومن جهة أخرى من حيث نوعية التنظيم السياسي أو نظام الحكم الذي وجد في قسم أو في آخر من أقسام شبه الجزيرة .

أ ـ التكوينات السياسية

وأحد الأشكال أو التكوينات السياسية في شبه الجزيرة العربية هو التكوين القبلي ، ولا أعني هنا التكوين القبلي بمفهومه الاجتماعي . فقد وجدت القبائل كوحدات اجتماعية في كلّ أرجاء شبه الجزيرة . ولكني أعني التكوين أو الشكل القبلي الذي تصبح فيه القبيلة إلى جانب وظيفتها الاجتماعية وحدة سياسية كذلك تتصرّف بوصفها كياناً سياسياً قائماً بذاته سواء في أمورها الداخلية أو في علاقاتها الخارجية بما يدخل في ذلك من حرب وسلام واتفاقات وتحالفات ومناورات وغير ذلك من أشكال هذه العلاقات . وفي هذا الصدد فقد كانت الوحدة السياسية القبلية هي الشكل المنتشر في البادية . أدّت إلى ذلك طبيعة هذه البادية بقسوتها التي كانت تدفع كل قبيلة إلى التنقل وراء الكلأ حيثما وجد انتجاعاً للمرعى – وهو وضع كان الشكل السياسي الوحيد الذي يتواءم معه هو الوحدة السياسية الصغيرة . وهي القبيلة .

وقد كانت الأسرة هي الخليّة التي تتألف القبيلة من تكرارها وتكويناتها . تعيش الأسرة في خيمة أو ربما في عدد صغير من الخيام . وكل مجموعة من الأسر تشكّل حيّاً أو قوماً يعتقدون . حقيقة أو تصوّراً . أنهم ينحدرون من أصل واحد ومن ثمّ تربط بينهم آصرة الدم أو القرابة . ومن مجموع هذه الأحياء أو الأقوام تتكوّن القبيلة . وقد عبّر أبناء الحيّ أو القوم الواحد عن آصرة القرابة التي تربط بينهم بانتسابهم إلى اسم هو الجدّ الأول لهم فيما كانوا يعتقدون . فهم بنوه الذين يعرفون ويتعاملون ويتفاخرون باسمه . فهناك بنو الأصفر وبنو جرم وبنو جرهم وبنو شاكر وبنو عباد وبنو عبد القيس وبنو هذيل وبنو ذبيان . إلى آخر هذه الأسماء . وقد يسمي أبناء القبيلة كلها (أو ربما عدد من القبائل) أنفسهم أنهم بنو فلان أو غيره مثل بني تنوخ أو بني لخم . ولكن الوضع السائد عادة هو أن هذه التسمية كانت لتمييز الأحياء أو الأقوام .

كذلك نجد بين بعض هذه الأسماء التي انتسبت إليها الأحياء أسماء نساء تشير بالضرورة إلى إحدى المراحل التي مرّ بها مجتمع البادية وهي المرحلة الأموية matriarchal التي كانت فيها الأم هي محور رابطة القرابة أو الدم ومن ثم كان الانتساب إليها . وهكذا وجد من بين عرب شبه الجزيرة أقوام مثل بني بجيلة وبني البقعاء وبني جهينة وبني ربيعة وبني فزارة وبني حنيفة وبني الرباب وبني أميّة وبني جذيمة . وقد ظلت هذه التسميات الأموية قائمة حتى بعد أن انقرض النظام الأموي وحلّ محلّه النظام الأبوي patriarchal . بل لقد وصل الأمر إلى أن أصبحت بعض هذه الأسماء أسماء الذكور مثل أميّة بن أبي الصلت أو جذيمة بن الأبرش . هذا . وجدير بالذكر هنا أن انتساب بعض الأقوام إلى نسب أموي ليس شيئاً غريباً في حدّ ذاته . فقد كانت المرحلة الأموية إحدى المراحل التي مرّت بها أغلب المجتمعات القديمة عامّة . سواء في شبه الجزيرة العربية أو في غيرها من المناطق .

كذلك كان يحدث في بعض الأحيان أن يظهر نوع من التكوين القبلي

ينتظم عدداً من القبائل تتكتل في هيئة مجموعات موحدة بصورة أو بأخرى ولسبب عارض أو دائم تحت رئاسة أو زعامة واحدة . ومثل هذه التكتلات العربية نستنتج وجودها من عدد من النقوش الآشورية التي نجد واحداً منها يشير إلى قوة عسكرية « عربية » تحت زعامة « جندبو » كواحدة من القوات المتحالفة مع ملك دمشق ضدّ الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٨ — ٨٢٤ ق . م) كما نجد عدداً آخر منها يشير إلى صدامات عسكرية أو علاقات سياسية مع عدد من الشخصيات يوصف كل منها بأنه « ملك بلاد العرب » أو أنها « ملكة بلاد العرب » على نحو ما سنرى بالتفصيل في حديث قادم . والشيء ذاته نستنتجه من بعض مواضع في التوراة نجد فيها العرب يتكتلون مرّة مع الفلسطينيين لاكتساح مملكة يهوذا (أو يهودية) في عهد الملك العبراني يهورام (٨٥١ — ٨٤٣ ق . م). ثم نجد خلفه الملك عزّيّا (٧٧٩ — ٧٤٠ق.م) ينتصر على الفلسطينيين وعدد من حلفائهم من بينهم « العرب الساكنون في جور بعل » على نحو ما مرّ بنا في مناسبة سابقة . وكلّها إشارات يدلّ ما جاء فيها من تسميات وما أحاط بها من ملابسات على أن المقصود هو تكتلات أو تجمعات قبلية وليست قبائل منفرده [1] .

وإلى جانب هذا النوع من التكوينات السياسية . وهو التكوين القبلي سواء اتخذ شكل قبائل منفردة أو تجمعات من القبائل . وجد نوع آخر هو الإمارات أو الممالك الصغيرة التي قامت إمّا حول مراكز تجاريّة أو عند نقطة توازن بين دولتين كبيرتين متصارعتين أو على حدود كلّ من هاتين الدولتين . تدخل في منطقة نفوذ الواحدة أو الأخرى منهما وتعمل لحسابها لحماية حدودها

---

(١) امثلة للنقوش الآشورية في ANET ، صفحات ٢٧٩ ، ٢٨٣—٢٨٦، ٢٩١ . امثلة لنصوص التوراة في سفر اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٢١ : ١٦ وما بعدها . عن الظروف والملابسات راجع الباب العاشر الخاص بالعلاقات الخارجية في هذه الدراسة .

ضدّ أية غارات من البدو أو من جانب القوة الأخرى . والصفة المشتركة بين هذه الإمارات أو الممالك الصغيرة هي أنّ وجودها كان عابراً . إذ كان يتوقف على بقاء أوضاع تجارية مواتية أو على بقاء علاقات وظروف دولية بين الدول الكبيرة المتصارعة . كما كان تدهورها أو اندثارها معلقاً بأيّ تعديل في مسار الخطوط التجارية أو أيّ تغيير في ميزان العلاقات بين الدول الكبيرة المتصارعة .

ومن بين هذه الإمارات أو الممالك . مملكة الأنباط التي قامت في القسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة العربية حول المدينة التي عرفت في نصوص التوراة باسم « سيلع » أي الصخرة . والتي عرفها الكتاب اليونان باسم بترا Petra وهي الترجمة اليونانية للفظة ذاتها كما أنها الاسم الذي لا تزال المدينة تعرف به حتى الآن في صورته العربية « البتراء » والأنباط الذين كانوا في بدايتهم قبائل بدوية متنقلة استولوا من الإيدوميين في القرن السادس ق . م . على المنطقة السهلية التي تشرف عليها المدينة (وهي المنطقة التي تعرف الآن باسم وادي موسى) ثم ما لبثوا أن استولوا على المدينة ذاتها التي كانت موقعاً أساسياً على الخط التجاري الذي كان يصل بين سبأ والمناطق المجاورة في جنوبي شبه الجزيرة وبين الموانىء السورية في الشمال [٢] .

وقد وصل الأنباط نتيجة لهذا الموقع التجاري الحيوي الذي تميّزت به عاصمتهم إلى قدر ظاهر من الازدهار الاقتصادي مكّنهم من توسيع حدود

---

(٢) عن استيطان الانباط راجع :
Dussaud : La Penetration des Arabes en Syrie ، صفحات ٢١ ـ ٢٤ .
عن اسم سيلع في التوراة راجع : نبوءة اشعيا ، اصحاح ١٦ : ١ ، ٤٢ : ١١ ، سفر الملوك الثاني ، ١٧ : ٧ . عن اسم بترا Petra عند الكلاسيكيين راجع امثلة في Strabo : XVI, 4 : 21, 23 , 24 كذلك Plinius : HN, VI, 44 .

مملكتهم على حساب جيرانهم . ففي ٨٧ ق . م . أدخلوا ضمن هذه الحدود دمشق ومنطقة البقاع (جوف سورية Koele Syria في تعبير الكتّاب اليونان) كما ضمّوا إلى مملكتهم كذلك المنطقة الشمالية من الحجاز (مدائن صالح) ربما في القرن الأول الميلادي . ولكن هذا القرن (الأول الميلادي) كان قد بدأ يشهد تطوّران ما لبثا أن أدّيا إلى تدهور هذه المملكة ثم سقوطها واندثارها . ففي غضون هذا القرن نشط الخط التجاري البحري الذي يمرّ من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي ومن ثم انتقل إليه قسم غير قليل من التجارة التي كانت تنقل على الخطوط البرية . كذلك تزحزح مسار الخط البري الطولي من اليمن إلى سوريا نحو الشرق قليلاً فلم تعد البتراء تمثل موقعاً تجارياً حيوياً . كما تزحزح الخط التجاري العرضي الذي كان يمرّ بين وادي الرافدين والشواطىء السورية نحو الشمال فانتقلت الأهمية التجارية من البتراء إلى تدمر في الشمال – وكان هذا إيذاناً بالتدهور الاقتصادي لمملكة الأنباط [٣].

أمّا التطوّر الآخر فهو أن مملكة الأنباط كانت في هذا القرن قد بدأت تسترعي انتباه الإمبراطورية الرومانية بشكل متزايد بعاصمتها المنيعة التي تحصنها التكوينات الصخرية المحكمة من ثلاث جهات هي الشرق والغرب والجنوب بحيث لا يمكن النفاذ إليها إلاّ من ممرّ ضيق بين الصخور في الشمال . وهكذا رأت رومه في المنطقة حاجزاً حديّاً أمام محاولات الفرثيين (الإمبراطورية الفارسية) للتوسع على حساب أراضي الإمبراطورية الرومانية . ومن ثم أدخلت مملكة الأنباط في دائرة نفوذها في شكل تبعية غير رسمية . ورغم أن هذه التبعية لم تؤثر في البداية على ازدهار المنطقة (بل لقد وصل هذا الازدهار إلى درجة كبيرة في ظلّ هذه التبعية التي انحصر هدفها في القيمة العسكرية للموقع

---

(٣) عن التوسع في سورية وفي الجنوب راجع : Hitti . ذاته ، ص ٦٨ – عن تحول الخط التجاري للشمال راجع :
Kammerer : Petra et la Nabatène (Paris ١٩٢٩) ص ٣٠٧ .

فحسب) إلاّ أنّ هذه التبعية لم تلبث أن وصلت إلى نهايتها المنطقية حين ضمّت رومه مملكة الأنباط إلى امبراطوريتها بشكل رسمي في ١٠٥ م على عهد الإمبراطور ترايانوس (تراجان . ٧٠ — ١٠٦ م) لتصبح من تلك السنة ولاية رومانية ويختفي نشاطها من سجلّ التاريخ لعدّة قرون (٤) .

والإمارة أو المملكة الأخرى التي تمثل هذا النوع من التكوينات السياسية هي تدمر التي يرجع قيامها وازدهارها إلى موقعها الذي يتحكم في خط تجاري حيويّ من جهة ويشغل منطقة حدّيّة هامّة في مجال التوازن بين القوتين الكبريين المتصارعتين في الشرق والغرب . ورغم أن تدمر لم تظهر عل مسرح التاريخ كتكوين سياسي محسوس إلاّ منذ أوائل القرن الأول الميلادي . إلاّ أنها كانت موجودة قبل ذلك . ففي أحد النقوش التي ترجع إلى عهد الملك الآشوري تجلات بيليسر الأول (١١١٤ — ١٠٧٦ ق . م) نجد ذكر هذه المدينة (تدمر بفتح الميم في النطق الآشوري) « الواقعة في آمورو » أي الغرب كموقع من المواقع التي اجتاحها هذا الملك في طريقه إلى سورية . ثم نسمع عنها بعد ذلك بأكثر من عشر قرون حين يحاول القائد الروماني ماركوس أنطونيوس Marcus Antonius أنيستولي عليها في ٤٢—٤١ق .م.أما ظهورها ككيان سياسي يتميّز عن مجرّد كونه مكاناً أو موقعاً يشكل واحة في الصحراء الممتدة بين وادي الرافدين وسورية فيعود إلى ما قبل القرن الأول بقليل إذ ترجع أول نقوشها المحلية إلى ٩ ق . م (٥) .

وقد دخلت تدمر في دائرة النفوذ الروماني في أوائل القرن الأول الميلادي

---

(٤) عن التبعية غير الرسمية لرومه Strabo : XVI, 4 : 21 عن تحويل المملكة الى ولاية رومانية

Ammianus Marcellinus : Rerum Gestarum Libri, XXXII, 14, 8 : 13.

(٥)بترا كمنطقة توازن حديه في Plinius : HN, V, 38 . في نص تجلات بيليسر في ANET ص ٢٧٥ .

وأصبحت ولاية رومانية في أوائل القرن الثاني وظلّت كذلك حتى الربع الأخير من القرن الثالث الميلادي ولكنها مع ذلك نظراً لموقعها الحدّي بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية كانت ولاية من نوع متميّز بعض الشيء فلم ترسل رومه ولاة رومانيين إليها . وإنما كان حكامها من أبنائها المحليّين الذين أبدوا ولاء غير عاديّ لرومه في التصدي لمحاولات التوسع الفارسية على حساب الحدود الرومانية الشرقية . وفي ظلّ هذا الوضع المتميّز وصلت تدمر إلى قمة ازدهارها الاقتصادي بين ١٣٠ و ٢٧٠ م . وبخاصة بعد أن نشطت طريق التجارة البرية الآتية من الصين إلى الغرب مارة بهذه المدينة وهو ازدهار مكن مملكة تدمر من أن توسع حدودها فلم تعد قاصرة على العاصمة والقرى أو المدن الصغيرة الواقعة بقربها وإنما اتسعت منطقة نفوذها . كمكافأة من الإمبراطور . لتشمل سورية وشمالي شبه الجزيرة العربية . ولكن حين حاولت الزبّاء أو زينب (زينوبيا Zenobia عند الرومان) أن تستغل موقعها الحدّي بين الشرق والغرب وتتفاهم مع الفرس وتعتمد على هذا التفاهم لتحصل على مناطق توسع جديدة في آسيه الصغرى ومصر اجتاحت القوات الرومانية هذه المملكة ودمّرت عاصمتها في ٢٧٢ م واختفت من فوق المسرح التاريخي ونسيت خرائبها حتى بدأ الرحالة وعلماء الآثار ابتداء من القرن الثامن عشر في اكتشافها وتكوين صورة تتضح يوماً بعد يوم عن تاريخها وحضارتها (٦) .

كان هذان . إذن . مثالين من النوع الثاني للتكوينات السياسية التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية . وهو النوع الذي اتخذ شكل الإمارة أو المملكة الصغيرة . وقد قامت المملكة الأولى وهي مملكة الأنباط . كما رأينا .

---

(٦) Dussaud : ذاته : صفحات ٧١ ـ ١٨٨ . كذلك : M. Cary : A History of Rome, (London) ١٩٦٠ . ط ٢ . صفحات ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٨ .

بشكل أساسي على أساس من موقعها الحيويّ المتحكم في الخط التجاري الطولي الذي يصل جنوبي شبه الجزيرة العربية بالمنطقة السورية من جهة ، والخط التجاري الطولي الذي يصل جنوبي شبه الجزيرة العربية بالمنطقة السورية من جهة . والخط التجاري العرضي الذي يصل بين وادي الرافدين والمنطقة السورية . وحين تدهورت أهمية موقعها تدهورت معه المملكة وانتهت بالسقوط . أما المملكة الثانية وهي تدمر فقد قامت على أساسين متوازيين . أولهما هو الموقع التجاري الأوسط الذي يحكم الطريق التجارية العرضية بعد أن تزحزحت نحو الشمال . وثانيهما هو الاعتماد على موقعها الاستراتيجي المتوسط بين القوتين المتصارعتين الإمبراطورية الفارسية في الشرق والإمبراطورية الرومانية في الغرب . بأن تضع نفسها في خدمة إحداهما وهي الإمبراطورية الرومانية . ولكنها حين حاولت أن تحوّل اللعبة لحسابها بتغيير ولائها إلى الجانب الآخر . أثبتت لعبة القوى الكبرى أنها أقوى منها ، فدمّرها الرومان ولم يساعدها الفرس .

أمّا المثال الثالث لهذا النوع الثاني من التكوينات السياسية في شبه الجزيرة العربية ، وهو الممالك أو الإمارات الصغيرة . فتمثله إمارتان قامت إحداهما على حدود الإمبراطورية الفارسية والأخرى على حدود الإمبراطورية الرومانية . أما الأساس الذي قامت عليه كلّ منهما فهو في قسم بسيط منه وقوع أقسام من الخطوط التجارية في أراضيهما ، ولكن القسم الأهم منه هو قيام كل من هاتين الإمارتين بحماية حدود الامبراطورية التي تدين لها الإمارة بالتبعية والولاء سواء من غارات البدو أو من محاولات التوسع التي يقوم بها الجانب الآخر — هاتان الإمارتان هما إمارة الغساسنة على الحدود الشرقية للشام وإمارة اللخميين على التخوم الغربية لنهر الفرات .

وربما كان الغساسنة يشكلون في الأصل قبيلة يمنية هاجرت إلى منطقة حوران على أثر تصدّع سدّ مأرب في القرن الثالث الميلادي تحت زعامة عَمْرو

مزيقية بن عامر ماء السماء . ولكن المؤسس الحقيقي للإمارة بعد استقرارها في موطنها الجديد (إذا كانت حقيقة قد نزحت من اليمن) هو جفنه أحد أبناء هذا الزعيم أو الرئيس . وقد أسست هذه القبيلة إمارتها في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من دمشق عند الطرف الشمالي للخط التجاري البري الذي يصل اليمن بالشام واتخذوا موقع « جابيه » في الجولان عاصمة لهم كما كانت « جُلّق » عاصمة لهم بعض الوقت . وما لبث الغساسنة أن دخلوا في دائرة نفوذ الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) ووضعوا أنفسهم في خدمة مصالحها في المنطقة . وكانت هذه المصالح تتمثل بالدرجة الأولى في الحفاظ على الحدود الشرقية للإمبراطورية على نحو ما أسلفت . وقد كان أهم ملوك هذه الإمارة هو الحارث الثاني أو الحارث بن جبلة (حوالى ٥٢٩ — ٥٦٩ م) الذي لقب باسم الحارث الأعرج عند الكتاب المسلمين . وقد أظهر هذا الحاكم من الولاء للإمبراطور البيزنطي ما أدّى بالإمبراطور يوستنيانو س Justinianus (جستنيان) إلى أن يضفي عليه لقب فيلارخوس phylarchos وهو أسمى لقب في الإمبراطورية بعد لقب الإمبراطور . كما عينه في ٥٢٩ م سيداً على كلّ القبائل العربية في سورية .

وقد أدى ملوك الغساسنة دورهم الذي تقتضيه تبعية إمارتهم للإمبراطورية البيزنطية . فدافعوا عن حدود هذه الإمبراطورية . وكان من بين ما قاموا به في هذا المجال حرب شرسة مستطيلة قام بها الحارث في أواسط القرن السادس الميلادي لصالح البيزنطيين ضدّ المنذر الثالث ملك الحيرة الذي كان بدوره يدافع عن حدود الإمبراطورية الفارسية . كذلك قام خلفه المنذر (الغسّاني) بغارة أحرق خلالها الحيرة عاصمة اللخميين . إلاّ أن البيزنطيين كانوا قد بدءوا يشكّون في ولائه (لأسباب تتعلق بالمذهب الديني الذي كان يعتنقه) فأخذوه إلى القسطنطينية وسجنوه بعد ذلك في صقلية . أما ابنه النعمان فقد حاول أن يغير على بعض الأراضي التابعة للإمبراطورية فاستاقوه كذلك إلى

القسطنطينية . وبانتهاء حكم النعمان يشيع في مملكة الغساسنة قدر ظاهر من التفكك وعدم الاستقرار كما لا نستطيع التحقق الكامل من ظروفها إلى أن يتم فتح المنطقة في ٦٣٦ م على يد سعد بن أبي وقاص في موقعة اليرموك في عصر الفتوح الإسلامية (٧) .

أما إمارة اللخميين في الجانب الآخر فقد أقامتها مجموعة من القبائل من بني تنوخ الذين استقروا في المنطقة المتاخمة للضفة الغربية للفرات في أوائل القرن الثالث الميلادي (وهو ذات الوقت الذي استقر فيه الغساسنة في بادية الشام). وكان التنوخيون يشكلون عدداً من قبائل مجموعة أكبر هي مجموعة قبائل اللخميين الذين ربما كانوا يشكلون هجرة يمنية إلى المنطقة وربما كانوا يشكلون مجرّد تسرّب بطيء من قبائل البادية إليها . وقد أقام التنوخيون مقراً لهم في الموقع الذي عرف بعد ذلك باسم الحيرة على مقربة من بابل (على مسافة كيلومترات قليلة جنوبي الكوفة) . ونحو أواخر القرن ذاته أسس أحد التنوخيين وهو عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن لخم إمارة في المنطقة وضعت نفسها في خدمة الإمبراطورية الفارسية . وقد ظهر هذا واضحاً في اشتراك المنذر الأول إلى جانب الساسانيين في حربهم ضدّ البيزنطيين من ٤٢١ م وفي قيام المنذر الثالث (حوالى ٥٠٥ — ٥٥٤) بغارات على سورية خربت أراضي المنطقة حتى أنطاكية إلى أن تصدّى له الحارث الغسّاني

وكما رأينا في حالة الإمارات السابقة . فهناك كذلك وصلت إمارة اللخميين إلى قدر من الاستقرار كان من بين مظاهره قدر من النشاط المعماري المتقدم مثل قصر الخورنق الذي أقامه النعمان الأول (حوالى ٤٠٠ — ٤١٨ م) بالقرب من الحيرة والذي كان يعتبر أعجوبة معمارية في عصره . ومثل قصر السدير الذي يذكر لنا ياقوت الحموي أن النعمان أقامه كذلك . وكان يقوم

---

(٧) Hitti : ذاته . صفحات ٧٨ — ٨٠ .

في وسط الصحراء بين الحيرة وسورية . ومثل الدير . الذي أقامته إحدى أميرات هذه الإمارة وهي هند . أم عمرو بن هند . ومثل انتشار قدر من الحياة الثقافية في الحيرة . كما يدل على هذا الاستقرار كذلك ما وصل إلينا عن حياة البذخ التي كان يمكن للقصر أن يمارسها . كما تشهد على ذلك إشارات إلى توافد مغنين وموسيقيين من الرجال والنساء . سواء في ذلك الذين وفدوا من مكة أو البابليون أو اليونان .

ولكن هذا الاستقرار كان مرتبطاً دائماً بإرادة الدولة الكبيرة . الامبراطورية الفارسية . التي كان منطلقها الأساسي هو مصلحتها إزاء الصراع الكبير بينها وبين الإمبراطورية البيزنطية ، ومدى ثقتها في ولاء الأمراء اللخميين إزاء هذا الهدف . وهكذا فرغم ظروف التخلخل الذي كانت تمر به الإمبراطورية من حين لآخر حول مسألة العرش – وهي ظروف أتاحت الفرصة لبعض حكام إمارة اللخميين للتدخل في مناسبة واحدة على الأقل في تحديد الشخص الذي يلي العرش (كما حدث أيام المنذر الأول – ٤١٨ إلى ٤٦٢ م) . إلاّ أنّ الوضع كان يتغيّر تماماً إذا أحسّ الأباطرة الفرس بشيء من الشكّ في ولاء الأمراء اللخميين . وقد حدث هذا بعد حكم النعمان الثالث ، أو النعمان أبي قابوس بن المنذر (٥٨٠ – ٦٠٢ م) إذ نجد الإمبراطور الفارسي يعين إلى جانب الأمير العربي . وهو النعمان بن قبيسه الطائي (٦٠٢ – ٦١١ م) مقيماً فارسيّاً يمسك في يده بمقاليد الحكومة وهكذا تحول الأمراء العرب في المنطقة إلى حكام بلا سلطة . وظلّ الأمر كذلك حتّى الفتوح الإسلامية حين حصل خالد بن الوليد على استسلام الحيرة في ٦٣٣ م [٨] .

وأصل الآن إلى المثال الأخير لهذا النوع الثاني من التكوينات السياسية التي عرفتها شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام . وهو الإمارات أو الممالك الصغيرة . وهذا المثال هو مملكة كنده التي قامت في المنطقة الوسطى من

---

(٨) Ign. Guidi : l'Arabie Anteislamique (١٩٢١ ، Paris) . صفحات ١١–١٩ .

شبه الجزيرة كمملكة تابعة للملك اليمني حسان بن تبّع الحميري . وكان قيامها . فيما أرجّح يشكل نوعاً من حصول الملك اليمني على منطقة نفوذ قريبة من إمارتي اللخميين والغساسنة كإجراء لازم في ضوء الصراع الفارسي البيزنطي الذي لم يقتصر على الحدود المباشرة بين هاتين الإمبراطوريتين . وإنما اتسعت دائرته لتشمل المناطق التي تمرّ بها الخطوط التجارية البرية والبحرية التي تصل إلى الإمبراطوريتين ومن ثم وجدت منطقة اليمن نفسها منساقة إلى الاشتراك بشكل أو بآخر في هذا الصراع وإلى اتخاذ بعض المواقف إزاءه .

وقد بدأ ظهور مملكة كنده حين عيّن الملك الحميري في الربع الأخير من القرن الخامس (حوالى ٤٨٠ م) أحد رؤساء قبيلة كنده وهو حُجْر آكل المرار حاكماً على بعض القبائل العربية الموجودة في وسط شبه الجزيرة والتي كان الملك الحميري قد غزاها في فترة سابقة . وفي مجال العمل السياسي في هذا الصراع المثلث بين القوى الدولية استطاع أحد ملوك كنده وهو الحارث ابن عمرو أن يسيطر على الحيرة بعد موت الإمبراطور الفارسي قباذ . ولكن المنذر الثالث . ملك الحيرة . تمكن من استعادة إمارته (في ٥٢٩ م) وأعدم الحارث ونحو خمسين من زعماء مملكة كنده . ليحلّ بعد ذلك في هذه المملكة نوع من التفكك وضع نهاية لوجودها السياسي . ورغم أنّ أحد أمراء هذه القبيلة . وهو امرؤ القيس . حاول أن يعيد كيان هذه المملكة بمساعدة الامبراطور البيزنطي معتمداً على العداء بين هذا الامبراطور والامبراطور الفارسي الذي كانت إمارة الحيرة تابعة له . إلاّ أن لعبة الدول الكبرى كانت أوسع من طموحه . وهكذا لم يحصل على المساندة المنشودة وباءت هذه المحاولة بالفشل . ولكن رغم اندثار مملكة كنده بعد فترة وجيزة من ظهورها إلاّ أن قيامها في حدّ ذاته . رغم قصر مدته . كانت له في رأي أحد الباحثين المعاصرين قيمة أساسية من حيث أنها كانت سابقة لاتحاد قبائل وسط شبه الجزيرة العربية .

أوجدت تصوّر الوحدة في هذه المنطقة ومن ثم كانت سابقة مهّدت الطريق أمام توحيد المنطقة بعد ظهور الدعوة الإسلامية (٩) .

هذا عن النوع الثاني من التكوينات السياسية التي عرفتها شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، وهو النوع الذي انتشر أساساً في القسم الشمالي منها ، أمّا النوع الثالث من هذه التكوينات فقد كانت تشكله الملكيات أو الممالك التي قامت في جنوبي شبه الجزيرة . وقد كان الأساس الذي قامت عليه هذه الملكيات أكثر ثباتاً واستقراراً وأقل اعتماداً على الظروف العارضة من الإمارات والممالك الشمالية . فبينما كانت هذه الأخيرة تقوم في المناطق الصحراوية وتعتمد على أساس من تجارة العبور التي تعتمد على الموقع التجاري ومن التوازن الدولي بين القوى الكبيرة المتصارعة في شرقي شبه الجزيرة وغربيها ، ومن ثم تزدهر وتقوى إذا ظلّت الخطوط التجارية في مكانها وعلى أهميتها وإذا ظلّ التوازن الدولي مواتياً ، نجد أن الأساس الذي قامت عليه ممالك الجنوب يختلف عن ذلك اختلافاً جذرياً . فقد عرفت هذه الممالك الجنوبية مساحات ممتدة من الأراضي الخصبة وقدراً كافياً ومنتظماً من الأمطار الموسمية الغزيرة . وهكذا عرفت الأساس الاقتصادي الزراعي المستمر ، بل لقد كان السكان لا يكتفون بالأراضي السهلية فيزرعون محصولاتهم على « الأجلال » أو المدرجات التي يسوّونها على جوانب الجبال (١٠) .

كذلك عرفت المنطقة مساحات واسعة من الغابات الطبيعية والنباتات التي تنتج الطيوب والتوابل . وهي سلعة لم يكن لعالم القديم غناء عنها — الأمر الذي زاد من استقرار المورد الاقتصادي . أمّا المورد الذي شكل القسم الثاني من هذا الأساس الاقتصادي فهو ما سبقت الإشارة إليه في مناسبة سابقة وهو

---

(٩) Guidi : ذاته . صفحات ٢٨ — ٣٠ .
(١٠) راجع الباب الثالث الخاص بملامح شبه الجزيرة في هذه الدراسة.

التجارة . وهذه التجارة لم تكن مثل نظيرتها في الشمال مجرّد تجارة عبورية تعتمد على بقاء الخطوط التجارية وتختلّ إذا أصاب هذه الخطوط أيّ تغيير أو تعديل في مسارها . وإنما هي تجارة أصلية . الجزء الأكبر من مقوّماتها (أو موادها الأولية) موجود في البلاد فعلاً ، وإلى جانب كلّ من هذا فموقع هذه الممالك الموجود في جنوبي الجزيرة كان يجعلها بالضرورة على نقطة الانطلاق من بداية أية طريق برية نحو الشمال . كما كان موقعها عند ملتقى البحر الأحمر والمحيط الهندي يعطيها ميزة مضاعفة في مجال الخطوط التجارية . فالخطّان البري والبحري موجودان . وإذا قوي أحدهما على حساب الآخر فإنّ هذا لا يدفع بها إلى خارج الصورة ، وإنما تظلّ منتفعة في كلّ الأحوال[11]. وقد كانت نتيجة كلّ ذلك أن بقيت هذه الممالك طوال العصر القديم . حقيقة إنّ واحدة منها قد تصل إلى مركز القوة على حساب الأخريات في بعض الأحيان . ولكن واحدة منها لم تندثر . كما حدث في بعض الإمارات والممالك الشمالية . كما كانت الحال مع مملكة الأنباط أو مملكة تدمر على سبيل المثال .

أما الصفة الثانية التي تميزت بها ممالك العربية الجنوبية فهي ما نلحظه بينها . رغم تعدّدها . من توافق أو ما يشبه التوافق . يقترب بها من التداخل بقدر ما يبتعد بها عن التناحر والتصارع الذي نجده في بعض إمارات الشمال مثل إمارة الغساسنة وإمارة اللخميين . ولعلّ مرجع *هذا إلى التكامل الاقتصادي فيما بينها* . فبعض *المناطق* تنتج نوعاً من الطيوب والتوابل وبعضها ينتج نوعاً آخر وكلها تصب عند بداية خط القوافل البرّي الذي يمرّ في مناطق حدّدتها التضاريس الطبيعية وجعلتها أنسب من غيرها . ومن ثمّ لم يكن هناك بديلاً لها . وهكذا كان لا بدّ من قدر من الاتفاق بين هذه الممالك جميعاً لا يمكن الاستغناء عنه . فكلّ منطقة تعتمد على الأخرى . هذه تنتج وتريد أن تسوّق تجارتها وتلك تمرّ القوافل من أرضها وتستفيد مما تجنيه من ذلك من رسوم وأجور

---

(١١) راجع الباب الثامن الخاص بالموارد الاقتصادية في هذه الدراسة.

على ما تقدّمه من خدمات ، وفي بعض الأحيان تجمع بين الموردين : الإنتاج والنقل وهكذا . ومن ثم كانت السيادة السياسية بين هذه الممالك تتعاصر أحياناً وتتابع أحياناً . وتتفوق فيها مملكة على مملكة أخرى ، أو تصل إحدى هذه الممالك إلى السيطرة على كلّ الممالك الباقية فيما يشبه الوحدة السياسية .

ونظرة واحدة على المسار السياسي لهذه الممالك توضّح ما أعنيه بهذا التوافق أو التداخل بين الممالك التي قامت في هذا القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية . فقد قامت مملكة سبأ الأولى (جنوبي نجران) واتخذت صرواح (غربي مأرب) عاصمة لها بين ٧٥٠ و ٦١٠ ق . م . لتتلوها مملكة سبأ الثانية التي اتخذت مأرب (٦٠ ميلاً تقريباً شرقي صنعاء) عاصمة لها بين ٦١٠ و ١١٥ ق . م . وفي ذروة ازدهار سبأ سيطرت لفترة من الوقت على مملكة المعينيين التي قامت في منطقة الجوف اليمنية (غير الجوف الموجودة في شمالي شبه الجزيرة) . أما المعينيون فقد عاصروا السبئيين لفترة من الوقت . إذ قامت مملكتهم بين ٧٠٠ ق م . واستمرت حتى القرن الثالث وكانت عاصمتهم هي قرناو (معين الحالية) في القسم الجنوبي من الجوف إلى الشمال الشرقي من صنعاء . وفي فترة ازدهارهم سيطروا على القسم الأكبر من العربية الجنوبية . وغير هاتين المملكتين قامت مملكة قتبان في الركن الجنوبي من شبه الجزيرة شرقي عدن بين أوائل القرن الرابع وأواسط القرن الأول ق . م . (٤٠٠ — ٥٠ ق . م) . واتخذت مدينة « تمنع » (كُحلان الحالية) عاصمة لها . كما قامت مملكة حضرموت إلى شرقي قتبان بين أواسط القرن الخامس ق . م . وآخر القرن الأول الميلادي . وفي بعض الفترات كانت هاتان المملكتان تحت السيطرة السبئية أو المعينية .

ثم نجد السيادة الحميرية تظهر ابتداء من ١١٥ وحتى نهاية العصر القديم . وقد أتى الحميريون من المرتفعات الجنوبية الغربية لليمن واتخذوا من « ظفار »

(حوالي ١٠٠ ميل شمالي شرقي مخا على الطريق إلى صنعاء)عاصمة لهم وسيطروا على قسم كبير من المنطقة التي وجدت فيها الممالك التي سبق ذكرها واتخذ كل من حكامهم لقب « ملك سبأ وذو ريدان » (وذو ريدان هي قتبان) وبقي هذا هو اللقب الملكي حتى أول القرن الثالث الميلادي (٣٠٠ م) حين نجده يتغيّر إلى « ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات » ومعنى ذلك أنّ مملكة حضرموت قد دخلت في تبعية السيطرة الحميرية في ذلك الوقت . هذا وقد زاد هذا اللقب في فترة لاحقة ليضمّ « وأعرابها في الجبال وفي تهامه » ، (وتهامه تقع على الشاطىء الغربي في امتداد جنوبي شمالي) – وهي زيارة تشير إلى اتساع نطاق السيادة الحميرية لتشمل كلّ المنطقة المأهولة في العربية الجنوبية (١٢) .

ثم تأتي الصفة الثالثة لهذه الممالك الجنوبية وهي نقاط التوسع خارج حدودها عن طريق المستوطنات . ونحن نستدل على ذلك من بعض النقوش الآشورية التي يرد في واحد منهـــا من عهد الملك تجلات بيليسر الثالث (٧٤٤ – ٤٢٧ ق . م) ، على سبيل المثال ، أنّ هذا الملك مد نفوذه إلىعدد من القبائل والمدن من بينها سبأ ، ثم يذكر في النقش ذاته أنّ هذه الأماكن تقع في أقصى الغرب (بالنسبة لدولة آشور) كما يضع سبأ في ترتيبها بعد تيماء ممّا يعطينا فكرة عامة عن موضعها . وهذا النقش وغيره من النقوش الآشورية التي يرد فيها اسم سبأ تشير بشكل واضح إلى أن المقصود هو مستوطنات سبئية في الشمال. كذلك نجد عدداً من النقوش المعينية في العلا وفي شمال غربي شبه الجزيرة وفي الجوف في القسم الشمالي منها ، وكلها تشير إلى قيام عدد من المستوطنات المعينية في هاتين المنطقتين . كما نجد مثالاً تتضخم فيه هذه المستوطنات لكي تتحول بعد ذلك إلى دولة متكاملة ، كما حدث في ع د المملكة الحميرية

(١٢) عن عرض موجز للمسار السياسي لهـــذه المناطـــق ، راجـــع ، Guidi : ذاته ، صفحات ٦٤ – ٨٤ ، كذلك Hitti : ذاته ، صفحـــات ٤٩ – ٦٦ .

حين أقام بعض العرب الجنوبيين مستوطنات لهم في الحبشة ابتداء من القرن الأول الميلادي وكانوا بذلك نواة لدولة أكسوم التي قامت في المنطقة (١٣) . ومثل هذه المستوطنات ابتدأت بالضرورة كمحطات تجارية لتجار العربية الجنوبية ثم نمت واستقرت بعد ذلك لتتحوّل إلى مدن لها كيانها الخاصّ ولكنها تبقى بينها وبين الأماكن التي انبثقت منها في البداية علاقات مصالح تجارية . كما نتصور أن تكون لها مع هذه الأماكن علاقات أدبية ودينية . كما حدث في حال المستوطنات اليونانية خارج بلاد اليونان . التي تحولت على مدى الزمن إلى مدن يونانية لكلّ منها كيانها السياسي المستقل القائم بذاته .

ب ــ نظام الحكم

بعد الحديث عن الأشكال أو التكوينات السياسية التي عرفتها شبه الجزيرة العربية نلقى نظرة سريعة على النظم السياسية . أو نظم الحكم . التي عرفتها هذه التكوينات . وفي هذا الصدد نستطيع أن نتبيّن ثلاثة أنواع من هذه النظم . والنوع الأول نراه في النظام السياسي الذي عرفته التكوينات القبلية ونظام الحكم هنا يمكن أن نصفه بأنه نظام رئاسي يقوم على قاعدة شعبية قوامها كلّ أفراد القبيلة أو التجمع القبلي (في حالة وجود كيان سياسي يضمّ أكثر من قبيلة) ولكنه مع ذلك يميل إلى الصفة الطبقية أو الارستقراطية إذ جاز لي أن أستعير تعبيراً غير عربي .

---

(١٣) النص عن سبأ في مجموعة ARAB ج ١ ، فقرة ٧٧٩ وفي ANET ص ٢٨٣ . نصوص أخرى من عهد سرجون يشير فيها الى السبئيين كقوم يسكنون في الشمال في ANET ، صفحات ٢٨٤ ــ ٢٨٦ . عن وجود مستوطنات سبئية في الشمال . انظر Dussaud : ذاته، ص ٢٢ ، حاشية ٤ . النصوص في المعينية في الجوف والعلا والتعليق عليها بما يثبت وجود مستوطنات معينية في هذه المناطق في WR ، صفحات ٧٣ ــ ٧٤ و١١٩ ــ ١٢٠ ، عن مستوطنات عربية جنوبية في الحبشة راجع ، Hitti : ذاته ، صفحات ٥٦ ــ ٥٧ .

وحاكم القبيلة أو التجمع القبلي هنا هو الشيخ أو السيّد . والأساس الذي يقوم عليه حكمه ليس هو الوراثة وإنما هو الاختيار الذي قد يكون انتخاباً أو إجماعاً من القبيلة أو التجمع القبلي لنا أن نتصوّر أنه يتمّ في حدود رؤساء الأسر والأقوام (الأحياء) التي يتكون منها هذا الكيان القبلي إذا أدخلنا في اعتبارنا حرص العرب على النقاء الأسرى في العصر السابق للإسلام حين لم تعرف القبائل العربية في البداية نظام الدولة بمالها من مؤسسات . ومن ثم كان التماسك الأسري (داخل التماسك القبلي) هو البديل الأساسي إن لم يكن البديل الوحيد لحفظ كيان القبيلة من التميع ومن ثم الاندثار . والصفات التي تؤهل السيّد لمنصبه في السيادة أو الرئاسة هي صفات مستوحاة من حاجة القبيلة ومن ظروفها أساساً . فالسنّ عليها معوّل كبير دون شك . إذ أنها مؤشّر إلى التجربة والحكمة في مجتمع كانت العلاقات القبلية فيه تتعرّض للغارات المتبادلة لأوهى الأسباب . وإن كان لنا أن نتصوّر وجود سادة أو رؤساء للقبائل دون اشتراط تقدّم السنّ إذا كانت التجربة أو الحكمة في التصرّف متوفرة في الشخص المرشّح للرئاسة . كذلك كانت الشجاعة والحلم والكرم والثروة والحرص على مصالح القبيلة من المؤهلات الرئيسية للسيّد . فالشجاعة مؤهل أساسي في مجتمع الغارات المتبادلة . والكرم لا يقلّ عنه ضرورة في مجتمع معرّض للظروف الجغرافية القاسية التي قد تودي بالزرع والضرع . أو تؤدي إلى ندرة العشب إذا حلّت بالمنطقة فترة جفاف طويلة . وقد كان ذلك وارداً في شبه الجزيرة (١٤) .

على أنّه يحدث في بعض الأحيان أن يكون السيّد الجديد ابناً للسيد القديم . ولكن هذا لم يكن معناه ابتعاداً عن النظام الانتخابي أو الاختياري المذكور أو اقتراباً من النظام الوراثي . وإنما يكون ناتجاً عن توفّر صفات الرئاسة بحكم

---

(١٤) عن الصفات التي ينبغي توفرها في سيد القبيلة راجع ، Lammens : ذاته . صفحات ٢١١ ــ ٢٣٨ .

الصدفة أو الواقع في ابن السيّد السابق . ونحن نجد في هذا الصدد سيّداً لأحدى القبائل ، وهو عامر بن الطفيل الذي يبدو أنه اختير سيداً بعد وفاة أبيه ، السيد السابق للقبيلة ، يحاول جاهداً أن يردّ عن نفسه ما قد يوجّه إليه من اتهام بوراثة السيادة ويستنكر مثل هذا الاتّهام ، ذاكراً أن قبيلته هي التي سوّدته عليها ومشيراً إلى صفاته التي جعلت قبيلته تختاره لسيادة القبيلة فيقول :

فإني وإن كنت ابن سيّد عامر   وفارسها المندوب في كل موكب
فما سوّدتني عامرٌ عن وراثـــة   أبى الله أن أسمو بأمّ ولا أب
ولكنني أحمي حمـــاها وأتقي   أذاها وأرمي من رماها بمنكب (١٥)

كذلك قد يحدث أن تعطى سيادة القبيلة أو التجمّع القبلي لامرأة وليس بالضرورة لرجل . والبيت الثاني من الأبيات السابقة يشير صراحة إلى هذا الاتجاه . ولم يكن هذا في الواقع أمراً غريباً عن عرب شبه الجزيرة في العصور السابقة للإسلام . فنحن نعرف من المصادر التي وردت فيها معاملات بين عرب شبه الجزيرة وغيرهم من الشعوب عن عدد من النساء اللاتي شغلن منصب الرئاسة لمجتمعات قبلية عربية.وقد أسمتهن هذه النصوص «ملكات» للعرب حسب التسمية السائدة عند الشعوب التي تنتمي إليها هذه النصوص . وهكذا نسمع في القرآن الكريم وفي التوراة عن معاملات في القرن العاشر ق . م . بين سليمان ملك اليهودية (٩٧٠ – ٩٣٧ ق . م) وبين ملكة سبأ . التي أصبح من المرجّح أنها لم تكن ملكة دولة سبأ الموجودة في جنوبي شبه الجزيرة . وإنما رئيسة مستوطنة سبئية شكلتها مجموعة قبائل جنوبية هاجرت واستقرت في شمالي شبه الجزيرة.وفي القرن الثامن ق . م . نسمع في النقوش الآشورية عن احتكاكات سياسية وعسكرية بين الملك الآشوري تجلات بيليسر الثالث

---

(١٥) الابيات في شيخو والبستاني : المجاني ، ص ٢٩٣ ، ابيات ٦ – ٨ .

(٧٤٤ — ٧٢٧ ق . م) وبين ملكتين عربيتين هما الملكة زبيبه والملكة سمسي ، وفي القرن السابع ق . م . نسمع من النقوش ذاتها عن معاملات سياسية بين الملك الآشوري إسار حدّون (٦٨٠ — ٦٦٩ ق . م) وبين ملكة عربية أخرى هي اسكلاتو . كما نسمع في الكتابات اليونانية في أواخر القرن الرابع الميلادي (حوالى ٣٨٠ م) عن « ماوية ، ملكة العرب » التي قامت بعدد من الغارات على الأراضي الفلسطينية والفينيقية (١٦) .

وإلى جانب السيّد أو شيخ القبيلة نستطيع أن نتبين من النصوص وجود تجمّعين أو مجلسين يشاركانه في تصريف أمور القبيلة : أحدهما هو مجلس أعيان القبيلة والآخر يضمّ كلّ أفراد القبيلة . ويشير القرآن الكريم إلى المجلس الأول في أكثر من مناسبة تحت اسم « الملأ » . وحقيقة إن هذه التسمية قد وردت في إحدى الآيات القرآنية لتدلّ على مجرّد مجموعة من الناس . كما وردت في آيات أخرى قليلة بشكل قد يحتمل المعنى العام والمعنى الخاص الذي نحن بصدد الحديث عنه ، ولكن الصفة المتواترة عند ذكر هذه التسمية تشير بشكل لا يشوبه الغموض إلى أن المقصود منها هو هذا المجلس الذي يضمّ الأعيان الذين يبدو منطقياً أنهم كانوا رؤساء الأحياء والأسر التي تشكل القبيلة . ولنا أن نستنتج أن هذه التسمية بالذات هي التي كانت سائدة للتدليل على هذا المجلس . طالما أن القرآن الكريم يذكرها على أنها شيء معروف عند العرب الجاهليين الذين كان يخاطبهم .

---

(١٦) ملكة سبأ في سورة النمل : ٢٢—٢٣ (راجع الباب الخاص بالمصادر الدينية في هذه الدراسة) ، كذلك التوراة ، سفر اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٩ : ١ وما بعدها ، عن الملكات العربيات اللاتي ترد اسماؤهن في النصوص الآشورية ، زبيبه وسمسي في عهد تجلات بيليسر في ANET ص٢٨٣ ، مثال آخر للملكة سمسي على عهد سرجون الثاني (٧٥٠—٧٢١ق.م) في ، ذاته : ص ٢٨٦ ، الملكة اسكلاتو ، في ذاته : ص ٢٩١ ، الملكة ماوية في Theophanes : 64 (طبعة Boor) .

أمّا النقاش داخل هذا « الملأ » فيبدو أنّه كان إلى حد غير قليل نقاشاً مفتوحاً وديمقراطياً يتسع للرأي ونقيضه . ونحن نجد صورة نابضة في القرآن الكريم لهذا النقاش الذي يتعاقب فيه الفريقان المتعارضان في اجتماع الملأ واحد بعد الآخر ، في إدلاء بالرأي ، وردّ عليه ثم اعتراض على الردّ ثم ردّ على الاعتراض وهكذا . كما نجد أحد الفريقين المتناقشين ، حين تتأزم المناقشة ، يطرح موضوع النقاش على العامة من أفراد القبيلة ليدلوا برأيهم في الموضوع وربما كان الاسم الذي أطلق على هذا التجمع العام الأخير هو النادي الذي قد يشير كذلك إلى مكان هذا الاجتماع العام . فالاسم ورد في القرآن الكريم في معنى التجمع العام . كما أن مدلول اللفظة ذاتها يفيد معنى التجمع المقترن بالنقاش [17] .

والنوع الثاني من التنظيمات السياسية التي عرفتها شبه الجزيرة العربية نجده في التجمعات القبلية التي تحوّلت إلى إمارات أو ممالك تابعة للإمبراطوريات الكبرى أو داخلة في دائرة نفوذها بشكل أو بآخر مثل مملكة تدمر وإمارات الغساسنة واللخميين . ومنصب الذي يتقلّد الرئاسة على هذه القبائل كان بالنسبة للعرب يتخذ تسمية « الملك » . كما يتبين من النقش الذي وجد على قبر امرىء القيس الأول بن عمرو بن عديّ (٢٨٨ – ٣٢٨ م) وهو أحد الحكام اللخميين وفيه نجده يصف نفسه بأنه « ملك العرب كلهم » . وكما يتبين لنا كذلك من إشارة الشاعر التغلبي عمرو بن كلثوم إلى عمرو بن المنذر الثالث ابن ماء السماء (المعروف باسم عمرو بن هند) الذي يقول :

إذا ما المَلْكُ سام الناس خسْفاً　　أبينا أن نقرّ الـذلّ فينا [18]

---

(١٧) عن الملأ ، القرآن الكريم ، سورة الاعراف : ٦٠ ، ٦٦ ، ٧٥ ، ٨٨ ، ٩٠ ، هود : ٢٧ ، احدى المناقشات النابضة في السورة ذاتها : ٧٣ – ٧٦ . الملأ كمجردمجموعة وليست مجلسا،في هود : ٣٨ . الناديفيالعنكبوت:٢٩ .

(١٨) شيخو والبستاني : ص ١٣٦ ، بيت ٩٧ .

أمّا بالنسبة للدولة الّتي تتبعها الإمارة فقد كان لقب حاكم الإمارة يتخذ أسماء متعدّدة حسب الظروف . كما حدث في حالة أذينة حاكم تدمر ، على سبيل المثال ، حين نجد الإمبراطور الروماني يضفي عليه لقبين لقاء خدماته ، أحدهما « قائد الشرق » أو « قائد المنطقة الشرقية » **dux Orientis** والآخر « آمر الجند » **imperator**، وكما حدث في حال المنذر الثالث الغسّاني الذي أضفى عليه الإمبراطور يوستنيانوس (جستنيان) لقب « حاكم القبائل » **phylarchus** إلى جانب لقب شرفي آخر هو « النبيل » **patricius** .

والحكم في هذه الإمارات كان فرديّاً وراثياً (على عكس ما رأينا في نظام الحكم القبلي بالنسبة للسيّد) يظهر هذا من قائمة حكام الغساسنة واللخميين كما يبدو في تدمر من تقلّد الزبّاء ملكة تدمر لصلاحيات السلطة كوصية على العرش بعد موت زوجها أذينه . ويبدو أن الدول الكبرى الّتي كانت تتبعها هذه الإمارات لم تتدخل في هذا النظام الوراثي ، ولعل السبب في ذلك هو أنّ هذا النظام كان يمثل بالنسبة لها شيئاً من الاستقرار الذي تنشده على حدودها . وحتّى حين كانت تشكّ في نوايا أو تصرّفات أحد هؤلاء الحكام كانت تبقي على نظام الوراثة كما هو ولكنها تتخذ الإجراء الذي تراه مناسباً للمحافظة على مصالحها . ومن أمثلة ذلك ما حدث حين لم ترتح الإمبراطورية البيزنطية إلى بعض تصرّفات المنذر الرابع وابنه النعمان فأخذ الأول سجيناً إلى القسطنطينية ثم سجن بعد ذلك في صقلية، بينما اقتيد الثاني منفيّاً إلى القسطنطينية. ومن أمثلته كذلك ما حدث حين عيّن الإمبراطور الفارسي إلى جانب إياس ابن قبيصة (٦٠٢ – ٦١١ م) ، الحاكم اللخمي . مقيماً فارسياً وضعت السلطة الحقيقية في يده بحيث أصبحت سلطة الحاكم العربي سلطة اسميّة [١٩] .

---

(١٩) عن القاب اذينه راجع : M. Cary : A History of Rome ص٧٢٥، كذلك Kammerer : ذاته ، ص ٣٢٠ ، عن قوائم ملوك الغساسنة واللخميين ، Kammerer : ذاته ، صفحات ٣٣٧ ، ٣٤١ ، عن الوراثة في الاسرة الحاكمة في تدمر ووصاية الزباء ، Cary : ذاته ، ص ٧٢٥ ، عن تصرف القوات الكبرى في حالة شكهم في نوايا هؤلاء الحكام ، Hitti : ذاته، صفحات ٨٠ و٨٤

نظام آخر من أنظمة الحكم في شبه الجزيرة في العصور القديمة نجده في مملكة الأنباط التي قامت وازدهرت كمملكة مستقلّة في أغلب مراحل وجودها حتّى أدخلها الرومان في دائرة نفوذهم في أواخر القرن الأول ق . م . أو أوائل القرن الأول الميلادي قبل أن تتحوّل إلى ولاية رومانية رسمية في أوائل القرن التالي . وفي هذه المملكة كان منصب الملك وراثياً كذلك . ولكن يبدو أنّ الحكم مع ذلك لم يكن فردياً ، فنحن نجد مجلساً شعبياً يذكر لنا الكاتب اليوناني سترابون أنّ الملك كان يقدم أمامه تقريراً عن أعماله ، بل لقد كان هذا المجلس يناقش الأسلوب الذي يتبعه الملك في حياته الخاصّة في بعض الأحيان . كذلك كان يحدّ من سلطات الملك وزير أو رئيس للجهاز التنفيذي يتخذ لفظ « الأخ » ونحن نعرف على الأقل واحداً من الذين شغلوا منصب « الأخ » وهو سللايوس Syllaeus (صلاء ، شلاء ؟) الذي عاصر حملة الرومان على شبه الجزيرة العربية في ٢٤ ق . م . وقد كان صاحب سلطة واسعة فعلاً .وربما كان ناتجاً عن قوة شخصيته وضعف شخصيته الملك النبطي آنذاك وهو عبيده (أوبودا Oboda عند الرومان) كما يشير إلى ذلك سترابون في شيء من التفصيل . ولكن مع ذلك فإنّ التسمية التي أطلقت على المنصب وهي « الأخ » تشير إلى شيء من اتساع صلاحيات هذا المنصب [٢٠] .

أما النوع الأخير من نظم الحكم أو النظم السياسية فقد وجد في جنوبي شبه الجزيرة العربية . والنظام كان ملكياً في الدول التي قامت في هذا القسم من شبه الجزيرة . ويبدو أن الملكية في هذه المنطقة كانت فردية مطلقة في المرحلة الأولى من مراحل ظهورها . وهي مرحلة ترجع إلى القرن السابع على أقل تقدير في بعض أجزاء المنطقة . ويظهر لنا ذلك من أن الملك كان يجمع بين

(٢٠) عن الحكم الوراثي ومنصب الاخ ، ونفوذ سللايوس ازاء ضعف شخصية عبيدة Strabo : XVI, 4 : 21 ، عن الملك ومجلس الشعب ، ذاته : XVI, 4 : 26 مناقشة لشخصية سللايوس في . Kammerer ذاته ، صفحات ٩٠ ـ ٩١ .

منصبه الملكي ومنصب الكاهن الأعلى أو « المكرّب » ، (المقرّب ، ربما من تقديم القرابين إلى الآلهة ؟) في واحدة على الأقل من الممالك التي قامت في المنطقة، وهي مملكة سبأ في مرحلتها الأولى (من حوالى ٦١٠ إلى ١١٥ ق . م).[٢١] وهو وضع مغزاه ، إذا أدخلنا في اعتبارنا أنّ الدين كان يعتبر الدعامة التي تعطي للنظام الملكي قاعدته الشرعية في العصر القديم بوجه عام . ولنا أن نتصوّر في ظلّ هذا الوضع أن يكون الحكم الملكي وراثياً كذلك ، فهو أمر وارد في النظام الملكي وهو أمر أكثر وروداً إذا كان الحكم الملكي من النوع الفردي المركزي .

ولكن يبدو أن هذا النظام الملكي الذي يقوم على الحكم الفردي المركزي (سواء في سبأ أو الملكيات الأخرى) لم يبق على ما كان عليه . ففي سبأ ، على سبيل المثال ، فقد الملك صلاحياته الدينية ابتداء من ١١٥ ق . م . لتتركز في أيدي رجال الدين الذين يبدو أنهم كانوا يشكلون طبقة لا يستهان بها إذا بنينا حكمنا على العدد الهائل من المعابد التي يذكر الكاتب الروماني بلينيوس أنها كانت موجودة في بعض مدن المنطقة في أواسط القرن الأول الميلادي ، وهي فترة غير متأخرة كثيراً عن التاريخ المذكور . كذلك يذكر لنا سترابون (أواخر القرن الأول ق.م وأوائل القرن الأول الميلادي) أنّ النظام الملكي لم يكن وراثياً آنذاك فيقول في هذا المجال إن ابن مالك لم يكن هو الذي كان يخلفه على العرش وإنما أحد أفراد الأعيان (أو الطبقة الارستقراطية) [٢٢] . وبذلك تكون ركيزة الوراثة قد انتزعت كذلك من صلاحيات النظام الملكي .

ومثل هذا التطوّر ليس في الواقع شيئاً معدوم النظير في العصور القديمة ، فقد عرفته الدويلات اليونانية حوالى القرن الثامن في المرحلة التي عاصرت

---

(٢١) Hitti : ذاته ص ٥٢ .
(٢٢) انتزاع السلطة الدينية من الملك في Hitti : ذاته ، ص ٥٤ ، كثرة عدد المعابد في Plinius : HN, VI, 153 نظام اعتلاء العرش ، في Strabo : XVI, 4 : 3

تطور نظام الحكم من الحكم الملكي إلى الحكم الارستقراطي . فقد بدأت بانتزاع صلاحيات الملك واحدة بعد الأخرى ، وكان من بين هذه الصلاحيات النظام الوراثي والسلطة الدينية . ونحن نستطيع أن نفهم ما حدث في الممالك العربية الجنوبية في هذا الصدد إذا عرفنا مدى قوة الطبقة الأرستقراطية هناك وهو أمر نستنتجه مما يذكره لنا الكاتب بلينيوس ذاته حين يعرّفنا أنّ ثلاثة من المناطق العربية الجنوبية (وهي مناطق السبئيين والمعينيين والحضرميين) كانت فيها ٣٠٠٠ أسرة تحتكر حق امتلاك أشجار الطيوب والاتجار فيها بشكل وراثي ، وهو أمر غير غريب عن مناطق العربية الجنوبية ، فالملكية الجماعية . أو الإدارة الجماعية لقطع واسعة من الأراضي الزراعية معروف لنا من النصوص التي عثر عليها في المنطقة (٢٣) . ومعنى هذا في الواقع أن الطبقة الأرستقراطية الثرية كانت طبقة لا يمكن أن يتجاهلها الملك ، بل لا يمكن إلاّ أن تزحف على صلاحيات النظام الملكي بما في ذلك النظام الوراثي للعرش بحيث يتحول الملك إلى ما يمكن أن نسمّيه « الأول بين الأقران » أو primus inter pares حسب التعبير اللاتيني الذي صاغه الرومان عن هذا المعنى . فالملوك كانوا ، هم الآخرون ، من الأسر التي تملك هذا الحق الاقتصادي الوراثي .

وفي ضوء هذا الوضع تتحول سلطة الملك الذي كانت الطبقة الأرستقراطية تختاره بطريقة أو بأخرى من بين صفوفها إلى ممثل لهذه الطبقة والتي هو نفسه منها ، يحافظ على مصالحها وينمّي هذه المصالح إزاء أية ظروف معاكسة . ولعلّنا نفهم من خلال هذا التصوّر ما يذكره لنا الكاتب اليوناني أرتميدوروس (اشتهر في أوائل القرن الثاني ق.م). من أنّ الملك عند السبئيين رغم كونه المرجع « في القضايا وكل شيء » إلاّ أنه « كان لا يملك أن يترك قصره (لعلّه

---

(٢٣) عن الاسر المحتكرة Plinius : HN, XII, 54 ، عن المزارع الجماعية راجع الموارد الاقتصادية في الباب السابق، والوضع الاجتماعي ادناه في الباب الحالي.

يريد أن يترك العرش) وإذا تركه فإنّ الغوغاء ، حسب نبوءة معينة ، ترجمه حتّى الموت » [٢٤] . ولنا أن نتصوّر أن هؤلاء الغوغاء هم أتباع أو أجراء الطبقة الأرستقراطية المالكة لهذا المورد الإنتاجي الأول في البلاد . كذلك لنا أن نتصوّر شيئاً من المبالغة فيما يخصّ مسألة الرجم . ولكن يبقى المعنى ، حتّى بعد هذه التخفظات واضحاً ، وهو أنّ تنازل الملك عن عرشه أو تركه له بشكل أو بآخر ، قد لا يناسب الطبقة التّي اختارته إذا جاء ذلك في وقت غير مناسب لها ، ومن ثمّ فمثل هذا التنازل لم يكن ليتمّ إلاّ بموافقة هذه الطبقة .

٢ ـ الوضع الاجتماعي :

كان هذا ، إذن ، هو الوضع السياسي في شبه الجزيرة العربية في العصور السابقة للإسلام وليكن حديثنا الآن عن الوضع الاجتماعي . وفي هذا المجال فإنّ الناظر إلى مجتمعات شبه الجزيرة ، سواء في ذلك المجتمعات القبلية البدوية أو مجتمعات الحضر التّي تظهر على أوضحها في التكوينات السياسية الكبيرة ، يجد أنها تشترك جميعاً في عنصرين أساسيين : العنصر الأول هو عوامل التماسك التّي تبدو وكأنها تشدّ المجتمع إلى بعضه . والعنصر الثاني هو عوامل الانقسام الطبقي التّي تسير في موازاة العوامل الأولى . ولنحاول الآن أن نعرف إلى أيّ حدّ سيطر كلّ من العاملين على سكان شبه الجزيرة .

ا ـ عوامل التماسك

وفيما يخص عوامل التماسك فإننا نجد عدداً واضحاً منها في التكوينات القبلية تهدف إلى إشاعة التماسك ، حسب تصوّر معين ، في المجتمع القبلي . ومن بين هذه العوامل ، عامل العصبية وعامل آخر مكمل له وهو الثأر . وحقيقة إن العصبية والثأر قد أديا إلى مناسبات كثيرة من الصراع بين قبائل

---

(٢٤) منقول في سترابون Strabo : XVI, 4 : 19

شبه الجزيرة في العصر السابق للإسلام ، وكان هذا الصراع يصل في بعض الأحيان إلى فترات من العداء الصريح الذي يستمرّ عقوداً بأكملها بين توتّر أو مناوشات أو غارات كثيفة متبادلة حفظ التّراث العربي لنا عدداً من مواقعها وهي الّتي تسمّى أيام العرب [٢٥] . ولكن من الجانب الآخر فإنّ كلاّ من هذين العاملين كان أمراً حيوياً بالنسبة للقبيلة حتّى لا يذوب كيانها في مجال العلاقات بين القبائل في ظلّ الظروف القاسية الّتي سادت مجتمع البادية في شبه الجزيرة . فالعصبية الّتي تنتج عن تصوّر حقيقي أو مفترض لرابطة القرابة أو الدم كانت وسيلة التكتل الأساسية بين أفراد القبيلة في غياب أية وسائل أخرى ثابتة لإشاعة هذا التكتل . وهي وسيلة تجمع بين هؤلاء الأفراد بغضّ النظر عن الاعتبارات الأخرى المطروحة مثل اعتبارات الحقّ والباطل أو الظلم والعدل ، بحيث يصبح هذا التكتل هو القيمة الأولى في حياة القبيلة الّتي كثيراً ما كان يدفعها السعي وراء الكلأ إلى التنقّل ، وهو ظرف قد يؤدي إلى التشتت ومن ثم الاندثار كوحدة اجتماعية ، أو إلى التصارع مع قبائل أخرى في سبيل الحصول على هذا الكلأ أو على عين ماء إذا أدخلنا في اعتبارنا قلة الماء في شبه الجزيرة إلى درجة الندرة في بعض الأحيان — وهنا مرّة أخرى يبدو التكتل كعامل حيوي في ظلّ هذا الصراع . ونحن نجد الحديث عن هذه العصبية وارداً في أغلب ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي ، سواء أكان في الفخر بالقبيلة إلى درجة المبالغة ، أو في هجاء قبيلة أو قبائل أخرى إلى درجة المبالغة كذلك .

---

(٢٥) عن عرض شامل لايام العرب راجع ، جرجي زيدان : العرب قبل الاسلام (مراجعة وتعليق حسين مؤنس) ، طبعة دار الهلال ، القاهرة صفحات ٢٥٤ — ٢٧٤ . عن عرض بعض هذه الايام راجع ، عمر فروخ : تاريخ الجاهلية ، صفحات ٧٧ — ٨٦ ، السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في العصر الجاهلي، صفحات ٤٢٦—٤٤٣ ، سعد زغلول عبد الحميد : في تاريخ العرب قبل الاسلام ، صفحات ٣١١ — ٣١٨ .

كذلك يذكر لنا المؤرخ اليوناني هيرودوتوس (٢٦) أن القبيلة قد تلجأ في سبيل تقوية هذه العصبية إلى ما يمكن أن نسمّيه المؤاخاة بين شخص من داخل القبيلة وآخر من خارجها وذلك بأن يتقاسم هذا الأخير طعاماً مع ابن القبيلة . أو يمصّ قطرات من جرح يحدثه في جسمه.وهكذا يصبح هذا الشخص الغريب عن القبيلة ابناً متبنى لهذه القبيلة . ولنا أن نتصوّر أن مثل هذا الشخص يكون مرغوباً في تبنيه بسبب غزوة له أو بأس يتصف به ، ولكن الأمر يظل على أي الأحوال طريقة من الطرق التي تلجأ إليها القبيلة لتقوية عصبيتها . ومن ثم يصبح هذا التصرف مؤشراً نحو التماسك .

أما الثأر فهو نتاج طبيعي للعصبية وامتداد لها ويكمّل نفس المهمّة وهي الحفاظ على كيان القبيلة عن طريق مقابلة الاعتداء عليها باعتداء يهدف القائمون به إلى أن يكون رادعاً . ونحن نرى في هذا الصدد فكرة الثأر وقد أصبحت أحد واجبات سيّد القبيلة كما يظهر . على سبيل المثال ، من موقف أحد رؤساء القبائل . وهو عامر بن الطفيل (سيّد بني عامر الذي سبقت الإشارة إليه) همّاً لا يستطيع أن يستريح قبل أن يقوم به رغم ما قد يسبّبه له ذلك في بعض الأحيان من حرج أو ألم .

تقول ابنه العمريّ : مالك ، بعدما أراك صحيحاً ، كالسليم المعذّب
فقلت لها : همّي الذي تعلمينـــه من الثأر في حيّي زبيد وأرحب
إن اغزُ زبيداً أغزُ قومـــاً أعزّة مركبهم في الحيّ خـــير مركب
وإن أغز حيّي خثعم . فدماوهم شفاء . وخير الثأر للمتـــأوّب

ثم يمضي ليفخر بتأديته لواجبه في طلب الثأر بكلّ ما يرى أنّه :
سلاح امرىء قد يعلم الناس أنّه طلوب لثـــارات الرجال ، مطلّب

(٢٦) Herodotus : III, 8

وبعد أن يتحدث عن اختيار قبيلته إياه سيّداً عليها يلخّص مغزى الثأر بالنسبة لها (وفي الواقع بالنسبة لأية قبيلة أخرى) حين يقول :

ولكنّي أحمي حماهــا ، وأتّقي أذاها ، وأرمي من رماها بمنكب(٢٧)

وإذا كانت العصبية والثأر هما عاملي التماسك بالنسبة لكيان القبيلة ، فإن الحرص عليهما لم يكن قاصراً على رجال القبيلة فحسب ، بل كان يتعدّى ذلك إلى نسائها اللائي كنّ يحرصن عليه بكلّ الطرق ، بما في ذلك تحريض الرجال بكافة الطرق على التمسّك بهذين العاملين اللذين أصبحا محوراً أساسياً لحياة القبيلة وبمساعدتهن لهم على تنفيذهما والوقوف إلى جانبهم حتّى في ميدان القتال ، كما يبدو واضحاً من أبيات عمرو بن كلثوم في وصف أحد لقاءات الحرب :

على آثــار بيض حسّان نحاذر أن تقسّم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتائب مُعلَمينا
ليستلبُنّ أفراساً وبيضاً وأسرى في الحديد مقرّنينا
يقُتْن جيادنا ويقلْن لَستم بعولتنا إذا لم تمنعونا
إذا لم نحمهنّ ، فلا بقينا لشيء، بعدهن ، ولا حيينا(٢٨)

أما العامل الثالث الذي ساعد على التماسك القبلي فهو الاشتراك على المشاع في الكلأ الذي يوجد حيث تحلّ القبيلة ، كما أشرت في مناسبة سابقة . إن هذا النظام أملته ظروف البادية على المجتمع القبلي من حيث هو ضرورة

---

(٢٧) هذا البيت والابيات السابقة في ، شيخو والبستاني : المجاني ، صفحات ٢٩٢ ــ ٢٩٣ ، ابيات ١ ــ ٤ و ٧ و ١٠ .
(٢٨) شيخو والبستاني : ذاته ، ص ١٣٥ ، أبيات ٧٧ ، ٧٩ ــ ٨٠ ، ٨٢ ــ ٨٣ .

اقتصادية لا يمكن إغفالها أو تجاوزها ، ولكنّه في الوقت ذاته كان عاملاً من عوامل التماسك الاجتماعي بين أفراد القبيلة حول قيمة حيوية بالنسبة لهم – يعيشون فيها ويذودون عنها، وفي كلّ الأحوال يلتفون حولها متضامنين فيما يقدمون عليه سواء كان انتفاعاً أو دفاعاً .

فإذا خرجنا عن نطاق التكوينات القبلية إلى التكوينات ذات المجتمعات الكبيرة مثل تلك التي كانت موجودة في القسم الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة حين تزدهر الزراعة وتوجد الغابات الممتدة من أشجار الطيوب وقدر لا بأس به من أعمال الصناعة والتعدين وجدنا كذلك إشارات متواترة ، سواء في النقوش التي عثر عليها المنقبون الأثريون أو في الكتابات التي تركها لنا الكتاب الكلاسيكيون ، إلى عدد من الممارسات في الحياة اليومية يؤدّي إلى التماسك في جوانب مختلفة من الحياة الاجتماعية . وفي المجال يبدو أن فكرة الملكية (الامتلاك) الجماعية كانت معروفة في المنطقة بين أفراد الأسرة الواحدة على الأقل ، يشير إلى ذلك سترابون ذاكراً أن السيطرة على هذه الأملاك الجماعية كانت في يد الأخ الأكبر ، ونحن نجد تأييداً لهذا فيما ذكره بلينيوس الذي سبقت الإشارة إلى حديثه عن ملكية جماعية بين ٣٠٠٠ أسرة لجميع أشجار الطيوب الموجودة في دول الجنوب ولحقّ الإتجار في نتاج هذه الأشجار ، وأضيف هنا أن هذا الكاتب يخوض في تفصيل كيفية هذا الانتفاع الجماعي فيذكر أنّ هناك من يقول إنّ (مجموعات من) هذه الأسر تتناوب هذا الانتفاع من سنة إلى سنة وأن هناك من يقول إنّ أرباح النتاج تقسم على كلّ الأسر سنوياً . وسواء كان هذا أو ذاك ففكرة الملكية الجماعية والانتفاع الجماعي حسب تنظيم أو آخر قائمة في الحالين [٢٩] .

---

(٢٩) جماعية الملكية في الاسرة في Strabo : XVI, 4, 25 ، الملكية الجماعية لاشجار الطيوب وطرق الانتفاع بنتاجها في Plinius : HN, XII, 54

ولنا أن نصدّق ما رواه هذان الكاتبان فأولهما كان صديقاً شخصياً لقائد الحملة الرومانية على بلاد اليمن وقد كان حريصا أن يستفسر من الجنود الرومان الذين اشتركوا في الحملة عمّا شهدوه في المنطقة ، والثاني وهو بلينيوس يذكّرنا في أكثر من موضع بأنّه يحصل على معلوماته من التجار الرومان واليونان الذين يتعاملون مع سكان هذه المناطق . كما نجد تأييداً لهذه النزعة نحو الملكية الجماعية في عدد من النقوش العربية الجنوبية التي يشير بعضها إلى جمعيات زراعية من نوع الجمعيات التعاونية التي نعرفها في الوقت الحاضر . وقد أسلفت الإشارة إلى واحدة من هذه الجمعيات كان لها مجلس إدارة مكون من ثمانية أشخاص يقومون على إدارة هذه « المؤسسة الزراعية » حسبما سمّاها باحث معاصر ، والاشراف على العمل بها من تهيئة البذور ودفع الحصص أو الضرائب الواجب دفعها للحكومة أو للمعبد . ومن خزن وتسويق وبيع [٣٠] .

ومثل هذا الاتجاه نحو الجماعية في الامتلاك أو إدارة الأملاك أو الانتفاع بنتاجها ، رغم أنها ممارسة اقتصادية إلاّ أنّ انعكاساتها الاجتماعية تؤدّي إلى التماسك بين شرائح كبيرة وكثيرة في هذا المجتمع الذي مورست فيه الزراعة أو الانتفاع بغابات الطيوب أو الاتحاد في محصولها على نطاق واسع . ولعلّ إشارة أخيرة في هذا الصدد قدّمها لنا الكاتب الجغرافي والتاريخي سترابون تعطينا . في ختام الحديث عن هذه النقطة مدى تأثير هذه النزعة الجماعية حتى على التصوّرات أو الاعتبارات المتصلة بروابط الأسرة . إذ يذكر لنا هذا الكاتب أن « الإخوة كانوا يوضعون في منزلة أكثر تقديراً من الأبناء » [٣١] . ونحن إذا تمعّنّا في هذه العبارة التي تجعل الإخوة مقدمين على الأبناء وجدناها تشير بشكل واضح إلى تجاوز التكتّل داخل الأسرة الواحدة

---

(٣٠) نص Halévy : 147 ، راجع الباب السابق الخاص بالمواد الاقتصادية وصف « المؤسسة الزراعية » في . جواد علي : ذاته ، ج ٧ ، ص ٢٢٤ .

(٣١) Strabo : XVI, 4 : 25

(أي بين الأب والأم والأبناء) إلى تكتل أوسع هو مجموعة الأسرة التي يكوّنها كلّ من الإخوة حول آصرة قوية هي الآصرة التي تربط هؤلاء الإخوة.

ب ـ عوامل الانقسام

ولكن مع كل العوامل المؤشّرة إلى التماسك سواء في مجتمع التكوينات القبلية أو في مجتمع التكوينات الكبيرة فإنّ عوامل الانقسام كانت موجودة في داخل هذه التكوينات في الوقت ذاته. ففي المجتمع القبلي، رغم ما كانت عليه العصبية من رسوخ يدفع القبيلة إلى أن تخفّ للدفاع عن أي فرد من أفرادها إذا تعرض لأذى أو اعتداء أو إهانة من قبيلة أخرى. فإنّ نداء العصبية هذا لم يكنّ يمارس بنفس الحماس في حالة كلّ الأشخاص. ولعلّ الأقرب إلى الواقع في هذا الصدد هو أنّ هذا الحماس في الاستجابة لنداء العصبية كان يشتدّ أو يخفّ أو حتى ينعدم حسب وضع الشخص في القبيلة. فإذا كان من الوجهاء أو الأعيان أو السادة فإنّ القبيلة تهبّ في استجابة فورية لهذا النداء، كما حدث. على سبيل المثال. فيما يرويه ابن الأثير من غضب عمرو بن كلثوم حين أحسّ أنّ إهانة قد لحقت بأمّه على يدي أم الأمير اللخمي عمرو ابن هند فنادى آل قبيلته تغلب، واستجابت القبيلة للنداء وكان بعدها صدام مسلح انتهى لصالح التغلبيين (٣٢).

نحن نستطيع أن نقابل بين هذا وبين ما نستنتجه من شعر قاله قريط بن انيف أحد بني العنبر (وهو شاعر مخضرم) وكان عدد من أفراد بني ذهل بين شيبان قد نهبوا عدد من إبله فاستغاث بقومه فلم يغيثوه. فندّد بموقفهم

---

(٣٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، القاهرة ١٣٤٨ هـ، ج ١، ص ٣٣١. هذا وربما كان في رواية ابن الاثير الذي نقل ما ذكره عن الرواية العربية، شيء من تزيين الحوادث بتفصيلات مشوقة كما يحدث حين تنتقل الرواية شفاها لعدة قرون، ولكن يبقى الاتجاه العام واردا في حدود وصل الينا من شعر الجاهليين.

هذا في أبياته . والتفسير المنطقي هنا هو أنّ قريطاً ربما كان من طبقة العوامّ في قبيلته ، ومن ثمّ لم يكن ما أصابه من أذى (سواء بالحق أو بالباطل) مدعاة لاهتمام بين أفرادها ليهبوا لمساندته ، وهو يشرح لنا هذا الموقف بكلّ وضوح حين يقول :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذن لقام بنصري معشر خُشُن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة هانا
قوم إذا الشرّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخــاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا
لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشرّ في شيء وإن هانا [٣٣]

كذلك فقد كان العرف المتبع في القبيلة يضع حواجز بين بعض فئاتها . فالعبيد الذين حرّروا لا يصبحون أبناء للقبيلة وإنما يتحوّلون إلى موالي أو أتباع مهما قدّموا من خدمات . والتصنيف ذاته ينطبق على أيّ غريب يلجأ للقبيلة لسبب أو لآخر ويطلب أن تحميه وأن يعيش في كنفها [٣٤] . إنّه هو الآخر يصبح من طبقة الموالي الذين لا يرقون إلى مرتبة أبناء القبيلة مهما تفانى في تأدية دوره في خدمة مصالحها والذود عن هذه المصالح . وهكذا تتكون بالتدريج داخل كلّ قبيلة فئة أو طبقة لا تشعر بالانتماء الكامل لها ويمكن أن تصبح عنصر انقسام بدلاً من أن تكون عنصر تماسك . والشيء ذاته نجده في صورة أخرى في حالة الخلعاء . أي أفراد القبيلة الذين تخلعهم القبيلة لتصرّف أتوه ولم ترض القبيلة عنه . إنّ القبيلة تعلن عن لسان سيّدها أو شيخها أنها غير مسئولة عن تصرّفاته . وبالتدريج تتكوّن مجموعة من المنبوذين عن المجتمع القبلي تشكل بدورها عنصراً من عناصر الانقسام. هذا إلى وجود طبقة من المدقعين

---

(٣٣) (ديوان الحماسة مختارات ابي تمام) . طبعة الرافعي ، القــاهرة اولى قصائد الديوان .

(٣٤) Hitti : ذاته ص ٢٧ .

أو المعدمين من أفراد القبائل ، كان فقرهم يدفع بهم إلى الحصول على رزقهم بكافة الطرق دون مراعاة لعرف القبيلة وتقاليدها . وهؤلاء هم صعاليك العرب الذين كان ينتهي بهم الأمر إلى الخروج على القبيلة والخروج من أرضها، لتتضخم بذلك طبقة غير المنتمين على اختلاف فئاتهم .

بل أكثر من هذا فإنّه حتى في حالة المنتمين من أفراد القبيلة ، فإنهم رغم المساواة المفترضة بينهم . لم يكونوا كلّهم سواء فعلاً . ولم يكونوا كلّهم راضين عن معاملة القبيلة لهم . ولقد مرّ بنا أنّه حتى في حالة الكلأ الذي كان مشاعاً بين جميع أفراد القبيلة . كانت هناك أحماء يتمتع بها أفراد بعينهم إلى جانب تمتعهم بميزات الكلأ العام (٣٥) . وهو نوع من التمييز كان لا بدّ أن يشكّل خطاً . مهما كان باهتاً . يقسم القبيلة إلى طبقة من المتميّزين وطبقة ممّن لا يحظون بهذا الموقع المتميّز .

ونحن نلمس هذا الانقسام الطبقي بين سكان شبه الجزيرة في أكثر من شاهد . فالكاتب اليوناني أرتميدوروس يذكر لنا في مجال حديثه عن السبئيين أن « الملك ومن حوله يعيشون في بذخ أنثوي » ، كما سبق أن رأيناه يتحدث عن الطبقة الثرية من السبئيين والجرهائيين ليذكر أنهم يقتنون الأدوات المصنوعة من الذهب والفضة ويسكنون بيوتاً طعمت أبوابها وجدرانها وسقوفها بالعاج والذهب والفضة ورصعت بالأحجار النفيسة . هذا . إلى ما سبقت الإشارة إليه من امتلاك طبقة محدّدة تتكون من ٣٠٠٠ أسرة لكلّ أشجار الطيوب في العربية الجنوبية . ولحق التجارة في هذه الطيوب دون غيرهم . وأضيف هنا إلى هذا إن الوظائف في الدولة كانت قاصرة على أولاد الملوك ، فإذا أدخلنا في اعتبارنا ما سبقت الإشارة إليه من أن منصب الملك كان بالتناوب بين أفراد الطبقة الأرستقراطية . كان معنى هذا أن وظائف الدولة هي الأخرى كانت

(٣٥) راجع الباب السابق الخاص بالموارد الاقتصادية .

حكراً على هذه الطبقة.وفي القرن السابع الميلادي نجد الظاهرة لا تزال موجودة، فالقرآن الكريم يتحدث عن فئة من المجتمع تكسب «القناطير المقنطرة من الذهب والفضة» وعن «الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله» مشيراً بذلك إلى وجود طبقة أخرى من المعوزين لا تعود عليهم هذه الثروة بأيّ نفع يخفف من ضائقتهم ، كما يسمّي على الأقل واحداً من أثرياء مكّة الذين جمعوا قدراً كبيراً من المال ، وهو أبو لهب ، ملمحاً إلى موقفه الطبقي المتعنت اعتماداً على ثروته (٣٦) .

كذلك نجد ، في الجانب الآخر ، تقسيماً في مجتمع العربية الجنوبية في أواخر القرن الأول ق. م. وأوائل القرن الأول الميلادي ، يصنف هذا المجتمع إلى فئات لها طابع طبقي ، إلى فلاحين وحرفيين وعاملين في جمع المرّ واللبان ، وهو تصنيف مانع لا يتغيّر من الآباء إلى الأجدادولا يمكن أن يغيّر فيه أحد الأفراد مهنته لينتقل من فئة إلى فئة ، ومن ثمّ فهو يكرّس الطبقية في صورة حادّة ومستمرّة في الوقت ذاته . وقد زاد من حدّة الوضع الطبقي أنّ طبقة أصحاب الحرف أو من كانوا يعملون بالأجر كان ينظر إليهم ، كما مرّ بنا ، على أنهم يمارسون عملاً متدنّياً ، رغم حاجة المجتمع إليهم . أما في أوائل القرن السادس الميلادي فنحن نجد الشنفرى ، أحد صعاليك العرب يصف لنا حياة الجوع التي كان يمارسها والتي وصل من حدّتها أنه كان يماطل الجوع ويستفّ التراب حتى لا تظهر عليه آثاره فيشمت فيه أفراد الطبقة الأخرى . وهو وصف لا أرى فيه مبالغة إذا أدخلنا في اعتبارنا أنّ الشاعر

---

(٣٦) بذخ الملك ومن حوله في ارتميدوروس ، منقول في سترابون Strabo : XVI, 4 : 19 عن بذخ السبئيين والجرهائيين . راجع الباب الثامن عن الموارد الاقتصادية في هذه الدراسة . اشارات القرآن الكريم الى اصحاب الثروة بترتيب المتن في ، سورة آل عمران : ١٤ ، التوبة : ٣٤ ، تبت : او ما بعدها .

كان لا يبغي من وراء شعره استعطافاً لأحد وأنه يفخر باعتزازه الشديد رغمْ جوعه الشديد :

أديمُ مطال الجوع حتى أميتَه ، وأضرب عنه الذكر صفحاً ، فأذهل
وأستفّ ترب الأرض كي لا يُرى له عليّ ، من الطَّوْل ، امرؤ متطوّل
وأطوي على الخمص الحوايا ، كما انطوت خيوطة ماريّ تُغار وتُفتـــل
وأغدو على القوت الزهيد ، كما غدا أزَلُّ تَهاداه التنائف ، أطحــل

كما نجد صعلوكاً آخر ، وهو تأبّط شرّاً ، يعرّض حياته لخطر محقّق ليسرق قليلاً من العسل من مَنحل في غار لبني هذيل ، ثم يجد في احتياله حتى يفرّ من القتل نوعاً من الذكاء الذي يفخر به — الأمر الذي نستنتج منه مدى المعاناة التي كانت تمارسها هذه الطبقة ، وبخاصّة إذا عرفنا أن بني هذيل كانوا أعداء لتأبّط شرّاً يتربّصون به الدوائر ، ومع ذلك فقد أقدم على المخاطرة في سبيل ما يسدّ به جوعه . فإذا وصلنا إلى القرن السابع الميلادي وجدنا القرآن الكريم يشير في شكل متواتر إلى طبقة متعدّدة الفئات من الذين تفصل بينهم وبين الطبقة المثرية هوة واسعة من بينهم السائلون والمساكين وأبناء السبيل واليتامى الذين يبدو أن العرف السائد في المجتمع لم يكن يضمن لهم أي نوع من الكفالة الاجتماعية ، أو ، إذا وجدت هذه الكفالة الاجتماعية افتراضاً ، كان المجتمع متهاوناً في الوسائل التي تمكّن من وضعها موضع التنفيذ الفعلي (٣٧) .

---

(٣٧) تقسيم المهن في Strabo : XVI, 4 : 25 . قارن كذلك ارتميدوس في سترابون ، ذاته XVI. 4 : 92 ، حيث يذكر ان العامة يعملون في الزراعة ونقل الطيوب . الاستعلاء على اصحاب . عن الاستعلاء الطبقي على الذين يعملون في الحرف راجع الباب الثامن الخاص بالموارد الاقتصادية في هذه الدراسة . ابيات الشنفري في شيخو والبستاني : المجاني ، ص ٧ ، ابيات ٢١ — ٢٢ و ٢٥ — ٢٦ . ابيات تأبط شرا في ، ذاته : ص ١١ ، ابيات ١—٩ .

وقد ظهرت آثار هذا التقسيم الطبقي الحادّ ، سواء أكان بموجب قوانين رسمية ، أم كان نتيجة للممارسة الفعلية للطبقات الموجودة في المجتمع ، أو كان سببه تصوّر يؤدّي إلى نظرة استعلائية إزاء إحدى الفئات أو الطبقات وكانت محصلة هذه الآثار المترتبة على التقسيم الطبقي وجود طبقة متضرّرة تعبّر عن معارضتها للأوضاع القائمة بأكثر من وسيلة . ففي العربية الجنوبية نسمع من النقوش التي عثر عليها المنقبون الأثريون عن جماعات من المزارعين تهرب من الأرض وتلجأ إلى المدن بكل ما يترتب على هذا من إلحاق الأذى بالزراعة وبالمحاصيل . وذلك رغم تشديد الحكومات على منع الهجرة وترك المزارع دون موافقة أصحاب الأرض . كذلك نجد القرآن الكريم يعطينا صورة للمعارضة التي كانت قائمة ضدّ الأوضاع السائدة في مجتمعات شبه الجزيرة في عصور ما قبل الإسلام والتي كانت تتبلور كلّما ظهر أحد الرسل والأنبياء بدعوة تستهدف إصلاح أحوال المجتمع وكان صوت هذه المعارضة يبدو واضحاً ومحدّداً في الانحياز إلى جانب أصحاب هذه الدعوات وفيما كان يثور بينهم وبين الطبقة المسيطرة على أمور المجتمع من محاجّات ومجادلات. وأخيراً فقد كانت هجرة الرسول (ص) هو وأتباعه من مكّة إلى المدينة دليلاً واضحاً على مدى الانقسام المذكور ومدى التعنّت الطبقي الذي كان يسود مجتمع شبه الجزيرة في الوقت الذي ظهرت فيه الدعوة الإسلامية (٣٨) .

٣ ــ الوضع الديني :

وأنقل الحديث الآن إلى الوضع الديني أو الحياة الدينية التي عرفتها مجتمعات شبه الجزيرة العربية في العصور السابقة للإسلام . استكمالاً للتكوين الذي عرفته هذه المجتمعات والذي عرفنا شيئاً عن موارده الاقتصادية ثم عن أوضاعه

---

(٣٨) النقوش الخاصة بهرب المزارعــين في RES, 4646, Halévy, 147
عن اشارات القرآن الكريم الى معارضة الاوضاع الطبقية السائدة راجع : صفحات ١٧٢ ــ ١٧٣ وحاشية ١٧ في الباب الخامس من هذه الدراسة .

السياسية والاجتماعية . ولن أخوض في تفاصيل هذا الوضع ، وهي تفاصيل تخرج عن طبيعة هذه الدراسة التقديمية وعن نطاقها ، ولكنّي مع ذلك أودّ أن أشير إلى عدد من الظواهر التي اتصلت بهذا الوضع سواء فيما يخصّ تطور العقائد الدينية أو فيما يخصّ الظروف التي أحاطت بالحياة الدينية المتصلة بها .

أ ـ تطور العقائد الدينية وانتشارها

والظاهرة التي نلاحظها على تطوّر العقائد الدينية في شبه الجزيرة هي أن المنطقة عرفت عدداً من مراحل التطور الديني في العصور السابقة للإسلام ، ولكن مع ذلك فإنّ هذا التطوّر لم يشمل كلّ أرجاء شبه الجزيرة في وقت واحد منتقلاً بها كلهامن مرحلة إلى مرحلة ، وإنما ظهرت هذه المراحل بشكل متفرّق في الأقسام المختلفة من شبه الجزيرة وكانت في بعض الأحيان تتجاور أو تتداخل حسب ظروف كلّ قسم من هذه الأقسام . ويشمل هذا التطوّر في عمومه مراحل أربعة . والعبادات التي تمثل المرحلة الأولى من مراحل هذا التطوّر الديني ، إذا كانت قد ظهرت بين عدد من مجتمعات شبه الجزيرة في حياته البدائية قبل أن تصبح مجتمعات أكثر تطوّراً وتقدّماً ، وإذا كانت بعض آثارها قد ظلت موجودة في صورة أو أخرى في هذه المجتمعات حتى بعد تطوّرها ، إلاّ أنها كانت السّمة التي بقيت كظاهرة أساسية في مجتمع البادية .

هذه المرحلة الأولى هي مرحلة عبادة أو تقديس أشياء مادية محدّدة مثل الأحجار والأشجار والكهوف وينابيع المياه ، وهي أشياء يرى البدويّ أنها تفيده في حياته اليومية . فالأحجار ، وبخاصة ما كان منها يختلف عن اللون الرملي المعتاد في الصحراء . مثل الحجر الأسود (وفي بعض الأحيان الحجر الناصع البياض) أو إذا كانت بارزة في مظهرها بشكل أو بآخر ، كان وجودها في مكان ما يشكّل إشارة يستدلّ بها البدويّ على طريقه في مناطق قد تتشابه فيها الرمال في كلّ الاتجاهات ومن ثم يصبح فيه البدويّ على طريقه

معرّضاً لأنّ يضلّ طريقه أثناء تنقّله من مكان إلى مكان . والأشجار وبخاصة شجرة النخيل كانت تشكّل عنصراً أساسياً في حياة البدوي يعتمد على تمرها كغذاء رئيسي ويعتمد على أجزاء أخرى منها لتغطية حاجات وضرورات أخرى في حياته اليومية ، والشجرة تصبح أكثر أهمية ومن ثمّ أكثر قداسة بالنسبة له في المناطق التي يقلّ فيها الشجر وبالتالي تصبح شيئاً يعتمد عليه البدوي ويلتصق به بدرجة أكبر . والكهوف تمثل في الصحراء نقطة الحماية التي يلجأ إليها البدويّ للاحتماء من الشمس أو من الأعداء . وقد لجأ الرسول (ص) هو ورفيقه أبو بكر الصديق إلى غار حراء ، على سبيل المثال ، للاحتماء من متتبّعيه من قريش في الفترة التي ضيّقت هذه خلالها الخناق عليه هو وأتباعه. أمّا ينابيع المياه فهي بالضرورة نبع الحياة في الامتدادات الصحراوية المقفرة التي لا تعرف الأنهار وقد تمرّ سنوات متتابعة لا تنزال بها الأمطار . وإذا نزلت فهي تنزل بغير انتظام وتكون قصيرة المدى رغم شدّتها التي قد تبلغ مبلغ السيل في بعض الأحيان .

وهذا النوع من العبادة أو التقديس هو ما يعرف باسم « الأرواحية » أو حيوية المادّة **animism** أي أن يتصوّر المرء أنّ هناك روحاً تحلّ في هذه الأشياء فتعطيها هذه الفائدة الحيوية بالنسبة له . وربما لم يصل الأمر دائماً إلى عبادة هذه الأشياء أو على الأقل إلى عبادتها بصفة دائمة . ولكن تقديسها ظلّ قائماً في كل الأحوال . حتى حين انتقل البدوي إلى مرحلة دينية أكثر تطوّراً حين بدأ يعتقد في قوى إلهية أكثر شمولاً وأكثر تجريداً. كما حدث عندما ظهرت في منطقة الحجاز أو انتقلت إليها عبادات اللات والعزّى ومناة وبعل [٣٩] .

---

(٣٩) وجدت هذه العبادات في فترات مبكرة في العربية الشمالية ومن المحتمل ان تكون قد انتقلت الى الحجاز من هناك . عن وجود اللات في العربية الشمالية انظر Herodotus : III, 83 وترجع الاشارة الى اواسط القرن الخامس وهو الوقت الذي كتب فيه هيرودوتوس. عن وجوداللات والعزى=

وهنا نجد « اللاّت » وهي القوّة الإلهية بالدرجة الأولى يمثّلها في الطائف حجر مربّع . والعزّى (الزهراء التي تقابل فينوس عند الرومان) وهي الإلهة التي يشير اسمها إلى القوة وكانت تمثل عند قريش أقدس القوى الإلهية كانت تمثلها شجرة في منطقة « نخلة » الواقعة إلى شرقي مكّة . وكان محرابها يتكوّن من ثلاث شجرات ، بينما كان القرشيون يقدمون إليها القرابين من الضحايا البشرية في كهف مقدّس بالمنطقة يدعى كهف « غَبْغَبْ » . و « مناة » الإلهية التي كانت تمثل القدر كان محرابها أو رمزها الأساسي حجراً أسود في موقع « القديد » على الطريق بين مكّة ويثرب . أمّا الإله « بعل » الذي انتقلت عبادته من المنطقة السورية إلى الحجاز فقد ارتبطت عبادته بالينابيع والمياه الجوفية التي تروي الأشجار ، ويشير باحث معاصر إلى أنّ آثار هذا الارتباط قد ظلت مستمرة حتى تركت أثرها في نظام الضرائب التي كانت تجبى على المزروعات في العصر الإسلامي ، إذ كانت قيمة الضريبة تختلف بين زراعة البعل (أي التي لا تحتاج إلى ريّ بالطرق المعتادة) وبين الزراعات الأخرى . وشبيه من هذا بئر زمزم التي كانت تعتبر مياهها مقدّسة في الفترة السابقة للإسلام على أساس ارتباطها بقصة إسماعيل عليه السلام وزوجته هاجر (٤٠) .

أما المرحلة التالية فهي عبادة الكواكب التي عرفتها بوجه خاصّ العربية

= في مملكة الانباط راجع Dussaud : ذاته ، صفحات ٤٤–٤٥ ، عن وجودهما في تدمر راجع ، ذاته : المرجع ذاته ، صفحات ١٠٢ – ١٠٣ وكذلك اللوحتين ٢١ و ٢٢ في الصفحتين ذاتهما ، المعبودة مناة في تدمر ، ذاته : ذات المرجع ، ص ٩٠ ، بعل عند الكنعانيين منذ فترة مبكرة ، ذاته : ص ١٩٥ .

(٤٠) عن اللات ، ابن الكلبي ص ١٦ . عن العزى ، ذاته ، صفحات ١٨ – ٢٠ و ٢٤ – ٢٧ . عن مناة ، ذاته ، ص ١٣ . عن زمزم ، ابن هشام : السيرة ، ٧١ . عن الزرع البعل ، Hitti : ص ٩٧ . قارن مع اللات ، المعبود « ذو شارة » الذي كان حجرا اسود كبيرا في البتراء والذي كان على راس المجمع الالهي النبطي ، راجع Hitti : ذاته ، ص ٧٢ ، كذلك Dussaud : ذاته ، صفحات ٣٠ و ٤٢ .

الجنوبية . وكان أهم هذه الكواكب هو الثالوث الذي يمثله القمر والشمس والزهراء . وكان الأول بين أركان هذا الثالوث هو القمر الذي عرفه السبئيون باسم « المقة » والمعينيون باسم « ودّ » (ربما تعني الحبّ أو المحبّ أو الأب) والحضرميون باسم « سنّ » والقتبانيون باسم « عمّ » (أي العمّ) . وكانت زوجته الإلهية هي الشمس التي أطلقت عليها تسمية « ذات حمم » عند السبئيين و « نكرح » عند المعينيين ، ثم ابنهما الإلهي الذي عرف عند المعينيين باسم « عثتر » وهو كوكب الزهراء (٤١) .

وعبادة هذا الثالوث من الكواكب تمثل في حقيقة الأمر تداخلاً بين مرحلتين من مراحل تطوّر المجتمع . فعبادة القمر والزهراء هي عبادات مجتمع رعي في المقام الأوّل ، فالانتقال في البادية . حيث يحدث أن تتشابه الاتجاهات وبخاصة في الليل ، يكون فيه ضوء القمر وسيلة لتوضيح المعالم والشيء ذاته بالنسبة لكوكب الزهراء الذي يمكن التعرّف على الوقت والاتجاه من خلاله . ولكن ربما كانت القيمة الأساسية هي أنّ القمر بالذات يرمز إلى فترة الليل حيث تهبط درجة الحرارة وتتكثف الأبخرة الموجودة في الجوّ لتتحوّل إلى ندًى يبعث الحياة في العشب الذي تتكوّن منه المراعي ، بينما ينظر البدويّ إلى الشمس على أنها عدوّه الأول حيث تحرق بشواظها الذي ينبعث مع أشعتها النارية هذا العشب . ومن ثمّ تدمر المقوم الأول للحياة الرعوية . هذا بينما أشعة الشمس بالنسبة للمجتمعات الزراعية هي التي تعطى النماء للزراعة وهي التي تنضج المحصول (٤٢) . وقد كانت العربية الجنوبية منطقة زراعية في المقام الأول . ولكنها عرفت شيئاً من الرعي كذلك في بعض مناطقها ، وأكثر من ذلك فإنّ الرعي يمثل مرحلة مبكرة تظهر عادة في المجتمعات قبل مرحلة الزراعة التي تمثل بالضرورة مرحلة أكثر استقراراً ومن ثم أكثر تطوراً .

---

(٤١) جواد علي : ذاته ، صفحات ١١٤ ــ ١١٥ .
(٤٢) Hitti : ذاته ، صفحات ٩٧ ــ ٩٨ .

ولكن مع ذلك فعبادة القمر قد ظلّت في مكان متفوّق على عبادة الشمس كما شهدنا في هذا التكوين الكوكبي الثلاثي . وهذا في حدّ ذاته يمثّل نوعاً من دأب العبادات القديمة في الاستمرار حتى بعد أن يكون المجتمع قد تطوّر إلى مرحلة جديدة ، ومن ثم يمثل نوعاً من التداخل الذي يجمع بين عبادات تنتمي إلى مراحل مختلفة من تطوّر المجتمع . والظاهرة ليست في الواقع غريبة على العالم القديم أو حتى على المنطقة التي وجدت شبه الجزيرة العربية في وسطها ، ففي إحدى أساطير وادي الرافدين نجد حواراً يشير إلى هذا الدأب في الاستمرار بين دوموزي **Dumuzi** (تمّوز) الذي كان إلهاً أو نصف إله للرعي وانكمدو **Enkimdu** الذي كان إلهاً أو نصف إله للزراعة . ورغم أنّ وادي الرافدين كان قد تحوّل في الفترة التي تنتمي إليها القصيدة التي تحتوي على هذه الأسطورة (وهي الفترة السومرية التي انتهت حوالى ٢٤٠٠ ق م) إلى مجتمع زراعي أساساً إلاّ أنّ الحوار الذي يوجد في القصيدة بين هذين الإلهين أو شبه الإلهين على خطب ودّ الإلهة إنانّا (عشتار) يشير إلى أنّ دوموزي الذي يمثل الرّعي هو الذي كسب الموقف (٤٣) .

والمرحلة الثالثة في هذا التطور الديني تمثّلها عبادة الشمس « شمش » التي تشير إلى مجتمع مستقرّ يقوم أساساً على الزراعة ، وهذه نجدها في مملكة الأنباط وفي تدمر (٤٤). وحقيقة إنّ كلاً من المنطقتين لم تكن تمثل مجتمعاً زراعياً صرفاً . فتدمر كانت واحة غنية بنخيلها ولكن المناطق المحيطة بها والتي كانت تعتبر امتداداً لها كانت مناطق صحراوية بدوية ، والشيء ذاته يقال عن مملكة الأنباط التي تعتبر شبه واحة توجد فيها الزراعة في وادي موسى حول مدينة

---

(٤٣) نص القصيدة في ANET ، صفحات ٤١ ــ ٤٢ .

(٤٤) عن عبادة الشمس في البتراء راجع Dussaud : ذاته ، صفحات ٩٣ و ١٠٣ ، راجع كذلك لوحة ٢١ في ، ذاته ص ١٠٢ . عن وجود عبادة الشمس في شمال الجزيرة العربية عموما ، ذاته ، ص ١٠٢ .

البتراء عاصمة المملكة ولكن توجد فيها كذلك مناطق صحراوية لا يجود فيها إلاّ الرعي . ولكن لنا أن نتصوّر هنا أن عدداً من العوامل أدى إلى انتصار عبادة الشمس ، عبادة المجتمع الزراعي المستقر أساساً ، رغم هذا التداخل الرعوي الزراعي . فالقسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية حيث توجد هاتان المنطقتان قريب من حضارتين زراعيتين مستقرتين ومتصل بهما وبما يستتبعه هذا من تأثيرات عن طريق طرق المواصلات التجارية، وهما حضارة مصر في الغرب حيث كان « رع » إله الشمس هو الإله الأول ، وحضارة وادي الرافدين في الشرق حيث تطوّر المجتمع إلى مجتمع زراعي كثيف في المراحل اللاحقة للفترة السومرية (وقد عاصرت المملكتان ، النبطية والتدمرية ، مرحلة من هذه المراحل اللاحقة) حين أصبح « شَمَش » إله الشمس أحد الآلهة الرئيسية في مجمع الآلهة في وادي الرافدين .

كذلك فإن المنطقتين تقعان في القسم الشمالي لشبه الجزيرة العربية حيث تخف درجة الحرارة بشكل ملحوظ عمّا هو موجود في وسط شبه الجزيرة أو في جنوبها ، ومن ثم لا تصبح الشمس عدوّاً يحرق الكلأ بالأشعة النارية . كذلك فإنّ المجتمع النبطي والمجتمع التدمري بثرائهما التجاري وما ترتب على ذلك من رخاء واستقرار عن طريق تحكمهما في مواقع حيوية على الخطوط التجارية البرّيّة في شبه الجزيرة ، كانا بالضرورة مجتمعين تنشط فيهما كافة أنواع المعاملات الخاصّة بالتجارة وما يتصل بها من صفقات واتفاقات وأسواق وحسابات وخدمات تجعل الحياة اليومية خلية نشاط في وضح النهار وتصبح فيها الشمس صديقاً للتاجر وليست عدواً ينتظر غروبه ليأتي الليل بنسيمه وقمره ونداه الذي يحيى العشب .

أما المرحلة الرابعة التي وجدت جنباً إلى جنب في بعض أقسام شبه الجزيرة مع واحدة أو الأخرى من هذه العبادات فتمثّلها عقائد التوحيد ، وهي

المسيحية واليهودية ثم الحنيفية التي كانت نوعاً من عقائد التوحيد التي تبتعد عن تفصيلات هاتين الديانتين لتتبع خطوطاً رئيسية بسيطة ظهرت في عقيدة إبراهيم عليه السلام . وهنا كذلك نجد أنّ هذه الأديان الثلاث تجاوزت مع مراحل أخرى من مراحل التطور الديني في عدد من أقسام شبه الجزيرة . ففي العربية الجنوبية تجاورت المسيحية واليهودية مع مرحلة عبادة الكواكب وأصبحت اليهودية في عهد « ذو نواس » (الربع الأول من القرن السادس الميلادي) عقيدة رسمية يدين بها الحاكم . وفي إمارة اللخميين تجاورت المسيحية عند الشعب مع الوثنية عند الأسرة الحاكمة التي لم تشذّ عنها إلاّ في حالة حاكم واحد هو النعمان الثالث أبي قابوس (حوالي ٥٨٠ – ٦٠٢ م) الذي اعتنق المسيحية . وفي الحجاز تجاورت العقائد التوحيدية الثلاثة مع المراحل الأولى للتطوّر الديني حيث عبادة الأحجار والأشجار وتقديس الكهوف والينابيع . وحيث عبادة الكواكب التي كانت قد تحوّلت إليها في صورة من الصور عبادات اللات والعزّى ومناة في الفترة الأخيرة قبل الإسلام ، وفي إمارة الغساسنة . كانت الأسرة الحاكمة والرعية قد تحوّلت إلى المسيحية بعد ظهور هذه الأسرة في عصر الامبراطورية البيزنطية .

أما الظاهرة الثانية التي نلاحظها على تطور العقائد الدينية في شبه الجزيرة في عصر ما قبل الإسلام . فهي تخص انتشار العقائد التي وجدت في المنطقة وفي هذا المجال نلمس عدداً من التأثيرات الدينية التي تعرّضت لها المنطقة والتي أتت من المناطق المجاورة لها . وهي ظاهرة لا تبدو غريبة في العصور القديمة التي عرفت هجرة العقائد الدينية أو التأثيرات والأساطير المرتبطة بها من منطقة إلى منطقة أخرى . (إذ كانت هجرة العقائد الدينية أو انتشار تأثيراتها تقابل انتقال العقائد السياسية وتأثيراتها في العصر الحاضر من منطقة إلى مناطق أخرى) كما حدث في انتقال الأساطير المتصلة بعشتار وتموز (إنانّا ودموزي) من وادي الرافدين لتظهر في أساطير برسيفوني وأدونيس في العقائد الدينية اليونانية .

وكما حدث في انتقال عبادة آمون المصرية إلى بلاد اليونان وانتقال عبادة إيزيس المصرية كذلك إلى العالم اليوناني الروماني .

وفي هذا المجال ، وفيما يخصّ شبه الجزيرة العربية ، نجد عدداً من الأمثلة . ففي دولة الأنباط نجد المعبود « ذو شاره » الذي رأينا أنّه كان يتمثل في حجر مكعب كبير أسود ، ينظر إليه في العصر المتأغرق (ما بعد الاسكندر الأكبر المقدوني) على أنه إله الكروم التي يرجح أن زراعتها قد وجدت طريقها إلى المنطقة من بلاد اليونان في تلك الفترة ، ومن ثم فقد أدخلت على عبادته خصائص من عبادة الإله (ديونيسوس Dionysos) أو باخوس Bacchos وهو أحد أسماء هذا الإله الأخير (الذي كان إلهاً للكروم عند اليونان . كذلك نجد في مملكة تدمر الإله « بل » ، وهو بابلي الأصل يأخذ مكانه على قمة المجمع الإلهي التدمري [٤٥] ، والإله « بعل شامين » (سيد السموات) الذي تشير تسميته ذاتها إلى خصائص الإله آنو الذي عرفته منطقة وادي الرافدين إلهاً للسماء .

أما اليهودية التي وجدت طريقها إلى بعض المناطق في العربية الشمالية مثل تيماء والحجاز وإلى العربية الجنوبية حيث انتشرت بشكل خاص في ظلّ المملكة الحميرية الثانية (بعد ٣٠٠ م) ووصل انتشارها إلى أقصاه في الفترة المبكرة من القرن السادس الميلادي كما مرّ بنا ، فقد يرجع انتشارها في شبه الجزيرة في نسبة منه إلى فرار عدد من العبرانيين إلى القسم الشمالي من شبه الجزيرة بوجه خاصّ على أثر تدمير الوالي الروماني بيتوس لأورشليم (القدس)

---

(٤٥) عن « ذو شارة » وديونيسوس : انظر ، Herodotus : III, 8 (ويشير المؤرخ الى ذو شارة تحت اسم Orotalt)وتقابل«أعاره»وهو الاسم الذي عرف به قبل مجيء الانباط . راجع المطابقة بين التسمية المبكرة وتسمية هوميروس والتسمية النبطية في Dussaud : ذاته ، صفحات ٣٠ ، ٤٢ ، ٥٦ . عن الاصل البابلي للاله بل التدمري ، Dussaud : ذاته ، صفحات ٩٣ ــ ٩٤ .

في ٧٠ م . ولكن مع ذلك فهناك دليلان يشيران إلى أن هذا الانتشار لم يكن يشكل هجرة عبرانية واسعة إلى المنطقة بقدر ما كان يشكل تأثيراً دينياً يهودياً عرف طريقه إليها بطريقة ما رغم الطبيعة العنصرية المتقوقعة المعروفة عن هذه الديانة : أحدهما هي أنّ أغلب الأسماء التي وصلت إلينا عن يهود شبه الجزيرة العربية ليست أسماء عبرانية ، وإنما أسماء عربية أو آرامية لأشخاص يبدو أنهم اتخذوا اليهودية ديناً لهم لسبب أو لآخر [٤٦] .

والدليل الآخر هو أن الشاعر الوحيد من بين عدد من الشعراء اليهود الذين تحدث الكتاب العرب عن وجودهم في شبه الجزيرة العربية، والذي ترك لنا قدراً من الشعر يصلح أن يكون ديواناً ، وهو السموأل بن عادياء الذي يبدو أنّه كان أحد أثرياء تيماء ، لا نجد في شعره ما يجعله يختلف في تصوّراته أو منطلقات هذه التصرفات عن تصوّرات العرب الوثنيين ومنطلقاتها [٤٧] . الأمر الذي يجعلنا نشكّ في أنّه كان عبرانياً ، بقدر ما يوحي بأنه كان عربياً اتخذ الديانة اليهودية في عمومياتها التي كانت تهمّه (وربما فعل ذلك هو وغيره) حين وجد أن قيم الحياة الوثنية الشائعة في شبه الجزيرة لم تعد تغطّي القيم الاجتماعية أو الروحية التي كان يحسّ بحاجته إليها .

أما عن اليهودية في اليمن بالذات فأرجح أنها انتشرت هناك للسبب نفسه إلى جانب سبب آخر هو ما وصل إليه رجال الدين في العربية الجنوبية من سطوة تحولوا معها إلى طبقة لها امتيازاتها الواسعة التي كانت تزحف على سلطات الملك ذاته في بعض الأحيان كما رأينا ، على سبيل المثال ، في حالة المملكة السبئية الثانية حين انتزع رجال الدين الصلاحيات الدينية من سلطات الملك . وقد كانت هذه السطوة التي تمتع بها رجال الدين تساند الطبقة الأرستقراطية

---

(٤٦) Hitti : ذاته ، ص ٦١ .
(٤٧) ذاته ، المرجع ذاته ، ص ١٠٧ .

من محتكري امتلاك غابات الطيوب والتجارة في نتاجها [48] . وأمام التقسيم الطبقي الحادّ الذي وجد في المجتمع كان من السهل أن ينتقل قسم من المجتمع إلى عقيدة دينية جديدة يلتف حولها في دفاع طبقي عن نفسه .

أما المسيحية فقد دخلت تأثيراتها من خارج شبه الجزيرة كذلك ، ومن المرجح أنها نجحت في الانتشار في العربية الجنوبية للسبب ذاته الذي رأيناه في انتشار اليهودية . وقد بدأت المسيحية في الواقع تتسرّب إلى العربية الجنوبية في فترة مبكرة عن طريق بعض رجال الدين المسيحيين الذين فرّوا أمام الاضطهادات الدينية في سورية في فترات لا نعرف تحديدها . ولكن أول بعثة دينية مسيحية نسمع عنها إلى العربية الجنوبية أرسلها الأمبراطور البيزنطي قسطنطين في ٣٥٦ م تحت قيادة ثيوفيلوس إندوس **Theophilus Indus** لأسباب سياسية تتعلّق بمحاولة مدّ النفوذ البيزنطي إلى اليمن في فترة اشتد فيها الصراع البيزنطي الفارسي حول السيطرة على منطقة الشرق الأوسط وتخومه . أما عن المسيحية عند الغساسنة فقد جاءت نتيجة تفاعل بين تأثيرات خارجية ومعطيات محلية . فقد كانت إمارة الغساسنة إمارة تابعة للدولة البيزنطية في فترة كانت هذه الدولة خلالها تعتبر نفسها مسئولة عن المسيحية وانتشارها والمسيحيين في العالم الشرقي . ومن هنا انتشرت العقيدة المسيحية بين الغساسنة . ولكن الطابع المحلّي السوريّ الذي يتناسب مع اتجاهات المنطقة المحيطة على أكثر من صعيد أعطاها المذهب المونوفيزي أو مذهب أصحاب الطبيعة الواحدة .

وشيء مماثل يمكن أن يقال عن انتشار المسيحية بين بعض طبقات الشعب في الحيرة (وليس على المستوى الحكومي إلاّ في مثال واحد هو النعمان الثالث) فقد انتشرت المسيحية هناك من مصدر سوري . فإذا وصلنا إلى

---

(٤٨) راجع الحديث عن الوضع السياسي والوضع الاجتماعي أعلاه في هذا الباب .

داخل الجزيرة وجدنا تسرّبات مسيحية إلى الحجاز من الحيرة ومن سورية ومن بيزنطة التي عرف التجار العرب طريقهم إليها بشكل أو بآخر . يشهد على ذلك بعض الأسماء العربية في المنطقة في الفترة السابقة للإسلام مثل داود وعيسى وسليمان (٤٩) . على أننا يجب ألاّ نبالغ في هذه التأثيرات المسيحية في المنطقة ، إذ يبدو أنّ انتشارها لم يكن واسعاً . وفي هذا المجال فنحن نجد بعض إشارات التوحيد في أسفار الجاهليين الذين ينتمون إلى هذه المنطقة مثل أشعار أمية بن أبي الصلت ونسمع عن اعتناق للمسيحية عند بعض الأفراد البارزين في المجتمع الحجازي مثل ورقة بن نوفل وربما كانوا كذلك ولكن من المحتمل كذلك أنّ يكونوا من هذه الفئة التي لم تعد الوثنية البدائية تغطّي تطلّعاتهم نحو قيم اجتماعية وروحية أكثر تطوّراً وتقدّماً فعمدوا إلى اعتناق خطوط توحيدية عامّة في عقيدة إبراهيم عليه السلام وسمّوا بالحنيفية (٥٠) .

ب ـ الظروف المحيطة بالحياة الدينية

فإذا تركنا العقائد الدينية ذاتها، سواء فيما يخصّ تطوّرها أو انتشارها وانتقلنا إلى الحديث عن الظروف التي أحاطت بممارستها نجد ظاهرتين واضحتين . وإحدى هاتين الظاهرتين هي المركز القويّ أو المؤثّر الذي تمتع به رجال الدين في أكثر من قسم من أقسام شبه الجزيرة كما نستطيع أن نستنتج بوضوح سواء من المخلفات الأثرية أو من الكتابات التي تركها لنا الكتاب الكلاسيكيون . وأحد المؤشرات إلى هذا الوضع هو العدد الكبير من المعابد الذي عرفته منطقة العربية الجنوبية على سبيل المثال. لقد كانت كثرة عدد المعابد في مدن هذه المنطقة وبذخها إحدى الظواهر التي شدّت انتباه الكتاب الكلاسيكيين

---

(٤٩) Hitti ذاته ، ص ١٠٦ .

(٥٠) الاشارة الى الحنيفية في القرآن الكريم ، سورة البقرة : ١٣٥ ، آل عمران : ٦٧ و ٩٥ ، النساء : ١٢٥ ، الانعام : ٧٩ و ١٦١ ، يونس : ١٠٥ ، النحل : ١٢٠ و ١٢٣ ، الروم : ٣٠ ، الحج : ٣١ ، البينة : ٥ .

أو التجار والجنود والبحارة اليونان والرومان الذين أخذ عنهم هؤلاء الكتاب معلوماتهم في بعض الأحيان .

وهنا نجد الكاتب الروماني بلينيوس يحدثنا عن عدد هائل من المعابد في مدن هذه المنطقة . فمدينة شبوه **Sabota** عاصمة حضرموت بها ٦٠ معبداً ، ومدينة تمنع **Thomna** عاصمة قتباد بها ٦٥ معبداً . ولم يكن الأمر قاصراً على هذا العدد الهائل من المعابد ، بل يبدو أن شيئاً غير قليل من البذخ والعناية كان ظاهراً في بناء هذه المعابد إذ كان هذا يصل في مستواه إلى مستوى ما يبذل في بناء القصور الملكية ذاتها كما نستنتج من حديث الجغرافي اليوناني سترابون الذي يتحدث عن مدن العربية الجنوبية التي « يزينها جمال المعابد والقصور الملكية » . ونحن نجد مصداقاً لهذا الكلام في آثار معبد المقة . إله القمر عند السبئيين التي كشفت عنها في أواسط هذا القرن البعثة المصرية برئاسة أحمد فخري ثم استكملت أعمال التنقيب البعثة الأميركية برئاسة وندل فيلبس [٥١] .

وشيء قريب من هذا نجده في مدينة تدمر التي كان مجمعها الإلهي يزيد على عشرين معبوداً . ولا بدّ أن عدداً كبيراً من المعابد التي بنيت على قدر كبير من البذخ كانت تزينها . إذ رغم ما أصابها من تدمير شامل على يد الجيش الروماني بقيادة الإمبراطور أورليانوس **Aurelianus** في ٢٧٣ م لا يزال مستوى البذخ المعماري الذي تميزت به مبانيها يطلّ علينا من بقاياها الأثرية .

---

(٥١) Strabo : XVI, 4 : 3, Plinius : HN, VI, 153 . عن معبد المقه راجع : Ahmad Fakhry : An Archaelogical Journey to Yemen (Cairo ١٩٥٢) راجع كذلك Wendell Phillips : Qataban and Sheba ، صفحات ٢٥١ وما بعدها .

كما لا يزال هناك عدد بين بقايا معابدها ومبانيها الدينية الأخرى مثل معبد « بل » و معبد « بعل شمين » والأبراج الجنائزية المضلعة) المربّعة) . وعدد من التوابيت التي وجدت في مغارة الجديدة . تزينها مناظر من النحت البارز تشهد بعظمة المستوى الفنّي وبالعناية الفائقة التي كانت تبذل في المجالالديني (٥٢).

ومثل هذه العناية التي بلغت مبلغ البذخ بالمعابد تشير دون شكّ إلى مدى القوة التي كان يتمتع بها رجال الدين في تلك المناطق وهي قوة يبدو أنها كانت موجودة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي . فعلى الصعيد الاقتصادي كان لرجال الدين حق معلوم من محصول اللبان ابتداء من جمعه ومروراً بتسويقه وانتهاء بنقله . وهنا يحدثنا الكاتب الروماني بلينيوس عن الالتزام الشديد بالمراسم الدينية التي كانت تصاحب جمع اللبان . كما يذكرنا أن أحمال هذه السلعة المجزية كان لا يسمح لها بأن توضع في سوق شبوه (عاصمةحضرموت)قبل أن يحصل رجال الدين منها على الحصّة المخصصة للإله . والشيء ذاته كان يحدث عندما تمرّ القوافل التجارية بهذه الأحمال في منطقة قتبان . فهنا كذلك كان لرجال الدين حصّة من الطيوب لا بدّ من الوفاء بها (٥٣) . ولنا أن نتصوّر مقدار الثروة التي كان يحصل عليها رجال الدين من « حقّهم » في هذه الطيوب إذا أدخلنا في اعتبارنا عاملين : أحدهما هو مستوى البذخ الذي كانت عليه المعابد التي رأينا كيف أنها كانت من نفس مستوى القصور الملكية . والآخر هو الأثمان الباهظة التي كانت تباع بها الطيوب في العصر القديم كما رأينا في مناسبة سابقة . وهكذا قد لا نبتعد كثيراً عن الصواب إذا قلنا أنّ طبقة رجال الدين كانت . إلى جانب ما تحرقه من هذه الطيوب

---

(٥٢) عن عدد الآلهة راجع Dussaud : ذاته : صفحات ٩٠ — ٩١ . عن الآثار راجع ، Kammerer : ذاته ، الجزء الثاني الخاص بالاطلس واللوحات، لوحات : ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ (١) ، ١٢٠ (٢) .

(٥٣) Plinius : HN, XII, 54, 63-4

بالضرورة في المعابد . كانت تحصل على دخل كبير من التجارة التي كان لا بدّ أن تمارسها في هذا المجال .

ولعلّ هذه القوة الاقتصادية هي التي انعكست على الصعيد السياسي في واحدة على الأقلّ من هذه الممالك العربية الجنوبية . وهي مملكة سبأ ، التي رأينا رجال الدين فيها ينتزعون الصلاحيات الدينية من يد الملوك بعد أقل من قرن ونصف قرن من قيام هذه المملكة . لينفردوا بها (منذ حوالي ٦١٠ ق.م) نحو خمسة قرون كاملة [٥٤] . وقد كانت السلطة المترتبة على الصلاحيات الدينية في العصر القديم هي إحدى السلطات الرئيسية في نظم الحكم في المجتمعات المستقرة .

والمركز الذي كان يتمتع به رجال الدين في ممالك العربية الجنوبية . سواء من الناحية الاقتصادية أو من الناحية السياسية . نجد شبيهاً له في العربية الشمالية في مملكة تدمر . فهنا كذلك نجد رجال الدين على قدر كبير من القوة والنفوذ في هاتين الناحيتين . وعلى سبيل المثال فالكهنة الذين كانوا يقومون على معبد الإله بل (كبير الآلهة) وتابعيه الإله يرحبول (إله الشمس في أحد مظاهره) والإله عجلبول (إله القمر) كانوا لا يسمحون لأحد أن يدخل ضمن صفوفهم إلاّ إذا كان ينتمي إلى الارستقراطية التجارية في تدمر . كذلك كانت موافقتهم لازمة لتعيين الموظفين الكبار في الدولة . وهكذا فإنّ النصوص التي تشير إلى أن الإله يرحبول قد سمّى أحد الأشخاص ليشغل إحدى هذه الوظائف معناها في الحقيقة أنّ مجموعة هؤلاء الكهنة قد اختاروا هذا الشخص للوظيفة المسمّاة [٥٥] .

أما الظاهرة الأخرى أو الظرف الآخر الذي اتصل بالحياة الدينية في شبه

---

(٥٤) راجع الوضع السياسي اعلاه في هذا الباب .
(٥٥) (١٩٤١) Syrig : Syria, XXII ـ صفحات ٢٦٨ وما بعدها .

الجزيرة العربية في العصور السابقة للإسلام فهو ظاهرة الارتباط الشديد بين التغييرات الاجتماعية والسياسية من جانب والتغييرات الدينية من جانب آخر ، وقد ظهرت شدة هذا الارتباط في كثير من الأحيان في التصدّي العنيف الذي كانت تلقاه أية محاولة للتغيير الديني . وليس هذا غريباً في الواقع في مجتمعات العصر القديم التي كان الدين يقوم فيها بدور أساسي كقاعدة تقوم عليها الأوضاع الاجتماعية والسياسية (سواء في ذلك النظم السياسية أو حتى العلاقات السياسية الخارجية) . ومن هنا فقد كانت أية محاولة للتغيير في العقيدة الدينية معناها في الحقيقة محاولة للتغيير في واقع العلاقات الاجتماعية وما تقوم عليه من علاقات الإنتاج وما تؤدّي إليه من نظم سياسية تبلور هذه العلاقات وتعطيها شرعيتها اللازمة لاستقرارها . كما كانت تؤثّر كذلك في العلاقات السياسية الخارجية في مجتمع دولي يشتد فيه التوتر والصراع بين القوى الكبرى المتصارعة التي كانت بدورها ترى في الدين عامل اقتراب وتوافق أو عامل ابتعاد وتصادم حسب الظرف المطروح .

وقد مرّ بنا في هذا الصدد التصدّي العنيف الذي تعرّض له أصحاب الدعوات الدينية في أقوام عاد وثمود ومدين وسبأ. وقد رأينا في هذه الدعوات أن كلاً من هذه الدعوات كانت تستقطب طبقة من المجتمع الذي ظهرت فيه هي طبقة المستضعفين على حدّ وصف القرآن الكريم لها في مواجهة طبقة أخرى من المتسلّطين الذين كانوا يملكون موارد الثروة في المجتمع . كما رأينا الجدل العنيف الذي كان يقوم بين الطرفين حول الدعوة الدينية التي كان يبشر بها هؤلاء الرسل والأنبياء والتي يبدو واضحاً من سياق وصفها ووصف الجدل الذي أثارته بين طبقتي المجتمع أنها كانت تستهدف تعديل النظام الاجتماعي وإحداث تغيير في توزيع موارد الثروة أو النظم التي كانت تحكم الانتفاع بهذه الموارد بصورة أو بأخرى (٥٦).

---

(٥٦) راجع الباب السادس من هذه الدراسة ، صفحات ١٧٢ — ١٧٣ وحاشية ١٧ في الباب ذاته .

ويبدو واضحاً أنّ هذه الأوضاع الاجتماعية كانت متداخلة إلى حدّ كبير مع الأوضاع الدينية السائدة ومستندة إليها ومتساندة معها لإبقا الأمور على ما كانت عليه بحيث انتهت الدعوات الدينية المذكورة إلى الإخفاق. والصراع ذاته نجده في حالة الدعوة الإسلامية حيث نجد رسولها محمداً (ص) وأتباعه يتعرّضون لشيء مماثل من الجدل العنيف ومن التضييق والاضطهاد الذي وصل إلى محاولة التصفية الجسدية لصاحب الدعوة. ولا شك أن جانباً من نجاح الدعوة الإسلامية - يرجع إلى مقابلة الرسول (ص) للخطط بخطط مثلها وتصديه للقوة بقوة مثلها. ومن بين ذلك هجرته هو وأتباته من مكة إلى يثرب (المدينة المنورة) حيث وجد أنصاراً يتصدّون معه لقريش. ومنها تصدّيه هو وأتباعه لقريش في عدد من الغزوات عند المواقع التي تقطع على القرشيين طرقهم التجارية ومنها نجاحه في مهادنتهم عند اللزوم في صلح الحديبية ومنها فتحه لمكّة التي كانت معقد الخطوط التجارية بين وادي الرافدين من جهة وبين سورية واليمن من جهة أخرى. ولكن بقيت فكرة التصدّي للدعوة الدينية التي كانت تستهدف تغيير النظم الداخلية في المجتمع هي الفكرة المسيطرة على مسار الأمور طوال وقت الدعوة وحتى نجاحها (وقد كانت حرب الردّة التي نشبت بعد موت الرسول (ص) هي دون شك انتفاضة أخيرة للتصدّي للدعوة الدينية الجديدة حتى بعد نجاحها).

ونحن نجد أمثلة أخرى لهذا العنف الذي واكب التغيرات الدينية في شبه الجزيرة العربية في الفترة السابقة لظهور الإسلام. ففي ٥٢٣ م نجد « ذونواس » الحاكم الحميري اليهودي يتصدّى للمسيحيين في نجران ويقدم على إحراق عدد كبير منهم في حادثة الأخدود التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. لسبب ربما كان مرتبطاً بالسياسة الوطنية ضدّ التدخل الحبشي في المنطقة ومن ثم اعتُبر ذونواس المسيحيين من نفس عقيدة الأحباش أو خشي أن ينحازوا إليهم. وبعد ذلك بحوالي نصف قرن، في ٥٧٠ أو ٥٧١ م نجد محاولة من الحبشة لهدم

الكعبة في عام الفيل المشهور . على أساس أن الكعبة كانت تمثل المركز الأول للعبادات الوثنية في شبه الجزيرة ومن ثمّ فهناك خطر من جانبها على انتشار أي نفوذ مسيحي يمهّد الطريق لنفوذ حبشي في الحجاز بكلّ ما يعنيه هذا من سيطرة حبشية على طرق التجارة التي كانت مكة هي معقدها كما مرّ بنا (٥٧) .

والشيء ذاته نجده في تفاصيل مختلفة في علاقات الإمبراطورية البيزنطية بإمارة الغساسنة والإمبراطورية الساسانية (الفارسية) باللخميين (المناذرة) . ففي حالة الغساسنة نجد أن حكام هذه الإمارة يتبنون المذهب المسيحي المونوفيزي (مذهب الطبيعة الواحدة) وهو مذهب مخالف للمذهب السائد في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية. وقد قبل الأباطرة البيزنطيون هذا الوضع على شيء من المضض تمشياً مع قبول الأمر الواقع طالما ظلّ انتفاعهم مستمراً بولاء الغساسنة في مجال التصدّي لأية تحرشات من جانب الإمبراطورية الفارسية أو من جانب أمراء الحيرة الداخلية في نفوذها . ولكن حين بدأ حماس الغساسنة لتدعيم مذهبهم الديني المسيحي يظهر بشكل متواتر وملحوظ منذ عهد الحارث (الثاني) بن جبلة (حوالي ٥٢٩ ـ ٥٦٩م) بدأت الشكوك تساور البيزنطيين . وهكذا أمر الإمبراطور البيزنطي تيبريوس الثاني **Tiberius II** بالقبض على المنذر بن الحارث الذي خلفه على الإمارة في أثناء افتتاحه لكنيسة في « حوارين » بين دمشق وتدمر حوالي ٥٨٠ م . وذلك رغم ما قام به هذا الأمير الغسّاني من تصدّ للأمراء اللخميين وصل إلى حدّ إحراقهم للحيرة . عاصمتهم . قبل ذلك بقليل في السنة ذاتها . وقد اقتيد المنذر إلى القسطنطينية . ثم سجن في صقلية .

أما في حالة اللخميين من أمراء الحيرة . فنحن نجدهم لا يعتنقون المسيحية ويبقون على وثنيتهم رغم انتشار المسيحية في مجتمع الحيرة ورغم أن إحدى

---

(٥٧) يجد القارىء عرضا موجزا لهذه الاحداث الموجودة في الفقرات التالية في . Hitti . ذاته ، صفحات ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٩ ـ ٨٠ ، ٨٣ .

الأميرات وهي هند (أم عمرو بن هند) كانت قد اعتنقت هذه العقيدة . وكان الاستثناء الوحيد بين هؤلاء الحكام هو النعمان الثالث أبو قابوس (حوالي ٥٨٠ - ٦٠٢ م) . ومن المرجح أن عدم اقدام هؤلاء الأمراء على اعتناق المسيحية هو عدم إثارة شكوك الإمبراطورية الفارسية ضدّهم حيث أن المسيحية هي العقيدة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية وهي العدو اللدود للفرس . وحتّى حين اعتنق النعمان الثالث هذه العقيدة نجد أنه اعتنقها على المذهب النسطوري المونوفيزي (الذي لا تدين به الإمبراطورية البيزنطية) ومن ثمّ يصبح أقرب المذاهب إلى القبول لدى حكام الإمبراطورية الفارسية .

البَابُ العَاشِر

العلاقات الخارجية

١ ـ المرحلة الأولى : ظهور الهوية العربية :

أ ـ بدايات غير محدّدة

قبل القرن العاشر ق . م . لا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن أية علاقات خارجية يظهر فيها العرب كمجموعة بشرية لهم هويّة محدّدة . سواء تحت اسمهم العام كعرب ، أو تحت اسم أو آخر ينتمي لمنطقة أو أخرى من المناطق التي تنقسم إليها شبه الجزيرة العربية . وكلّ ما نعرفه في هذا الصدد إما إشارات قد تشمل العرب وغيرهم . أو إشارات قد تكون إلى العرب ولكن تحت تسميات أخرى وفي مناطق ربما نزحوا إليها من موطنهم في شبه الجزيرة . أو ذكر لأقوام من شبه الجزيرة كانت لهم تحركات في مجال هذه العلاقات ولكنهم إما يدخلون تحت الصفة السامية العامة . وإمّا يلتفّون حول هوية جماعية يكاد يقتصر نصيبها من الصفة العربية على انتمائها للمنطقة التي أصبحت فيما بعد تسمّى باسم بلاد العرب .

وعلى سبيل المثال فإنّ النقوش المصرية القديمة طوال عهد الفراعنة ابتداء من الألف الثالثة ق . م . وحتّى الفتح الفارسي لمصر في أواسط الالف الأولى ق.م

لا ترد فيها لفظة « ع ر ب » أو « أرب » أو أية لفظة أخرى قريبة من هذا النطق . رغم وفرة هذه النقوش وغزارتها . ورغم كثرة أسماء الشعوب التي وردت ضمن هذه النقوش ممن احتكت بهم مصر في صورة أو أخرى في المراحل العديدة التي مر بها تاريخها في هذه الفترة . ومع ذلك فقد عرفت مصر في عهد الفراعنة طريقها إلى كلّ منطقة الهلال الخصيب التي تشكل التخوم الشمالية لشبه الجزيرة العربية في صور متعددة من العلاقات التجارية أو السياسية أو العسكرية . وكلّ ما نحظى به من إشارات في النقوش المصرية فيما يخص الموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه هو تسميات عامّة مثل تسمية « عامو » أي الآسيويين أو « تاعاموا » أي أرض الآسيويين التي كانت تطلق على سكان أو مناطق الصحراء الشرقية وسورية وفلسطين والقسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية ، ومثل « تا ـ نثر » التي كانت تشير إلى الأراضي الواقعة إلى شرقي وادي النيل بوجه عام والتي كان مدلولها يتسع باتساع معرفة المصريين بالمناطق التي تشملها هذه الأراضي ونشاطهم فيها حتى شمل في عصر الدولة الحديثة المناطق الممتدة شرقي مصر عبر المنطقة السورية حتى شمال العراق ومن ثم كان من الممكن أن يضم الامتدادات لشبه الجزيرة العربية (١) .

أما الألفاظ المحددة التي وردت في هذه النقوش والتي قد تشير إلى بعض المجموعات العربية ، فهي الأخرى لا تعطينا صورة مباشرة في هذا المجال فلفظة « خبسيتو » التي ترد ضمن نقوش الدير البحري (في صعيد مصر) أثناء وصف البعثة التجارية المصرية التي وصلت في عهد الملكة حتشبسوت (أواسط الألف الثانية ق . م) إلى بلاد بونت (الصومال والحبشة حالياً) يرى بعض

---

(١) وصلت الحدود المصرية ، عبر منطقة الهلال الخصيب ، الى نهر الفرات في عهد كل من الفراعنة تحتمس الاول وتحتمس الثالث (الذي عبر الفرات) وامنحتب الثاني،راجع J. H. Breasted : A History of Egypt صفحات ٢١٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٠ . عن تسميات تاعامو وتا ـ نثر انظر ، عبد المنعم عبد الحليم السيد : الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر ، صفحات ١ ـ ٢ .

الباحثين أنها نطق مصري لكلمة حبشات . وهي اسم قبائل ذات أصل عربي جنوبي كانت تسكن منطقة مهرة في جنوبي بلاد العرب وهاجرت إلى الساحل الإفريقي للبحر الأحمر واستقرت في المنطقة وأعطتها اسمها (الحبشة) . ولفظة « جنبتيو » التي تصف جماعة جاءوا إلى مصر في عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق . م) تحمل إليه هدايا من الصمغ العطري ومن البخور . يرجّح أحد الباحثين أنها تشير إلى القتبانيين . أحد الأقوام التي كانت تقطن العربية الجنوبية في العصور القديمة.أما قبائل الهكسوس التي غزت القسم الشمالي من المنطقة السورية حوالى ١٧٠٠ ق . م . واستقرت فيه قرناً كاملاً قبل أن يطردها فراعنة الأسرة الثانية عشرة . فلم يستقر الباحثون حتى الآن على هويّتهم . فقد يكونون أحد شعوب المنطقة السورية أو خليطاً من هذه الشعوب قد يكون بينها عرب أو لا يكونون . وربما ضمت إلى جانبها مجموعات من شعوب أخرى من الشمال كانت تطاردها أمامها أثناء إحدى تحركات الشعوب التي عرفت المنطقة عدداً منها في العصور القديمة [٢] .

والشيء ذاته نجده فيما يخصّ وادي الرافدين . فهنا نجد القبائل الآمورية تتسرّب من منطقة الهلال الخصيب شبه الصحراوية . وربما من المنطقة السورية كذلك . لتقيم لها مواقع حصينة في مدينة بابل وعدد من المدن الاخرى المجاورة في أواخر الألف الثالثة ق . م .ثمسيطروا على كلّ وادي الرافدين في النصف الأول من القرن الثامن عشر ق . م.كذلك نجد الملك الآشوري تجلات بيليسر الأول (١١١٤ — ١٠٧٦ ق . م) يجتاح مدينة تدمر (التي

---

(٢) عن العلاقة بين اسم خبسيتو وحبشات انظر ، عبد المنعم عبدالحليم السيد : ذاته ، ص ٤ وحاشيتي ٩ — ١٠ . عن اسم جنبتيو ، انظر ، A. A. Saleh : The GNBTYW of Thutmosis Annals and the South Arabian GEB (B) ANITAE of the Classical Writers B.I.F.A.W., LXXXII, ١٩٧٢) ص ٢٥٢ ، مقتبس في عبد المنعم عبد الحليم السيد ذاته : صفحات ٤ — ٥ عن الهكسوس راجع . Breasted : ذاته ، صفحات ١٧٩وما بعدها .

أصبحت مقر المملكة أو إمارة عربية في عصر لاحق) . ولكن هذه المدينة كانت في عصر هذا الملك مدينة آمورية « تقع في بلاد آمورو » كما يشير النقش الذي وردت فيه . وهكذا نجد أنفسنا هنا كذلك لا نستطيع أن نتبين هويّة العرب كمجموعة بشرية لها شخصيتها الجماعية المحدّدة . فالآموريون لا نستطيع أن نضفي عليهم أكثر من هويّة سامية ، فهم إحدى المجموعات التي تنطبق عليها هذه التسمية . وقد يكونون شديدي القرب من المجموعة العربية . ولكنهم ليسوا هذه المجموعة ذاتها (٣) .

ولكن القرن العاشر ق . م . والقرون التي تليه بدأت تشهد تطوّراً محسوساً في هذا الصدد . فمنذ ذلك القرن تظهر الهوية المحدّدة للعرب بشكل واضح في العلاقات مع شعوب المنطقة المجاورة لشبه الجزيرة . مثل العبرانيين والآشوريين والبابليين (الدولة البابلية الحديثة) والفرس . وحقيقة إنّ هذه الهوية قد لا تظهر كتسمية مباشرة للعرب . وإنما تظهر بشكل استنتاجي انتساباً إلى مكان أو آخر أو قوم أو آخر من الأماكن والأقوام التي وجدت في شبه الجزيرة العربية . مثل سبأ والسبئيين (سواء أكان المقصود هو سبأ الموجودة في جنوبي شبه الجزيرة أو إحدى مستوطناتها في الشمال التي اتخذت الاسم نفسه) ومثل الدادانيين (أهل منطقة دادان — العلا الحالية) . كذلك فإنّ الحالات التي تتخذ فيها هذه الهوية صورة تسمية مباشرة للعرب أو بلاد العرب . فإنّ هذه التسمية لا تعني لغوياً أكثر من البدو أو البادية التي يسكنها البدو . كما هو الحال مثلاً في تسمية « عربيم » أو « عربئيم » بمعنى عرب . أو مسّا ها عرب » بمعنى بلاد العرب ، في أسفار التوراة والتلمود عند العبرانيين . وكما هو الحال في تسمية « أريبي » أو « أرابي » أو ألفاظ أخرى مقاربة لها في النطق بمعنى عرب أو « ماتوا أريبي » بمعنى بلاد العرب عند الآشوريين والبابليين .

---

(٣) عن الآموريين في العراق راجع ، G. Roux : Ancient Irak, صفحات ١٦٤ وما بعدها . نص تجلات بيليسر عن تدمر في ANET ص٢٧٥ .

أو تسمية « عربانه » أو « أربابه » في النصوص الفارسية . وأخيراً فإنّ التسمية المباشرة للعرب أو لبلاد العرب كانت تشير في كل الحالات . عند هذه الشعوب . إلى قبائل القسم الشمالي من شبه جزيرة العرب . ولكن مع كلّ هذه الملاحظات . فقد كانت كلّ هذه النصوص تدل على مجموعة بشرية أصبحت لها هوية أو شخصية جماعية محدّدة في مجال الاحتكاكات أو العلاقات الخارجية مع الشعوب المذكورة (٤) .

ب ــ العلاقات مع العبرانيين

ونحن نجد هذه الصورة المحدّدة منذ القرن العاشر في أول علاقات نسمع عنها بين العرب وجيرانهم . وهي العلاقات مع العبرانيين . لقد وجدت قبل ذلك . في عهد الملك داود . إشارات في التوراة إلى معاملات مع العرب . ولكنها كانت معاملات فردية لا نسمع فيها إلاّ عن أفراد مثل « أوبيل الإسماعيلي » أي المنتمي إلى بني إسماعيل . أو « يازيز الهجري » (نسبة إلى الهِجْر أو الحِجْر في مدائن صالح) (٥) . أمّا في القرن العاشر فنجد المعاملات العربية تتحوّل عن هذه الصورة الفردية لتصبح معاملات منطقة كاملة . وفي هذا النطاق تدور العلاقة بين ملكة سبأ والملك سليمان (٩٧٠ ــ ٩٣٧ ق . م) ملك العبرانيين . إنّ النصوص التي تشير إلى هذه العلاقة نلمس منها في وضوح

---

(٤) عن سبأ الجنوبية ، التوراة : نبوءة يوئيل ، اصحاح ٣ : ٨ . عن سبأ الشمالية النص في ANET ص. ٢٨٣ . عن الدادانيين ، التوراة : نبوءة اشعيا ، اصحاح ٢١ : ١٣ . العرب بمعنى البدو عند العبرانيين، نبوءة اشعيا ، اصحاح ١٣ : ٢٠ ، كذلك نبوءة ارميا ، اصحاح ٢٥ : ٢٤ . عن تسميات العرب في وادي الرافدين راجع : Erich Ebeling : Reallexikon der Assyriologie (١٩٢٨) مادة Araber . عن اشارة هذه التسميات الى البداوة راجع : Adolf Grohmann : Geschichte des Alten Orients, Arabien (Muenchen ١٩٦٣) ص ٣ وحاشية ١ ، كذلك ص ٢١ وحاشية ٢ . ترجمة النص الفارسي في ANET : ٣١٦ ، والتعليق عليه في E. Herzfeld : Altpersische Inschriften (Berlin ١٩٣٨) نص رقم ١٤ صفحات ٢٧ وما بعدها .

(٥) التوراة : سفر اخبار الايام الاول ، اصحاح ٢٧ : ٣٠ .

محاولة من ملكة السبئيين لإقامة علاقات وديّة مع هذا الملك تجاوزاً أو تخطّياً لعلاقات يبدو من هذه النصوص أنها كانت على شيء من التوتّر أو التأزّم ومن ثمّ فهناك مصالح متعارضة لكلا الطرفين ، وتحاول ملكة سبأ أن تخفف من حدّة هذا التعارض الذي يضرّ بمصلحة مملكتها . وقد رأينا في مناسبة سابقة أنّ مثل هذا التعارض لا يمكن أن يكون مفهوماً إذا كانت سبأ المقصودة هي مملكة سبأ الموجودة في القسم الجنوبي لشبه الجزيرة العربية . إذ في مثل هذه الحال لا توجد حدود مشتركة أو مصالح مهدّدة أو ضغوط سياسية أو غيرها ، وإنما تصبح كل هذه الأمور أو بعضها واردة إذا كان بين المملكتين نوع من التجاور أو الاقتراب يجعل توتّر العلاقات لسبب أو لآخر أمراً وارداً . ونحن نجد في الواقع مدينة في الشمال تحمل اسم سبأ كذلك ويرد ذكرها في النصوص الآشورية على أنها واقعة في اقصى الغرب بالنسبة للآشوريين . أي على حدود المنطقة السورية (بالمفهوم الجغرافي لهذه التسمية) ومن ثم تكون على حدود أو قرب حدود مملكة العبرانيين التي كان يتربع سليمان على عرشها . وقد قامت هذه المدينة ونمت حول واحدة أو أكثر من المستوطنات التي أقامها في شمالي شبه الجزيرة التجار السبئيون الجنوبيون شأنهم في ذلك شأن المعينيين . على سبيل المثال ، الذين فعلوا شيئاً مماثلاً في الشمال (٦) .

سبأ المذكورة إذن ، هي سبأ الشمالية والقضية المطروحة هي قضية تعارض بين المصالح . فإذا أدخلنا في اعتبارنا أن سبأ مدينة تجارية تحصل على موردها الاقتصادي الرئيسي من تحكمها في أحد المواقع التي يمرّ بها الخط التجاري الذي تمرّ به القوافل المحملة بالطيوب وغيرها من السلع الآتية من جنوبي شبه الجزيرة ومتجهة إلى موانىء البحر المتوسط في الشمال ، أصبح من الطبيعي أن

---

(٦) العلاقة بين سبأ وسليمان في ، القرآن الكريم : سورة النمل : ٢٢ـ٢٣ و ٢٨ ــ ٤٤ . التوراة : سفر اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٩ : ١ وما بعدها عن سبأ الشمالية نص في ANET ص ٢٣٨ .

نستنتج أن نقطة التعارض بين مصالح المملكتين المتجاورتين هي نقطة مصالح تجارية مهدّدة بطريقة أو بأخرى . ونحن نجد في الواقع في سياسة الملك سليمان ما يؤدي إلى وجود هذا التعارض . لقد أراد هذا الملك أن يتبع سياسة اقتصادية يحول بها مملكته من الزراعة إلى الصناعة بما يستتبعه هذا من مواد أولية يحصل عليها من أسواق خارجية . كما أراد أن يدعم هذا الاتجاه الاقتصادي بانتهاج نشاط تجاري بحري لا يجعله تحت رحمة الخط البري التجاري القادم من الجنوب وإنما يترك له حرية الحركة المباشرة مع الأسواق التي يريد أن يتاجر معها . ونحن نجد في نصوص التوراة إشارة واضحة إلى هذا الاتجاه حين نعرف أنه اتخذ ميناء عصيون جابر (بجوار ميناء أيله)على رأس خليج العقبة مرفأ أساسيا يبتدىء منه أو ينتهي إليه هذا النشاط التجاري . وحين نجده يلجأ إلى الملك حيرام . ملك صور . بالعمال والبحارة لبناء أسطول تجاري ولتسيير هذا الأسطول التجاري في البحر الأحمر . وحين نعرف كذلك . أنه وصل بنشاطه التجاري البحري هذا إلى « أوفير » التي يرجح أنها كانت ميناء على الشواطىء الشرقية لشبه الجزيرة العربية . إن لم يكن . حسب رأي بعض الباحثين . إحدى الموانىء الهندية . بل أكثر من هذا نجد هذا الملك يحاول إغراء حيرام ملك صور باستخدام هذا الخط التجاري البحري الجديد بدلاً من طريق مصر للاتجار مع بلاد العرب . في محاولة يبدو واضحاً أنها كانت تستهدف تنشيط هذه الطريق البحرية التجارية على حساب أية طرق أخرى في المنطقة (٧) .

ومثل هذا الاتجاه من جانب سليمان كان كفيلاً أن يؤثر تأثيراً ضاراً على موقع تجاري مثل الموقع الذي تحتله مملكة سبأ الشمالية . ومن هنا تثور مخاوف ملكة السبئيين التي كان هذا الموقع التجاري هو المورد الاقتصادي

(٧) عن سياسة سليمان البحرية انظر التوراة : سفر الملوك الثالث ، اصحاح ٩ : ٢٦ — ٢٧ . عن محاولة اغرائه لحيرام بترك طريق مصر راجع : نجيب ميخائيل ابراهيم : مصر والشرق الادنى القديم ، ج ٣ ، سورية ، ص ٢٣١ عن اوفير ، التوراة : اخبار الايام الثاني ، اصحاح ٩ : ١٠ ، راجع مناقشة مكانها في الباب الثامن الخاص بالموارد الاقتصادية في هذه الدراسة.

الأساسي ، إن لم يكن الوحيد بالنسبة لمملكتها . ونفهم موقف التوتّر الذي ثار بينها وبين سليمان من جهة ، كما نفهم سبب الهديّة السخيّة التي تظهر بين محتوياتها الطيوب والذهب والفضة والأحجار الكريمة . كمحاولة لإقامة علاقات يمكن أن نصفها بلغة العصر الحديث أنها علاقات حسن جوار تصل من خلالها إلى اتفاق يحفظ لها مصالحها التجارية . وهكذا نجد في هذا الاتفاق أول مثال يصل إلى أيدينا حتى الآن لعلاقات خارجية عربية لا تتمّ في صورة معاملات فردية . وإنما تم على مستوى مجموعة عربية منظمة في هيئة دولة لها مصالح محدّدة وهي تسعى بطريقة أو بأخرى لمعالجة علاقاتها بجيرانها لحماية هذه المصالح .

ومنذ ذلك الوقت نسمع عن علاقات خارجية عربية مع العبرانيين يقوم بها العرب كمجموعة ذات هوية واضحة تتحرك انطلاقاً من مصالح اقتصادية محددة وترتّب عليها خطاً سياسياً محدّداً . وقد مرّ بنا في مناسبة سابقة تحالف قام بين العرب والفلسطينيين ضدّ مملكة يهوذا (إحدى المملكتين التي انقسمت إليهما مملكة سليمان) في عهد الملك يهورام (٨٥١ — ٨٤٣ ق . م) انتهى باجتياح هذه المملكة وإنزال أضرار فادحة بالقصر الملكي وبالبيت المالك . كما رأينا كذلك موقفاً آخر في العلاقات الخارجية بين العرب والعبرانيين في عهد عزّيّا ملك يهوذا أو اليهودية (٧٧٩ — ٧٤٠ ق . م) تنعكس فيه الآية فينتصر على تكتل فلسطيني — عربي . يظهر فيه . إلى جانب الفلسطينيين . تجمع عربي مكوّن من العمّونيين والمعينيون وعرب « جور بعل » الذين عرفنا أنهم كانوا أهل منطقة ربّة عمون (عمان الحالية) ومملكة المعينيين الشماليين في منطقة العلا الحالية بالقسم الشمالي الغربي من شبه الجزيرة الربية . ومنطقة أخرى مجاورة للملكة العبرية . أما المناسبة الثالثة التي تظهر فيها هذه العلاقات فترجع إلى القرن الخامس ق . م . حين عاد العبرانيون من السبي البابلي . وهنا نجد عدداً من الزعماء العرب من بينهم طوبيا العمّوني وجشم العربي يقفون

موقف التوجّس من نحميا اليهودي حين حصل على إذن من أرتحشَشْتا الإمبراطور الفارسي (٤٦٤ ــ ٤٢٤ ق . م) ببناء سور حول أورشليم (القدس) . ورغم أن هذا التوجّس لم يعبر عن نفسه إلى تصدٍّ إيجابي للزعيم اليهودي وإنما ظهر في هيئة معارضة ومناورات من جانب هؤلاء الزعماء قابله الزعيم اليهودي بمناورات مماثلة وانتهى الأمر ببناء السور الذي كان يريد بناءه . إلاّ أنّه في الوقت ذاته يشير إلى أن العرب لم تزل هويتهم قائمة ومتمثلة في إدراك مصالحهم التي تصوّروا أنّ بناء هذا السور قد يضرّ بها بشكل أو بآخر . ولكن يبدو أن الأمر لم يكن بأيديهم بالدرجة الأولى . فالإمبراطور الفارسي . وهو صاحب الأمر والنهي في المنطقة في ذلك الوقت على هذه المنطقة التي كانت قد دخلت ضمن إمبراطوريته . كان قد أعطى الإذن ببناء السور . ومن ثم فلم يكن هناك مجال واسع لتحرّك عربي أو تكتل عربي يصل إلى مستوى التصدّي وبخاصة إذا أدركنا أن الطرف الآخر . وهو الزعيم العبري . كان هو الآخر في موقف مماثل لا يملك فيه أن يقدّم أو يؤخر كثيراً [٨] .

ج ــ العلاقات مع القوى الشرقية

وأنتقل الآن إلى صعيد آخر للعلاقات الخارجية للعرب . وهو الصعيد الذي ظهر عليه موقفهم إزاء منطقة وادي الرافدين حيث الدولة الآشورية ومن بعدها الدولة الكلدانية (أو الدولة البابلية الحديثة) وإزاء الإمبراطورية الفارسية التي مدت سيطرتها إلى منطقة الشرق الأدنى بأكمله في غضون القرن السادس ق . م. وتكمن أهمية العلاقات العربية الخارجية في هذه الاتجاه ليس في ظهور الهوية الواضحة للعرب فحسب . وإنما في تطوّرها تدريجياً نحو التبلور بحيث اتخذ تحركها في هذا المجال أكثر من صورة وظهر في أكثر من اتجاه .

وقد كانت أولى العلاقات العربية في هذا الاتجاه الشرقي مع الآشوريين .

---

(٨) راجع التفصيلات في صفحات ١٨٦ ــ ١٩١ في هذه الدراسة .

كما وردت في عدد كبير من النقوش المسمارية التي سجل عليها ملوك الدولة الآشورية إنجازاتهم العسكرية والسياسية مع جيرانهم . وأول نص تظهر فيه إشارة للعرب في هذا المجال يعود إلى عهد الملك شلمنصر الثالث (٨٥٨ — ٨٢٤ ق . م) . وفي هذا النص الذي يرجع إلى السنة السادسة من حكمه يتحدث عن تحركاته العسكرية ضد المنطقة السورية . يذكر لنا الملك الآشوري أنه توجه إلى منطقة القرقار . لمواجهة تجمع كونه ملك دمشق ظهرت فيه إلى جانب قوات الملك الدمشقي قوات من حماة وإرواد ومدن سورية أخرى ، وكان من بين القوى المتحالفة مع ملك دمشق ضد الملك الآشوري « ألف عربي من راكبي الجمال بزعامة جنْدِبو »[٩] .

ونحن نستطيع أن ندرك المغزى الحقيقي لظهور العرب في هذا النص إذا نظرنا إليه من أكثر من جانب . فهذا النص يأتي بعد ظروف شدّت اهتمام الدولة الآشورية بشكل قويّ طوال قرن بأكمله . هو القرن العاشر ق . م . تجاه المنطقة الواقعة على الحدود الغربية لهذه الدولة . حيث كانت تتعرّض لهجمات متكررة من القبائل والممالك الآرامية — الأمر الذي اضطر الآشوريين إلى العمل العسكري المستمرّ للقضاء على هذه الهجمات الآرامية وعلى بقايا المستعمرات الحيثية في المنطقة . ودفع بهم (أي الآشوريين) إلى مدّ هذا العمل العسكري إلى داخل الأراضي السورية كما يظهر من النصوص الآشورية التي ترجع إلى عهد الملك تجلات بيليسر الأول (١١١٤ — ١٠٧٦ ق . م) والملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣ — ٨٥٩ ق . م)[١٠] .

(٩) النص ANET صفحات ٢٧٨ — ٢٧٩ .

(١٠) عن ظروف الآشورية انظر ، رضا جواد الهاشمي : العرب في ضوء المصادر المسمارية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، عدد ٢٢ شباط ، ١٩٧٨) ، صفحات ٦٤٠ — ٦٤١ . قارن ، H. W. F. Saggs : The Greatness that was Babylon (London ١٩٦٢) صفحات ٩٠ وما بعدها ، نصا تجلات بيليسر الاول واشور وآشور ناصر بال الثاني في ANET صفحات ٢٧٤ — ٢٧٦ .

وقد تمكن الآشوريون خلال هذا العمل العسكري المتواصل طيلة القرن العاشر من السيطرة على القسم الشمالي والأوسط من منطقة الهلال الخصيب التي تصل بين وادي الرافدين وسورية وأصبح في مقدورهم التوغل في المنطقة السورية نفسها. ولكن يبدو ان المنطقة البدوية التي كانت تقع على التخوم الجنوبية لمنطقة الهلال الخصيب بدأت تسترعي اهتمام الملوك الآشوريين . الذين وجدوا في هذه المنطقة ما يستدعي الحرص على السيطرة عليها أو على الأقل على عمل فرض الأمن في أرجائها منعاً لسكانها من أيّ تحرك سياسي أو عسكري . نظراً لمرور بعض الخطوط التجارية بها — وقد كان هذا التحرك السياسي والعسكري وارداً فعلاً . والدليل على ذلك هو اشتراك تجمّع من هذه القبائل البدوية بزعامة جندبو العربي في الحلف العسكري الذي كوّنه الملك الدمشقي .

أما الجانب الثاني الذي يضيف إلى مغزى ظهور العرب في النصّ المذكور فهو أنّ هذا الظهور في حدّ ذاته يشير إلى أن هذه القبائل البدوية لم تعدّ مجرد قبائل متفرقة تعيش بعيداً عن مجرى الأحداث في المنطقة . ولكنها أصبحت تجمعات تشير إلى أكثر من معنى على الصعيدين السياسي والعسكري . فألف محارب من راكبي الجمال هم أكبر من طاقة قبيلة واحدة . ومن ثم فهم يمثلون تجمعاً قبلياً بلغ من التنظيم السياسي قدراً يمكّن من تكوين هذه القوة العسكرية(١١) . كذلك فإنّ هذه التجمعات القبلية في المنطقة لا بدّ أنه قد أصبح لها قدر محسوس من الفعالية . ومن ثمّ أصبح موقفها من هذا الحدث أو ذاك أمراً يحسب حسابه . فالحلف العسكري الدمشقي ضمّ قوات تابعة لتسع ملوك من بينهم . الى جانب ملك دمشق . ملوك حماه وإرواد ومدن سورية أخرى . واشتراك جندبو العربي بتجمّعه القبلي مع هؤلاء الملوك وعلى مستواهم أمر يصبح له دلالته في ضوء هذا الاعتبار .

---

(١١) رضا جواد الهاشمي : ذاته ، ص ٦٤٣ .

أما الجانب الثالث الذي يدعّم من مغزى هذا الظهور السياسي والعسكري من جانب العرب في العلاقات الدولية في المنطقة فنستطيع أن ندركه إذا تذكّرنا أن تجمعاً عربياً مماثلاً (ولعلّه كان نفس التجمّع أو تجمعاً مجاوراً له أو متداخلاً معه) قد تحالف مع الفلسطينيين في نفس الفترة لاجتياح مملكة يهوذا (أو يهودية) على عهد الملك العبري يهورام (٨٥١ – ٨٤٣ ق . م .). وإذا أدخلنا في اعتبارنا أنّ هذا التحالف قد تمّ لأسباب اقتصادية تدور حول مرور الخطوط البرية التجارية في أراضي هذه القبائل العربية[١٢] . ومعنى ذا أن هذه القبائل كانت لها مصلحة حيوية في تحديد مواقفها إزاء الأحداث والعلاقات التي كانت تدور في المنطقة آنذاك .

وقد استمرت الحملات التي قام بها الآشوريون على المنطقة طوال العصر الآشوري الذي انتهى بسقوط الدولة الآشورية في ٦١٢ ق . م . وكان قسم أساسي من هذه الحملات موجهاً إلى التجمعات العربية التي يبدو من النصوص الآشورية أنها لم تكن سهلة المراس . الأمر الذي يشير إلى إدراكها المحدّد لمصالحها التجارية في المنطقة وإلى اتساع هذه المصالح بما يدفعها إلى اتخاذ المواقف كلّما شعرت بتحرك قد يؤدي إلى تهديد هذه المصالح . وتشير هذه النصوص إلى تطورين يمثلان مرحلتين جديدتين في العلاقات الآشورية العربية (بعد المرحلة التي يمثلها نصّ شلمنصّر الثالث الذي ظهر فيه جندبو الزعيم العربي) تتخذ خلالهما هذه العلاقات أبعاداً أكثر حدّة وأكثر تكثفاً .

وأولى هاتين المرحلتين الجديدتين نجد فيها أن الملوك الآشوريين لم يقتصروا في معالجتهم للتجمعات العربية على الحملات العسكرية وإنما بدأوا يتجهون . إلى جانب ذلك . إلى سياسة يمكن أن نسمّيها سياسة الاحتواء السياسي من الداخل . عن طريق التدخل في تنصيب الزعماء العرب الذين يثقون في ولائهم

---

(١٢) راجع اعلاه في هذا الباب .

على هذه التجمعات القبلية — وجدير بالذكر هنا أنّ هؤلاء الزعماء أصبح يشار إليهم في النصوص الآشورية التي ترجع إلى هذه المرحلة على أنهم ملوك (أو ملكات) لبلاد العرب . وليس مجرّد إشارة بدون لقب كما رأينا في حالة جندبو العربي . وهو أمر قد يدلّ على أنّ تنظيم التجمعات القبلية العربية قد أصبح أكثر رسوخاً . وهكذا نرى الملك الآشوري أسر حدّون (٦٨٠ — ٦٦٩ ق . م .) يعيّن الملكة العربية «تاربوا » التي نشأت في قصر والده سنحاريب ملكة على العرب . ونجده في مناسبة ثانية . بعد أن توفى حزائيل الملك العربي . ينصّب ابنه ياتع ملكاً . كما نجده في مناسبة ثالثة يعفو عن ملك مدينة يادع الذي استطاع أن يهرب من وجه جيوش الملك الآشوري في إحدى حملاته . فيعفو عنه هذا ويعينه ملكاً على بلاد « بازو » [١٣] .

أما من جانب العرب فقد بدا موقفهم في هذه المرحلة الجديدة أكثر إيجابية من المرحلة السابقة فلم يعد موقفهم قاصراً على التصدّي لحملات الملوك الآشوريين أو الهرب في بعض الأحيان من وجهها . وإنما بدءوا ينتهزون فرص التخلخل الذي بدأ يصيب الدولة الآشورية من الداخل والتي اتخذت شكل نزاعات على العرش صاحبتها ثورات داخلية في بعض الأحيان . ففي عهد الملك سنحاريب (٧٠٤ — ٦٨١ ق . م.) قام أحد الزعماء الكلدانيين في بابل . وهو مردوخ بلادان . بثورة ضد الملك . ويحدثنا سنحاريب في نقش سجّل عليه انتصاره على هذا الثائر أن من بين الأقوام التي اشتركت في تدعيم هذه الثورة عرب وآراميون وكلدانيون.وأنّ هؤلاء. بما فيهم العرب المشار إليهم. كانوا يسكنون مدنالوركاء ونفر وكيش وسبار .وحقيقة إنّ هذه المناطق تقع داخل وادي الرافدين . أي ضمن حدود الدولة الآشورية . إلاّ أنّ الملك يذكر أنه اثناء عودته إلى عاصمته حارب مجموعة من القبائل يعدّد

---

(١٣) النص الخاص بتاربوا وياتع في ANET صفحات ٢٩١ — ٢٩٢ . نص ملك يادع في مجموعة ARAB ؛ ج ٢ ؛ نص رقم ٥٣٨ .

أسماءها وهم قبائل من البدو . ويستنتج أحد الباحثين المعاصرين أن أسماء هذه القبائل ترجّح أن الملك سلك في عودته إلى آشور (العاصمة) طريقاً في البادية محاذية لنهر الفرات ليلقى الروع في نفوس القبائل التي أيدت الثائر مردوخ بلادان وينتزع منهم الولاء للآشوريين (١٤) .

وإذا كانت هذه المرحلة قد تميزت بهذا التدخل الإيجابي من جانب القبائل العربية الملاصقة لوادي الرافدين عن طريق مساندة الزعماء الثائرين ضدّ الملك الآشوري سنحاريب في داخل البلاد . فإنّ المرحلة التالية التي بدأت في عهد الملك الآشوري آشور بانيبال (٦٦٨ — ٦٣٣ ق . م.) أخذت فيها العلاقات العربية مع الدولة الآشورية بعداً جديداً . ففي أثناء الثورة التي قام بها « شمش شوم أوكن » حاكم بابل ضدّ أخيه الملك آشور بانيبال ، نجد تجمعاً قبلياً عربياً يشترك مع الأخ الثائر ضدّ أخيه الملك . ولكن العرب الذين قاموا بدعم الثورة ضدّ الملك ليسوا من قبائل البادية الملاصقة لنهر الفرات كما حدث في عهد الملك سنحاريب . وإنما يزحف التجمع العربي القبلي هذه المرّة من منطقة بعيدة في النصف الغربي من شمالي شبه الجزيرة العربية ، وهي منطقة دومة الجندل وتيماء . تحت قيادة الملك العربي ياتع الذي يبدو أنّه لم يكتف بدعم الثورة بقواته . وإنما لعب دوراً أساسياً في تكوين حلف ضمّ قوات زعماء أو ملوك عرب آخرين (من بينهم ملك اسمه أبو ياتع) لهذا الغرض . كما « حرض كل سكان البلاد العربية للالتحاق به » (١٥) .

كذلك نجد أحد الملوك المشتركين في هذا الحلف (وهو أبو ياتع الذي أسلفت الإشارة إليه) يواصل تحديه للملك الآشوري ويزيد على ذلك فيسعى في أكثر

---

(١٤) النص في مجموعة ARAB ، ج ٢ ، نص رقم ٢٣٤ . الاستنتاج يقدمه رضا جواد الهاشمي : ذاته ، ص ٦٤٧ .

(١٥) النص في ANET صفحات ٢٩٧ — ٢٩٨ .

من مناسبة لاستمالة الأنباط في (أقصى الطرف الغربي للهلال الخصيب) إلى جانبه في عدائه للملك آشور بانيبال . وبعد عدد من المحاولات ينجح أبو ياتع في استمالة الأنباط لمحاربة الآشوريين . لا لصدّ هجمات آشور بانيبال ، ولكن هذه المرّة لمهاجمة حدود الدولة الآشورية ذاتها بتدعيم من « نانتو » زعيم الأنباط [١٦] .

وقد سقطت الدولة الآشورية في ٦١٢ ق . م . تحت ضربات القوتين المتحالفتين . الكلدانيين (من بابل) والميديين (من إيران) . وبسقوط هذه الدولة قامت الدولة الكلدانية (أو الدولة البابلية الحديثة) في وادي الرافدين . وبدأ تطوّر جديد في العلاقات الخارجية العربية مع هذه المنطقة .

وإذا كانت العلاقات الخارجية بين العرب ومنطقة وادي الرافدين قد اتخذت في عهد الآشوريين منطلقاً اقتصادياً يحاول فيه الآشوريون بسط نفوذهم على المواقع الأساسية للطرق التجارية البرية في الغرب من جهة . ويحاول العرب . ضمن الأقوام الأخرى أحياناً ووحدهم في أحيان أخرى . أن يقابلوا هذا الاتجاه الآشوري بتصدٍّ وصل إلى درجة الإيجابية الهجومية في بعض المناسبات من جهة أخرى . فإنّ ظروف الدولة البابلية الحديثة قد دفعتها إلى اتخاذ موقف من علاقاتها مع العرب لم يصل إليه الآشوريون من قبل . وكان محور هذه الظروف هو الوضع الاقتصادي المتدهور الذي وجدت الدولة الجديدة نفسها مقبلة عليه .

وقد كان هناك سببان أديا إلى هذا الوضع . وأول هذين السببين هو أن سقوط الدولة الآشورية أتاح فرصة ذهبية أمام عدد من القبائل العربية

---

(١٦) النص في ANET ص ٢٩٩ . عن المطابقة بين لفظة : Nabaiati الواردة في النص وبين الانباط المعروفين تاريخيا راجع ، رضا جواد الهاشمي : ذاته ، ص ٦٥٩ . عن رأي معارض لذلك راجع ، Hitti : ذاته ، ص ٦٧ ، حاشية ١ .

للسيطرة على عدد من المواقع الحيوية على الطريق التجارية الرئيسية التي كانت تربط بين جنوبي شبه الجزيرة العربية وشماليها ، وأهم هذه القبائل هم الأنباط الذين نجحوا في الاستقرار في المنطقة المحيطة بالبتراء (جبل سعير) بعد أن زحزحوا القبائل الإيدومية من هذه المنطقة ودفعوا بهم نحو الشمال . وهكذا استطاع الأنباط (الذين رأيناهم يشتركون مع أبي ياتع في الهجوم على حدود الدولة الآشورية في عهد بانيبال) في أن يسيطروا من موقعهم الجديد ومن عاصمتهم التي تحصنها التكوينات الحجرية من ثلاث جهات ، على عقدة رئيسية تتحكم في الطرف الشمالي من الخط التجاري المذكور. أما السبب الثاني فهو أنّ الميديين (الذين اشتركوا في إسقاط الدولة الآشورية) ما لبثوا أن ركزوا أنفسهم في القسم الشمالي الغربي من إيران . وأبعدوا بذلك الدولة البابلية الحديثة عن الطرق التجارية الآتية من شرق وشمال إيران . وهي الطرق التي كانت تجد طريقها قبل ذلك نحو الغرب إلى وادي الرافدين في عهد الآشوريين وهكذا منع الميديون عن الدولة الجديدة في وادي الرافدين مورداً اقتصادياً لا يمكن إغفاله أو الإقلال من أهميته (١٧) .

ويبدو أن هذا التدهور الاقتصادي استمر تدريجياً وبشكل منتظم حتى بلغ أقصاه في الشطر الأخير من عهد الدولة البابلية الحديثة . إذ تشير أسعار المواد في العقدين الأخيرين اللذين سبقا سقوط بابل أمام الزحف الفارسي (في ٥٣٩ ق. م.) إلى ارتفاعها إلى الضعف . ولنا أن نتصرر ما يمكن أن يتركه هذا التضاعف على الواقع المعيشي والاقتصادي في المنطقة (١٨) .

وأمام هذا التدهور من جهة . والازدهار الاقتصادي من جهة أخرى في

(١٧) عن استقرار الانباط في البتراء راجع . Hitti : ذاته ، الصفحة ذاتها . عن الميديين ، رضا جواد الهاشمي : ذاته ، ص ٦٦٠ .

(١٨) Saggs : The Greatness that was Babylon (London ١٩٦٢) ، ص ١٤٨ .

المواقع العربية المسيطرة على الخطوط التجارية البرية وبخاصة الخط الذي يخترق شبه الجزيرة العربيةمن الشمال إلى الجنوب نجد نابونائيد (نابونيدوس **Nabonidus** عند الكتّاب الكلاسيكيين) يتجهبأنظاره إلى الغرب ويقرر نقل مقر إمبراطوريته إلى واحة تيماء التي تشكل موقعاً حيوياً على الطريق التجاري الذي يصل شمالي شبه الجزيرة بجنوبها . وكان ذلك في السنة السابعة من حكمه أي في ٥٤٩ ق . م . وأقام بها نحو عشرة سنوات قبل أن يعود إلى بابل في ٥٣٩ ق . م . وهي السنة التي سقطت فيها بابل في أيدي الفرس الأخمينيين .

وقد كان انتقال الملك البابلي إلى قلب شبه الجزيرة دون شكّ أمراً جديداً لم يكن في حسبان القبائل العربية التي اعتادت أن تتعامل مع ملوك من وادي الرافدين إمّا يأتون إليها في حملات ينتهي أثرها في كثير من الأحيان بعودة هؤلاء الملوك إلى عاصمة دولتهم . أو يقضون فترات بعيدين عن هذه القبائل إذا ما شغلهم إقرار الأمور في داخل وادي الرافدين . وبخاصة في أوقات الاضطراب والثورات . عن الالتفات بشكل حاسم إلى محاولات العرب للسيطرة على المواقع الهامة على الخطوط التجارية ممّا أغراهم في بعض المناسبات بنقض عهودهم مع الملوك الآشوريين أو حتى بمحاولة الاعتداء على حدود الدولة الآشورية كما مرّ بنا . وهكذا حين انتقل نابونائيد للإقامة في تيماء نجد موقف العرب يبدو واضحاً في جهتين محدّدتين . سواء إزاء اتخاذه لهذه المدينة مقراً له . أو إزاء إخضاعه لعدد آخر من المدن الواقعة على الخط التجاري الشمالي الجنوبي بعد ذلك . فمن جهة نجد بعض قبائل العرب تتصدّى له مباشرة وهو موقف يتضح لنا من أحد النقوش التي نجد فيها هذا الملك يقدم على قتل أمير تيماء وعلى ذبح قطعان الماشية التي يمتلكها سكان المدينة وضواحيها . ومن نقش آخر ، رغم تلف بعض سطوره . نفهم أن سكان بعض المناطق العربية تعرّضوا للملك وحاولوا أن ينهبوا ممتلكاته ولكنه نجح في القضاء على بعضهم وتشتيت البعض الآخر مما اضطرهم للخضوع له . ومن الجهة الأخرى يبدو أن

سكان بعض المناطق آثروا قبول الأمر الواقع . إذ يقول الملك إن « بلاد العرب وكلّ الملوك الذين أبدوا عداءهم ، أرسلوا لي برسلهم طالبين السلم وحسن العلاقات » [١٩] .

وهناك ملاحظتان على إقامة نابونائيد في تيماء والأماكن التي وصل إليها وسيطر عليها . وأولى الملاحظتين هي أن المدن التي يذكرها في هذا الصدد تقع على الخط التجاري الشمالي الجنوبي ممّا يؤكد هدفه الاقتصادي من نقل مقر حكمه إلى تيماء . فإلى جانب هذه المدينة يذكر الملك أن هذه المدن هي دادانو ، فاداكو . هيبرا . ياديهو ، ياتريبو [٢٠] . وفيما يخصّ دادان فإن هذه المدينة (وهي العلا الحالية) كانت أحد المواقع الرئيسية التي اتخذها المعينيون الشماليون مقراً لهم . وهيبرا هي خيبر . وفداكو هي فدك ، الواحة الخصبة الواقعة إلى شمالي خيبر كذلك فإن ياديهو . كما يظهر من نطقها هي يادع وهي منطقة بين فدك وخيبر . أما ياتريبو فهي يثْرب التي تغير اسمها إلى المدينة المنورة بعد هجرة الرسول (ص) إليها . وأما الملاحظة الثانية فهي أن يثرب تشكل آخر عمق في شبه الجزيرة العربية وصل إليه أي ملك من ملوك الدول التي قامت في وادي الرافدين .

ثم أختم الحديث عن علاقات العرب بالقوات الشرقية بعرض سريع لهذه العلاقات مع الإمبراطورية الفارسية .وفي هذا الصدد نجد الفرس يبدأون في مدّ نفوذهم على المناطق العربية بعد أن انتهوا من إسقاط بابل في ٥٣٩ ق . م . ففي أحد النقوش التي ترجع إلىعهد الملك قورش الثاني (٥٥٧—٥٢٩ ق . م.)

---

(١٩) النصوص على التوالي في ANET ، صفحات ٣١٣ — ٣١٤ و C.G. Gadd : The Harran Inscriptions of Nabonidus (Anatolian Studies, III, ١٩٥٨) ، صفحات ٣٥ وما بعدها .

(٢٠) النص الوارد في Gadd في الحاشية السابقة .

نجد هذا الملك الفارسي يذكر أن كلّ ملوك المنطقة الممتدة بين البحر الأدنى (الخليج) والبحر الأعلى (البحر المتوسط) قد دانوا له بالولاء وأنهم تقدموا إلى بابل حاملين معهم جزية كبيرة وقبلوا قدميه . ويذكر من بينهم « كلّ ملوك الأراضي الغربية . الذين يسكنون الخيام » .[٢١] والنص صريح فهو يشير إلى كلّ » هؤلاء الملوك . ومن ثم فرؤساء القبائل والتجمعات العربية القبلية . (إلى جانب المناطق العربية الحضرية) قد خضعت لسلطان هذا الإمبراطور الفارسي .

غير أن تطوراً في العلاقات الفارسية العربية يبدو أنّه حدث بين الشطر الأخير من القرن السادس ق . م . حين أخضع الملك قورش الثاني (٥٥٧ — ٥٢٩ ق. م.) هذه المنطقة بعد سقوط بابل في ٥٣٩ ق . م. . وبين أواسط القرن الخامس ق . م . إذ يذكر لنا المؤرخ اليوناني هيردوتس (الذي عاش في أواسط هذا القرن) في أكثر من مناسبة ما يفيد بأن العرب كان لهم وضع خاصّ .وعلى سبيل المثال فنحن نجد هيرودوتس **Herodotos** المؤرخ اليوناني يذكر لنا في أثناء حديثه عن الولايات . أن « الولاية الخامسة (من ولايات الإمبراطورية الفارسية) تمتد بين بوسيدونيون على الشاطىء السوري . . . وبين مصر . ما عدا القسم الذي يسكنه العرب فهم لا يدفعون ضريبة » ثم يعدّد في موضع آخر أسماء الشعوب التي لم تكن تدفع ضرائب الإمبراطور الفارسي ولكنها تقدم هدايا له ويذكر من بينها العرب الذين كانوا « يقدمون ما يساوي ألف وزنة **talentum** من الطيوب سنوياً » [٢٢] .

ويبدو واضحاً من المقارنة بين النقش الفارسي وبين نصوص المؤرخ هيرودوتس أنّ المنطقة التي احتلها الفرس على عهد قورش الثاني تعرّض فيها

---

(٢١) النص في ANET ، ص ٣١٦ .
(٢٢) النصوص على التوالي : Herodotos : III, 91, 97

النفوذ الفارسي لشيء غير قليل من التخلخل . إذ يذكر المؤرخ اليوناني أن الإمبراطور الفارسي دارا (٥٢١ — ٤٨٩ ق . م .) أخضع كلّ آسيه ، ما عدا العرب « الذين لم يقدموا له طاعة العبّودية » ولكنه كان مرتبطاً معهم برباط الصداقة حيث أمنّوا لقمبيز (إمبراطور فارس من ٥٢٩ — ٥٢١ ق . م.) الطريق إلى مصر « التي ماكان ليستطيع دخولها لولا موافقة (يقصد حسن نية) العرب » ويؤكد هذا القول في مواضع أخرى يذكر فيها أن العرب ساعدوا قمبيز عندما أراد احتلال مصر بأن أمّنوا له الطريق وزوّدوه بالماء وتبادلوا معه العهود [٢٣] . وهكذا تكون العلاقة بين الفرس والعرب في هذه الفترة علاقة من نوع خاصّ ، فالعرب في المنطقة القريبة من مصر هم الذين يسيطرون على مسالك الطرق الصحراوية المؤدية من المنطقة السورية (بالمفهوم الجغرافي) إلى مصر ومن ثم فـ ـ يمكن السيطرة عليهم سيطرة كاملة بالطرق التنظيمية التقليدية . ولكن الفرس في الوقت ذاته محتاجون لخدماتهم في تأمين الطرق أمام القوات الفارسية وإرشاد هذه القوات وتزويدها بالمياه على الطريق . وهكذا يتحول مفهوم العلاقة بين الفرس والعرب إلى خدمات متبادلة وعهود متبادلة ، ويشير هيرودوتس في صراحة محدّدة إلى أن العرب حافظوا على عهودهم مع الفرس [٢٤] .

غير أن المناطق العربية الواقعة في أقصى الشمال من شبه الجزيرة العربية لم تكن المناطق الوحيدة التي تعرّض لها الفرس في شبه الجزيرة . ففي نصّ من عهد الإمبراطور الفارسي حشويرش (خشيارشاه الذي عرفه الكتاب اليونان باسم **Xerxes** ، ٤٨٥ — ٤٦٥ ق . م .)، نجد هذا الإمبراطور يشير بشكل مباشر إلى امتداد حكمه على بلاد العرب إذ يذكر بين قائمة الأماكن التي امتدّ حكمه إليها « ماكا والبلاد العربية » و « ماكا » هي دون شكّ ماكاي **Makae** التي يأتي ذكرها عند الكتاب الكلاسيكيين ، كتسمية لقسم من الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية (عُمَان الحالية) .

---

(٢٣) على التوالي ، ذاته : III, 88, 4, 7, 9

(٢٤) ذاته : III, 7, 8 .

وهي التي عرفت في النصوص الأكدية (في وادي الرافدين) قبل ذلك باسم ماكان أو ماجان وهي (بالجيم الجافة) (٢٥) . أما بلاد العرب في هذا النص فيبدو بالمقارنة مع النصوص الآشورية أنها تعني المناطق الواقعة في شمالي شبه الجزيرة بين وادي الرافدين والمنطقة السورية ، وإن كان لنا أن نستثني من هذا التعميم. المناطق التي كانت تسكنها القبائل العربية في جنوبي المنطقة السورية التي رأينا أن العلاقة بينها وبين الفرس كانت علاقة من نوع خاصّ .

٢ ـ المرحلة الثانية : العلاقات مع القوات الغربية :

أ ـ الاسكندر الأكبر والدول المتأغرقة

وقد بقيت السيطرة الفارسية على منطقة الشرق الأدنى حتى الشطر الأخير من القرن الرابع ق . م . وفي خلال هذه السيطرة لنا أن نتصوّر أن علاقاتهم بالعرب في شبه الجزيرة بقيت على ما هو عليه بما في ذلك علاقتهم « الخاصّة » مع العرب الموجودين في أقصى الطرف الشمالي من القسم الشمالي الغربي لشبه الجزيرة العربية في المنطقة الواقعة بين القسم الجنوبي اسورية والحدود المصرية . ولكن الشطر الأخير من القرن الرابع ق . م . شهد بداية مرحلة جديدة من علاقات العرب بالعالم الخارجي ظهر على امتدادها اتجاهان واضحان : الأول هو أنّ هذه العلاقات اتخذت اتجاهاً غربياً بالدرجة الأولى . وبخاصّة في العصر المتأغرق عصر الدول التي قامت على أنقاض إمبراطورية الاسكندر في أول القرن الثالث ق . م . وامتدت حتى ظهور العصر الإمبراطوري الروماني في العقود الأخيرة من القرن الأول ق . م .)وفي عصر الإمبراطورية الرومانية . أما

---

(٢٥) نص خشيارشاه في ANET ، ص ٣١٦ . بعض النصوص عن ماجان في ، ذاته : صفحات ٤١ ، ٤٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ . عن تحديد مكانها في عمان بصفة مبدئية راجع ، G. Roux : ذاته ، ص ٢٨ . عن Makae في النصوص الكلاسيكية وتحديد مكانها في مواجهة الشاطىء الفارسي للخليج راجع ، Strabo : XVI, 3 : 2 كذلك راجع خريطة الجغرافي اليوناني بطلميوس كلاوديوس في ملحق الخرائط بهذه الدراسة .

الاتجاه الثاني الذي اختلفت فيه هذه المرحلة عن المرحلة الخارجية لم يعد قاصراً على القسم الشمالي لشبه الجزيرة العربية ، وإنما أصبح ينتظم كلّ شبه الجزيرة ، بما فيها قسمها الجنوبي . وبخاصة المنطقة الجنوبية الغربية منه حيث منطقة إنتاج الطيوب ونقطة الانطلاق في تجارتها وهمزة الوصل في خطوط المواصلات بين الشرق والغرب في العالم القديم .

ولعلّنا نستطيع أن ندرك الأبعاد الحقيقية ولو بشكل جزئي لهذه المرحلة إذا رجعنا قليلاً إلى الوراء . ففي النصف الأول من القرن الخامس ق . م . بعد الصدام العسكري بين اليونان والإمبراطورية الفارسية (٤٩٠ و ٤٨٠ق.م) . وهو أول صدام كبير بين اليونان والعالم الخارجي بدأ اليونان يظهرون قدراً متزايداً من الاهتمام بشئون العالم الشرقي الذي وصلت صورته إلى عقر دارهم في أثناء هذه الحروب التي دارت معاركها على الأراضي اليونانية أو في المياه اليونانية التي تفصل بين بلاد اليونان وبين الساحل الغربي لشبه جزيرة آسيه الصغرى حيث يوجد آخر امتداد غربي لولايات الإمبراطورية الفارسية — وكانت إحدى مظاهر الاهتمام هو التحقيقات التاريخية **Historiae** التي شكّلت كتابات المؤرخ اليوناني هيرودوتس في أواسط القرن الخامس ق . م التي ظهر الحديث فيها عن شئون شبه الجزيرة العربية بشكل واضح ، وهي كتابات أعقبتها احتكاكات أخرى سياسية وعسكرية بين اليونان والفرس وكتابات أخرى لرحالة ومؤرخين وعلماء يونانيين بدأت فيها الكتابات عن شئون شبه الجزيرة تنتقل من دائرة المعلومات الموسوعية العامة إلى دائرة الحديث المتخصص وبخاصة عن الموارد الاقتصادية لهذه المنطقة ، وأهمها ، بطبيعة الحال ، هو الطيوب .

ثم جاء الشطر الأخير من القرن الرابع ق . م . بتطور جديد وحاسم في

---

(٢٦) راجع ، لطفي عبد الوهاب يحيى : الجزيرة العربيــة في المصادر الكلاسيكية ، صفحات ٢ — ٣ .

العلاقات الدولية بين الغرب والشرق هي الفتوحات العسكرية التي قام بها الاسكندر الكبير ملك مقدونيه . لقد نقلت هذه الفتوحات علاقات الغرب بالشرق من مجرّد مواجهات عسكرية محدودة أو علاقات سياسية في صورة أو في أخرى ، بين الغرب والشرق لم تؤثّر كثيراً على الوضع القائم في علاقات هذين الجانبين ، إلى مواجهة حاسمة سيطرت قوات الاسكندر على أثرها على الإمبراطورية الفارسية وبعض الأراضي المجاورة لها ، أي على أقسام كبيرة من منطقتي الشرق الأدنى والأوسط أحدقت بحدود شبه الجزيرة العربية ودفعت بالاسكندر إلى التفكير في غزو هذه المنطقة والاستعداد الفعلي لتنفيذ ذلك حتى تكتمل له حلقة الاتصال البحري الذي كان يرى فيه تدعيماً لدائرة سيطرة عالمية شملت مناطق من الشرق والغرب .

ورغم أن الحملة المزمعة لم تخرج إلى حيّز التنفيذ بسبب الموت المفاجىء للاسكندر في ٣٢٣ ق . م . إلاّ أن الاستعدادات التي اتخذها بهدف القيام بهذه الحملة تمت عن آخرها . وفي هذا الصدد نجد الاسكندر يرسل عدداً من أعوانه ، من بينهم قائده البحري أناكسكراتيس Anaxikrates ، ليجمعوا له كلّ المعلومات الممكنة عن الساحل الغربي وجزء من الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة . كما يرسل ثلاثة قواد بحريين آخرين ، الواحد تلو الآخر لاستكشاف الساحل للجزيرة وصل أحدهم وهو هيرون Hieron إلى نقطة يعتقد أنها عند منطقة رأس الخيمة الحالية (٢٧).

وقد كان اهتمام الاسكندر بشبه الجزيرة العربية بداية لعلاقة نشطة بين اثنتين من الدول المتأغرقة التي قامت على أنقاض إمبراطورية الاسكندر . هما دولة السلوقيين في سورية ودولة البطالمة في مصر من جانب ، وبين شبه الجزيرة

(٢٧) Arrianos : Anabasis, VII, 20 : 8-10 عن محاولة تحديد المكان الذي وصل اليه مساعدو الاسكندر راجع M. Cary & E. H. Warmington : Ancient Explorers الفصل الرابع .

العربية من جانب آخر . وقد جاء هذا الاهتمام نتيجة للصراع العنيف الطويل الذي شبّ بين خلفاء الاسكندر ، وبخاصة بين هذين البيتين الحاكمين . وهو صراع استخدمت فيه كلّ أنواع الأسلحة بما فيها السلاح الاقتصادي على وجه التخصيص — ومن هنا يبدأ الاهتمام بمنطقة شبه الجزيرة العربية . فالسلوقيون الذين دخلت منطقة وادي الرافدين ضمن ملكهم لبعض الوقت ، أقاموا عدداً من المستوطنات بين الفرات ومدينة جرهاء (على شاطىء شبه الجزيرة العربية المطلّ على الخليج) . كما عقدوا اتفاقية مع هذه المدينة لتمدّهم بالتوابل والطيوب لقاء عدم سيطرتهم السياسية عليها (٢٨).

أما عن البطالمة فنحن نجد بطليموس فيلادلفوس Philadelphos (٣٠٨ — ٢٤٦ ق . م.) ثاني ملوك هذه الأسرة الحاكمة . يرسل أرستون Ariston ليستكشف له ساحل شبه الجزيرة العربية المطلّ على البحر الأحمر حتّى المداخل الجنوبية لهذا البحر (مضيق باب المندب حالياً) حتّى يتعرّف على أصلح الأماكن التي تسهّل له طريق المواصلات البحرية التي تخدم مصالحه التجارية التي شكلت قسماً بارزاً من اهتماماته إزاء الصراع الاقتصادي والسياسي والعسكري العنيف الذي كان سمة منطقة الشرق الأدنى والقسم الشرقي للبحر المتوسط في ذلك الوقت . كذلك نجد هذا الملك يعمل على اعتراض «طريق الطيوب والتوابل» الذي يصل بين العربية الجنوبية والبتّراء (في الشمال) عاصمة الأنباط عقاباً لهم بسبب انضمامهم إلى جانب السلوقيين في الصراع البطلمي السلوقي . فيعقد اتفاقية مع اللحيانيين الذين كانوا يسيطرون على ديدان Dedan (العلا الحالية) جنوبي مملكة الأنباط . كذلك نستطيع أن نتبين خطوة أخرى في هذا الاتجاه العام فيما أقدم عليه بعض التجار اليونان (من ميلتوس Miletos على الساحل الغربي لشبه جزيرة آسية الصغرى) من إقامة مستوطنة أمبيلوني Ampelone على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية كميناء بحرية لمدينة

(٢٨). Plinius : HN, VI, 147, Polybios : II, 39 : 11 sq. ; XIII, 9 : 4-5.

ديدان لصالح الملك ذاته . كما اهتم البطالمة ، إلى جانب ذلك بتأسيس أو تشجيع ورعاية عدد من المستوطنات اليونانية على الساحل الغربي لشبه الجزيرة لتأمين الخط التجاري البحري في البحر الأحمر (٢٩) .

وقد كانت نتيجة ذلك كلّه أن الخط الجديد للمواصلات التجارية البحرية في البحر الأحمر ازدهر على حساب القسم الشمالي من الخط التجاري البرّي الطولي في شبه الجزيرة ممّا أثّر على اقتصاديات مملكة الأنباط . وفي هذا المجال يذكر لنا سترابون الجغرافي اليوناني ، أن السلع التي كانت تأتي بحراً إلى ميناء ليوكي كومي **Leuke Kome** (القرية البيضاء) على القسم الشمالي من ساحل شبه الجزيرة المطلّ على البحر الأحمر ، (في داخل منطقة الأنباط) ومنها برّاً إلى البتراء حيث تجد طريقها إلى الموانىء الفينيقية ، أصبحت تصل الآن رأساً (بالطريق البحري) إلى ميناء ميوس هورموس **Myos Hormos** على الساحل المصري المقابل . ومنها بالطريق البري إلى النيل عند منطقة طيبة ، ثم عن طريق النيل إلى الاسكندرية (٣٠) . وقد كانت نتيجة هذا التأثير السيء (ولو بشكل جزئي) على اقتصاديات الأنباط ممّا أدّى بهؤلاء إلى مهاجمة السفن التجارية التي تقلع من الموانىء المصرية . ولكنهم كفوا عن ذلك « بعدما أدبهم المصريون » حسب تعبير سترابون (٣١) .

ب ـ العلاقات مع الامبراطورية الرومانية

ولكن الدول المتأغرقة ، بما فيها مصر وسورية ، كانت قد بدأت في التدهور لتحلّ محلّها على المسرح الدولي قوة جديدة ، وهي رومه التي كان ظهورها كقوة قد بدأ بشكل تدريجي منذ القرن الثالث ق . م . وحين أطلت العقود الأخيرة من القرن الأول ق . م . كانت هذه القوّة، التي صبحت الآن

---

(٢٩) **Plinius** : HN, VI, 159 . راجع كذلك W. W. Tarn : JEA (١٩٢٩) ، صفحات ٩ وما بعدها .

(٣٠) Strabo : XVI, 4 : 24 .

(٣١) ذاته : XVI, 4 : 18 .

إمبراطورية . قد بدأت تفصل في أمور المناطق المتاخمة لسواحل البحر المتوسط في الشرق وفي الغرب . وقد اتجهت الإمبراطورية الرومانية بأنظارها إلى شبه الجزيرة العربية لسببين رئيسيين : أولهما هو الرخاء الكبير الذي كان يسود المجتمع الروماني آنذاك . وهو رخاء كان أحد مظاهره استهلاك غير عاديّ في حجمه من جانب المجتمع الروماني للطيوب والتوابل التي كان قسم منها يأتي من العربية الجنوبية . بينما يمرّ القسم الباقي الذي يأتي من مناطق أخرى بشواطىء العربية الجنوبية . ليصل عن الطرق البرية أو البحرية من هناك إلى أصحاب رؤوس الأموال (أو طبقة الفرسان equites كما كانت تدعى في رومه آنذاك) التي كانت تسيطر على جوانب كثيرة من الاقتصاد الروماني . من بينها التجارة الخارجية التي كانت في أغلبها تجارة شرقية والتي كانت أغلى سلعها هي الطيوب والتوابل .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هناك ظروف أخرى وجّهت نظر رومه إلى شبه الجزيرة العربية وموانئها . فبعد استيلاء رومه على سورية وتحويلها إلى ولاية رومانية نجحت في ٣٠ ق . م في غزو مصر وتحويلها بدورها إلى ولاية أخرى من ولاياتها . وهنا شعرت رومه أنها بحاجة إلى تدعيم هذه الحدود الشرقية لامبراطوريتها إزاء غارات المناطق الواقعة على الأطراف الغربية لشبه الجزيرة العربية . والتي كانت تهدّد هذه الحدود الشرقية سواء في أرضها أو مواصلاتها . كذلك كانت هناك قوة شرقية كبيرة . وهي الدولة الفرثية (البارثية) في إيران . التي كانت في حالة صراع شبه دائم مع الرومان . استمر سجالاً ابتداء من القرن الأول ق . م . وقد تسبب هذا العداء في تهديد الفرثيين للطريق التجارية البرية الواقعة في أقصى الشمال من شبه الجزيرة العربية التي كانت تربط رومه بالشرق الأقصى مروراً بآسيه الصغرى . ومن هنا اتجه الرومان إلى معالجة هذا الوضع بطريقتين . إحداهما هي البحث عن وسيلة لتأمين هذا الخط البرّي الواقع في شمالي شبه الجزيرة بشكل أو بآخر .

والثانية بتعويض هذه الطريق بالسيطرة في حدود الإمكان على المناطق التي تمرّ بها الطريق التجارية البحرية من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي . والتي يشكل القسم الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية نقطة حيوية تتحكم عند نقطة التقاء البحر بالمحيط (٣٢) .

وفي إطار هذه الظروف جميعاً كانت تدور علاقات الرومان بالتجمعات أو التكوينات السياسية في شبه الجزيرة العربية . وهي علاقات تعرّضت من خلالها رومه إلى ثلاث مناطق في شبه الجزيرة هي . حسب الترتيب الزمني : اليمن أو المنطقة الجنوبية الغربية . ومملكة الأنباط في القسم الشمالي الغربي . ثم مملكة تدمر في أقصى الشمال . وكان أول نشاط الرومان في هذا المجال هـ الحملة التي أرسلها أغسطس Augustus . أول الأباطرة الرومان . إلى منطقة سبأ في العربية الجنوبية عام ٢٥ ق . م . تحت قيادة إيليوس جالوس Aelius Gallus الوالي الروماني على مصر آنذاك . ويذكر لنا سترابون أنّ هناك اعتبارين وراء هذه الحملة : أحدهما هو السيطرة على مداخل البحر الأحمر إمّا عن طريق كسب العرب إلى صفّه أو إخضاعه لهم . والاعتبار الآخر هو ما سمعه أغسطس عن الثروة الهائلة لهذه المنطقة التي تكثر بها الطيوب والتوابل ــ الأمر الذي أغراه بإرسال هذه الحملة حتّى يتمكن من « أن يتعامل معهم كأصدقاء أغنياء أو أن يسيطر عليهم كأعداء أغنياء » (٣٣) وهو تعليل يوضّح تفاصيل كثيرة وصحيحة تدور كلّها حول هذين الاعتبارين . كما يذكر سترابون عاملاً شجع أغسطس على هذه الحملة . وهو ما وعده به الأنباط من مساعدة في تنفيذها عن طريق إرشاد القائمين عليها إلى طرقات المنطقة وتعريفهم بأرضها (٣٤) .

---

(٣٢) لطفي عبد الوهاب يحيى : ذاته ، صفحات ٨ ــ ٩ .
(٣٣) Strabo : XVI, 4 : 22 .
(٣٤) ذاته : الموضع ذاته .

وقد أبحر إيليوس جالوس بحملة من ميناء أرسينوي **Arsinoe** المصرية عند الطرف الشمالي الشرقي لخليج القلزم (السويس حالياً) ونزل بجنوده في ليوكي كومي **Leuke Kome** التي تقع على خط عرض ٢٥ شمالاً على الساحل الشرقي للبحر الأحمر . وهي آخر موانىء الأنباط جنوباً على هذا الساحل . ومن هناك كان على الحملة أن تقطع المسافة الباقية إلى سبأ عن طريق الصحراء وهي مسافة تصل إلى ١٤٠٠ كيلومتراً أو تزيد . وقد تعرّضت الحملة على طول هذه المسافة إلى مصاعب لم تكن في حساب القائد الروماني . منها قلّة المياه على الطريق . وقلة مواد التموين ومنها كذلك الأمراض المتوطنة التي تعرّض لها قسم كبير من الجنود. ثم عدم توفّر الطرق الصالحة لسير تشكيلات كبيرة من الجنود مما جعل هذه الحملة تستمر في طريقها ستة أشهر كاملة قبل أن تصل إلى حدود سبأ بكل ما تعنيه هذه المدة الطويلة من صعوبات سواء اتخذت هذه الصورة تكاليف مادية أو هبوط في الروح المعنوية للجنود .

وحين وصلت هذه الحملة أخيراً إلى سبأ لم تستطع أن تحقق هدفها الأساسي وهو الاستيلاء على عاصمة المملكة التي كان أغسطس يرمي إلى السيطرة عليها فقد وصل جالوس إلى مدينة يدعوها المؤرخ بلينيوس ماربه **Mariba** (وربما تكون مأرب العاصمة) وبعد حصار دام ستة أيام اضطر أن يعود أدراجه إذ لم يكن لديه من الماء ما يكفي لاستهلاك جنوده في حصار أطول من هذا . وبذلك تكون الحملة قد انتهت دون تحقيق هدفها العسكري . كذلك نسمع عن حملة رومانية أخرى أرسلها الإمبراطور أغسطس عن طريق البحر في وقت لاحق (ربما بعد عشرين سنة) إلى هذه المنطقة تحت قيادة ابنه بالتبني جايوس قيصر **Gaius Caesar** . ويبدو أنّ هذه الحملة لم تستغرق وقتاً أو جهداً كبيراً إذ يذكر لنا الكاتب الروماني بلينيوس أنّ هذا القائد « لم يفعل أكثر من إلقاء نظرة سريعة على بلاد العرب » [٣٥] .

---

(٣٥) تفاصيل حملة ايليوس جالوس في ذاته : XVI, 4 : 2 3-4 عن حملة جايوس قيصر . Plinius : HN, VI, 141 ؛ عن القائد نظرة سريعة على بلاد العرب ؛ ذاته : VI, 160 .

ولكن يبدو مع ذلك أن كلاً من الحملتين . أو أن الحملتين في مجموعهما، قد حققا الهدف الاقتصادي والسياسي بالنسبة لرومه . وهناك أكثر من دليل يشير إلى هذه النتيجة . فمن جهة يذكر لنا كاتب يوناني وصل إلينا كتابه وإن لم يصلنا اسمه أن « قيصر » أخضع عدن Eudaemon [٣٦] . وسواء أكانت تسمية « قيصر » تعني جايوس قيصر قائد الحملة البحرية أو تشير إلى أغسطس الذي كان يشار إليه عادة باسم قيصر . فالنتيجة واحدة . كذلك يذكر لنا بلينيوس أنّ جايوس قيصر قد « حصل على شهرة واسعة » [٣٧] من وراء هذه الحملة . وهو حديث يدل على أن رومه حققت هدفاً ملموساً من وراء حملته . فإذا تذكّرنا أنّه لم يفعل في هذه الحملة أكثر من مجرد الظهور على سواحل الغربية الجنوبية يكون معنى هذا أن الحملة الأولى لم تكن فاشلة تماماً في جانبها السياسي بحيث أن مجرّد ظهور القوة الرومانية مرة أخرى بعد نحو عشرين سنة (وهي المدّة المرجحة بين الحملتين) كان كافياً في حدّ ذاته لإخضاع عدن (حتى ولو أخذنا هذا الإخضاع بأقل معانيه وهو حصول رومه على امتيازات في هذه الميناء) . وأمّا الشاهد الأخير فهو شاهد أثري مؤداه أنّ حوالي نصف العملة الرومانية التي وجدت في الهند ترجع إلى عهد كلّ من الإمبراطور أغسطس والإمبراطور تيبريوس Tiberius ثاني الأباطرة الرومان . ومعنى هذا أن التجارة الرومانية مع الهند قد نشطت نشاطاً كبيراً في هذه الفترة [٣٨] — وغني عن البيان أنّ نقطة الوسط في طريق التجارة بين رومه والهند تشغلها السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية. الأمر الذي يدل على أن رومه . إن لم تكن قد وضعت المنطقة تحت نفوذها . تكون قد حصلت على تسهيلات تجارية كبيرة في موانيها .

---

(٣٦) Periplos : 26 .

(٣٧) Plinius : HN, XII, 55 .

(٣٨) M. Cary : A History of Rome ؛ ط ٢ ، ١٩٦٠ ، ص ٥٩١ ، حاشية ١٨ .

هذا فيما يخصّ علاقة رومه بجنوبي شبه الجزيرة العربية . أمّا في القسم الشمالي من شبه الجزيرة ، فقد احتكت رومه ، كما أسلفت ، بمنطقتين أساسيتين إحداهما مملكة الأنباط والأخرى مملكة تدمر . وفيما يخصّ مملكة الأنباط فإنّ أول ظهور واضح لها في مجال السياسة الخارجية كان في مجال العلاقات مع الإمبراطورية الرومانية . وفي هذا المجال نجد أنّ الرومان يعتمدون على الوزير النبطي سللايوس Syllaeus (الشلاء أو الصلاء ؟) ليرشد القوات الرومانية في طريقها إلى العربية الجنوبية . وقد عانت الحملة الرومانية كثيراً ، كما رأينا ، من هذه الطريق التي استمر السير فيها ستة أشهر كاملة . قبل الوصول إلى هدفها . وهو أمر أثار الشكّ عند أحد الكتاب الذين عاصروا الحملة وهو سترابون الذي كان صديقاً شخصياً لقائدها الروماني إيليوس جالوس . فيذكر لنا هذا الكاتب أن الوزير النبطي قد تعمّد تضليل الحملة . وأنه كان يهدف من وراء ذلك إلى القضاء عليها أو إفشال هدفها بعد أن تكون قد دمّرت بعض المدن التي قد تبدي شيئاً من المقاومة . ومن ثم يتمكن سللايوس بعد ذلك من فرض سيادته على كلّ المنطقة معتمداً في مخطّطه هذا على ضعف شخصية الملك النبطي عبيده Obodas . ثم ينهي الكاتب حديثه باكتشاف رومه . بعد إخفاق الحملة . لأهداف سللايوس وإعدامه عقاباً على مجموعة أخطاء من بينها هذه الخديعة (٣٩) .

وقد كان الوزير النبطي سللايوس رجلاً ذا شخصية قوية فعلاً . وربما أقدم على هذه الخديعة. وربما لم يقدم عليها كما يذهب بعض الباحثين (٤٠). ولكن تبقى في النهاية حقيقة لا تقبل الجدل وهي أنّ رومه قد حاكمته وأعدمته

(٣٩) Strabo : XVI, 4 : 24 .

(٤٠) عن قوة شخصية سللايوس راجع Kammerer : Pétra et la Nabatène ص ١٩١ . عن رأي يستبعد الخدعة راجع J.G.C. Anderson : CAH, X ص ١٥٢ وحاشية ١ .

فعلاً . ومعنى هذا أنها وجدت من حقها ومن سلطانها أن تقدم على هذا التصرّف . وهو تصرّف نرجّح أمامه أن مملكة الأنباط ، رغم عدم تبعيتها من الناحية الرسمية لرومه . إلاّ أنها في ضوء هذا الظرف لا بدّ أنها كانت داخلة في دائرة نفوذ الإمبراطورية الرومانية . ويدعم هذا الترجيح أنّ الكاتب نفسه (سترابون) يذكر في موضع آخر من كتابه أنّ الأنباط كانوا قد أصبحوا في الوقت الذي كتب فيه (أواخر القرن الأول ق . م . وأوائل القرن الأول الميلادي) من رعايا رومه [٤١] رغم أنّ مملكة الأنباط لم تصبح ولاية رومانية من الناحية الرسمية إلا بعد ذلك بقرن وربع تقريباً . ويؤكّد دخول مملكة الأنباط في دائرة النفوذ الروماني في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها (الربع الأخير من القرن الأول ق . م) أن الإمبراطور أغسطس كاد يطيح بالحارثة(**Aretas** عند الرومان) الملك النبطي الذي اعتلى العرش بعد موت عبيدة لأنّه لم يستأذنه قبل اعتلاء العرش [٤٢] .

ويرجع السبب الذي أدّى بالإمبراطورية الرومانة إلى مدّ نفوذها على مملكة الأنباط إلى ظروف تتعلّق بإقرار الأمور على الحدود الشرقيّة لهذه الإمبراطورية . وهي ظروف كانت تستوجب من أغسطس موقفاً حازماً على هذه الحدود إذا كان للسلام السائد في هذه المنطقة ألاّ يتعرّض لأيّة هزّات في غير صالح رومه . فقبيل هذه العلاقات الرومانية النبطية كانت هناك ظروف في المنطقة تحمل بذور الاضطراب على الحدود الرومانية في الشرق . فالعلاقات بين سلّلايوس ، الوزير النبطي . وبين هيرودوس **Herodos** ، ملك يهوذا (اليهودية) كانت قد تعقّدت بعض الشيء ممّا أدى بالوزير النبطي إلى أن يحرّض على قيام بعض الحركات الثورية ضدّ هيرودوس — الأمر الذي دفع

---

(٤١) Strabo : XVI, 4 : 21 .

(٤٢) Kammerer : ذاته ، ص ٢٤٢ .

هذا الأخير إلى مهاجمة الأراضي النبطية (٤٣) . وكان طبيعياً في وسط هذه الظروف المشحونة بالاضطرابات أن يتخلخل نفوذ رومه بعض الشيء في المنطقة ممّا أغرى سللايوس باغتيال أحد المسئولين الرومان ومن هنا نستطيع أن نفهم التصرّف الذي أقدم عليه أغسطس وهو فرض النفوذ الروماني على مملكة الأنباط إقراراً للأمور على الحدود الشرقية الإمبراطورية الرومانية ، وهو أمر كان من الأهداف الأولى لهذا الإمبراطور .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى فقد كان الفرثيون لا يفتأون من حين لآخر يحاولون توسيع حدود إمبراطوريتهم (الإمبراطورية الفاسية) أو مناطق نفوذها نحو الغرب على حساب حدود الإمبراطورية الرومانية ومناطق نفوذها كما كان الفرثيون يهدّدون بالذات الطرق التجارية التي تصل رومه بالشرق الأقصى . ومن هنا كانت البتراء . عاصمة الأنباط . سواء بموقعها الذي تحصّنه التكوينات الصخرية المرتفعة من أغلب جهاتها . أو بموقعها التجاري الحيوي على الخط التجاري الذي يصل بين شمالي شبه الجزيرة العربية وجنوبيها . موقعاً يشكل نقطة إغراء بالنسبة لرومه . سواء في التحرز ضدّ أيّ اجتياح فارسي . أو من حيث ضمان التحكم في أحد الخطوط التجارية الرئيسية . وهكذا أبتدأت تبعية المملكة النبطية بهذا الشكل غير الرسمي ليصل الأمر إلى ضمّ رومة لهذه المملكة كولاية من ولاياتها تحت اسم « الولاية العربية » **Provincia Arabia** في ١٠٥ م على عهد الإمبراطور الروماني ترايانوس (٤٤) .

ثم نأتي إلى المنطقة الثالثة (من مناطق شبه الجزيرة العربية) التي كانت لها علاقات مع الإمبراطورية الرومانية وهي تدمر . وأول مناسبة نسمع فيها عن علاقات بين هذه المدينة والإمبراطورية الرومانية هي في ١٧ م على عهد

---

(٤٣) ذاته : ص ٢٤٥ وما بعدها .
(٤٤) Cary : ذاته ، ص ٤٥ ٦.

الإمبراطور تيبريوس (١٤ ــ ٣٧ م) ، ففي هذه السنة نجد قرارات رومانية تتعلّق بالجمارك الخاصّة بهذه المدينة [٤٥] . أما عن السبب الذي أدى بدخول تدمر في دائرة النفوذ الروماني فيكمن في عاملين متداخلين يتعلقان . كما سبق أن رأينا في حالة مملكة الأنباط ، بوجود الخطر الفارسي في الشرق . إن توتّراً كان يشوب العلاقات الرومانية الفارسية بشكل يكاد يكون مستمراً . وكان هذا التوتّر يعبّر عن نفسه في شكلين متكاملين . والشكل الأول هو محاولة دائبة من جانب الفرس لقطع الطرق التجارية التي تصل الإمبراطورية الرومانية بتجارة الشرق الأقصى عبر آسيه الوسطى . أو على الأقل تهديد هذه الطرق . وأما الشكل الثاني فهو انفجار هذا التوتّر بشكل مسلّح كثيراً ما كان يقع على الحدود الفاصلة بين الإمبراطوريتين الكبيرتين . وقد كانت تدمر تقع فيما يمكن أن نسمّيه المنطقة الحرام الواقعة قرب هذه الحدود : إلى شرقيها يقع وادي الرافدين الذي يسيطر عليه الفرس ، وإلى غربيها تقع سورية التي يسيطر عليها الرومان . ثم في وسط موقعها يمرّ الخط التجاري الهام الذي يوصل بين الشرق والغرب في أقصى الشمال من شبه الجزيرة العربية .

ولعلّ هذا الموقع الحساس في نقطة الوسط بين الإمبراطوريتين هو الذي حدّد شكل العلاقة بين رومه وبين هذه الواحة في قلب الصحراء ، بحيث اختلفت هذه العلاقة عمّا رأيناه بين رومه وبين مملكة الأنباط . ذلك أن منطقة الأنباط كانت تقع على الحدود المباشرة للإمبراطورية الرومانية ، ومن هنا كانت رومه تستطيع أن تلجأ معها إلى سياسة العصا الغليظة ، سواء في حالة التبعية غير المباشرة أو التبعية الرسمية كولاية رومانية كما رأينا في أكثر من مثال في أثناء الحديث عن هذه العلاقة . ولكن الوضع كان مختلفاً في حالة تدمر فهي على الحدود بين الخصمين اللدودين . ومن ثمّ يصبح من السهل عليها إذا

---

(٤٥) راجع ترجمة لنصوص بعض هـــذه القـــرارات في Kammerer ذاته ، صفحات ٣١٣ ــ ٣١٤ .

ضغط عليها طرف أكثر من اللازم : أن تنقل ولاءها للطرف الآخر . ومن هنا فإنّ سياسة الإمبراطورية الرومانية إزاءها اتسمت منذ البداية بشيء غير قليل من الليونة التي تركت لهذه المدينة كثيراً من الاستقلال في الحركة المستقلّة رغم تبعيتها للإمبراطورية الرومانية سواء بشكل غير رسمي أو بشكل رسمي بعد ذلك .

وفي ضوء هذا المفهوم نجد تدمر هي والمدن الصغيرة التابعة لها : تنتقل من النفوذ الروماني الصامت إلى تبعية واضحة للإمبراطورية الرومانية على عهد الإمبراطور هادريانوس **Hadrianus** (١١٧ — ١٣٨ م) . وعلى أثر زيارة قام بها هذا الإمبراطور للمدينة في ١٣٠ م تدشّن هذه التبعية ليصبح اسم المدينة بالميرا هادريانا **Palmyra Hadriana** (أي تدمر الهادريانية . إذ كان اسم تدمر عند الرومان هو بالميرا — أي مدينة النخيل بسبب الأعداد الهائلة من النخيل التي كانت موجودة بها) . ثم نجد الإمبراطور سبتميوس سيفيروس **Septimius Severus** (١٩٣ — ٢١١ م) يحوّلها هي والمدن التابعة لها إلى مدن لها وضع مدن الولايات الرومانية . وأخيراً تصبح تدمر في أوائل القرن الثالث الميلادي ولاية رومانية رسمية . ولكن في كلّ هذه الأحوال اكتفت رومه بالتبعية الإسمية من جانب هذه المدينة تاركة لها قدراً يكاد يكون كاملاً من الاستقلال الإداري الذي وصل إلى درجة الحكم الذاتي [٤٦] .

وقد قابلت المدينة هذا الموقف من جانب رومه بشيء كثير من الولاء في خدمة مصالح الإمبراطورية الرومانية . ففي أثناء الصراع الطويل الذي نشب بين الرومان والساسانيين (الذين خلفوا حكم الفرثيين في الإمبراطورية الفارسية) وقفت تدمر في جانب الرومان ووصل الأمر في ٢٦٠ م إلى موقف من جانب تدمر ظهر فيه قدر كبير من الإيجابية إزاء الرومان . ففي ذلك العام

---

(٤٦) عن آراء مختلفة في توقيت مراحل التبعية راجع Kammerer ذاته ، ص ٣١٧ ؛ كذلك Hitti : ذاته ، ص ٧٥ ؛ Cary : ذاته ، ص ٧٢٤ .

نجد الإمبراطور الفارسي شابور الأول يغزو قسماً كبيراً من سورية (التي كانت ولاية رومانية) ويأسر الإمبراطور الروماني فاليريانوس **Valerianus** . وهنا يتدخل أذينة (أوديناتوس **Odenatus** عند الرومان) أمير تدمر لصالح الرومان وينجح في مطاردة الإمبراطور الفارسي شابور إلى حدود عاصمة طيسفون Ctesiphon (المدائن فيما بعد . طاق كسرى الآن على حدود بغداد). وكانت النتيجة التي ترتبت على ذلك هي مزيد من الثقة الرومانية التي جعلت الرومان يعطون هذا الأمير التدمري في ٢٦٢ م سلطة فعلية على بعض الولايات الرومانية وهي سورية والعربية الشمالية وربما أرمينية ، وإن كانت السلطة الإسمية التي أضفاها عليه الإمبراطور الروماني جالينيوس **Galienus** (٢٥٣— ٢٦٨ م) [٤٧] .

ولكن مع ذلك فإن المنطلق الأساسي للسياسة الرومانية إزاء تدمر كان بطبيعة الحال هو المصلحة الرومانية في المقام الأول . وعلى هذا فحين شكت رومه في بعض تصرّفات البيت الحاكم التدمري نجد هذا الأمير (أذينة) وابنه يغتالان في حمص . على أرجح الظنّ بتدبير من رومه . ويتكرّر موقف رومه المنبثق من مصالحها في عهد الملكة الزبّاء (زينوبيا **Zenobia**) التي خلفت زوجها أذينة كوصية على ابنها الصغير وهب اللات (فابالاتوس **Vabalatus**). وقد سبق أن رأينا في مناسبة سابقة أنّ الرومان وسعوا نطاق سلطتها مكافأة لها على رعاية مصالح الإمبراطورية الرومانية . لتمتدّ ، إلى جانب تدمر ، على سورية وشمالي الجزيرة العربية . ولكن حين حاولت هذه الملكة الطموحة أن تنتهز انشغال الإمبراطور الروماني أورليانوس **Aurelianus** في بعض الحروب لتمدّ نفوذها على بعض المناطق في مصر وفي آسية الصغرى عاجلها الإمبراطور

---

(٤٧) Hitti : ذاته ، الصفحة ذاتها .

واجتاحت قواته مدينتها ودمّرتها في ٢٧٢ م وأخذت الملكة أسيرة لتسير في موكب النصر الإمبراطوري في رومه (٤٨) .

٣ ــ المرحلة الثالثة : العرب بين قوى الشرق والغرب :

طوال المرحلة التي ابتدأت في العقود الأخيرة قبل الميلاد وامتدت حتى الشطر الأخير من القرن الثالث الميلادي رأينا العلاقات العربية تتجه أساساً نحو الغرب ، حيث الإمبراطورية الرومانية بنشاطها العسكري والسياسي الدائب . ورغم وجود الإمبراطورية الفارسية في تحفز دائم نحو الشرق ومتاخمة حدودها لحدود الإمبراطورية الرومانية عبر القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربية ، إلاّ أن شبه الجزيرة دارت بشكل أو بآخر في دائرة النفوذ الروماني ، وفي قسم من المنطقة على الأقل ، وهو القسم الشمالي، جاء الوقت الذي دخلت فيه في تبعية مباشرة للإمبراطورية الرومانية التي أدارت معها حواراً دائماً . إذا جاز لي أن أستخدم هذا التعبير المجازي ، في ليونة مرّة وفي ضغط أو عنف مرة . وأولتها ثقتها في بعض الأحيان ، ووضعتها في ظلّ الشكّ في أحيان أخرى حتى جاء عام ٢٧٢ م الذي دمّر فيه الإمبراطور الروماني أورليانوس مملكة تدمر لتختفي هذه المدينة ككيان سياسي من المسرح التاريخي .

أ ــ الإمارات العربية الحدّية

وقد شهدت الفترة التي تلت هذا الحدث واستمرت حتى ظهور الدعوة الإسلامية في بدايات القرن السابع الميلادي . ظروفاً من نوع جديد أدت إلى اتخاذ العلاقات العربية الخارجية اتجاهين جديدين . وأول هذين الاتجاهين هو أنّ الصراع بين القوتين الكبيرتين اللتين تحيطان بشبه الجزيرة العربية من الشرق ومن الغرب ، رغم استمرار ما بينهما من توتّر كان يصل إلى الصدام العسكري السافر في بعض الأحيان (كما حدث على سبيل المثال في أواسط القرن السادس

---

(٤٨) Cary : ذاته ، ص ٧٢٨ .

حين هاجم الإمبراطور الفارسي خسرو (كسرى) أنوشروان أراضي الإمبراطورية الرومانية فاجتاح سورية وأسقط أنطاكية ودمّرها عن آخرها) [٤٩] . إلاّ أنّ ظروفاً جديدة كانت قد ظهرت في غضون القرن الثالث الميلادي أدت إلى اعتماد هاتين الإمبراطوريتين على إمارتين عربيتين حدّيتين كلّ منهما تتبع قوة من القوتين الكبيرتين وتدافع عن حدود هذه القوة في مجابهة القوة الأخرى. وفي بعض الأحيان كان الأمر ينتهي بأن ينحصر الصراع بين هاتين الإمارتين نفسيهما . دفاعاً عن مصالح القوى الكبرى .

وقد انقسمت الظروف التي أدت إلى هذا الوضع إلى قسمين بعضها خارجي يخصّ الدولتين الكبيرتين . وبعضها داخلي يخص شبه الجزيرة . وفيما يخصّ الظروف الخارجية نجد أن كلاً من هاتين القوتين شهد تغييرات في غضون القرن الثالث والذي يليه كان لها أثرها على اتجاه كل منهما . ففي الغرب كانت القبائل الجرمانية المتبربرة قد بدأت مواقعها ووقعها على حدود الإمبراطورية الرومانية وتلت ذلك فترة من التدهور انتهت بتقسيم الإمبراطورية من الناحية الفعلية في عهد الإمبراطور قسطنطين (٣٠٦ — ٣٣٧ م) الذي اتخذ بيزنطة (على مداخل البحر الأسود) عاصمة له بعد أن أعاد تسميتها لتصبح القسطنطينية . ثم انتهى الأمر بتكريس رسميّ لهذا التقسيم الفعلي في ٣٩٥ م. كما شهدت هذه الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي بدأت تعرف باسم الإمبراطورية البيزنطية عدداً من الصراعات العسكرية على عرش الإمبراطورية أثر إلى حدّ ملموس على فاعليتها في مجال الصراع الخارجي . أمّا فيما يخصّ الإمبراطورية الفارسية فكانت قد شهدت اضطراباً داخلياً حول الحكم انتهى بسقوط الأسرة الحاكمة الفرثية وقيام الأسرة الساسانية مكانها في ٢٢٦م لتنشغل بعد ذلك بعض الوقت في تثبيت دعائم حكمها في الداخل وسيطرتها على امبراطوريتها في الخارج .

---

(٤٩) Maxime Rodinson : Mohammed ؛ ص ٦ .

فإذا نظرنا إلى داخل شبه الجزيرة العربيةوجدنا تحركات من نوع آخر تأخذ مجراها في منطقة الهلال الخصيب في القسم الشمالي من شبه الجزيرة . ففي غربي هذا القسم كانت بعض القبائل التي ربما جاءت مهاجرة من اليمن قد بدأت تستقر على الحدود السورية وهم بنو غسان . بينما كانت تجمعات قبلية أخرى قد بدأت تستقر في القسم الشرقي من الهلال الخصيب على الحدود الغربية للفرات وهم بنو تنوخ الذين كانوا ينتمون إلى تجمع أكبر هم قبائل اللخميين . وانتهى الأمر ، كما مرّ في مناسبة سابقة إلى أن أصبح كلّ من هذين التجمعين القبليين يشكل كياناً أساسياً يمكن أن نسمّيه دولة أو إمارة ، ما لبثت أن دخلت في علاقة تبعية مع الدولة الكبيرة المتاخمة لها ، فالغساسنة دخلوا في دائرة النفوذ البيزنطي والتنوخيون (أو اللخميون) دخلوا في دائرة النفوذ الفارسي .

وقد أدت كلّ من الإمارتين دورها كدولة حدّيّة تحمي حدود القوة الكبيرة التي تتبعها ضدّ غارات الإمارة الأخرى كما حدث في الشطر الأوسط من القرن السادس الذي شغلته سلسلة من الحروب الضارية بين كلّ من الحارث (الثاني) بن جبلة الغسّاني ، والمنذر (الثالث) بن ماء السماء اللخمي . ولكن مع ذلك فإن دور هاتين الإمارتين لم يكن كلّه تبعيّة للدولتين الكبيرتين . ففي عام ٥٦٣ م ، على سبيل المثال نجد الحارث الثاني يذهب إلى القسطنطينية وينتزع من الإمبراطور البيزنطي يوستنيانوس (جستنيان) الأول موافقة على تعيين يعقوب البردعي أسقفاً للعرب السوريين على المذهب المونوفيزي رغم مخالفة هذا المذهب للمذهب الرسمي البيزنطي ، رغم أنّ الدولة البيزنطية كانت تعتبر نفسها حامية لهذا المذهب في العالم المسيحي . كذلك نجد المنذر الأول اللخمي (٨١٤ – ٨٦٢ م) يقوم بدور يتخطّى حدود التبعية الإمبراطورية الفارسية فيتدخل في شئون العرش الفارسي ذاته ، كما حدث

حين فرض على رجال الدين الفرس أن يتوجّوا بهرام (الذي كان ربيباً لوالده) في مواجهة منافس قويّ من أمراء البيت الحاكم الإمبراطوري (٥٠).

ولكن مع ذلك فإنّ هذا القدر من حرية الحركة بالنسبة لأمراء هاتين الإمارتين يبدو أنه لم يكن وارداً إلاّ في حالات إمّا تعتمد على الشخصية القوية لأحد هؤلاء الأمراء أو ترتبط بظروف تخلخل مؤقت في الأسرة الحاكمة في إحدى الدولتين الكبيرتين. أمّا الخط الأساسي الذي أثبت نفسه بصفة متواترة فقد كان دائماً حرص هاتين الدولتين على إزاحة أيّ أمير من هؤلاء الأمراء من الطريق إذا بدأت تصرفاته تثير الشكّ في مدى ولائه للدولة الّتي يتبعها. وقد مرّ بنا في مناسبة سابقة موقف الإمبراطور البيزنطي تيبريوس الثاني الذي ساق كلاّ من الحارث الثاني وابنه النعمان إلى السجن في المنفى حين بدأ الشكّ يساوره في تصرفات كلّ منهما، كما رأينا. على الجانب الآخر، الإمبراطور الفارسي يعين بعد النعمان الثالث اللخمي أميراً من طيّ هو إياس بن قبصة (٦٠٢ – ٦١١ م) ويعيّن إلى جانبه مقيماً فارسياً أخذ في قبضته زمام الأمور ليصبح الأمير العربي مجرّد من أيّة سلطة فعلية (٥١).

ب – الدين والسياسة في الصراع الدولي

وأنتقل الآن إلى الحديث عن الاتّجاه الثاني الذي سارت فيه العلاقات الخارجية العربية في المرحلة الّتي نحن بصدد الحديث عنها. وهذا الاتّجاه يشكّله تداخل العامل الديني في نسيج هذه العلاقات الخارجية وهو أمر بدأ يظهر بوضوح خاصّ في القرن السادس الميلادي في الصراع الثنائي بين الفرس والبيزنطيين على السيطرة على القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية. وفي هذا الصراع تدخل الحبشة كقوّة من الدرجة الثانية تساند سياسة الحكومة البيزنطية

(٥٠) Hitti : ذاته. صفحات ٧٩ و ٨٣.
(٥١) ذاته: صفحات ٨٠ و ٨٤.

وتنفذها ، وإن كانت الأمور لا تثبت دائماً على هذا الوضع فتتخذ هذه الدولة مواقف تبدو فيها وكأنها بدأت تعمل لحسابها .

ونحن نجد مثالاً على ذلك في حادثة الأخدود حين أحرق « ذونواس » الملك الحميري اليهودي في ٥٢٣ م عدداً كبيراً من المسيحيين في فترة الصراع الديني الذي نشب بين المسيحية واليهودية في نجران . لقد أرسل المسيحيون يستنجدون بالإمبراطور البيزنطي يوستن (جستن Justin) الأول الذي كان يعتبر نفسه حامياً للمسيحية والمسيحيين أينما وجدوا . لقد كتب يوستن إلى نجاشي الحبشة . وهو ملك أقرب دولة مسيحية للمنطقة ليخف لنجدة المسيحيين ، وكان بذلك يعمل في حقيقة الأمر على مد نفوذه على العربية الجنوبية حتى يبعدها عن نفوذ الإمبراطورية الفارسية التي كانت تسعى جاهدة لأن تجد لنفسها موطأ لقدم في المنطقة . وقد تدخلت القوات الحبشية وانتصرت في مناسبتين . مرة في ٥٢٣م تحت قيادة أرياط . ومرة في ٥٢٥م تحت قيادة أبرهة . ولكن الأحباش الذين دخلوا كمنجدين بقوا كمستعمرين لمدة نصف قرن حتى ٥٧٥ م (٥٢) .

وقد شهد هذا العام تكملة . ولكن من الجانب الآخر . لهذا الصراع الديني السياسي المتداخل الذي عرفته العلاقات العربية في الفترة التي نحن بصدد الحديث عنها . فنحن نسمع في ذلك العام عن حركة وطنية يقودها سيف بن ذي يزن وهو من سلالة البيت الحاكم الحميري قبل الاستعمار الحبشي . وفي هذه الحركة يحاول هذا الأمير أن يستنجد بالإمبراطور البيزنطي لإنهاء الحكم الحبشي . ولكن دون جدوى . فسياسة بيزنطة هي محاولة احتواء العربية الجنوبية عن طريق دولة مسيحية صديقة حتى تبعد المنطقة عن النفوذ الفارسي . وهنا يتوجه الامير العربي حيث ينجح ، عن طريق أمير الحيرة في الحصول

---

(٥٢) H. Rodinson : ذاته ، صفحات ٣١ — ٣٢ .

على نجدة من الإمبراطور الفارسي الذي وجد في هذا الموقف فرصة لمدّ النفوذ الفارسي إلى المنطقة . وهنا مرّة أخرى كما حدث في حالة التدخل الحبشي ، بدأ الفرس كمنجدين وانتهى الأمر بهم كمستعمرين، وتحوّلت العربية الجنوبية إلى ولاية (سترَبية) فارسية حتّى عام ٦٢٨ م (٥٣) .

على أن أموراً أخرى كانت قد بدأت تجدّ في وسط شبه الجزيرة في ذلك الوقت . ففي أوائل القرن السابع كان الرسول (ص) قد بدأ يرسي، في منطقة الحجاز ،الدعوة الإسلامية الوليدة. وقد قدر لهذه الدعوة أن تغيّر مجرى التاريخ لقرون طويلة تالية ، وأن تغيّر معه كلّ ما يتصل بالمجال الدولي من علاقات وأبعاد .

(٥٣) Hitti : ذاته ، ص ٦٦ .

الملاحق

١ ـ اللوحــات

٢ ـ الخرائط

٣ ـ مختارات من المصادر والمراجع

١ — اللوحات

المصادر :

ـ مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ادارة الآثار والمتاحف ، المملكة العربية السعودية ، ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥م .

— Breasted, J. H. : Ancient Times, A History of the Early World, Boston, 1944

— Broadman, J. : Greek Art, London, 1964

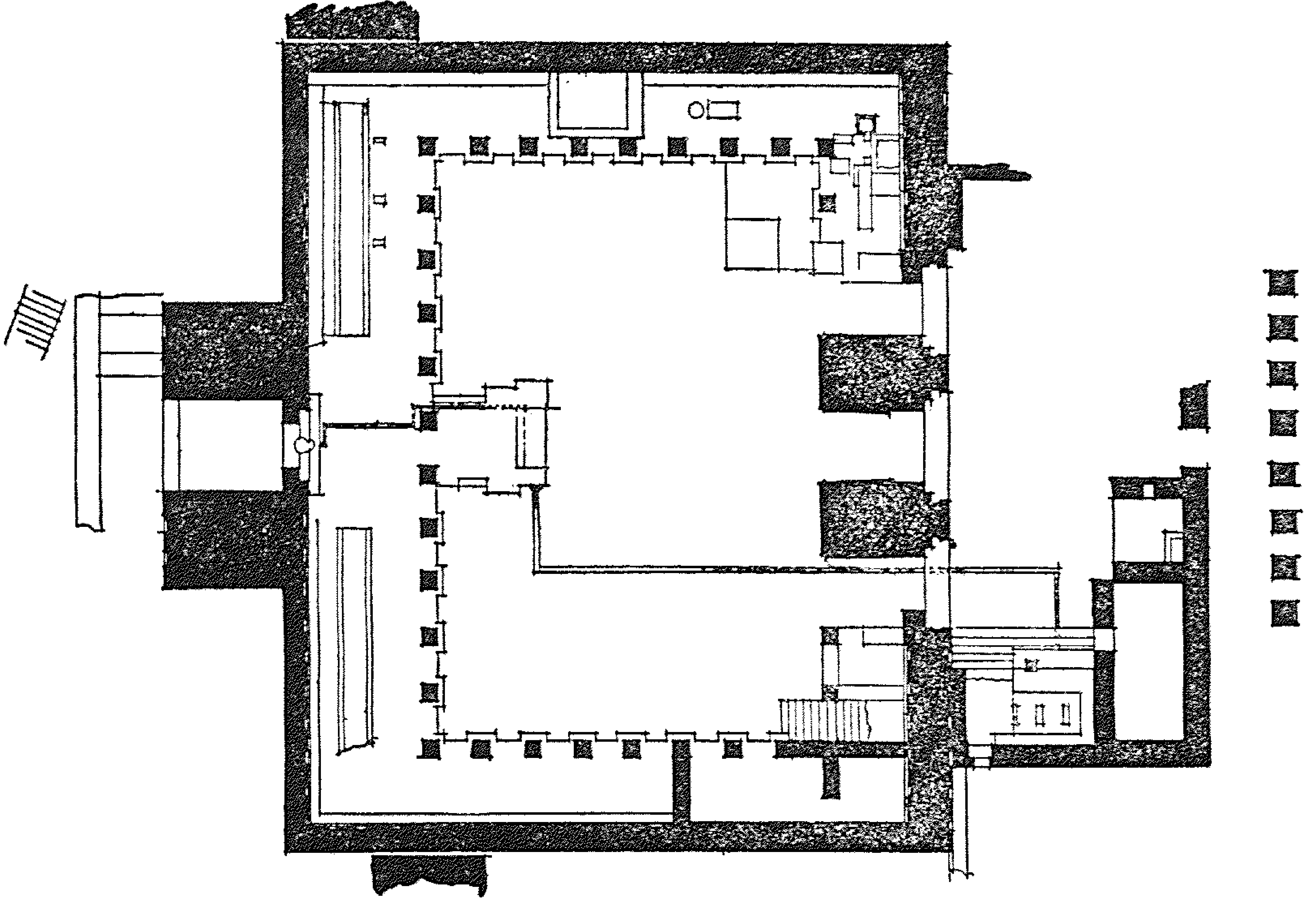
— Hitti, Ph. K. : History of the Arabs (7 thed.), London, 1961

— Kammerer, A. : Pétra et la Nabatène (Atlas) Paris, 1930

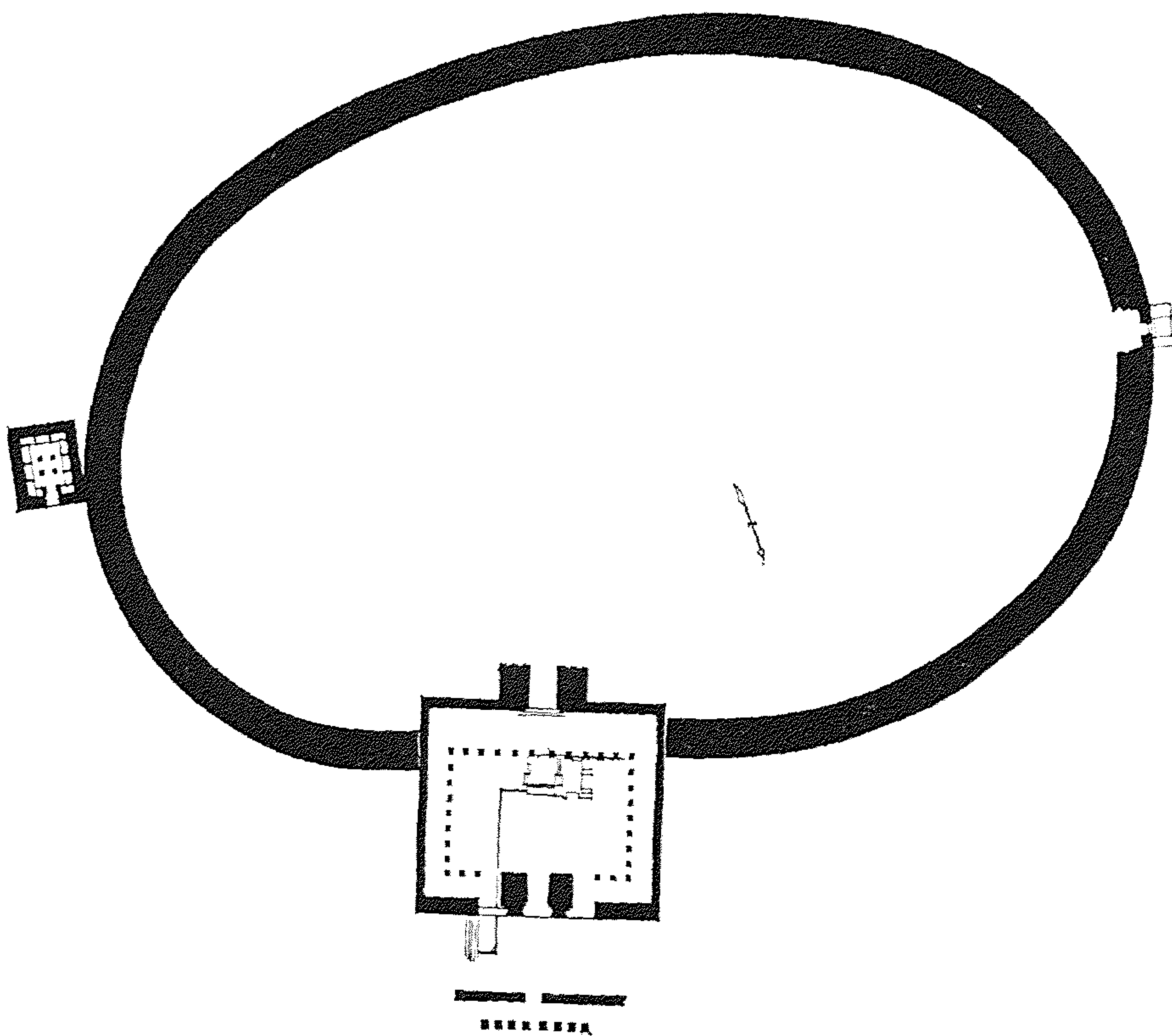
— Wendell, Ph. : Qataban and Sheba, London, 1955

— Rachewiltz , B. de : An Introduction to Egyptian Art, London, 1966

— Roux, G. : Ancient Iraq (Pleican ed.), 1966



١ ـ ا : رسم تخطيطي لبهو الاعمدة في معبد المقه
عن : Qataban and Sheba



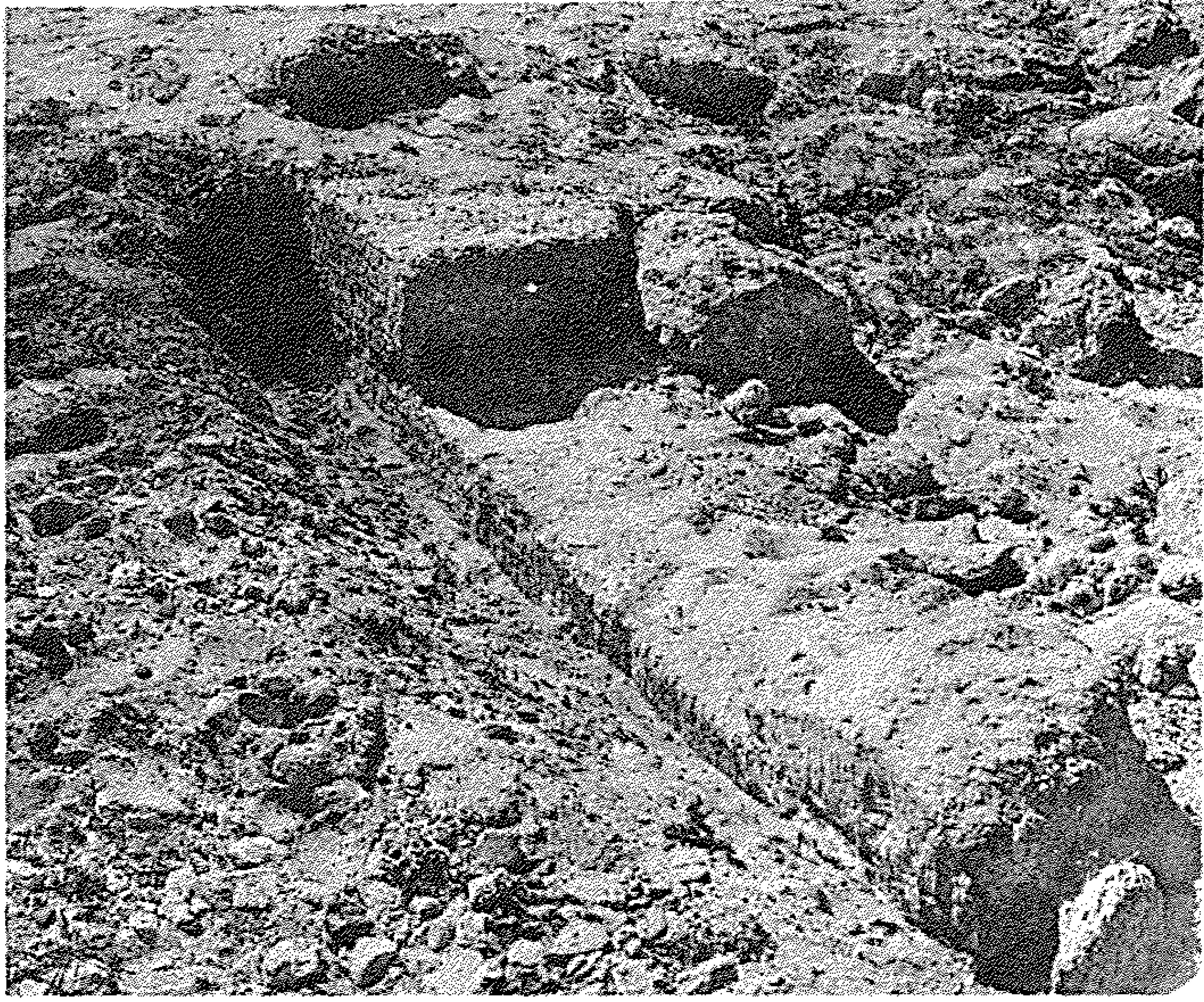
ا ـ ب : رسم تخطيطي لمعبد المقه (العوام) في مأرب
عن : Qataban and Sheba



٢ ـ ا : آثار السوق التجارية في موقع الفاو
عن : آثار السعودية



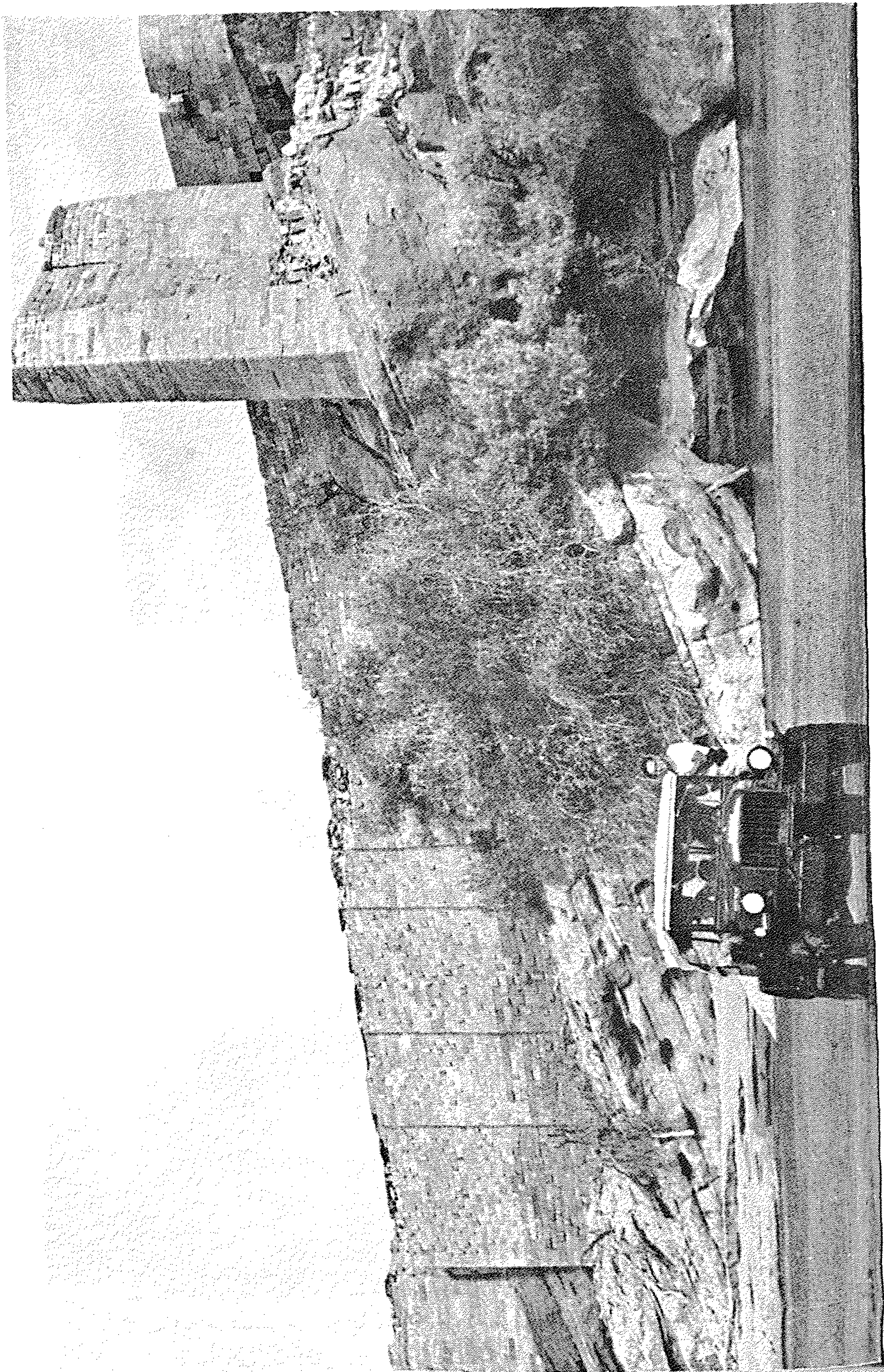
٢ ـ ب : منظر عام لآثار الاخدود
عن : آثار السعودية



٣ ـ أ : قسم من بقايا سورتاج (منطقة الخليج)
عن : آثار السعودية

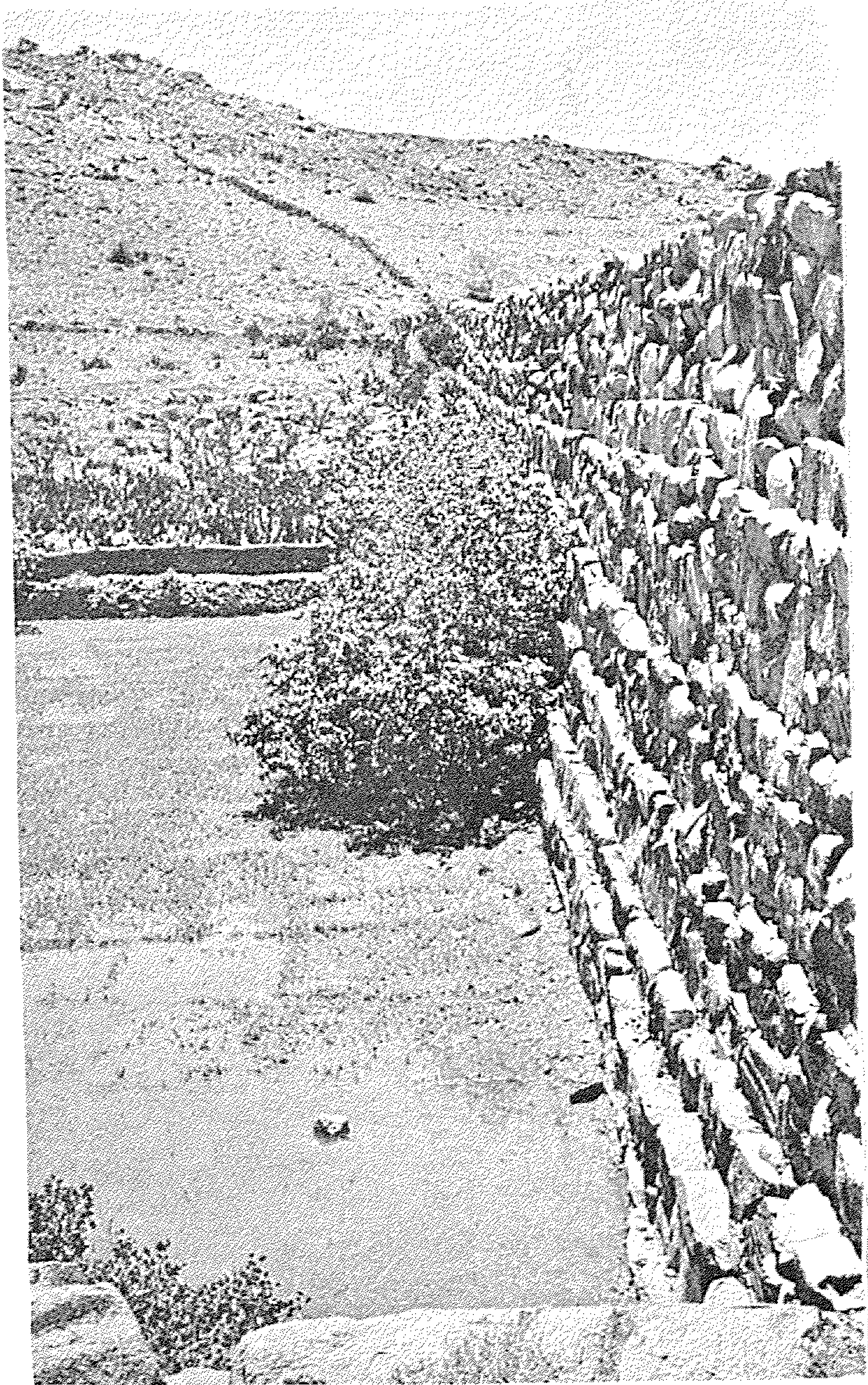


٣ ــ ب : قسم من بقايا سور تيماء (شمال غرب شبه الجزيرة)
عن : آثار السعودية



٤ ــ ا : قسم من سد مأرب

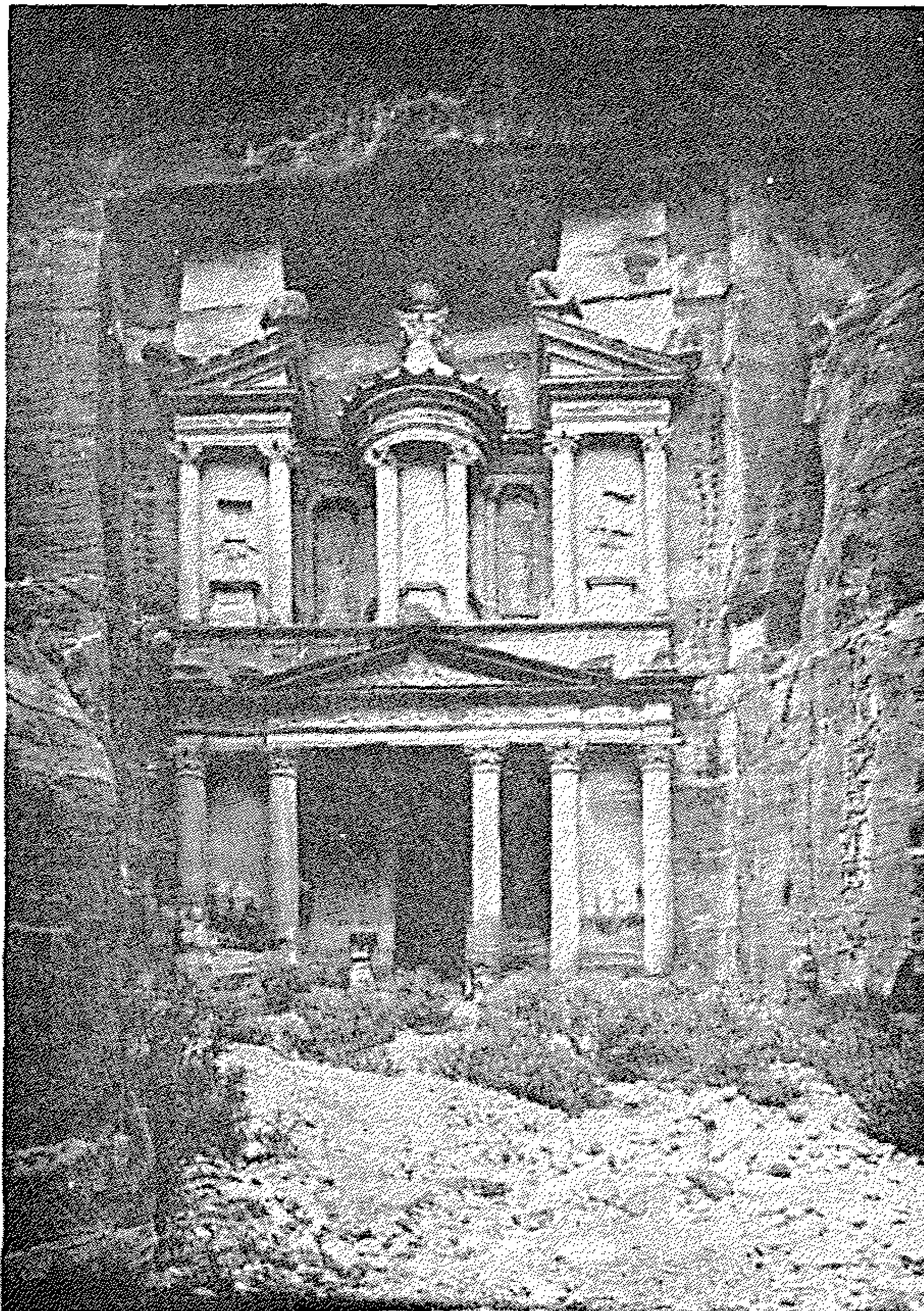
عن : Qataban and Sheba



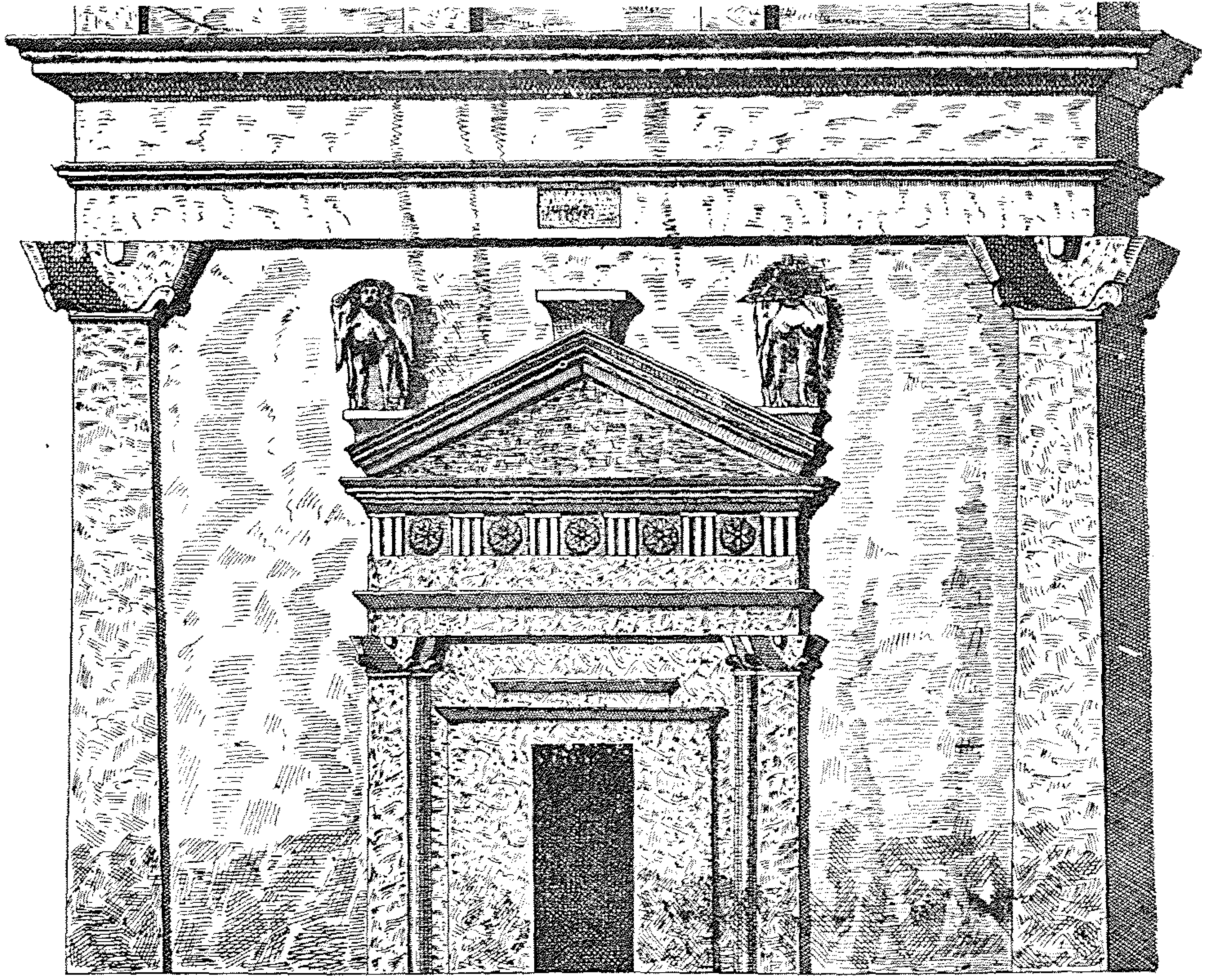
٤ ــ ب : سد السملقي (قرب الطائف)
عن : آثار السعودية



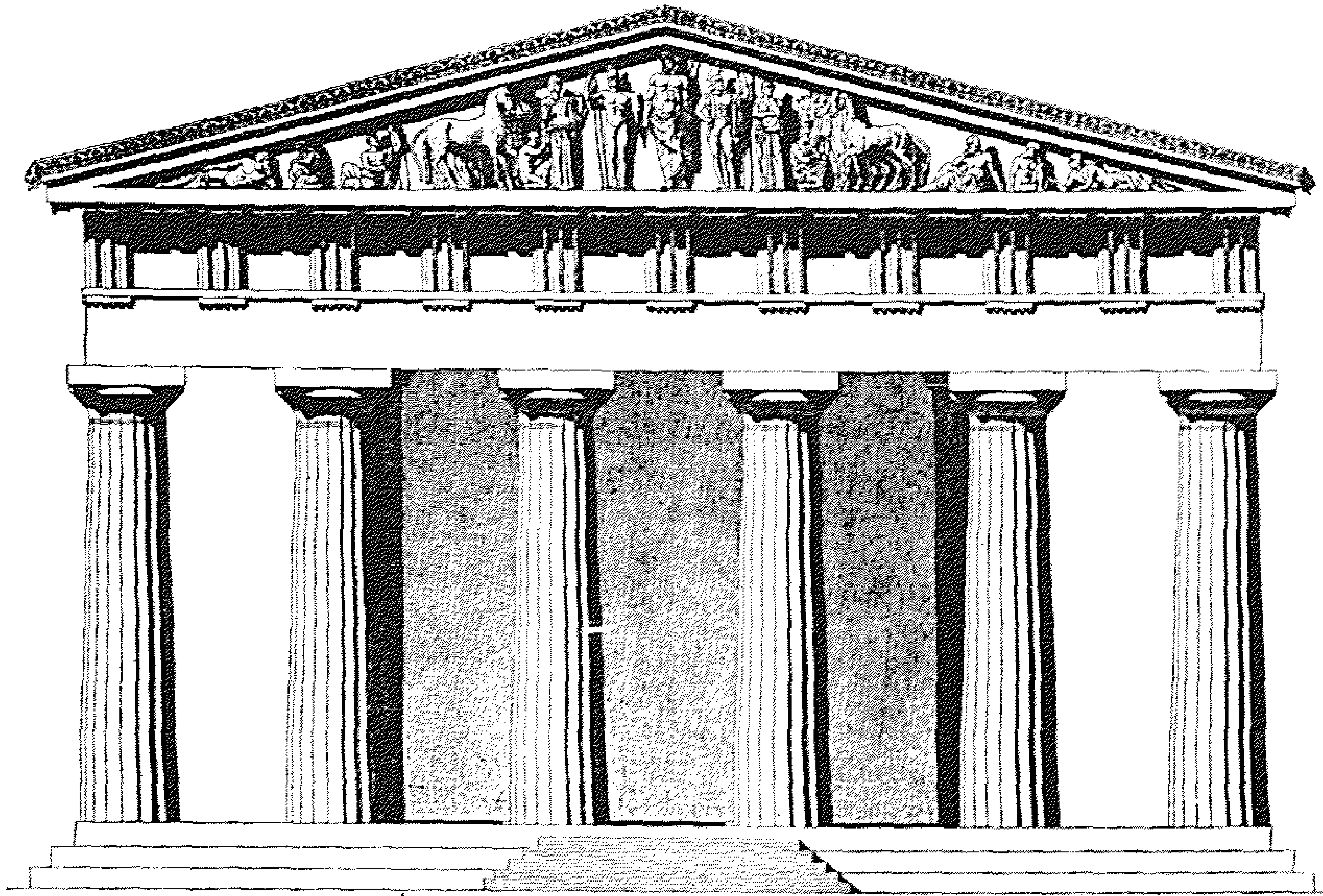
٤ ــ ج : فتحة لتصريف المياه في سد الحصين جنوب خيبر
عن : آثار السعودية



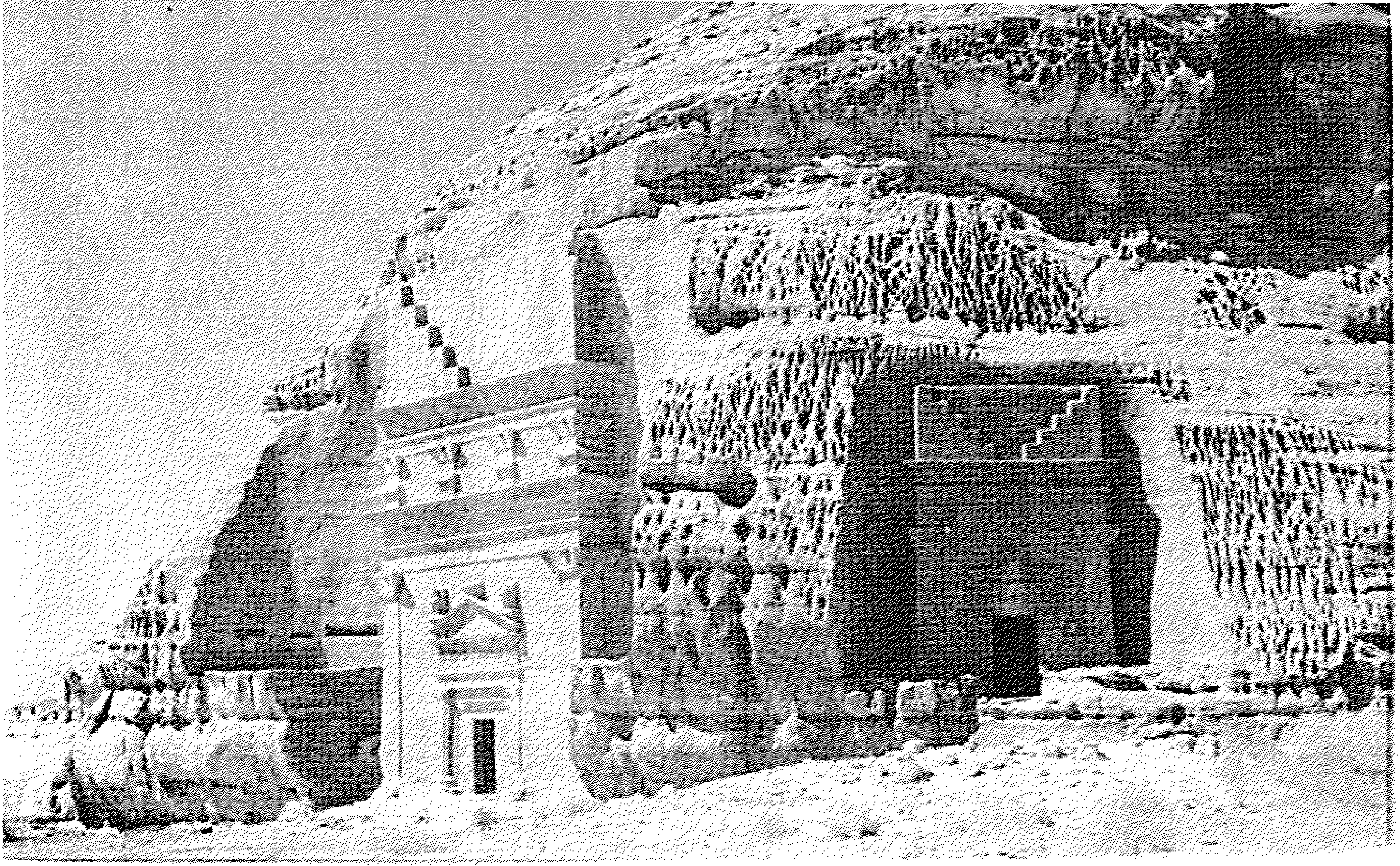
٥ ــ أ : البتراء الضريح الكبير المسمى « الخزنة ».
عن : Pétra et la Nabatène



٥ ــ ب : رسم يدوي لمدخل ضريح منحوت في الصخر ــ مداين صالح عن :
Pétra et la Nabatène



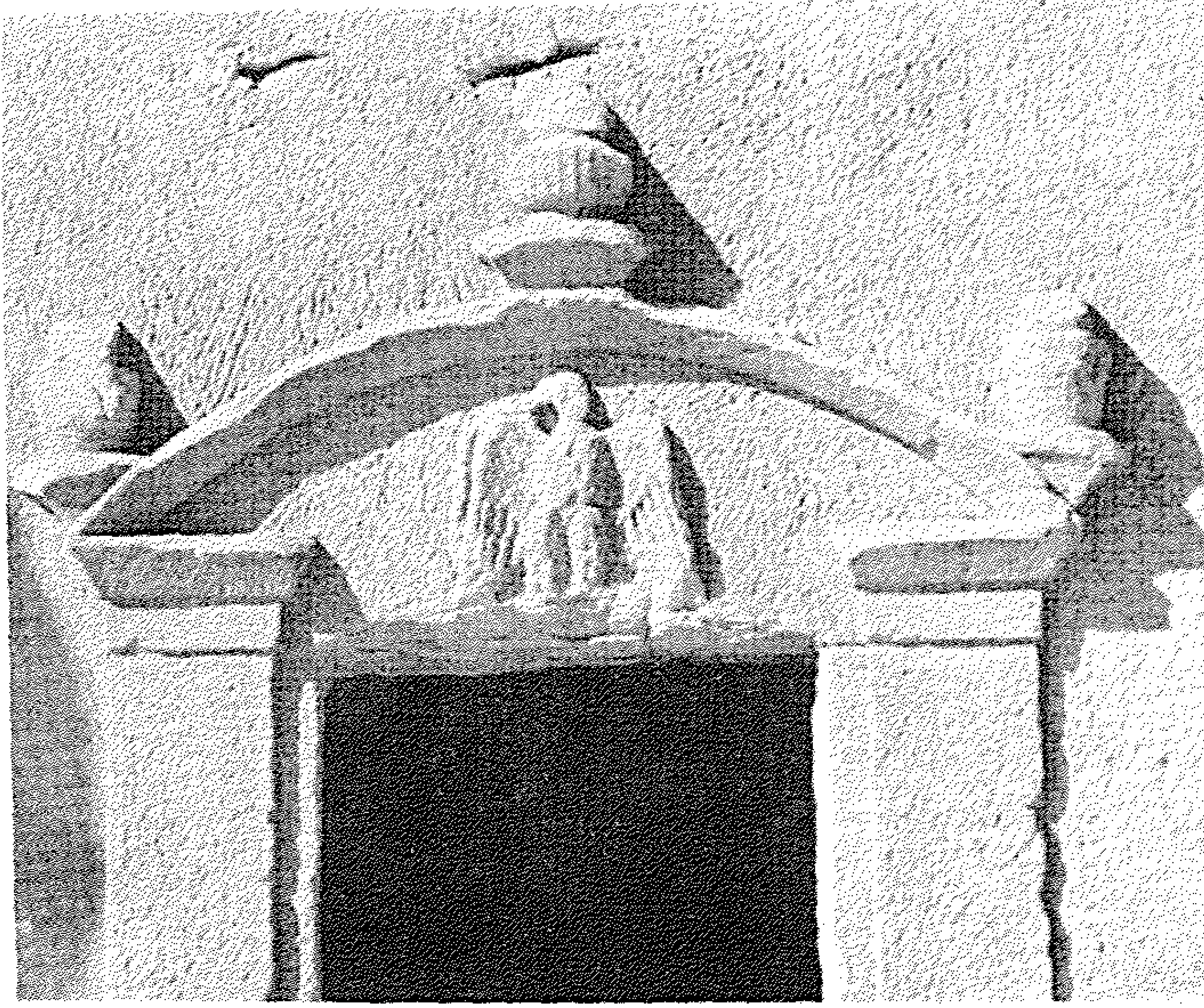
٥ ــ ج : رسم يدوي مقارن لواجهة معبد زيوس في اوليمبيا (اليونان) عن :
Greek Art



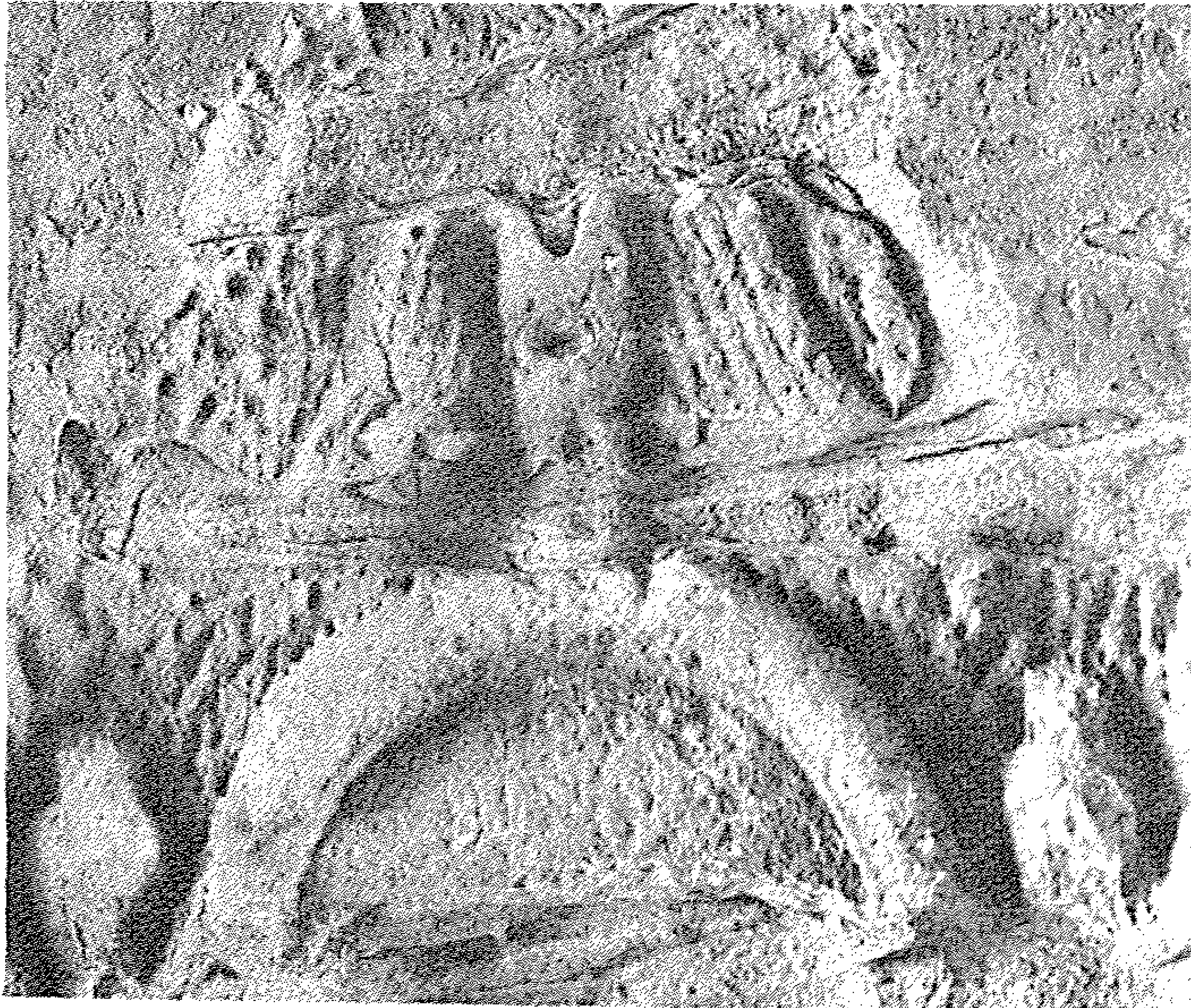
٥ ـ د : منظر عام لضريح منحوت في الصخر في خربة العلا
عن : آثار السعودية



٥ ـ هـ : تفصيل في الافريز بواجهة ضريح في مداين صالح
عن : آثار السعودية



٥ ـ و : تدرج في فن العمارة النبطية نحو القوس العربي
عن : آثار السعودية



٥ ـ ز : طاقة في مداين صالح تظهر بداية القوس العربي
عن : آثار السعودية



٦ ــ أ : القسم العلوي من تمثال حجري ــ جزيرة تاروت (٣٠٠٠ ق.م)

عن : آثار السعودية



٦ ــ ب تمثال للمقارنة من ماري ــ وادي الرافدين ، العصر السومري (٢٧٠٠ ــ ٢٤٠٠ ق.م)

عن : Ancient Iraq

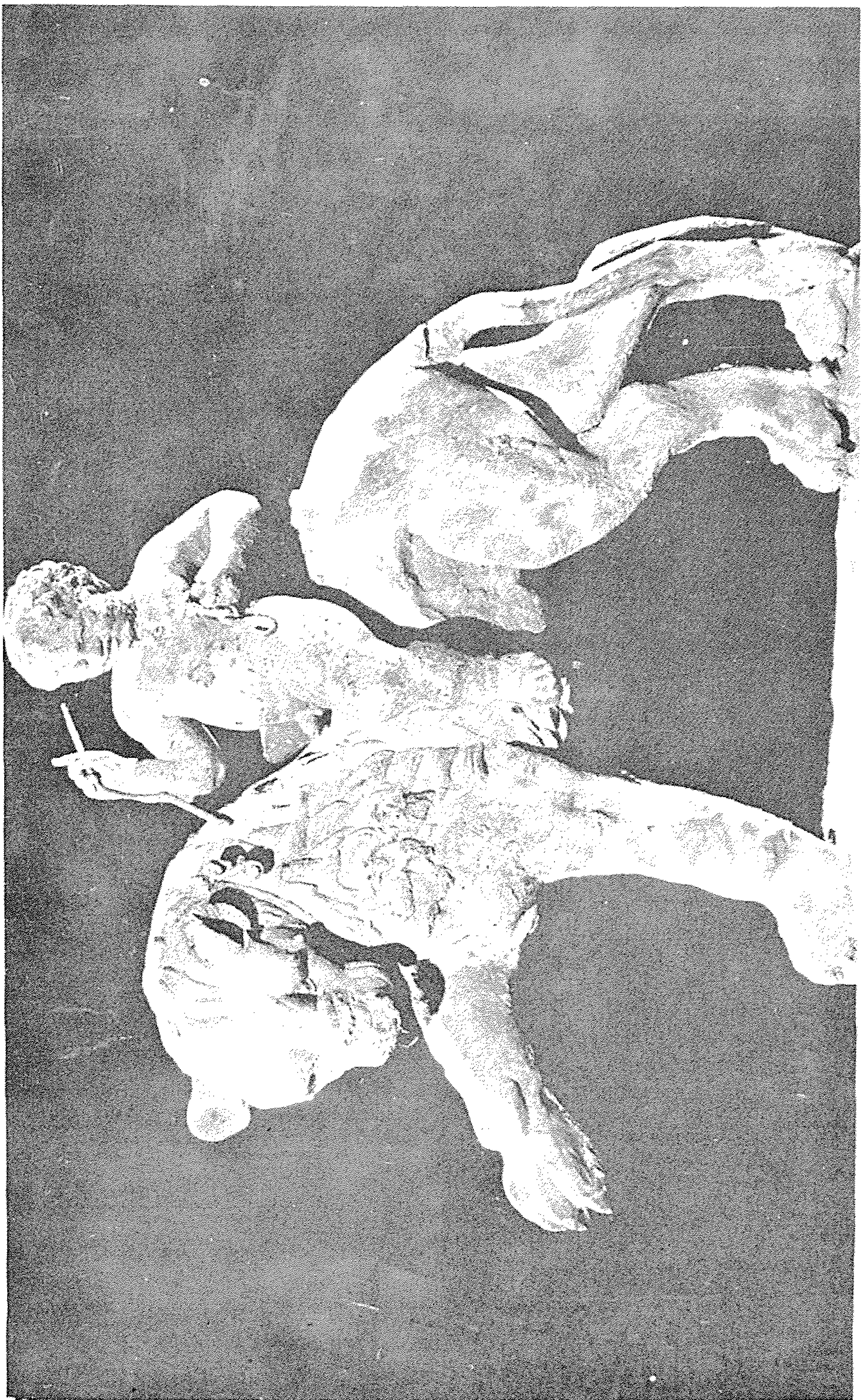




٧ ـ ب ـ تمثال للمقارنة، الكاهن الاعلى
ـ الاسرة الخامسة ـ مصر القديمة
عن : Egyptian Art



٧ ـ ا : تمثال عثر عليه في المعبد
اللحياني ـ العلا
عن : آثار السعودية



٨ ـ ١ : تمثال برونزي لطفل يركب اسدا ـ تمنع (اليمن)
(٧٥ ـ ٥٠ ق.م)

عن : Qataban and Sheba



٨ ــ ب : تمثال برونزي مقارن يوناني من مقدونية (اواخر قرن ٤ق.م)
قارن مع ٨ أ في ليونة الحركة .

عن : Greek Art



٩ ـ : شاهد قبر من تيماء (اواسط الالف الاولى ق.م) يظهـــر
عليه المعبود هلال وشخص يقدم قرابين
عن : آثار السعودية



١٠ ـ ا : رسم عنزة قافزة ـ جبل برمه
عن : آثار السعودية



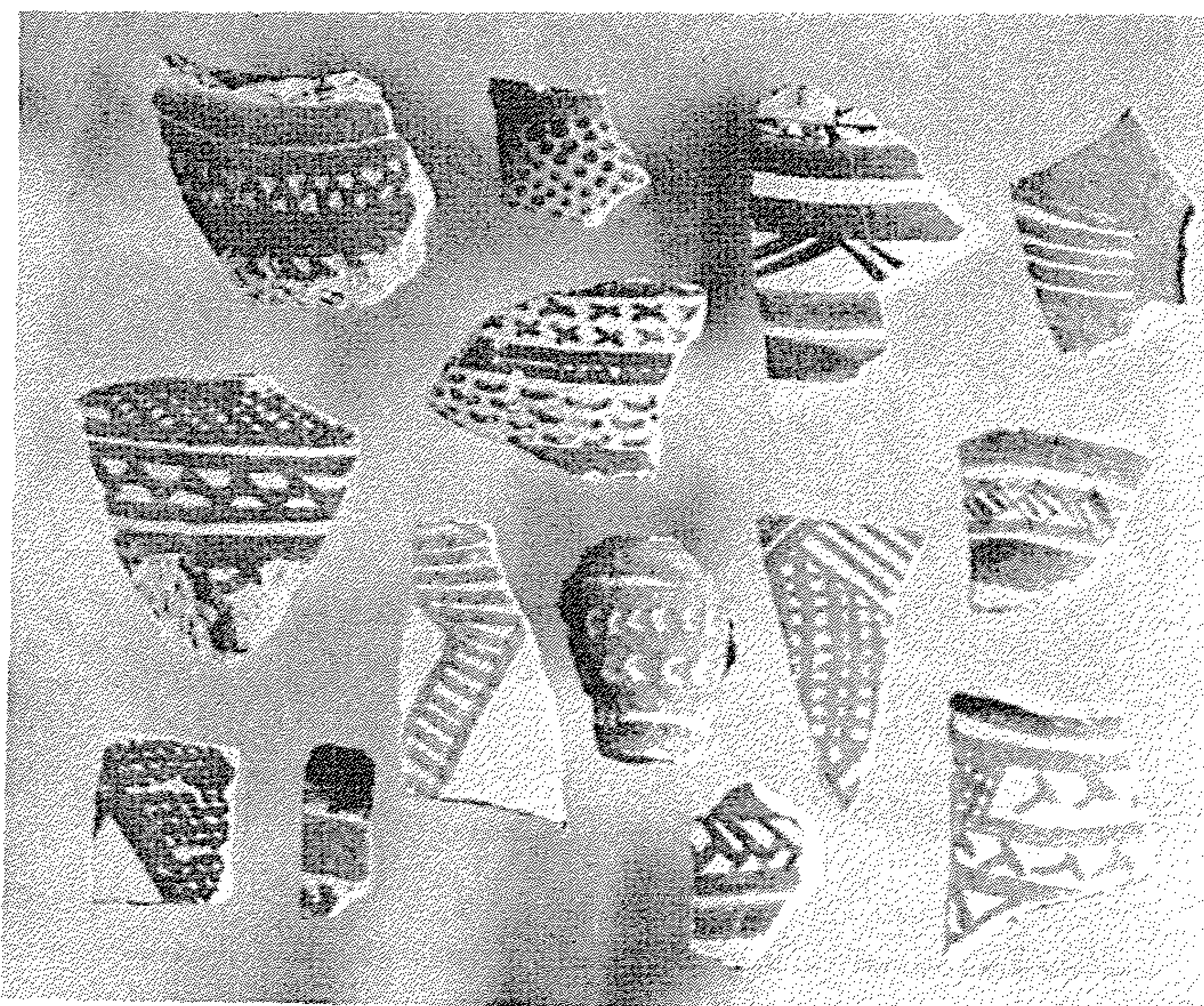
١٠ ـ ب : منظر نعام في وادي ماسل
عن : آثار السعودية



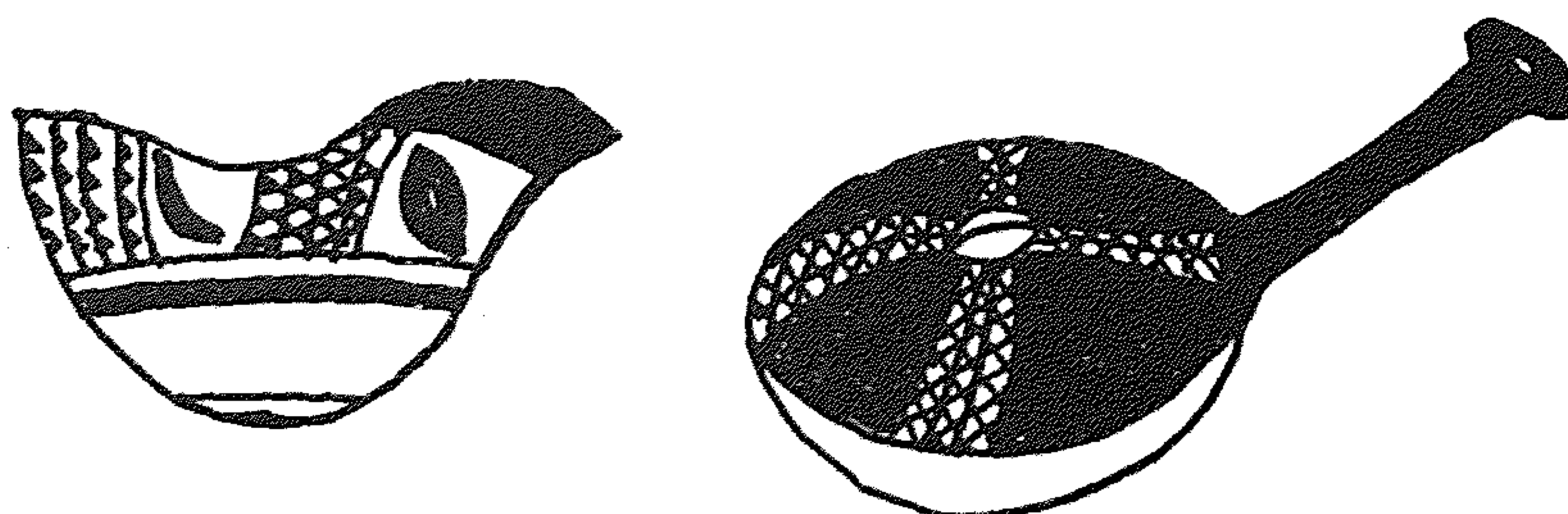
١١ ـ : رسم جمل يحيط به وسم قبلي مكرر
عن : آثار السعودية



١٢ ـ : رسم لمشهد راقص (وادي ماسل الجمح)
عن : آثار السعودية



١٣ ـ أ : فخار من موقع الدوسرية (منطقة الخليج) (٢٥٠٠ ق.م)
عن : آثار السعودية

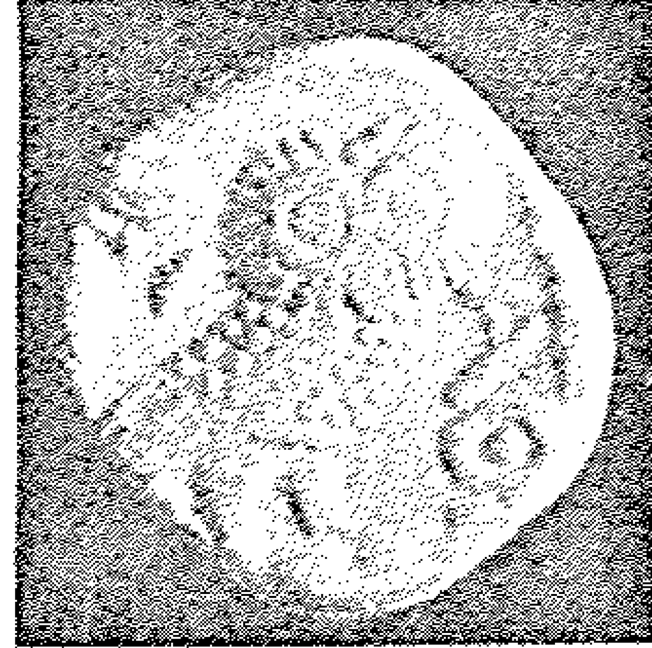


١٣ ـ ب : فخار عبيدي للمقارنة من وادي الرافدين (٤٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ ق.م) عن : Ancient Iraq



١٤ ـ : آنية فخارية من تاج (منطقة الخليج) من العصر المتأغرق
(تأثير يوناني) عن : آثار السعودية





١٥ ـ أ : عملة حميرية (القرن الثالث او الثاني ق.م) تمثل التأثير
الاثيني (اليوناني) عن : History of the Arabs





١٥ ـ ب : عملة أثينية للمقارنة (القرن السادس ق.م) عن :
Ancient Times



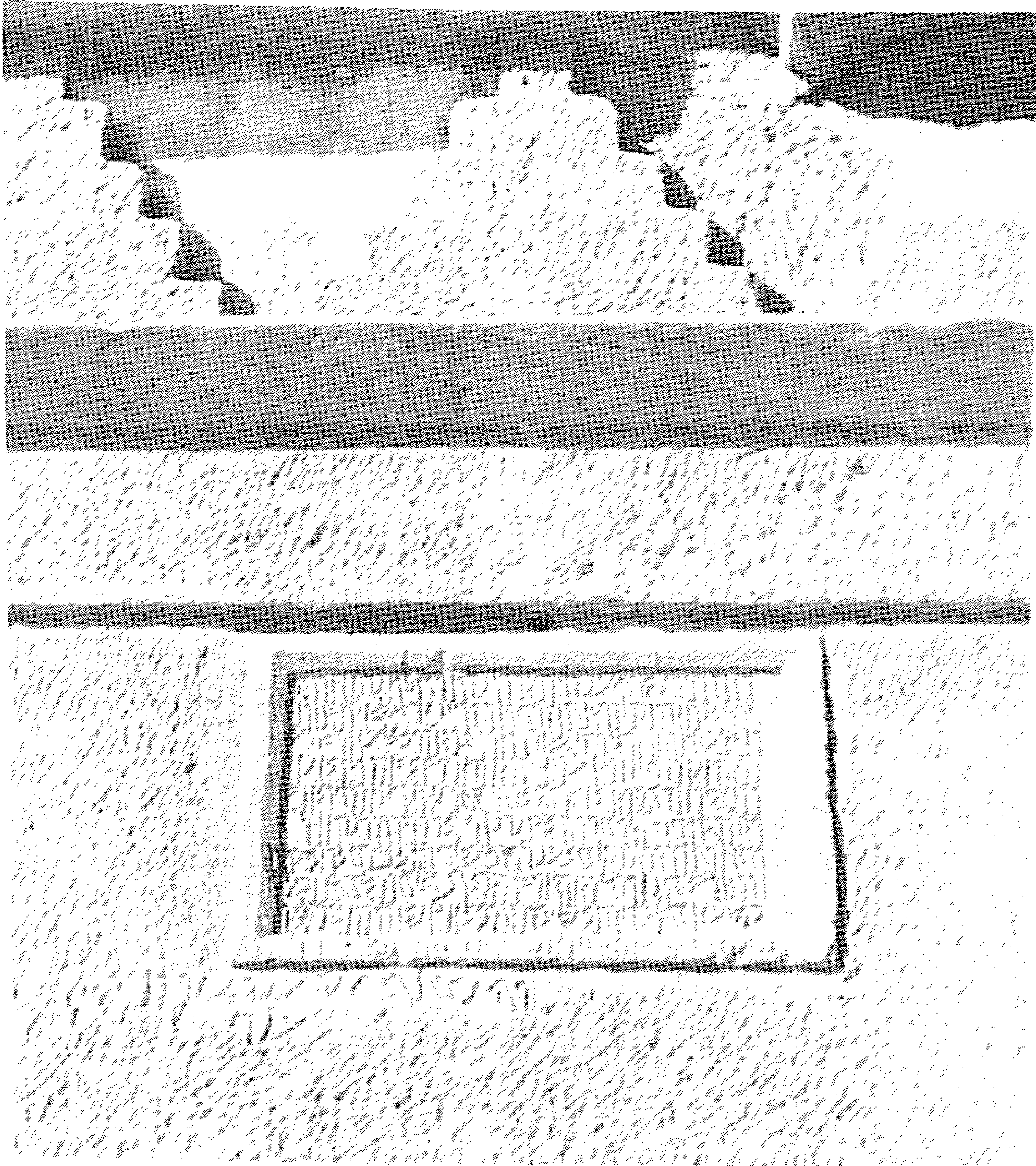

١٦ ــ عملة حميرية ــ حوالي ٥٠ م عليها نقش يقرأ : كَرب إيل وتر
عن : History of the Arabs




١٧ ــ عملة نبطية ــ الوجه يمثل راس تريانوس الظهر يمثل إلهــة
مدينة بترا (اللات ــ مناتو) عن : History of the Arabs



١٨ ـ أ : نقش ثمودي تيمائي من جبل غنيم (شمال غربي شبه الجزيرة)
عن : آثار السعودية



١٨ ـ ج : نقش نبطي على احد اضرحة مداين صالح
عن : آثار السعودية



١٨ ــ ب : مسلة عليها نقش باللحيانية (٣٠٠ ق.م) شمال غرب شبه
الجزيرة عن : آثار السعودية

١٩ : نقوش ثمودية من اماكن متفرقة في شبه الجزيرة



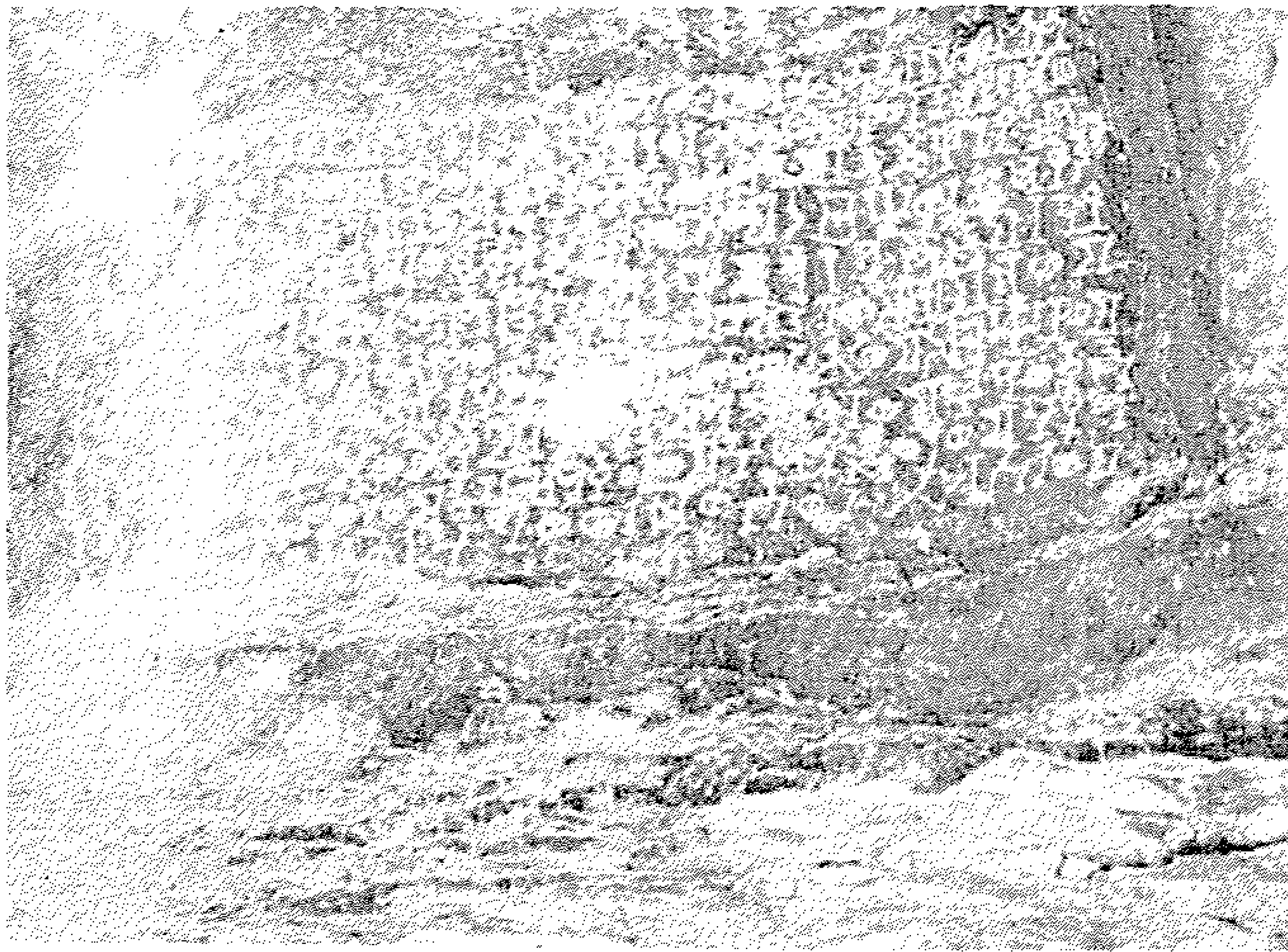
أ ـ على صخرة من جبل برمة (وسط شبه الجزيرة) قرن ٤ـ٥ ق.م
عن : آثار السعودية



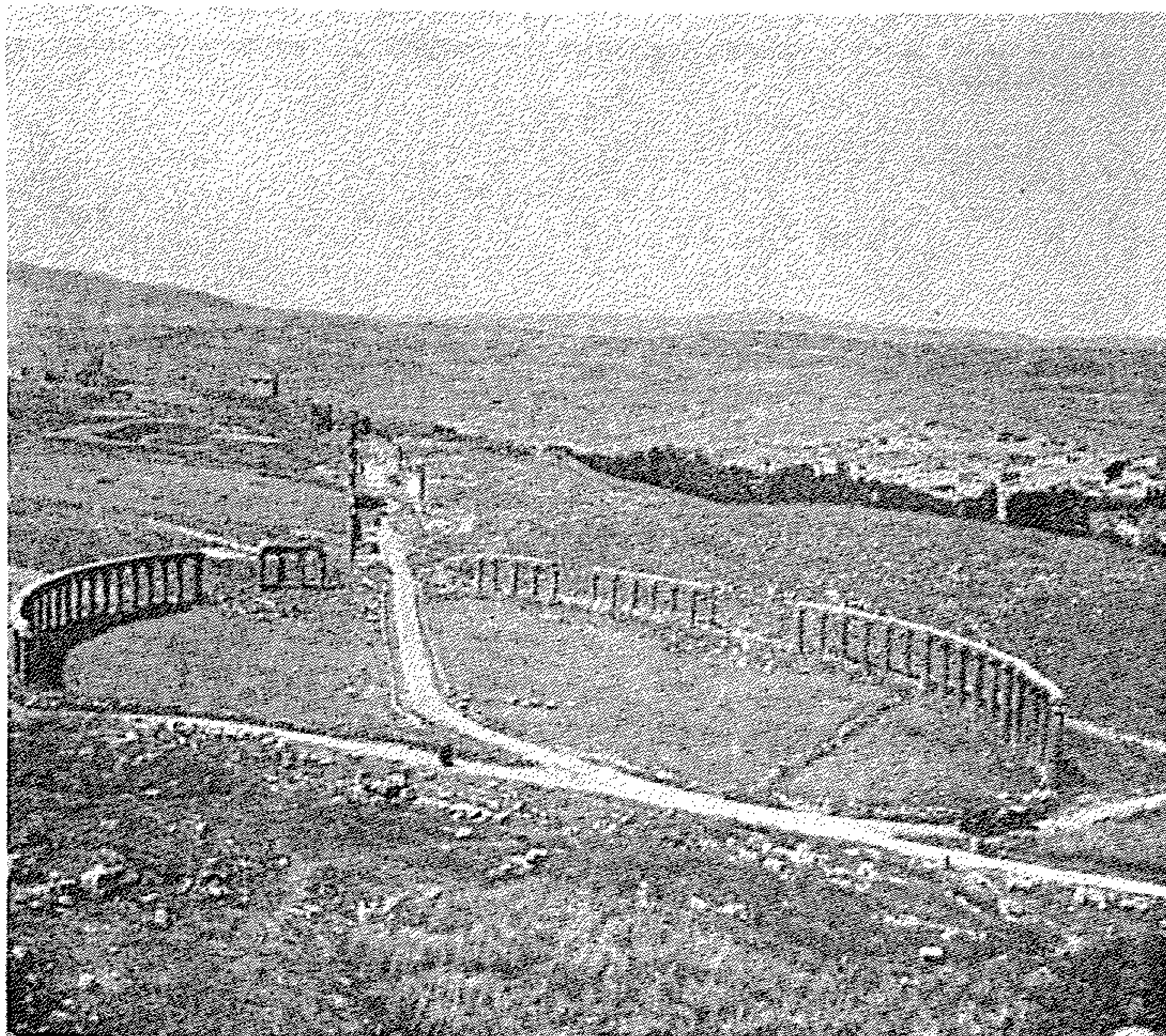
ب ـ على جبل المليحية (شمال شبه الجزيرة) قرن ٣ ق.م
عن : آثار السعودية



ج ـ على جدار في منظر بني عطية (شمال غرب شبه الجزيرة)
عن : آثار السعودية



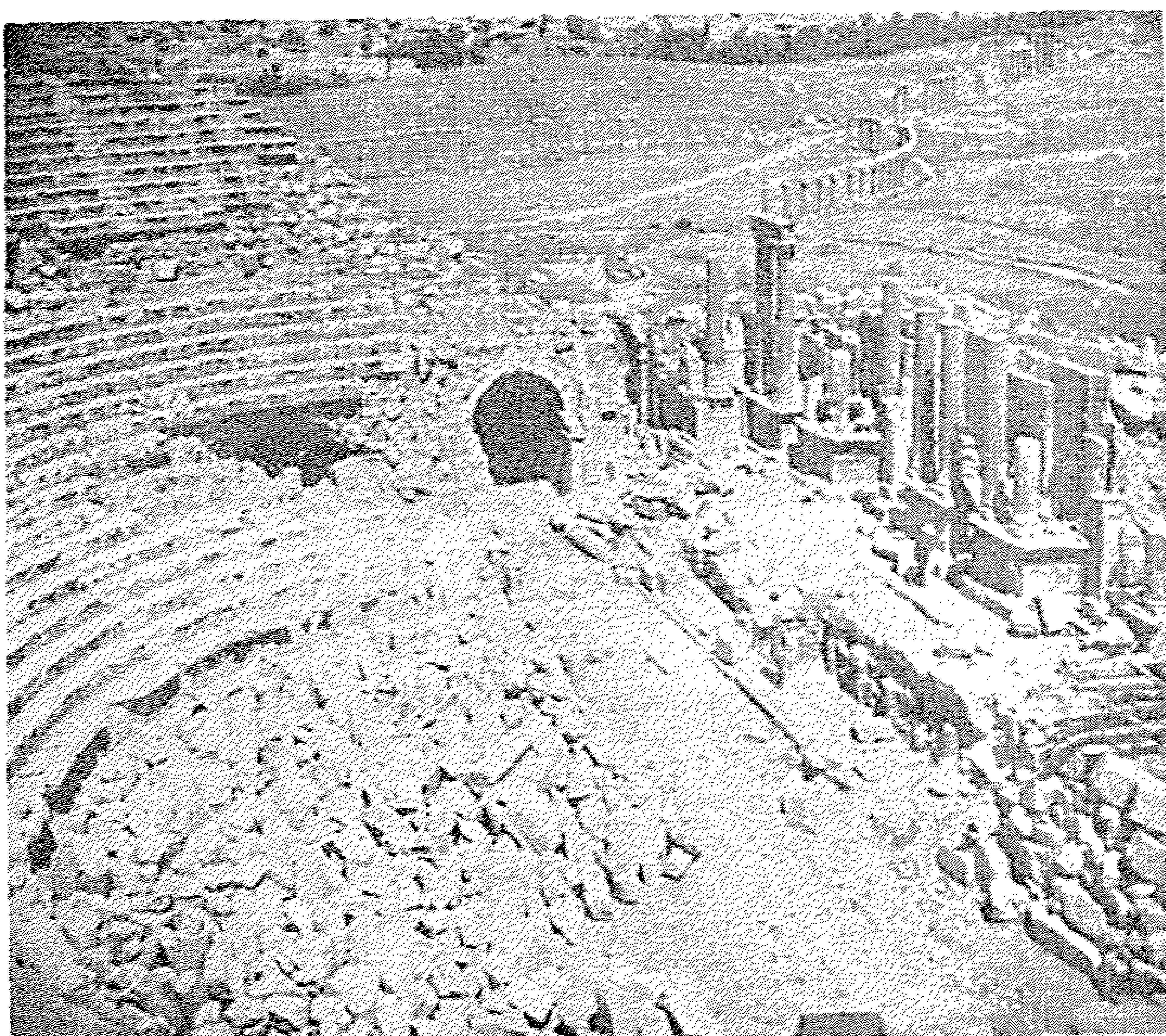
: نقش سبئي من وادي ماسل (وسط شبه الجزيرة) دونه
ملك سبأ ذو ريدان وحضرموت ويمنات أثناء غزوه للمنطقة
في القرن الخامس الميلادي
عن : آثار السعودية



٢١ ــ أ : جرش ، الساحة (Forum)
عن : Pétra et la Nabatène

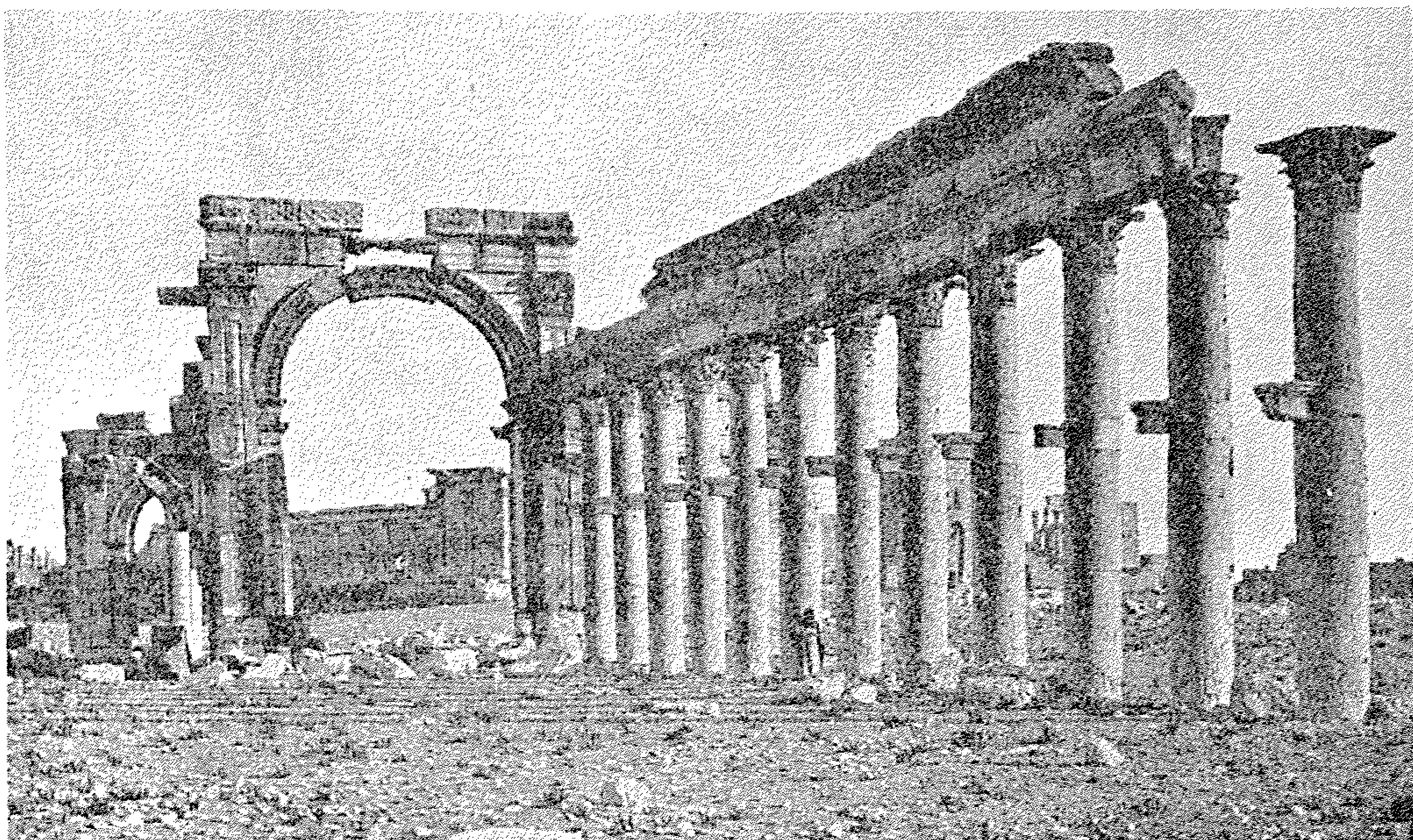


٢١ ــ ب : جرش ، طريق الاعمدة الرئيسي عن :
Pétra et la Nabatène



٢١ ــ ج : جرش المسرح عن :

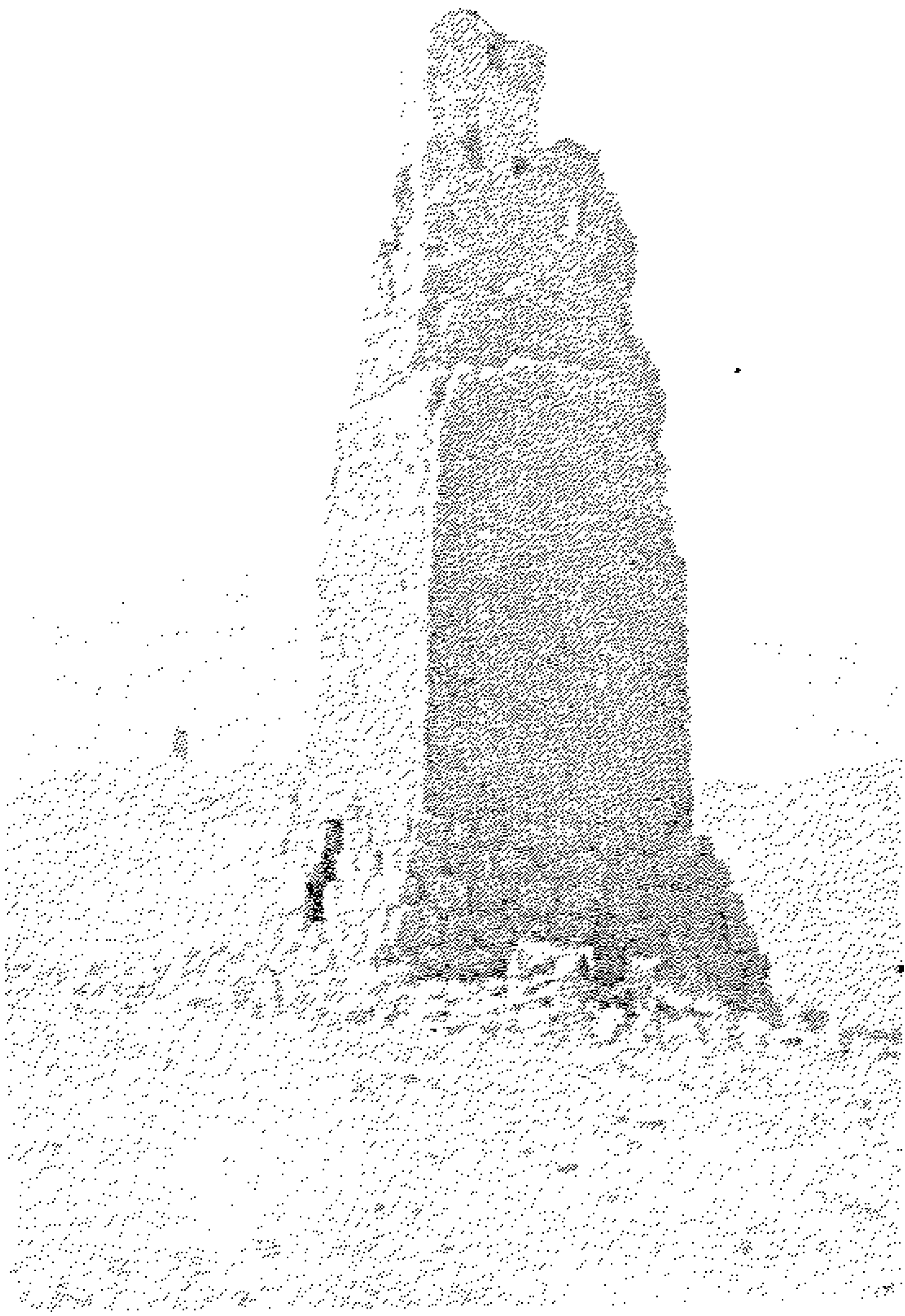
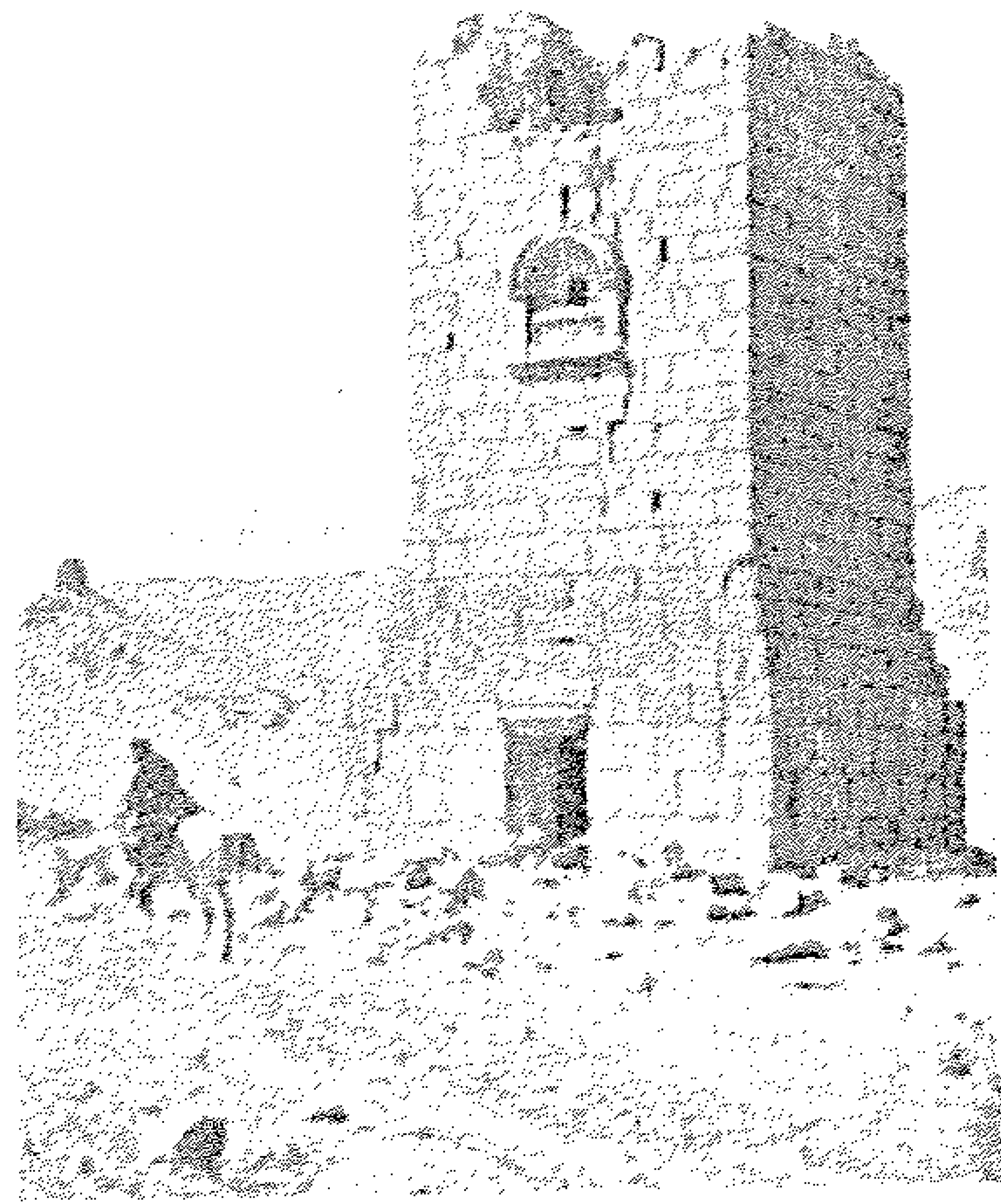
Pétra et la Nabatène



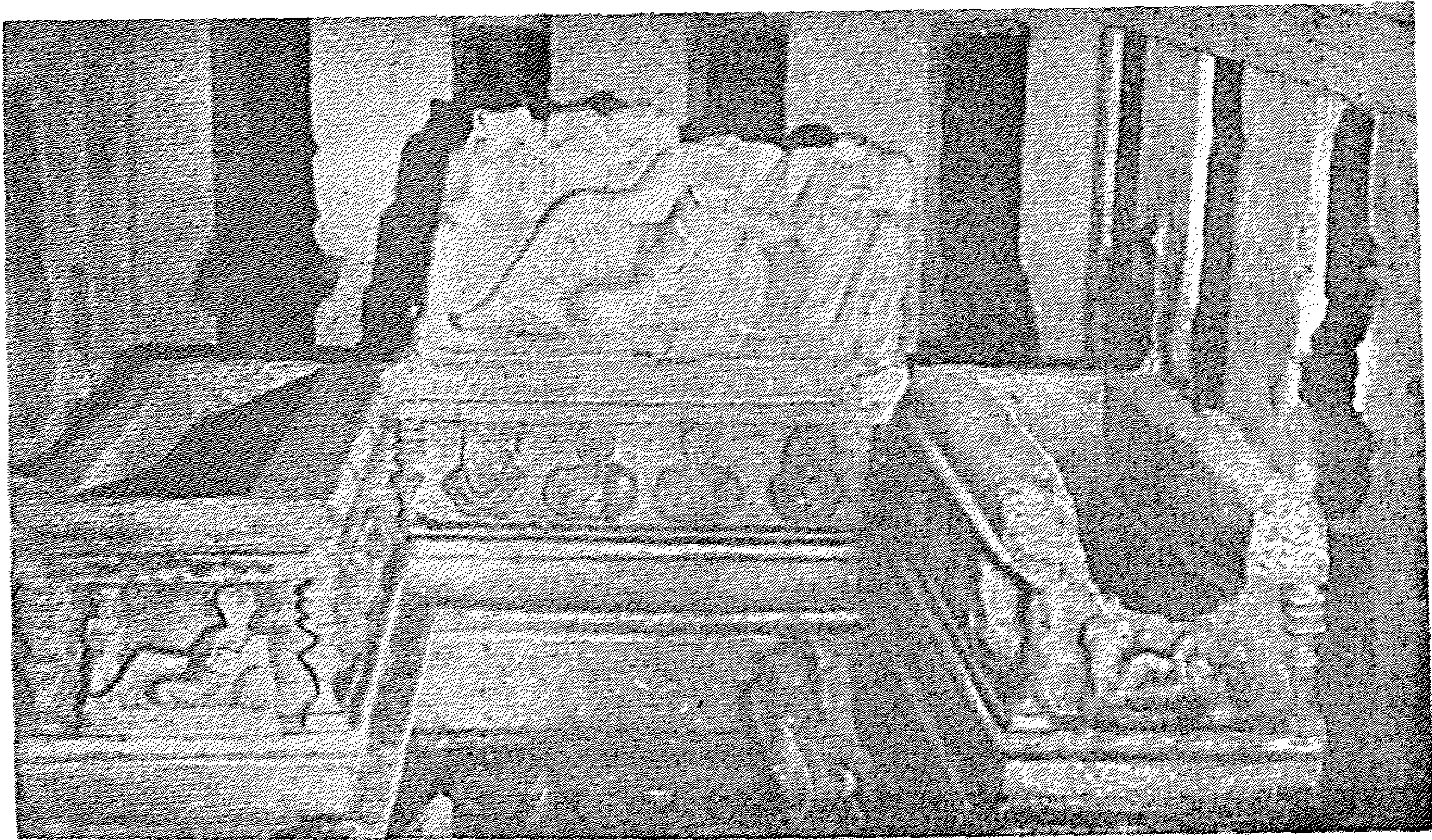
٢٢ ـ ا : تدمر ، طريق الاعمدة الرئيسي وقوس النصر عن :
History of the Arabs



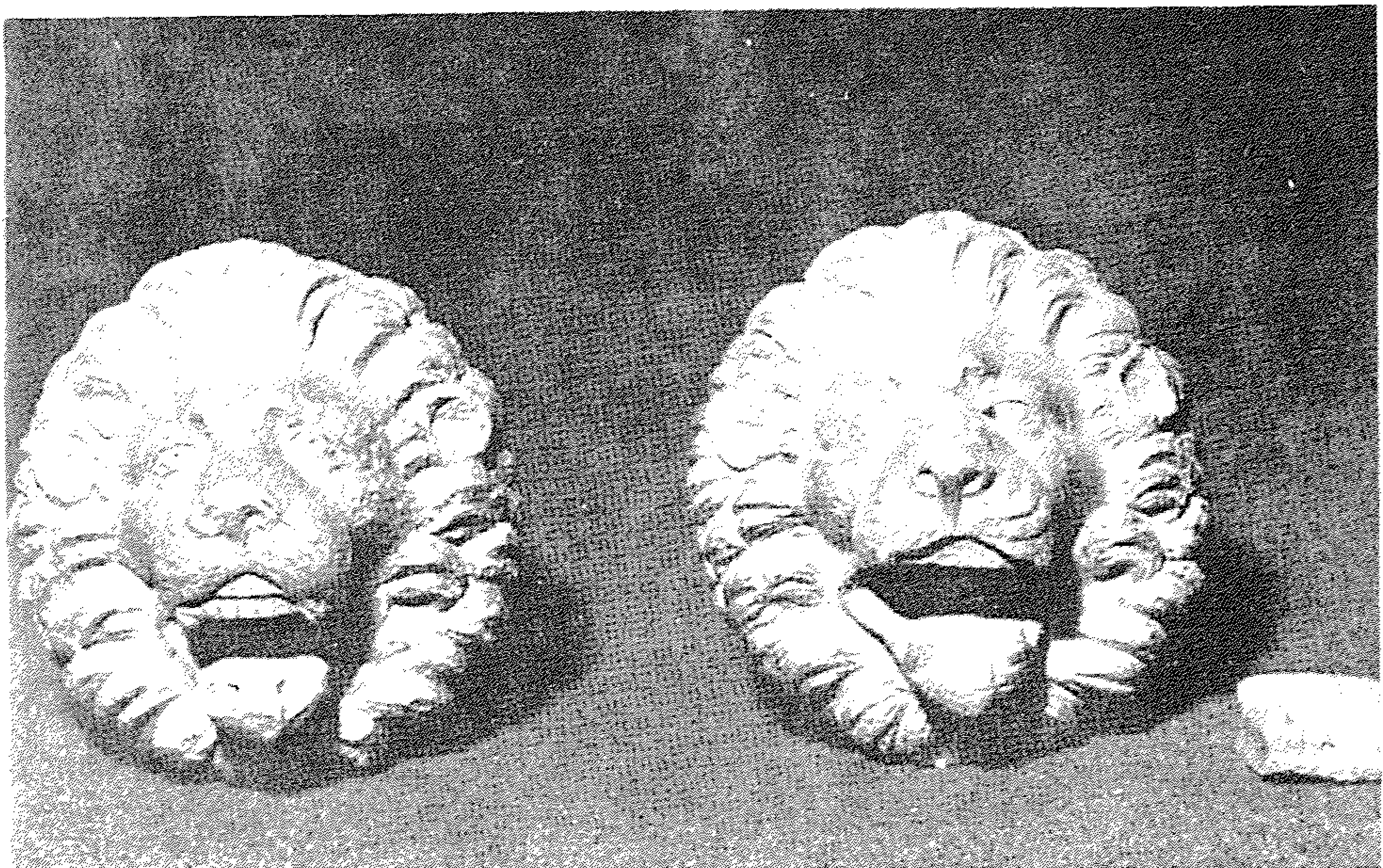
٢٢ ـ ب : تدمر ، معبد بعل شمين عن :
Pétra et la Nabatène

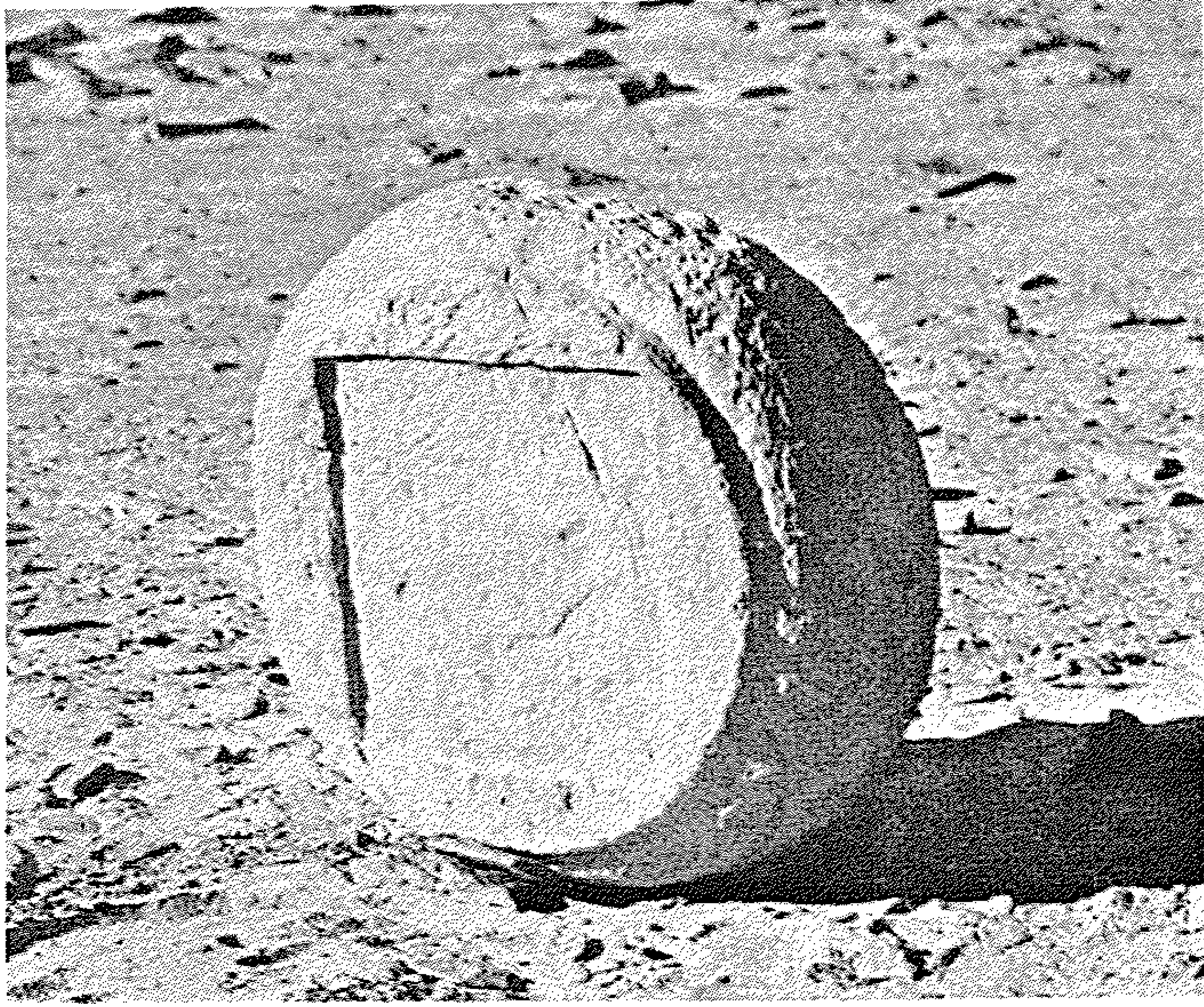
٢٢ ــ ج : تدمر ، مدافن الابراج عن :
Pétra et la Nabatène



٢٢ ــ د : تدمر ، منظر داخلي لمدفن مغارة الجديدة عن :
Pétra et la Nabatène



٢٣ ـ : مقابض برونزية من موقع الفاو (وسط شبه الجزيرة)
عن : آثار السعودية

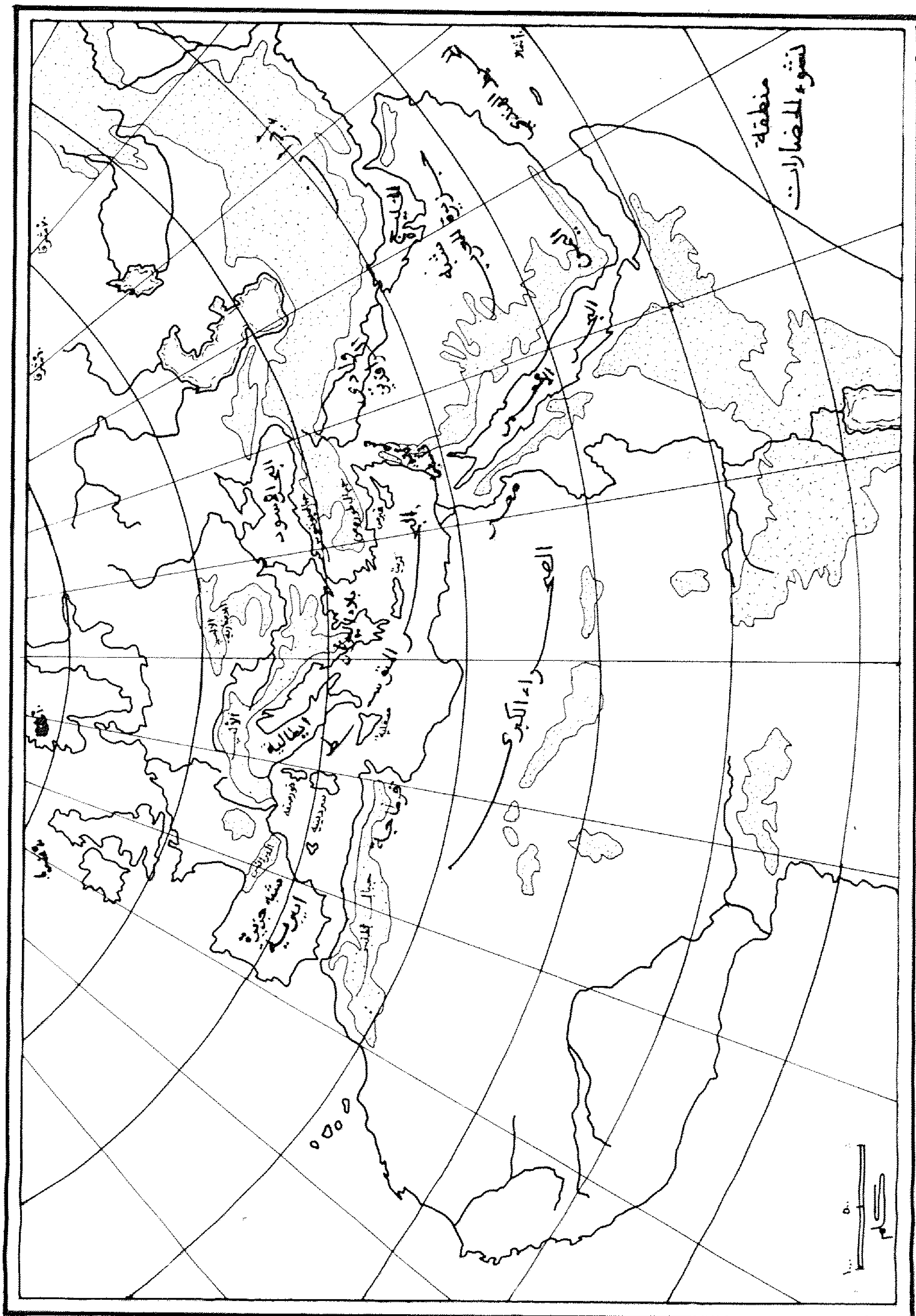


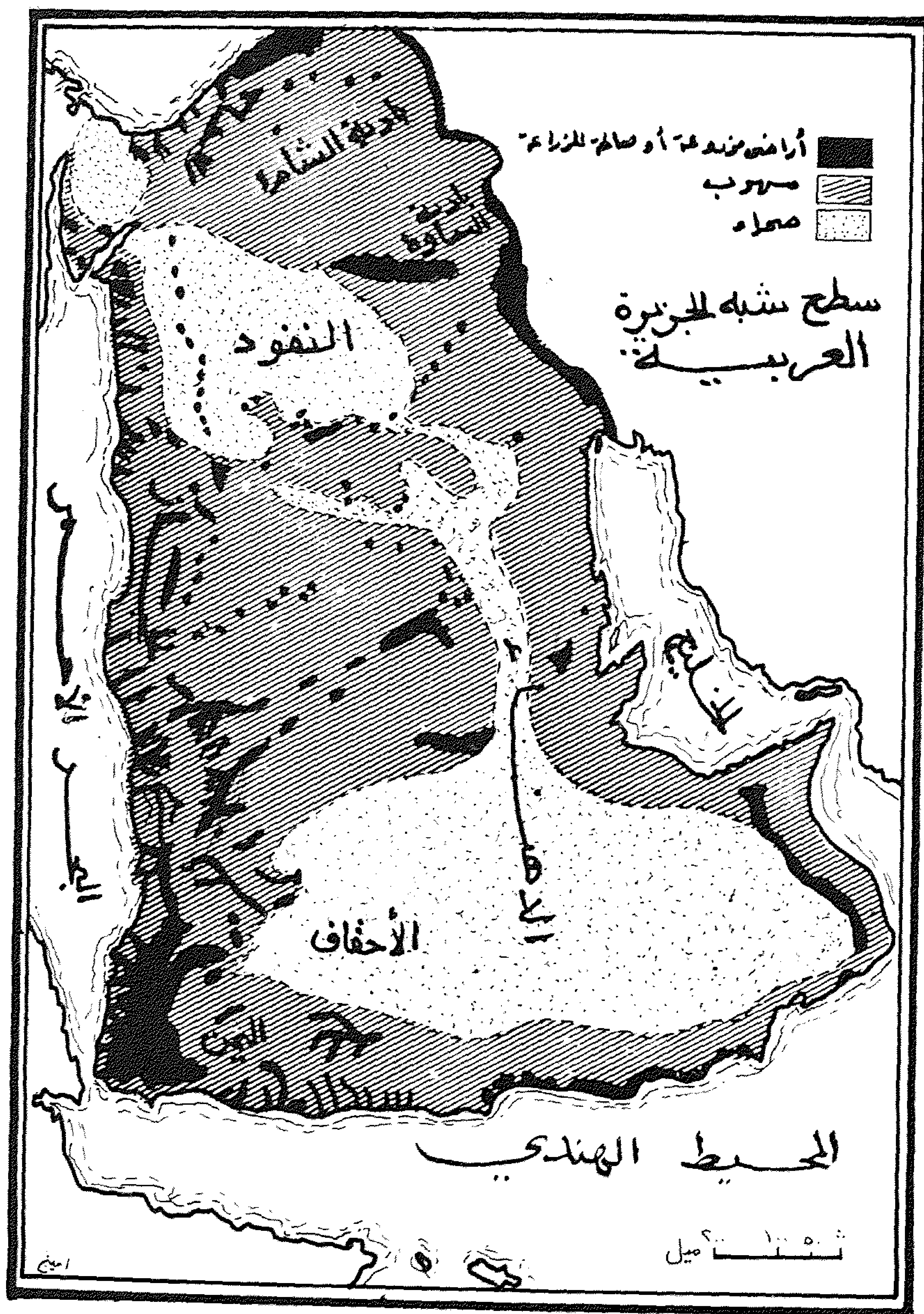
٢٤ : قاعدة احد الاعمدة من قصر الابلق (شمال غرب شبه الجزيرة)
عن : آثار السعودية

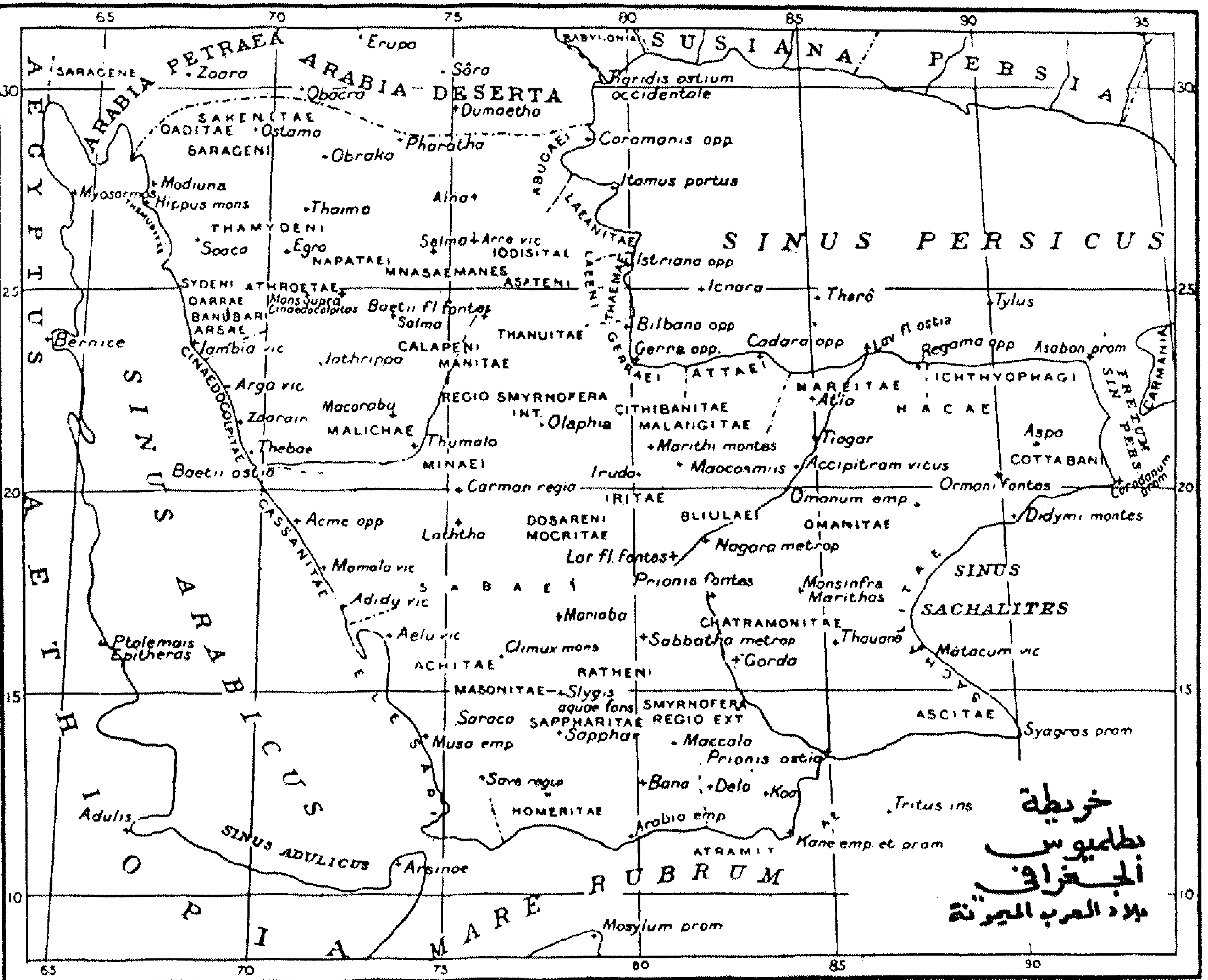


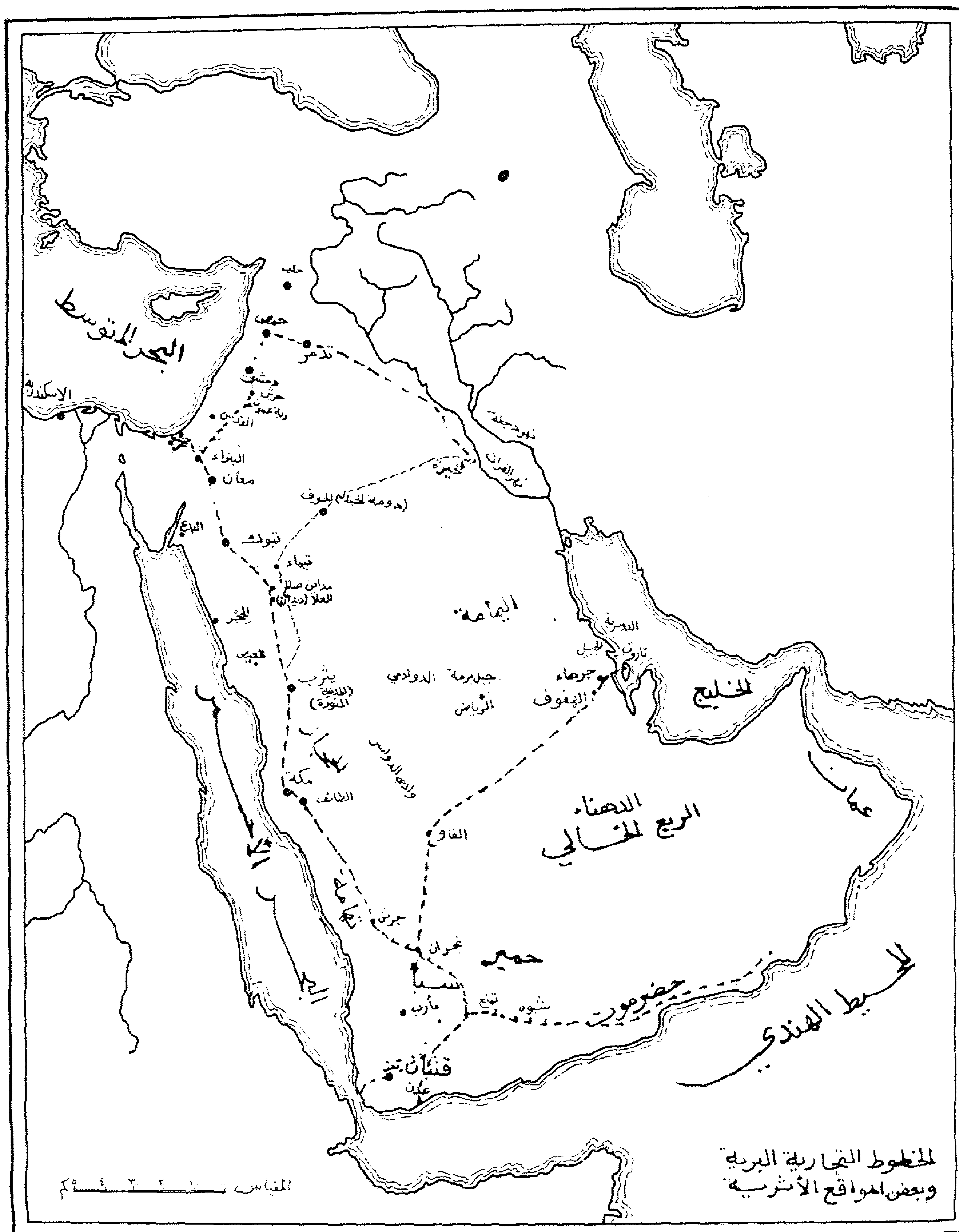
٢٥ : قصر الرضيم ـ قسم من آثار السور (شمال غرب شبه الجزيرة)
عن : آثار السعودية

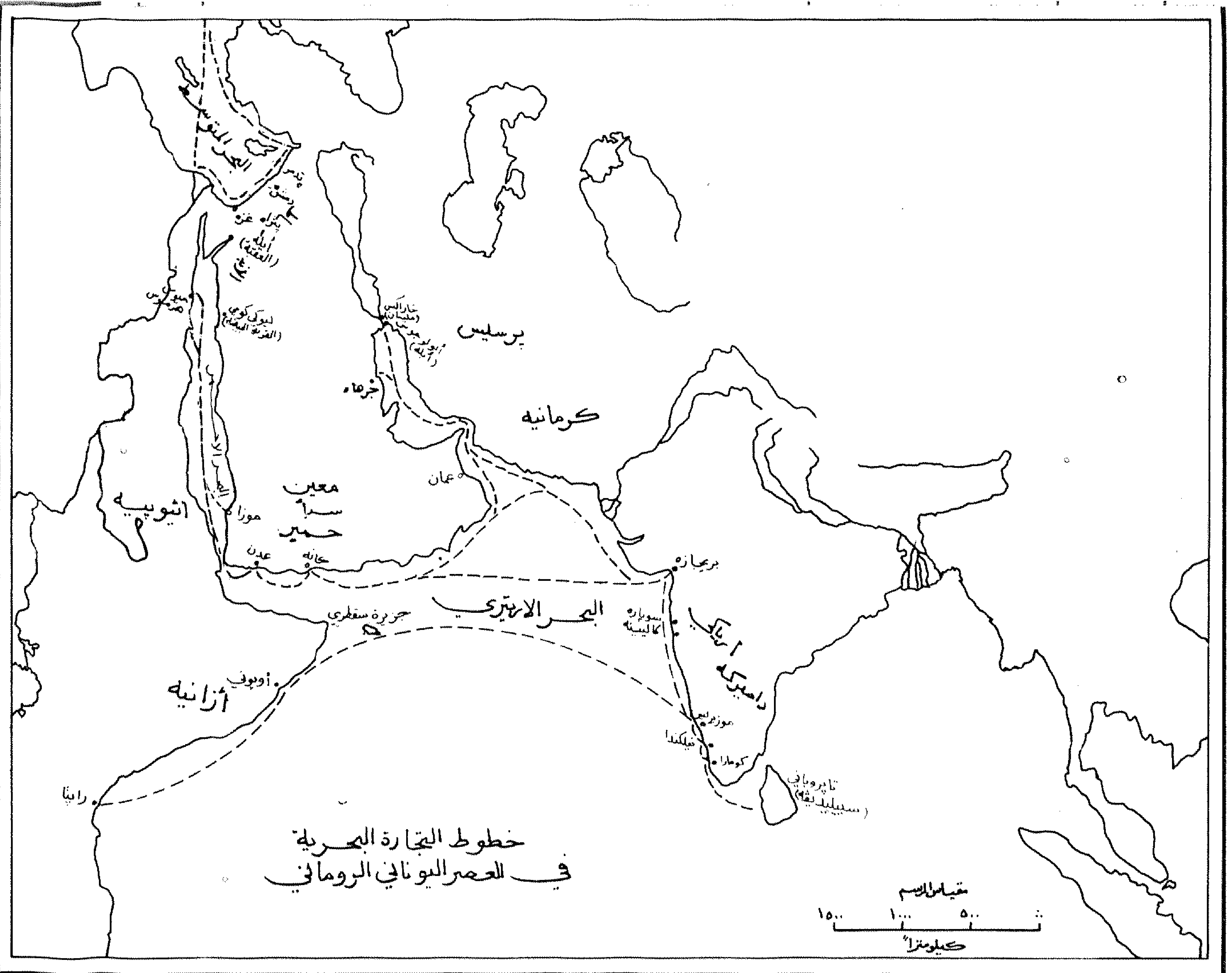
٢ — الخرائط




أراضي مزروعة أو صالحة للزراعة
سهوب
صحراء
سطح شبه الجزيرة العربية
النفود
الأحقاف
المحيط الهندي
ميل


خريطة
بطليموس
الجغرافي
بلاد العرب الميمونة
ARABIA PETRAEA
ARABIA DESERTA
SUSIANA
PERSIA
CARMANIA
BABYLONIA
SARAGENE
AEGYPTUS
AETHIOPIA
SINUS PERSICUS
SINUS ARABICUS
SINUS ADULICUS
SINUS SACHALITES
FRETUM SIN PERS
MARE RUBRUM
Zoara
Erupo
Sôra
Obocra
Dumaetha
Tigridis ostium occidentale
Coromanis opp
Itamus portus
SAKENITAE
OADITAE
Ostama
SARAGENI
Obraka
Pharatha
ABUCAEI
LAEANITAE
Modiuna
Myosarmos
Hippus mons
Thaima
Aina
THAMYDENI
Soaca
Egro
NAPATAEI
Salma
Arre vic
IODISITAE
MNASAEMANES
ASATENI
LAEENI
THAEMAE
Istriana opp
Icnara
Therô
Tylus
SYDENI
ATHROETAE
DARRAE
BANUBARI
ARSAE
Mons Supra Cinaedocolpitas
Baetii fl fontes
Salma
Bernice
Iambia vic
Iathrippa
CALAPENI
MANITAE
THANUITAE
Bilbana opp
Gerra opp.
GERRAEI
ATTAEI
Cadara opp
Lar fl ostia
Regama opp
Asabon prom
CINAEDOCOLPITAE
Arga vic
Zaarain
Thebae
Macoraba
MALICHAE
REGIO SMYRNOFERA INT.
Olaphia
Thumala
MINAEI
CITHIBANITAE
MALANGITAE
Marithi montes
Maocosmus
Iruda
NAREITAE
Atia
Tiagar
Accipitram vicus
ICHTHYOPHAGI
HACAE
Aspo
COTTABANI
Coradanum prom
Ormani fontes
Baetii ostia
Carman regio
IRITAE
Omanum emp.
OMANITAE
Didymi montes
CASSANITAE
Acme opp
Lathitha
DOSARENI
MOCRITAE
BLIULAEI
Nagara metrop
Lar fl. fontes
Mamala vic
SABAEI
Prionis fontes
Monsinfra Marithos
Adidy vic
Mariaba
CHATRAMONITAE
Sabbatha metrop
Thauane
Matacum vic
SACHALITAE
Ptolemais Epitheras
Aelu vic
Climux mons
ACHITAE
RATHENI
Gorda
MASONITAE
Slygis aquae fons
SMYRNOFERA REGIO EXT
ASCITAE
Syagros prom
Saraco
SAPPHARITAE
Sapphar
Muza emp
Maccala
Prionis ostia
ELEAZI
Sava regia
Bana
Dela
Koa
HOMERITAE
Arabia emp
Tritus ins
Adulis
Kane emp et prom
ATRAMITAE
Arsinoe
Mosylum prom
65
70
75
80
85
90
35
10
15
20
25
30


البحر المتوسط
الإسكندرية
حلب
حمص
تدمر
دمشق
جرش
ربة عمون
القدس
البتراء
معان
الحيرة
نهر الفرات
نهر دجلة
دومة الجندل (الجوف)
تبوك
البدع
تيماء
مدائن صالح
العلا (ديدان)
الحجر
العيص
اليمامة
يثرب (المدينة المنورة)
الدوادمي
جبل برمة
الرياض
الجبيل
تاروت
جرهاء
الهفوف
الخليج
عمان
وادي الدواسر
مكة
الطائف
الدهناء
الربع الخالي
الفاو
جرش
نجران
حمير
سبأ
مأرب
تمنع
شبوه
حضرموت
المحيط الهندي
قتبان
تعز
عدن
البحر الأحمر
المقياس ٠ ١ ٢ ٣ ٤ ٥ كم
الخطوط التجارية البرية
وبعض المواقع الأثرية


البحر المتوسط
برسليس
كرمانيه
جرهاء
عمان
معين
سبأ
حمير
موزا
عدن
كانه
اثيوبيه
أزانيه
أوبوف
جزيرة سقطري
البحر الاريتري
بربجازه
داميركه
اريكا
كومارا
رابتا
خطوط التجارة البحرية
في العصر اليوناني الروماني
مقياس الرسم
١٥٠٠
١٠٠٠
٥٠٠
٠
كيلومترا

٣ ـــ مختارات من المصادر والمراجع (١)

اولا : المصادر

١ ـ المصادر الدينية :

ـ القرآن الكريم .

ـ الحديث : صحيح البخاري ، القاهرة ، ١٣٤٨ هـ .

ـ التوراة : العهد العتيق ، وهو القسم الاول من « الكتاب المقدس » ، الترجمة العربية ، طبعة جمعيات الكتاب المقدس المتحدة ، بيروت ، ١٩٥١ .

ـ التلمود : الترجمة الانجليزية (بلا تاريخ)

The Talmud : (Tr.) H. Polono, London, Frederick Warne & Co.

٢ ـ مجموعات الآثار :

ـ مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ادارة الآثار والمتاحف ، وزارة المعارف ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٧٥ .

— Fakhry, : An Archaeological Joureny to Yemen (3 Vols.), Cairo, 1952

— Kammerer, A. : Pérta et la Nabatène, L'Arabie Petrée et les Arabes du Nord Jusqu'à l'Islam (Atlas), Paris, 1930 .

---

(١) المصادر والمراجع المذكورة هنا هي التي تمس تاريخ شبه الجزيرة العربية وحضارتها بشكل مباشر ، ضمن ما جاء ذكره في حواشي هذه الدراسة . وقد اغفلت من هذا الثبت المصادر والمراجع التي تمس الموضوع بشكل غير مباشر مثل تلك التي جاءت في معرض المقارنة او التفصيل اللازم لايضاح بعض النقاط واكتفيت بذكرها في مكانها بالحواشي .

٣ ـ مجموعات النقوش (٢) :

— ANET : J.B. Pritchard : (ed.) Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament (2nd ed.), Princeton, 1966.

— ARAB : D.D. Luckenbill : Ancient Records of Assyria and Baby lonia (2Vols.) New York, 1968.

— CIH : Corpus Inscriptionum Semiticarum, Pars Quarta, Inscriptione Ḥimyariticàl et Ṣaaeas continens (I-III) ; Parsi, 1889-1929.

— RES : Répertoire d'Epigraphie Sémitique (V-VII), Paris, 1928-50.

— WR : F.V. Winnet and W. L. Reed : Ancient Records from North Arabia, Toronto, 1970.

ـ مجموعات معروفة باسم ناشريها ومترجميها ومحققيها هي مجموعات : Glaser, Halévy, Jamme.

٤ ـ المصادر الكلاسيكية

— Agatharchides : Peri tes Erythras Thalasses (GGM (٣) موجود ضمن)

— Arrianos : Anabasis

— Artemidoros : (منقول في Strabo ادناه) :

— Eratosthenes (منقول في Strabo ادناه) :

— Herodotos : Historiae

— Marcellinus, Ammianus : Historiae

— Plinius : Historia Naturalis

— Prokopios : Ktismata

— Ptolemaios Klaudios : Geographike Hyphegesis

— —— : Periplus peri Maris Erythraei

٥ ـ الشعر الجاهلي :

ـ ديوان الاعشى الكبير ، شرح وتحقيق محمد محمد حسين ، بيروت ، ١٩٦٨ .

---

(٢) تشير الى اختصار اسمها . الحروف التي تسبق المجموعة .

(٣) اختصار : C. Mueller : Geographici Graeci Minores (1855 - 61)

- شرح المعلقات السبع ، ابو عبد الله الحسين بن احمد الزوزني ، دار القاموس الحديث ، بيروت (بدون تاريخ) .

- المجاني الحديثة ، مختارات من « مجاني الادب في حدائق العرب » للاب لويس شيخو اليسوعي - الجزء الاول : العصر الجاهلي : تبويب وشرح وتحقيق فؤاد افرام البستاني ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٦ - كتابات لاحقة زمنيا في حكم المصادر :

- الفيروزابادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب : مصر ١٣٣٢ هـ-١٩١٣م.

- ابن الكلبي ، ابو المنذر هشام بن محمد : كتاب الاصنام ، نشر احمد زكي باشا ، بولاق ١٣٣٢ هـ ، تصوير الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٥ .

- الهمداني ، ابو محمد الحسن بن احمد : صفة جزيرة العرب ، نشر محمد بن عبدالله بن بليهيد النجدي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

- ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابو عبدالله : معجم البلدان (٥ مجلدات) بيروت ، ١٩٥٥ .

ثانيا : المراجع

١ ـ المراجع العربية :

ـ الاسد ، ناصر الدين : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

ـ الانصاري ، عبد الرحمن الطيب : اضواء جديدة على دولة كنده من خلال آثار ونقوش قرية الفاو (ابحاث الندوة العالمية الاولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ، ١٩٧٧) .

ـ ابراهيم ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ، ج ٣ (سورية)، ط ١ ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ .

ـ باقر ، طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج ٢ ، بغداد ،١٩٥٦ .

ـ حسين ، طه : في الادب الجاهلي ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة .

ـ حسين ، محمد الخضر : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ، القاهرة (بدون تاريخ) .

ـ ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدا والخبر ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٦٥ .

ـ زيدان ، جورجي : العرب قبل الاسلام ، مراجعة وتعليق حسين مؤنس ، دار الهلال ، القاهرة (بدون تاريخ) .

ـ سالم ، السيد عبد العزيز : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ، ١٩٧١ .

ـ السيد ، عبد المنعم عبد الحليم : الجزيرة العربية ومناطقها وسكانها في النقوش القديمة في مصر (ابحاث الندوة العالمية الاولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الرياض ، ١٩٧٧) .

ـ ابن شريه ، عبيد : اخبار اليمن واشعارها وانسابها او كتاب الملوك واخبار الماضين (ملحق بكتاب التيجان لوهب بن منبه ـ انظر ادناه) .

ـ عبد الحميد ، سعد زغلول : في تاريخ العـرب قبـل الاسلام ، بيروت ، ١٩٧٥ .

ـ علي ، جواد : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (٩ اجزاء) ط ٢ ، بيروت ـ بغداد ، ١٩٧٦ .

ـ علي ، فاضل عبد الواحد : الطوفان في المراجـع المسمارية ، بغـداد ، ١٩٧٥ .

ـ فروخ ، عمر : تاريخ الجاهلية ، بيروت ، ١٩٦٤ .

ـ المسعودي ، ابو الحسـين علي بن الحسين : مروج الذهب ومعادن الجوهر (٤ اجزاء) ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

ـ ابن منبه ، وهب : التيجان في ملوك حمير ، حيدر اباد الدكن ، ١٣٤٧ هـ.

ـ الهاشمي ، رضا جواد : العرب في ضوء المصادر المسمارية ، مجلة كليـة الآداب ، جامعة بغداد ، عدد ٢٢ ، شباط ١٩٧٨ .

ـ يحيى ، لطفي عبد الوهاب : الجزيـرة العربيـة في المصادر الكلاسيكية (ابحاث الندوة العالميـة الاولى لدراسات تاريـخ الجزيرة العربيـة ، الرياض ، ١٩٧٧) .

٢ ـ مراجع في لغة اجنبية :

أ ـ اختصارات اسماء الدوريات العلمية والمعاجم والمجموعات

— AJSL : American Journal of Semitic Languages and Literatures (Chicago)

— BIFAO : Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale (Le Caire)

— CAH : Cambridge Ancient History (Cambridge)

— JA : Journal Asiatique (Paris)

— JEA : Journal of Egyptian Archaeology (London)

—JRAS : Journal of the Royal Asiatic Society (London)

— OCD : The Oxford Classical Dictionary

ب ـ الابحاث والدراسات

— Barton, G.A. : Semitic and Hamitic Origins, London, 1934

— Breasted, J.H. : Ancient Times, A History of the Early World, Boston, 1944

— : A History of Egypt, Bantam Books, New York 1964

— Burckhardt : Travels in Arabia (Reprint), London, 1968

— Bury, J.B. : A History of Greece, 2 nd ed., London , 1945

— » : A History of the Later Roman Empire, London, 1923

— Caetani, L. : Studi di Storia Orientale, Milano, 1911

— Cary, M, : A History of Rome, 2 nd. ed., London, 1960

— Dussaud, R. : La Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris, 1950

— Gadd, C.G. : The Harran Inscription of Nabonidus (Anatolian Studies, VIII), 1958.

— Grohmann, A. : Kulturgeschichte des Alten Orients (III, 4) Arabien, Muenchen, 1963

— Guidi, Ign. : L'Arabie Anteislamique, Paris, 1921

— Hitti, Ph. K. : History of the Arabs, 7 th ed, London, 1961

— Hommel : Ethnologie and Geographie des Alten Orients, I, Muenchen, 1969

— Hourani, G. F. : Arab Seafaring in the Indian Ocean in Ancient and Early Medieval Times, Beirut, 1963

— Huzayyin, S. : Changement Historique du Climat et du Paysage de l'Arabie du Sud (Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt, III, Part I), 1935.

— Kammerer, A : Pétra et la Nabatène, L'Arabie Pétrée et les Arabes du Nord Jusqu'à l'Islam (Texte) Paris, 1929

— Lammens, H. : L'Arabie Occidentale avant l'Hegire, Beyrouth, 1928

— » : Le Berceau de l'Islam, I, Romae, 1914

— Margoliouth, D.S. : The Origins of Arabic Poetry (JRAS), July, 1925

— Montgomery : Arabia and the Bible, Philadelphia, 1943

— Moscati, S. : The Semites in Ancient History, Cardiff, 1959

— Moritz : Arabien, Studien zur Physikalischen und Historischen Geographie des Landes, Hanover, 1923

— Musil, A. : Arabia Deserta, New York, 1927

— » : Northern Negd, New York, 1928

— Niebuhr : Travels Through Arabia (Eng. tr.) Edinburgh, 1792

— Otto, W. & Bengtson, H. : Zur Geschichte des Niederganges der Ptolemaierreiches, Muenchen, 1938.

— Philby, H. : The Background of Islam, Alexandria, 1947

— Phillips, W. : Qatraban and Sheba, London, 1955

— Pirènne, J. : La Date de Periplée de la Mer Erythrée (JA), 1916

— Rhodokanakis : Die Sarkophaginschrift von Gizen (Zeitschrift für Semitik und Verwandte Gebiete), II, 1924

— Rodinson, M. : Mohamm ed. (Eng. Tr.), London, 1971

— Rostovtzeff, M. : Social and Economic History of the Hellenistic World, Oxford, 1941

— Roux, G : Ancient Iraq (Pelican ed.), 1966

— Saleh, A.A. : The GNBTYW of Thutmosis III's Annals and the South Arabian GEB (B) ANITAE of the Classical Writers (B.I.F.A.O), LXXII, 1972

— Tarn, W.W. : Arabia (OCD), 1964

— Thomas, B. : Arabia Felix, Across the Empty Quarter of Arabia, London, 1932

١٩٧٨